طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الفقيه أبو علي اليوسي

نموذج من الفكر المغربي في فجر الدولة العلوية

تأليف
الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري

1409هـ - 1989م

طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الفقيه أبو علي اليوسي

نموذج من الفكر المغربي في فجر الدولة العلوية

تأليف
الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري

1409هـ - 1989م

الإهداء

إلى جلالة الملك الحسن الثاني

اعترافاً بالجميل

المؤلف

تقديم

الحمد لله المبدئ المعيد، الفعال لما يريد، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله الأطهار، وصحابته الأخيار، وسلم تسليماً كثيرا.

وبعد، فإني رأيت أن أقدم لهذا الكتاب بما يساعد إن شاء الله على فهم مقاصده وإظهار فوائده، وبيان الطريقة التي سرت عليها في تأليفه، والخطة التي سلكتها في ترتيب أبوابه ومباحثه وفصوله.

وقد بدأ ارتباطي بموضوع هذا الكتاب منذ نحو عشرين سنة حين سجلت رسالة لنيل دكتوراه السلك الثالث في موضوع (الحياة العلمية بالمغرب الأقصى في عصر السلطان المولى اسماعيل ابن الشريف)،ودارت مكاتبات بيني وبين الأستاذ المشرف الدكتور الطاهر أحمد مكي، فكنت أعرض عليه المراحل التي قطعتها وأتلقى تعقيبه في رسائل مازلت أحفظها.

وفي تلك الفترة لفتتني شخصية الفقيه اليوسي، وأطلت صحبته فيما وصل إليّ من تراثه.

ثم شاء الله أن يتحول طريقي إلى دار الحديث الحسنية وهي الامتداد الطبيعي لتكويني الإسلامي، فعقدت العزم على التفرغ لدراسة اليوسي، وعرضت الموضوع على الأساتذة، فلقيت إجماعا على أهمية الموضوع، وتشجيعا على الاستغال به، وسجلته

موضوع رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا بدار الحديث الحسنية بإشراف أُستاذي الدكتورة عائشة عبد الرحمٰن بنت الشاطئ.

وبما كتب إلي به الأُستاذ العلامة سيدي عبد الله كَنون الحسني قوله : «وبعد، فإن اليوسي في الواقع شخصية علمية كبيرة ومن نوادر عصره، بل من مفاخر المغرب، واختياركم إياه لموضوع رسالتكم واقع في محله، مثل اقتصاركم على الناحية العلمية من حياته الثقافية والفكرية المحيطة، ولا يعارض ذلك بحال كون - بيرك - أو غيره كتب عنه - فلكل وجهة هو موليها - .

وعلى كل حال فمجال البحث عن اليوسي واسع، وكل دراسة تصدر عنه تكون لها قيمتها في المغرب والعالم العربي والإسلامي على العموم».

وقد قسمت الكتاب إلى ثلاثة أبواب وخاتمة.

الباب الأول : في دراسة العصر والمجتمع وفيه ثلاثة مباحث.

المبحث الأَول : في الحياة السياسية.

المبحث الثاني : في الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

المبحث الثالث : في الحياة الفكرية.

وهذا الباب تمهيد لابد منه، ثم إنني عالجته بطريقة تقوم لي مقام العذر عند من قد يعيبه بالطول . ذلك أني نظمت عقده في خيط دقيق من سيرة اليوسي وأخباره وأحواله. فلم يكن حديثي عن العصر والمجتمع بمعزل عن حياة اليوسي وشخصيته. بل إنني لم أكن أنظر إلى العصر إلا من خلال شخصية اليوسي. فما كان يصح في الأذهان مثلا فهم رسالة اليوسي إلى المولى إسماعيل، حول حقوق الرعية على السلطان، دون فهم الحياة السياسية

والاجتماعية والاقتصادية، ثم إن اليوسي قضى في الزاوية الدلائية زهاء عشرين سنة، وكانت تلك الزاوية مشهورة بنشاطها السياسي والحربي في تلك الفترة، فلم يكن من اليسير فهم تلك الحقبة من حياته دون فهم للأوضاع السياسية في عصره. كما أنه لايتيسر فهم شخصيته الصوفية دون فهم مجتمعه. ثم إن ثقافة اليوسي كانت خلاصة لثقافة العصر. وكان تكوينه زبدة لما تمخضت عنه العوامل الفكرية في زمانه. وكانت شخصيته عبارة عن الثمرة الطيبة التي أثمرها غرس السلف الصالح من العلماء وكل من له يد في إحياء العلوم في ذلك العهد.

فكان لابد من بيان هذا كله، ودراسة الحياة الفكرية في عصره من حيث تفاعلها مع شخصيته تأثراً وتأثيراً.

وقد كنت أدرس العصر بجوانبه السياسية والاجتماعية والفكرية في مرحلتين : مرحلة الاضطراب التي دامت من موت المنصور السعدي سنه 1012 إلى سنة 1079 وهي السنة التي تم فيها توحيد المغرب على يد مولاي رشيد.

ومرحلة الاستقرار وتبدأ من عهد مولاي رشيد وتمتد إلى أواخر عهد مولاي إسماعيل.

وهكذا ففي المبحث الخاص بالحياة السياسية تحدثت عن الصراع الذي كان بين أبناء المنصور السعدي، وآثاره على المجتمع، وانقسام المغرب بين الزعماء الخارجين على الدولة السعدية.

ثم تحدثت عن قيام مولاي رشيد بن الشريف، والقضاء على الصراع والانقسام، ومظاهر التحول الكبير الذي عرفه المغربي على عهده.

ثم انتقلت إلى عصر مولاي إسماعيل، ورسمت الخطوط العريضة لسياسته.

وأحب أن أسجل هنا حقيقة تاريخية : وهي أن اليوسي رغم المدة الطويلة التي قضاها في الزاوية الدلائية، ورغم الأسباب الكثيرة التي كان من شأنها أن تدفعه إلى الخوض في غمار السياسة، بقي محجما عن الخوض في الصراع الدائر حوله، محافظا على مرونة كبيرة، مسالماً للحاكم، مؤيدا للسلطان، لاينازعه، ولا يخالفه، إلا أنه في نفس الوقت لم يكن غافلا عن الواجب الذي فرضه الله على كل عالم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصح لولي الأمر. ونذكر هنا بما نقل عن المولى إسماعيل من أنه قال : علماء الوقت على أربعة أقسام : قسم لا يخاف إلا من الله ولا يخاف منا، وقسم يخاف من الله ومنا، وقسم يخاف منا ولا يخاف من الله، وقسم لا يخاف منا ولا من الله. ومثل للقسم الأول باليوسي.

ومن علم هيبة المولى إسماعيل وشدة بأسه قدر شجاعة اليوسي وصدقه وحرصه على أداء رسالته، وقدر معها ما كان للمولى إسماعيل من سماحة وسعة صدر. وما نعلم أن المغرب عرف ملكا كالمولى إسماعيل في شدة البأس وفداحة الفتك، كما لا نعرف عالما تجرأ على المولى إسماعيل كما تجرأ عليه اليوسي. وهكذا تظهر مكرمتان عظيمتان لرجلين في آن واحد : اليوسي العالم الذي لا تأخذه في الحق لومة لائم. والمولى إسماعيل الذي يصدع بالحق ويخضع لأوامر الشرع ويخفض الجناح للعلماء تكريما وتقديرا.

وفي المبحث الخاص بالحياة الاجتماعية تحدثت عن فساد الأوضاع نتيجة للفتن التي شهدها المغرب ما بين سقوط الدولة السعدية وقيام الدولة العلوية.

ثم تحدثت عن جهود مولاي رشيد ومولاي إسماعيل في طريق الإصلاح. وتناولت بعض القضايا الاجتماعية الهامة في هذا العصر كازدهار الطرقية وخطر بعض المعتقدات والعادات الفاسدة، وقضية تمليك الحراطين وقضية امتحان القضاة.

ولقد كان اليوسي من أعلام الصوفية في عصره، وكان أتباعه من الكثرة بمكان، الشيء الذي فرض على السلطان ترحيله. وكان انتقاد المبتدعة من بعض المنتمين إلى التصوف من أصعب وأخطر ما يمكن لعالم مثل اليوسي أن يتعرض له ويجهر به. ومع ذلك وجدناه يرفع عقيرته بالاستنكار والانتقاد. ويوجه لأرباب الطرق المنحرفة طعنات قاضية. تارة بالتحذير منهم، وفضح أكاذيبهم، وتارة ببيان المعنى الحقيقي للطريقة والشيخ والمريد والسالك وغير ذلك.

ومن هنا يتضح الدور الكبير الذي قام به اليوسي في إصلاح المجتمع، وفي المبحث الخاص بالحياة الفكرية حاولت أن أقارن بين الحياة الفكرية في كل من المغرب والمشرق. ولاحظت أن فترة الانقسام والفوضى التي مر بها المغرب ما بين سقوط الدولة السعدية وقيام الدولة العلوية لم يمتد مفعولها إلى توقيف الحركة العلمية بالبلاد، وسجلت أن الحياة العلمية استمرت في نشاطها الدائب رغم الأحداث الخطيرة التي شهدها المغرب. وعللت ذلك بوجود عدد من كُبْرَيات الزوايا التي أخذت على عاتقها إيواء العلم وطلبته. وتعرضت لبيان الدور الذي قامت به الزوايا في هذا الميدان، فقدمت دراسة موجزة عن الزاوية الدلائية والحمزوية والناصرية والفاسية، ثم بحثت في جهود ملوك الدولة العلوية : مولاي محمد بن الشريف ومولاي رشيد ومولاي إسماعيل

في سبيل إحياء العلوم فوجدتها جهودا عظيمة، وجمعت من الشواهد والأخبار والوثائق ما يقوم حجة لهم على من ينكر فضلهم ويجحد صنيعهم.

ثم كان الباب الثاني لدراسة اليوسي في بيئته وعصره وجعلته في ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : في حياة اليوسي.

المبحث الثاني : في شخصيته عالما ومؤلفا.

المبحث الثالث : في آثاره.

وكانت الأخبار عن حياته مبعثرة، نظرا لكثرة تنقلاته، فجمعتها، واجتهدت في تنسيقها، وحاولت وصل حلقاتها من المولد إلى الوفاة، واجتهدت في التفسير والتعليل كلما ذكرت من أَحداث تلك الحياة ما يحتاج إلى ذلك.

ورغم خُلُو اليد من المصادر التي تتحدث عن قبيلته وأسرته، فقد دأبت على التنقيب والتنقير حتى جمعت من المعلومات ما يلقي ضوءا على هذا الجانب.

وأوضحت في المبحث الخاص بحياته جملة من الخصائص الذاتية التي يرجع إليها الفضل فيما أُتيح لليوسي من طول الباع في العلوم والاتساع في المعارف والفهوم، ومنها الذكاء المرهف، والحافظة القوية، والزهد في الدنيا، وإخلاص النية، وقوة الشباب، وصلابة البادية. وجمعت من الشواهد الدالة على ذلك ما قدرت على جمعه بعد طول العكوف على آثاره وغيرها من المخطوطات والوثائق.

والمبحث الثاني من هذا الباب عقدته لدراسة شخصيته عالماً ومؤلفا، فقدمت شخصيته كما تدل عليها شهادة شيوخه وتلاميذه، وكما تلخصها كتب التراجم والتاريخ.

ثم انتقلت إلى دراسة شخصيته من خلال آثاره، وظهر لي أنها شخصية متعددة الجوانب، كثيرة الوجوه، على غرار الشخصيات التي اتسعت آفاق ثقافتها فاستوعبت علوم عصرها وثقافته. وأوضحت أنه يبرز مع ذلك جانبان من شخصيته يمكن أن تندرج فيهما سائر جوانبها الأُخرى.

أولهما اليوسي الأَديب، وهذا الجانب لايدخل في مجال بحثنا بصفة مباشرة ولكنه يجدي على فهمنا لشخصيته بوجه عام. ومن ثم لم أستغن عن قراءة شعره والاطلاع على تآليفه الأَدبية مثل الديوان، والمحاضرات، وزهر الأَكَم في الأَمثال والحِكَم... وغير ذلك، استكمالا للنظرة واستيعابا لجميع جوانب شخصيته، واستئناسا به في فهم بعض الوقائع من حياته وفهم نفسيته وأخلاقه.

والجانب الثاني : اليوسي العالم أو اليوسي الفقيه، وهو موضوع هذا الكتاب الذي قصدت به إلى بيان مشاركته في العلوم الإسلامية تلقيا وعطاءً، وتأليفا وتدريسا، وتأثرا وتأثيرا، كنموذج من أحسن وأكمل نماذج الفكر المغربي في عصره.

وهكذا قدمت اليوسي فقيها ومحدثا ومفسرا وأصوليا وصوفياً، وبين يدي ذلك تحدثت عن اليوسي العالم المجدد : والشخصية الجامعة بين الأَصالة والتجديد نادرة الوجود، ولا تكون إلا زبدة جيل أو مخاض عصر بأكمله. ولعل هذا من أسرار الحديث الشريف «يبعث الله لهذه الأُمة على رأس كل مائة سنة

من يجدد لها أمر دينها»، فالمجدد لايظهر في الأمة إلا نتيجة لتفاعل قوي ومخاض طويل قد يمتد قرنا أو نحوه.

وكما تحدثت عن اليوسي العالم المجدد حاولت أن أستخرج قواعد منهجه في البحث والتأليف والتفكير.

وفي حديثي عن اليوسي الفقيه، اعتمدت على فتاويه، وكنت من قبل أحاول جمع ما تفرق منها في بطون الكتب، ثم عثرت على مخطوط عنوانه (نوازل سيدي الحسن اليوسي) فضممت إليه ما عندي مما ليس فيه، وجعلته عمدتي في فهم مشاركته في الفقه، واستفدت كذلك من كتابه «البدور اللوامع في شرح جمع الجوامع» وهو مخطوط نادر، وعلى منظومته الفقهية، بعد أن حاولت إكمال بعض نسخها ببعض، واعتمدت كذلك على ما وجدته من فقهه فصولا مبثوثة ضمن مختلف كتابه.

وسرت على هذا النهج في دراستي لبقية الجوانب، لم آل جهدا في الجمع والاستقراء والتنظيم والدراسة والتحليل والمقارنة.

أما آثار اليوسي فقد أفردتها ببحث مستقل، مهدت له ببيان الأَسباب الكامنة وراء نضوب مَعِين علماء الأَزمنة المتأخرة في ميدان التأليف، وآراء اليوسي في ذلك. ثم أوردت ثَبْتا بآثار اليوسي وصلت بها إلى أربعين آثرا. ومع أن الأُستاذ جاك بيرك في رسالته عن مشاكل الثقافة المغربية في القرن السابع عشر الميلادي، والأُستاذ محمد حجي في رسالته عن الزاوية الدلائية، سبقاني إلى وضع مثل هذا الثبت. إلا أنني زدت عليهما في عدد الآثار التي ذكرت وفي المعلومات المتعلقة ببعض الآثار التي كانا يعتبرانها مفقودة.

وقمت بتحليل أهم آثار اليوسي والتعريف بها، وعرْضِ نماذج منها. وهكذا قدمت دراسة عن كتابه المحاضرات، والفهرسة، والقانون، ومشرب العام والخاص من كلمة الإخلاص، والبدور اللوامع في شرح جمع الجوامع، والقول الفصل في تمييز الخاصة عن الفصل، ونفائس الدرر في حواشي المختصر، وحاشية اليوسي على كبرى الإمام السنوسي، والرسالة المسماة، ندب الملوك إلى العدل والوقوف مع السنة والشرع، ومنظومته الفقهية.

وما لم أقدم دراسة عنه استفدت منه في دراستي لشخصية اليوسي وحياته. وأستطيع القول بأنني استوعبت ما وصل إلينا من آثار اليوسي وتدبرت خصائصها من حيث النظام والأُسلوب. وقد أجملت هذه الخصائص في آخر هذا المبحث كخاتمة له.

أما الباب الثالث : فقد خصصته لمدرسة اليوسي وجعلته في مبحثين وخاتمة.

المبحث الأَول : في شيوخ اليوسي وتلاميذه.

المبحث الثاني : في عطاء المدرسة اليوسية.

وفي مقدمة المبحث الأَول تحدثت عن المشيخة والرحلة في طلب العلم والإجازة، فيه ثم تطرقت إلى ذكر شيوخ اليوسي جملة فجمعتهم في صعيد واحد لأُعطي عنهم نظرة عامة.

ولا أزعم أَني بلغت الغاية في ذلك أو أنني استقصيت كل ما هنالك. ذلك أن رحلة أَبي علي اليوسي في طلب العلم بدأت منذ عهد مبكر من حياته، وكان رحمه الله لايسمع بعالم جليل يجمل به الأَخذ عنه إلا قَصَده. واستغرقت الرحلة في طلب العلم جزءاً كبيراً من عمره، وطاف على حواضر المغرب وبواديه (فاس

ومراكش وإلغ وتارودانت ودرعة وجبل دمنات وسجلماسة وتادلا وغيرها، مما جعل شيوخه من الكثرة بحيث يصعب استقصاؤهم.

وبعد، تِلك النظرة العامة عن شيوخه، ترجمت لأعلامهم: أبي عبد الله محمد بن ناصر الدرعي، وأبي عبد الله محمد المرابط الدلائي، وأبي عبد الله محمد بن سعيد المرغتي، وأبي محمد عبد القادر بن علي الفاسي، وأبي العباس أحمد بن سعيد المجيلدي، وأبي مهدي عيسى السكتاني، وأبي العباس أحمد بن محمد التجمعتي، وأبي عبد الله محمد بن إبراهيم الهشتوكي، وأبي العباس أحمد بن عمران الفاسي.

وقد انصرف اهتمامي عند حديثي عن هؤلاء الشيوخ إلى إبراز مستواهم في العلم، ونوع اختصاصهم، وطرُق رواياتهم، وموصول أسانيدهم، ومبلغ عطائهم، وما قرأه اليوسي عليهم، وما كان لهم في تكوينه من أثر. مع ذكر إجازات من أجازه منهم وما تحملُه تلك الإجازات من دلالات تساعد على فهم شخصية اليوسي وتقويمها.

وبعد الشيوخ انتقلت إلى الحديث عن التلاميذ الذين نقل إليهم اليوسي ما تلقاه من شيوخه.

ولم يتسع المجال لترجمة كل من تحققت لديَّ قراءته عن اليوسي فاكتفيت بالتعريف بعدد منهم تعريفاً موجزاً، ثم ترجمت لجماعة منهم: كأبي عبد الله محمد العكاري وأخيه أبي الحسن، وأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن الصومعي، وأبي العباس أحمد الهشتوكي، وأبي علي الحسن بن رحال، وأبي عثمان سعيد العميري،

ومحمد المسناوي الدلائي، والشريف عبد السلام القادري، وأحمد بن يعقوب الولالي، وأبي عبد الله محمد بن قاسم بن زاكور.

أما المبحث الثاني من هذا الباب فقد خصصته لعطاء المدرسة اليوسية، فوضعت ثبْتا بآثار شيوخ اليوسي وتلاميذه. ذكرت فيه لكل واحد منهم ما وصل إليه علمي من آثاره مع التنصيص على المخطوط منها والمطبوع، والموجود والمفقود، وأرقام ماعثرت عليه منها في الخزائن. فاستطعت أن أحصي 131 كتاب.

وذيلت هذا المبحث بتعليق على هذا العطاء، لاحظت فيه أنه مظهر من مظاهر حيوية ونشاط الفكر المغربي، ولا سيا أن هذه الآثار وما يضاف إليها من تراث اليوسي والعلماء الذين عاصروه لم يكن من المنتظر أن تظهر في تلك الفترة، اعتباراً لما حل بالمغرب ما بين سقوط الدولة السعدية وقيام الدولة العلوية من حروب أهلية ومشاكل اقتصادية واجتماعية، وفتن وقلاقل خلقتها أوضاع داخلية متدهورة وأطماع أجنبية متآمرة.

وظاهرة مثل هذه لاينبغي أن تمر عليها دون محاولة تفسيرها. ولقد كان توسعي في دراسة الحياة الفكرية في الباب الأول من أجل هذا التفسير. إذ عرضت هنالك وجوها كثيرة من التشجيع والرعاية والمدد، وغير ذلك من أنواع الدعم الذي كان يجده العلم والعلماء في ملوك الدولة العلوية، كما أشرت إلى الدور الفعال الذي قامت به كبريات الزوايا.

وبدا لي من تفسير هذه الظاهرة أن الأفكار الصوفية كانت تهيمن على العصر، وكان جل العلماء الذين ترجمت لهم وذكرت آثارهم كغيرهم من معاصريهم صوفيين منصرفين عن واقعهم المادي

إلى عوالم الروح والعلم. وهذه الحال قللت من التأثير السيء الذي كان من المتوقع أن يحدثه فساد الأوضاع على نفوسهم وعقولهم وهمهم. وساعدتهم على التفرغ للدراسة والتأليف.

وبعد، فهذا جهد المقل القاصر، أضعه بين يدي القارئ الكريم لينظر إليه بعين الرضا، ويتقبله بقبول أهل الفضل، وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يغفر ما وقعنا فيه من خطأ أو نسيان، وأن يجازي عنا خيراً أمير المؤمنين وحامي حمى الوطن والدين جلالة الملك الحسن الثاني وأن ينصره نصراً عزيزاً مؤزراً، تعلو به راية الإسلام، وينتظم به أمر الخاص والعام، ويقر عينه بسمو ولي عهده الأمجد الأمير الجليل سيدي محمد وصنوه السعيد الأمير مولاي رشيد وسائر أفراد أسرته الكريمة. والحمد لله رب العالمين.

عبد الكبير العلوي المدغري
وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

الباب الأول

العصر والمجتمع

المبحث الأول :

الحياة السياسية

ولــد أبـو علي الحسن بن مسعـود اليـوسي سنــة (1040 هـ ـ 1630 م) وكان المغرب وقتئذ يعيش أزمة سياسية واجتماعية واقتصاديـة خطيرة، بـدأت منذ وفاة «المنصور الذهبي» أعظم ملوك الدولة السعـديـة سنـة 1012 هـ، ولم يوضع لها حد إلا باستيلاء المولى «الرشيد» على الحكم وتركيزه لسلطان الدولـة العلوية، وذلك ابتداء من سنة 1079 هـ التي تؤرخ انتصاره على أبي عبد الله محمد الحاج الدلائي وانطلاقه بعد ذلك لتمهيد بقية أطراف المغرب.

فالظروف التي سبقت ميلاد «اليوسي» والتي عاشهـا خلال نيف وثلاثين سنة من عمره، كانت ظروفا قاسيـة تكاد تكون فريـدة من نوعهـا في تـاريخ المغرب، ومن المجدي أن نحيط بها إحاطة مجملة تسـاعـدنـا على فهم الجو الـذي تنفس فيـه اليـوسي والمـؤثرات العـامــة في البيئــة التي أمضى فيهـــا مرحلـــة التكوين والتأثر والتلقي.

على أن حديثنا عن العصر والمجتمع لن يقف عند نهاية الأزمـة بل نمضي به مع المرحلة الثانية من حياة اليوسي إلى آخر عمره، مرحلة العطاء والتأثير، فنرى المغرب قد ضمد جراحه وأخذ في بناء عهد جديد في ظل الأمن والعدل والرخاء.

☆ ☆ ☆

بدأت الأزمة السياسية والاجتماعية التي عرفها المغرب أواخر الدولة السعدية بانتشار وباء عم سهل المغرب وجبله حتى أفنى أكثر الخلق[1]، وكان من نتائجه موت السلطان أبي العباس أحمد المنصور السعدي وبدء الصراع على الحكم بين أبنائه.

وقد حاول المنصور رحمه الله أن يتلافى هذا الصراع قبل وقوعه، فأخذ البيعة قبل مماته لابنه «المامون محمد الشيخ» الذي كان خليفة له على فاس. لكن الشيخ حسب ما ذكره مؤرخو المرحلة كان «فسيقا خبيث الطوية مولعا بالصبيان، مدمنا للخمر سفاكا للدماء، غير مكترث بأمور الدين»[2] فلما شاع فساده وزاد على الحد غيه وعناده وبلغ به الأمر أن شق عصا الطاعة على والده، نهض إليه «المنصور» من مراكش وقبض عليه وألقاه في سجن مكناسة في تفاصيل يطول ذكرها[3].

ومات «المنصور» فحدث ما كان يخشى وقوعه : أجمع أهل فاس على بيعة ابنه «زيدان» وامتنع أهل مراكش فبايعوا ابنه «أبا فارس» ثم إن الباشا «جودرا» وهو من قواد جيوش المنصور، بادر فأطلق سراح «محمد الشيخ» وذهب به إلى مراكش فبقي هناك في قبضة أخيه أبي فارس إلى أن بعثه تحت راية ابنه «عبد الملك» لمحاربة أخيهما «زيدان».

ووقعت حرب طاحنة بين الإخوة قرب واد أم الربيع، انتهت بانهزام «زيدان» وفراره إلى تلمسان ثم إلى تافللت وسوس حيث أخواله «الشبانات»

1) الاستقصا للناصري ج 5 ص 187.

2) نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي لليفرني.

3) من أهم الوثائق التي تتضمن تفاصيل هذه الأحداث ذلك التقرير الذي كتبه أحد الأجانب وبعث به من المغرب إلى السيرروبرت كتنكتن فارس كنتكتن (مجلة تطوان ع 9 س 1964) كما أن اليفرني والضعيف الرباطي والناصري بسطوا القول في ذلك.

من القبائل المغربية العظيمة. وقد كان «زيدان» هذا مهزوم الراية سيء الحظ.

أما «محمد الشيخ» فقد استغل أول فرصة مواتية فأعلن استقلاله عن أخيه أبي فارس (قبل نشوب الحرب) وذهب بجيش من أشياعه بعدها إلى فاس ليجد سكانها ينتظرونه بالبيعة. ثم أقبل لحرب زيدان ومطاردته[4].

وتوالت الحروب بين الإخوة، ثم بين أبنائهم من بعدهم : لا يكاد أحدهم يدخل مدينة حتى يخرجه الآخر منها، ولا تبايع مدينة من مدن المغرب واحدا منهم في يوم إلا لتنقض بيعته في يوم بعده وتبايع الثاني، ولا تنتهي فتنة إلا لتنشب أخرى، إلى أن بلغ الأمر بأحدهم «محمد الشيخ» أن بعث إلى ملك إسبانيا «فيليب الثالث» يطلب منه إمداده بالجيش والعتاد، مقابل أن يسلم له مدنا ومرافئ على شاطئ المحيط الأطلسي، من بينها العرائش وسلا والقصر الكبير.

فضعف أمر هذه الأسرة السعدية وتفرق الملك بينهم وبين غيرهم من الطامعين[5].

يقول صاحب (البستان الظريف) : «واشتغل أولاد المنصور بالحرب على الملك وأهملوا أمر الثغور والرعية والجند، وصرفوا هممهم في الحروب

4) وكان الصلح قد انعقد بين أبي فارس وزيدان بواسطة الصوفي الكبير سيدي عبد الله مبارك ودخل على إثره مولاي زيدان مدينة تارودانت وهي المدينة الرئيسية في إقليم سوس.

5) مثل «أبي محلى» الذي كانت له حروب مع زيدان على مراكش والذي كان يدعي أنه المهدي المنتظر. ومثل أبي زكرياء الحاحي، وأبي الحسن علي بن موسى. ومثل مولاي محمد المعروف بزغودة والذي حكم القصر ثم قتله مولاي عبد الله بن محمد الشيخ ملك فاس وغيرهم.

وقد لعبت الأيادي الأجنبية دورها في خلق تلك العداوات والحروب وذلك بواسطة التجار الاسبان والانجليز وجواسيس الترك وعملائهم (انظر البحث المنشور بمجلة تطوان تحت عنوان من زوايا التاريخ المغربي لمحمد بن تاويت وفيه مراسلات مترجمة بين ملوك أوربا وعملائهم وبينهم وبين أبناء المنصور) (مجلة تطوان ع 9 س 1964).

بينهم، إلى أن نفذ وسعهم وضعفوا عن سد الثغور وشحنها بالرجال، فقلت جبايتهم وضاعت عساكرهم بعد موت زيدان منهم، وخلد بنوه إلى الراحة وعجزوا عن مدافعة الثوار القائمين بالأطراف، وقنعوا بكرسي الخلافة بمراكش وما جاورها وقرب منها، فتطاولت أيدي رؤساء القبائل وعمالها إلى الاستبداد على الدولة لمرضها وهرمها، وشاركهم من لهم شوكة قوية، وصاروا كملوك الطوائف بالأندلس، وملوك صنهاجة والموحدين بافريقية، وملوك العجم بمصر والعراق، واستمرت هذه الفترة من موت زيدان عام ست وثلاثين وألف، إلى أن استولى على المغرب كله السلطان رشيد وذلك نحو الأربعين سنة»[6].

ولا بأس أن نذكر هنا بعض الأمثلة من حياة الناس في ذلك الوقت، لنلمس الأثر الذي خلفه هذا الصراع على الفرد والجماعة.

فقد وقع السطو على الأملاك حتى كان الرجل يأتي بستانه فيجد أعرابيا بخيمته في وسطه فيقول له : أعطانيه السلطان [7].

ومد «شراقة»[8] أيديهم في حرائم الناس ونهبوا الأموال وجاهروا بالفساد وأظهروا السكر في الطرقات، واقتحموا على الناس ديارهم حتى إن امرأة

---

6) البستان الظريف للزياني خ ق 242 وهو يجعل بداية الأزمة من موت زيدان بينما رجعنا بها إلى موت المنصور وهو الذي يفهم حتى من كلام الزياني صدر ما نقلناه عنه.

7) نزهة الحادي ص 107.

8) شراقة : هم أنصار عبد الله بن الشيخ المامون السعدي، وهم من أهالي جبال الأطلس. وكانت منهم فرقتان في جيش أحمد المنصور الذهبي ثم كان منهم نحو اثني عشر مائة في فرق زيدان لكنهم تحولوا عنه فيا بعد إلى عبد الله بن محمد الشيخ السعدي. مجلة تطوان العدد التاسع سنة 1964 ص 107.

وكان اسم «شراقة» في زمن مولاي رشيد يطلق على الجنود الواردين من المغرب الشرقي من عرب اشجع، وبني عامر وبربر مديونة وهوارة وبني سنوس التي كانت النواة الأولى لجيش الرشيد. ج 2 ص 7 ـ 8 من (تاريخ المغرب لعبد العزيز بنعبد الله).

كانت تطبخ خليعا وولدها رضيعا عندها فاقتحم عليها الدار أحمد شراقة فهربت المرأة وأغلقت عليها مشرفة لها فلم يقدر لها على شيء فراودها على النزول إليه فأبت المرأة فقال لها : إن لم تنزلي رميت الولد في الطنجير، فتمادت على الامتناع فرمى به، فما هي إلا أن رأته رمى به فصاحت صيحة عظيمة وألقت بنفسها عليه فاندق عنقها فماتت[9].

وفشا الخوف في الناس حتى إنهم صاروا يرهبون وينزعجون لأتفه الأسباب : اجتمع المؤمنون ذات يوم للصلاة فبينما الإمام يخطب، وقع مطر غزير فابتدر من في صحن المسجد الدخول تحت السقف، فظن الناس أن ابن سليمان قتله شراقة، فانهزم الناس وهربوا من المسجد فبلغ الخبر جامع القرويين فكان كذلك، ثم بلغ الخبر للطالعة فكان كذلك[10].

ولا أكثر من الأمثلة، فالذي قدمته منها قد يكفي شاهدا على ما آل إليه المغرب من ضعف بعد أن اختلت فيه الحياة وفسدت الأحوال وتحكمت الأطماع وانحطت القيم، فلو قلنا إنها أخطر أزمة في تاريخ المغرب فما أحسبنا نجنح إلى غلو وإسراف.

☆ ☆ ☆

فماذا عن موقف اليوسي من هذه الأحداث ؟ عندما خرج أبو علي اليوسي من قريته وبدأ رحلته إلى الحواضر لطلب العلم كانت عناصر جديدة قد ظهرت في الحقل السياسي وأخذت بشائر الانفراج تظهر في الأفق، ذلك أن بعض الزعماء المغاربة هبوا، بدافع من إيمانهم القوي ووطنيتهم الصادقة ورغبتهم المخلصة في جمع الكلمة وتحرير المناطق المغتصبة، فجهزوا الجيوش وبدأوا معركة التوحيد والتحرير، ونذكر من بين هؤلاء الزعماء : المجاهد أبا

9) نزهة الحادي ص 107.

10) المفاخر العلية ص 130 ونزهة الحادي ص 108.

عبد الله العياشي، والرئيس محمد الحاج الدلائي، والأمير سيدي محمد بن الشريف العلوي، وأخاه مولاي رشيد.

وطبيعي أن يقع نوع من الصراع والمنافسة بين هؤلاء الرؤساء جميعا، لا سيما وأن كل واحد منهم قد امتلأت نفسه ثقة بجدارته، وإيمانا بأنه أولى من غيره بالحكم.

وإذا علمنا أن «اليوسي» دخل الزاوية الدلائية في هذه الفترة وهي في أوج نشاطها السياسي والحربي إذ كان رئيسها محمد الحاج الدلائي قد استولى على الغرب كله، وأن اليوسي قضى بهذه الزاوية ما يقارب عشرين سنة من عمره، إذا علمنا هذا فإننا نقطع بأهمية هذه الفترة من حياته، وندرك أن ذلك الصراع الذي كان بين الزاوية الدلائية وبين من ذكرنا من الزعماء السياسيين هو صراع شديد القرب من اليوسي قوي الصلة بحياته.

فلنلق ضوءا على هذه المرحلة من الأزمة السياسية التي صاحبت شباب اليوسي فنتحدث أولا عن الدور السياسي للزاوية الدلائية، وعن منافسيها مثل أبي عبد الله العياشي ومولاي محمد بن الشريف ومولاي رشيد.

كانت الزاوية الدلائية منذ تأسيسها مركزا مهما من مراكز الاشعاع الديني والفيض الروحي والتكوين العلمي الصحيح، وكان رجالها يحظون بتقدير ملوك المغرب وتعظيمهم، فكان ملوك بني مرين كما يقول صاحب البدور الضاوية : «يعظمون حرمتهم ويعرفون رتبتهم ويجاملونهم بالعطاء الجزيل ويوقعون لهم في الظهائر برفع الوظائف من خدامهم من العرب والبرابر مع الاقطاعات النافعة لأرضين كثيرة»[11].

وكذلك كان ملوك السعديين : جاء في أحد ظهائر التوقير والاحترام التي صدرت من السلطان محمد الشيخ بن محمد السعدي في شأن سيدي سعيد

11) البدور الضاوية لسليمان الحوات ص 19.

ابن أحمد بن عمر الدلائي أحد علمائهم : «وتوجناهم تاج العز والإكرام فلا سبيل لمخلوق عليهم كائنا من كان»[12].

وكان في الدلائيين خمسة وعشرون عالما في المعقول والمنقول، ذكر الزياني أسماءهم ووفياتهم جميعا في «البستان»[13].

ومما عرف به الدلائيون واشتهروا، إطعام الطعام، ويكفي أن نذكر أن «محمد بن أبي بكر الدلائي» مثلا، كان يطعم في سنة من سني الغلاء سبعة آلاف من الفقراء كل يوم، زيادة على الواردين عليه والمقيمين عنده من طلبة العلم وغيرهم[14].

إلا أن الحالة التي كان عليها المغرب في أواخر الدولة السعدية وخلو الساحة ممن يراه الدلائيون أهلا للدخول في طاعته، مع ما اشتهروا به من العلم والغنى والكرم والفضل وكثرة الأتباع، كل ذلك جعلهم يفكرون في الدعوة لأنفسهم، وأخذ زمام الحكم تكليفا، قبل أن يستشري الخلل ويستعصي المرض على العلاج.

وهكذا فإن الزاوية التي كانت وقفا على خدمة العلم ونشر الدين وإطعام الطعام، أصبحت تدلي بدلوها في السياسة وتريش نبالها في الحرب ويريد أهلها أن يكون لهم سلطان على المغرب.

ونحاول أن نتتبع هذا التطور الذي حدث في الزاوية : فنجد أن الرغبة في الملك بدأت عندهم في شكل حال من الأحوال التي تعتري الصوفية، فكان شيخهم «أبو بكر» كثيرا ما يعتريه حال من هذا النوع فيصيح : «أنا صاحب الوقت وأنا السلطان» وكان الملوك «يتشوشون من

---

12) البدور الضاوية لسليمان الحوات ص 20.

13) البستان الظريف للزياني خ ق 242.

14) الزاوية الدلائية لمحمد حجي ص 46.

ذلك وكانوا يهمون به ويعودون بالإذعان والانقياد إليه، مع الاعتراف له بالولاية، ويتحامون حماه ويطلبون بركته»[15].

ثم ظهرت رغبتهم في الملك في شكل كشف واطلاع على الغيب، فهذا أبو بكر الدلائي يحتاج يوما إلى فرس يركبه فجيئ إليه بفرس سيدي محمد الحاج حفيده فقال : «لا أركب فرس المخزن»[16] وهكذا بقي هذا الأمل يداعب مخيلتهم ويختلط برؤاهم الصوفية حتى حققه زعيمهم «محمد الحاج الدلائي» بمجرد أن رأى الفرصة مواتية.

قام «الرئيس محمد الحاج» يدعو لنفسه سنة اثنتين وأربعين وألف، وتبعه برابرة صنهاجة وغيرهم، واستولى على تادلا وسلا، ثم لما سمع بقيام مولاي «محمد بن الشريف» بسجلماسة، عام خمسة وأربعين وألف، نهض إليه وضيق عليه في الصحراء، ووقعت بينهما وقعة الكارة التي انهزم فيها «سيدي محمد بن الشريف» ودخل على اثرها «محمد الحاج» إلى سجلماسة[17] وفعل جيشه الأفاعيل العظيمة فيها ثم انبرم الصلح بينهما على أن من الصحراء إلى جبل بني عياش لمولاي محمد بن الشريف، وما دونه لناحية الغرب فهو لأهل الدلاء[18].

---

15) البدور الضاوية ص 35.

16) البدور الضاوية ص 53 ومعنى فرس المخزن : فرس الحكومة.

17) نزهة الحادي ص 204.

18) من الوثائق التي تصف سجلماسة في هذا الوقت رسالة لمحمد بن أبي بكر الدلائي موجهة إلى أبي الحسن بن علي بن سيدي أحمد بن موسى يقول فيها : «هي قاعدة القرى الصحراوية فبصلاحها يصلح كلها أو جلها وبفسادها يفسد غيرها، وقد كانت فيما قرب من تاريخ وقتنا دار علم ودين وصلاح ومستراح القاصدين والواردين ومتجر الرباح فتعاقبت عليها أيدي الولاة والعمال ونظر إليها ملوك وقتنا نظر إهمال ثم أعقب ذلك سنون الغلاء والشرور مخطوطة رقم 91 جـ خ ع ص 72.

ولم يكن السعديون ليسكتوا عن وجود سلطان كبير ينافسهم كسلطان الدلائيين، فما إن بويع الشيخ بن زيدان سنة 1046 هـ حتى جمع الجموع وقصد تادلة ليسترجعها من محمد الحاج الذي مانع دونها في واقعة «بوعقبة» واستطاع أن يهزم الشيخ وجموعه.

ثم أخذ «السلطان محمد الحاج» في التوسع تحدوه رغبة قوية في أن يرى المغرب داخلا في حكمه موحدا بجميع قبائله ومدنه تحت رايته، فاستولى على مكناسة سنة 1050 هـ وحاصر فاس واستولى عليها سنة 1051 هـ، وكان بين ذلك قد دخل في حرب مع «سيدي محمد العياشي» الذي كان مستوليا على سلا ونواحيها وتامسنا وغيرها، ثم توجه السلطان محمد الحاج بعد ذلك للقضاء على مخالفيه في الغرب مخلفا ابنه «أحمد» أميرا على فاس وهكذا ما إن جاءت سنة 1060 هـ حتى كان قد استولى على الغرب كله غير مراكش وسجلماسة إلا أن أهل الغرب وبني حسن ما لبثوا أن ثاروا على محمد الحاج ونزلوا بجيوشهم بأحواز سلا، فوجه الحاج إليهم ولده «عبد الله» بجموع البربر : «فكان اللقاء على وادي الشراط، ووقع القتال فانهزم العرب ووقع فيهم مقتلة عظيمة، ونهبت حللهم وأموالهم وقاموا بدعوة محمد الحاج من يومئذ»[19].

وهكذا خاض الدلائيون معركة الحكم، واستطاعوا أن يبسطوا سلطانهم على جزء كبير من المغرب، وأن يكونوا دولة بربرية وحزبا دينيا، رؤساؤه علماء وأولياء مشهود لهم بالكرامة، وأتباعه طلاب ومريدون، وجيشه من البرابرة الأشداء، إلا أن حكم الدلائيين لم يطل أكثر من سبع وثلاثين سنة حيث طلع عليهم «المولى رشيد» من الصحراء فكسر شوكتهم وبدد جموعهم وأخلى زاويتهم سنة 1079 هـ، فصارت حصيدا كأن لم تغن بالأمس.

19) البستان الظريف للزياني.

أما «اليوسي» فقد أمره الرشيد بالرحيل إلى فاس، والتصدر للتدريس بها، فرحل وعاش في رعاية الأمير الرشيد، يأخذ جوائزه، وتصله منه الرواتب ويتمتع بتقديره وإكباره، إلا أنه مع ذلك ظل وفيا للزاوية الدلائية، حتى إن «الرشيد» عاتبه مرة في كثرة محبته لها وتعلقه بأهلها «فاعتذر له وقال : لا ناقة لي فيها ولا جمل، وإنما قال مدافعا له بذلك، وإلا فحبه للزاوية وأهلها مشهور، وقوله بمدحهم مسطور، وبأيدي الناس يتداول ويدور»[20].

ومما يدل على شدة وفاء «اليوسي» للزاوية الدلائية، قصيدته الرائية التي نظمها في رثائها وبلغت أبياتها مائة بيت واثنين وستين بيتا، أوردها صاحب «البدور الضاوية» كاملة وقال عنها : «وفيها من جودة الرثاء والتحنن إلى معاهد تلك الأطلال والتشوف لمن كان بها من القطان والآل، والتنبه للدهر وأبنائه، وتقلبه بأهله وأبنائه، والتأسي بذي التصبر لصروفه، والتسلي بما يبديه من نكره عن معروفه، وعدم الاهتبال بما يحدثه من الحوادث، وترك الركون لنعيمه الحادث، وعدم الثقة بود بنيه، وتلون شيم أهله وذويه، ورفع الهمة عنهم ثقة بالمولى فيما لابد منه وأولى، والتخلي عن خلل الخزايا والكبائر، والتحلي بحلل المزايا والمآثر، والترقي في أدراج جبر السجايا لإدراك المعالي والمفاخر، إلى غير ذلك من الأخلاق والأوصاف الحسان التي يحصل الشرف بها في الدين والدنيا وينجو بسببها في الآخرة الإنسان»[21].



20) البدور الضاوية ص 350 إلى 359.
21) البدور الضاوية ص 350.

وسنعود إلى الكلام عن (الزاوية الدلائية) في الحديث عن حياة «اليوسي» تلميذها وأحد أساتذتها الأعلام، ونستأنف الآن حديثنا عن الحياة السياسية في عصره.

وصفنا ما آل إليه أمر السعديين من الضعف، وما أصبح عليه أمراؤهم من الانقسام حتى تغلب عليهم غيرهم، وتقلص سلطانهم فلم يعد يتعدى مراكش ونواحيها، ورأينا كيف قام الدلائيون واستطاعوا أن يؤسسوا دولة واسعة النفوذ، وبقي علينا أن نتحدث عن زعيمين آخرين، هما : أبو عبد الله سيدي محمد العياشي والمولى رشيد.

أما «العياشي» فقد قام برسم الجهاد في سبيل الله، وبايعه الناس على ذلك، فصرف همه لحرب الكفار بآزمور وسلا والعرائش، والجديدة وطنجة، فدوخهم وقتل منهم خلقا كثيرا[22] واستولى على سلا ونواحيها وتامسنا وأعراب الغرب وفاس، إلى أن انتهى أمره بهزيمته أمام الدلائيين سنة 1051 هـ ومقتله على يد أعراب الخلط في نفس السنة.

وقام بالأمر بعده ولده سيدي عبد الله وكانت بينه وبين محمد الحاج الدلائي وقائع سنة ثلاث وخمسين وألف[23]، وتوفي رحمه الله سنة ثلاث وسبعين وألف.

وفي سنة 1063 قام «الخضر غيلان» من أتباع أبي عبد الله العياشي بالفحص فاستولى على القصر وأوقع بشراقة ونهب أموالهم حتى دخلوا مدينة فاس يتكففون، واستمر أمره إلى سنة 1079 حيث خاف سطوة الرشيد فركب البحر وهرب إلى الجزائر.

وقد كان شيخ اليوسي وأستاذه سيدي محمد بن ناصر الدرعي شديد التعظيم للمجاهد سيدي محمد العياشي وكان الدرعي يعتبره أميرا للمومنين كما

---

22) قدرهم صاحب الاستقصا بنحو تسعة آلاف كافر وستمائة وسبعين كافرا ج 6 ص 13.

23) الاستقصا ج 6 ص 94.

جاء في رسالة بعثها إلى الخضر غيلان يقول فيها : «ورحم الله صاحبك الذي أسس لك هذه الطريقة الصالحة ورباك عليها، أعنى أمير المومنين، نور البلاد المغربية سيدي محمد العياشي فهو سيدنا وسيد غيرنا الذي ندين الله بمحبته، ويجب علينا وعلى المسلمين تعظيمه وتعظيم من هو منه بسبيل»[24].

وقد ورث «اليوسي» عن شيخه هذا التعظيم والتقدير، فما كان يذكر العياشي الا بما يناسب مقامه ويعلي شأنه في عين الخاص والعام.

والدلائيون أنفسهم كانوا يحترمونه ويجلونه وما أثار الحرب بينه وبينهم إلا كونه لم يقبل شفاعتهم في أهل الأندلس[25].

واستحق أبو عبد الله العياشي هذا الاحترام والاجلال، إذ قام بالجهاد تطوعا واحتسابا في وقت تعرضت فيه شواطئ المغرب لخطر داهم من قبل جيوش الإسبان والبرتغال والفرنسيين. وأثمر جهاده ثمارا مباركة فتحسنت معنويات الأمة، وزاد الميل إلى القضاء على عوامل الفرقة وكثر المتطوعون للجهاد في سبيل الله، وتدفق العون والمدد من نواح كثيرة وأخذ النصارى يحسبون لهذا المجاهد ألف حساب حتى إن نصارى «البريجة» بعثوا إلى «زيدان» وحاشيته نفيس الهدايا ليزيل عنهم سيدي محمد العياشي[26].

ومن أغرب ما يستوقفنا هنا، أن طائفة من الأندلسيين وقر في صدورهم حب أعداء الله والميل إليهم، نظرا لطول العشرة التي جمعت بينهم وبين الاسبان في الأندلس، فأصبحوا عيونا للنصارى على العياشي وأتباعه، وظهرت منهم الخيانة ولقي منهم هذا المجاهد مالقي إلى أن مكنه الله منهم

24) الاستقصا ج 6 ص 94.

25) نزهة الحادي ص 231 فيه تفاصيل مفيدة.

26) نزهة الحادي ص 225.

فاستأصل شأفتهم وانتقم منهم، في تفاصيل يطول ذكرها[27]، وبسببهم وقع الخلاف بينه وبين الدلائيين كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

ولئن كان العياشي محسوبا في عداد الثوار الذين خرجوا على الدولة السعدية، فإنه يشفع له ضعف الدولة عن حفظ الأمن وردع النصارى الطامعين، ووقوفها في وجه ولاتها إذا أبلوا في الجهاد واجتمعت عليهم الكلمة وأحبتهم الأمة كما حدث لسيدي محمد العياشي نفسه : فهو لم يكن إلا واليا من ولاة «زيدان السعدي» فلما شاع خبره، ذكر الوشاة لزيدان أن العياشي أصبح خطرا على دولته، فأخذ يسعى في القبض عليه، بينما كان العياشي منهمكا في قتال الكفار بالمعمورة وسلا، وعندما تصدى للإمارة بلغه عن بعض الطلبة أن الجهاد لا يحل الا بأمر السلطان فسأل فقهاء فاس فكتبوا له كلهم، وعلى رأسهم الامام سيدي عبد الواحد بن عاشر وسيدي العربي الفاسي وسيدي ابراهيم الملالي، بأن قتال الكفار لا يتوقف على وجود السلطان ولا غيره، وجماعة المسلمين تقوم مقامه[28].

ووقع الناس له ظهائر الرضى والطاعة كما جاء في كتاب (المفاخر العلية) للشيخ عبد السلام اللجائي حيث يقول : «ثم إن أهل سلا شقوا العصا على زيدان فبقت سلا لا ولي لها فمد اللصوص أيديهم للمال والحريم، وقطعت الطرقات، فتصدى سيدي محمد العياشي للنهي عن المنكر والأمر بالمعروف، وشمر عن ساعد الجد في ذلك، فطلب منه الناس النظر في أمر المسلمين، فأمر أشياخ القبائل ورؤساءها من العرب والبرابر أن يكتبوا خطوطهم في ظهير بالرضى به والتزام طاعته ومقاتلة من خرج عن طاعته،

27) انظر صفوة من انتشر ص 89 ونزهة الحادي ص 231 والاستقصا ج 6 ص 86 وغيرها.
28) طبقات الحضيكي خ.ع 328 2 ك.

إلى أن يفيء إلى أمر الله، فكتبوا ذلك، ووافق عليه قضاة الوقت وفقهاؤه من تامسنا إلى تازة»[29].

من كل هذه الظروف والملابسات التي صاحبت قيام سيدي محمد العياشي[30]، نستنتج أن ثورته لم تكن إلا غضبة للإسلام وثأرا للوطن المغتصب[31]، وإنه لمن المؤسف حقا أن نجد الدلائيين يخمدون جذوته ويقاتلونه مع أنه كان سيفا من سيوف الإسلام في نحور أهل الكفر والطغيان[32].

☆ ☆ ☆

وأما المولى الرشيد، فقد قام والمغرب أشد ما يكون تمزقا وضعفا، فالدلائيون يحكمون تادلا وسلا ومكناسة والغرب كله إلا مراكش وسجلماسة، والخضر غيلان قد قام منذ 1063 بالفحص واستمر أمره إلى سنة 1079 حيث هرب إلى الجزائر.

وبمراكش كان عبد الكريم الشباني المدعو (كروم الحاج) وبقي بها إلى أن مات سنة 1078، وتولى ولده «أبو بكر الحاج» الذي قتله الرشيد سنة 1079. وفي فاس : كان «أبو عبد الله الدريدي» منذ سنة 1070 وهي السنة التي توفي فيها محمد بن السلطان محمد الحاج الدلائي[33]. وفي سجلماسة ودرعة والمغرب الشرقي : كان الأمير «مولاي محمد بن الشريف» منذ سنة 1050 هـ،

---

29) المفاخر العلية ص 133 ـ 134.

30) للتوسع انظر كتاب (الخبر على ظهور الفقيه العياشي بهذه البلاد وذكر سبب قيامه بوظيفة الجهاد) وهو مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 91 د.

31) انظر الجيش العرمرم للكنسوس ص 21 ـ 42.

32) مات رحمه الله مقتولا في التاسع عشر من المحرم سنة إحدى وخمسين وألف على يد الخلط.

33) الاستقصا ج 7 ص 20.

وفي الريف : كان «الرئيس أبو محمد عبد الله أعراس»[34] وفي تطوان : كان «المقدم أحمد النقسيس». وفي تازة : كان «اليهودي ابن مشعل»[35]...

وهكذا لم تكن السلطة في يد واحدة، وكان على «الرشيد» أن يواجه كل هؤلاء الخصوم وأن يقضي عليهم جميعا قبل أن يخلص له أمر المغرب. ولسنا هنا بحيث نتتبع المعارك التي خاضها «الرشيد» ولا الانتصارات التي حققها على خصومه، وإنما الذي يهمنا من ذلك كله هو أن الرشيد انتصر أخيرا واستطاع أن يوحد البلاد وأن يضع حدا لفتنة طويلة ومحنة عظيمة مزقت المغرب شر ممزق وكادت تعصف بما بناه الأسلاف خلال قرون ذات عدد...

وإذا كان «المولى رشيد» بالمكانة التي ذكرنا، وكان له من عظيم القدر ما وصفنا، فإن تذكيرنا هنا بما كان «اليوسي» يحظى به عنده من عناية وإكرام، ليفيدنا في تقدير شخصيته ومعرفة المكانة الاجتماعية التي كانت له في عصره.

ولنرجع الحديث إلى ما قبل عهد الرشيد لنلقي نظرة على قيام الدولة العلوية قبل أن نواصل الكلام عن الحياة السياسية في عهد الرشيد وأخيه إسماعيل.

أصل هؤلاء الأشراف العلويين من «ينبوع النخل» بالجزيرة العربية قال صاحب (المفاخر العلية) : «ومن المقرر المعلوم المقطوع به عند كل صغير وكبير ورفيع القدر وحقير، شرف هذه الدولة المباركة. قال الشيخ أبو علي

---

34) وقعت بينه وبين المولى رشيد معارك سنة 1076 هـ ثم عفا عنه الرشيد وجعله بعد ذلك من قواده وأرسله على رأس جيش إلى السوس سنة 1082.

35) من يهود تازة كان يعيش في القرن الحادي عشر بين أظهر قبائل بني يزناسن وكانت له أموال طائلة وذخائر نفيسة وصولة على المسلمين وكان يخرج في هيئة الملوك يحيط به الأتباع والخيل فقتله المولى رشيد واستفى كثيرا من أمواله في بناء الدولة.

اليوسي إن شرفهم مقطوع بصحته كالشمس الضاحية. وقسم الشيخ أبو محمد عبد القادر الفاسي شرفاء أهل المغرب بحسب القوة والضعف إلى خمسة أقسام، الأول المتفق على صحته ومثله بأفراد منهم ساداتنا السجلماسيون»[36].

وقد كان برابرة سجلماسة هم الذين سعوا في إدخال هذه الأسرة الشريفة إلى المغرب تبركا بها وأملا في أن يصلح الله أحوالهم بوجودها[37]، وكان أول من جاء من هؤلاء الشرفاء إلى المغرب «مولانا الحسن الشريف بن قاسم» في أوائل المائة السابعة. وكان عالما فاضلا، نزل بحاضرة سجلماسة ودرس العلوم في مسجدها الأعظم «وهو الذي أدخل إليها علم البيان والأصول، لأن أهلها لم تكن لهم همة إلا في الفقه وأحكام القضاء ومجرد الحديث وظاهر الآيات القرآنية»[38].

والتزم أبناء مولانا الحسن خطة والدهم وساروا سيرته فكانوا أهل علم وفضل وجهاد في سبيل الله وغيرة على الدين والوطن، واشتهرت من بينهم جماعة ما زالت ذكراها تعطر صحائف التاريخ أمثال «أبي المغازي مولانا علي الشريف» الذي اشتهر بجهاده في بلاد الأندلس والسودان، وبكرمه وعلمه وإقبال الدنيا عليه، حتى إن أهل الأندلس راودوه على أن يملكوه عليهم وراسلوه في هذا الشأن برسائل كثيرة حلوه في بعضها بقولهم : «إلى الضرغام الهمام وقطب دائرة فرسان الإسلام الشجاع المقدام، الهصور الفاتك الوقور الناسك، طليعة جيش الجهاد، وعين أعيان الأنجاد، المؤيد بالفتح في هذه البلاد المسارع إلى مرضاة رب العباد أبي الحسن مولانا علي الشريف[39].

36) المفاخر العلية ض 136.

37) النزهة ص 248.

38) المفاخر العلية ص 145.

39) الجيش العرمرم ص 51.

ومثل مولانا الشريف الذي كان وجيها عند أهل سجلماسة وكافة أهل المغرب، ومثل أبنائه الملوك الثلاثة :

مولاي محمد ومولاي رشيد ومولاي إسماعيل[40]... فما من هذه الأسرة إلا من اشتهر بعلم أو جهاد أو خير وصلاح، أو حسن سياسة أو كمال رياسة، وهذا ما أهلهم للملك وسهل عليهم انقياد الناس لهم والتفافهم حولهم.

وإذ لا يتسع المجال هنا للحديث عن مآثر هذه الأسرة، والتعريف بأعلامها جملة وتفصيلا، نقتصر على ماله صلة بموضوعنا :

في سنة 1040 هـ، وفيها ولد أبو علي اليوسي، قام «أبو حسون السملالي» الملقب «بأبي دميعة» بالسوس على عهد زيدان السعدي، وفي عام إحدى وأربعين وألف، استصرخه «مولاي الشريف بن علي» على أهل «تبوعصامت» وكان مولاي الشريف قائما بسجلماسة، فلما بلغها «أبو حسون» غدر بمولاي الشريف، وقبضه، وتوجه به إلى السوس، وأبقاه هناك إلى أن افتدي بمال جزيل.

وفي عام خمسة وأربعين وألف، دعا مولاي محمد بن الشريف لنفسه بسجلماسة في حياة والده، وكان كما حلاه الدلائيون في بعض رسائلهم : «عقابا أشهب على قنة كل عقبة، لا يقنعه المال دون حسم الرقبة»[41] كما كان سخيا جدا حتى إنه أعطى الأديب الشهير السيد سعيد التلمساني نحو خمسة وعشرين رطلا من خالص الذهب، مرة واحدة، جائزة له على بعض أمداحه[42].

40) مما تناقلته كتب التاريخ أن عالم الشرفاء وشريف العلماء مولانا عبد الله بن علي بن طاهر مر عليه أبو الأملاك مولانا الشريف بن علي وهو صبي فسأل عنه فقيل هو ولد مولانا علي فقال : الله أكبر، ففرح به ومسح على ظهره وقال ماذا يخرج من هذا الظهر من الملوك والسلاطين. فتيقن الناس صدقه لما يعلمون من موافقة مكاشفاته.

41) الجيش العرمرم ص 58.

42) المفاخر العلية والدرر السنية ص 198.

فلما سمع «محمد الحاج الدلائي» بقيامه، توجه إليه وزاحمه في إقليم الصحراء ثم صالحه على سجلماسة كما أشرنا إلى ذلك من قبل[43]، فرد مولاي محمد بن الشريف عزمه إلى نواحي عمائر الصحراء، وشرق المغرب إلى أن بلغ «أنقاد» فبايعه «عرب الأحلاف» و«سقونة» من عرب المعقل، فحارب بهم بني يزناتن ووجدة، وقام بعدة غارات على أولاد زكري وأولاد علي، وبني سوس، ونضرومة. ثم توجه إلى تلمسان، وبعدها قام بعدة غارات على قرى وقبائل كثيرة. ودخل مدينة فاس سنة 1060 هـ فأخرجه محمد الحاج الدلائي منها في نفس السنة[44].

ومات والده مولاي الشريف سنة 1069[45]، فبايعه أهل إقليم الصحراء البيعة الثانية العامة.

وهنا خرج أخوه «الرشيد» عن تافيلالت خوفا على نفسه، وأخذ ينتقل بين حواضر المغرب وبواديه إلى أن حلت سنة خمس وسبعين وألف، فأعلن قيامه على أخيه مولاي محمد بن الشريف، ودعا لنفسه بشرق المغرب ونزل مدينة وجدة، فتوجه له مولاي محمد بن الشريف من تافلالت، وخرج الرشيد من وجدة فكان اللقاء ببسيط «أنقاد»، ولما دارت الحرب كان أول قتيل هو مولاي محمد بن الشريف رحمه الله برصاصة طائشة.

---

43) انظر الصفحة السادسة.

44) وولى محمد الحاج الدلائي ولده أحمد على العاصمة الإدريسية ثم ولده محمد فاستمر بها الدلائيون عشر سنوات إلى أن استولى عليها القائد الدريدي (تاريخ المغرب لعبد العزيز ابن عبد الله ج 2 ص 4) إلا أنه لا يذكر محمد بن محمد الحاج.

45) جاء في ج 2 ص 5 من تاريخ المغرب لعبد العزيز بنعبد الله «وقد توفي المولى علي الشريف سنة 1069 هـ» وهو سبق قلم إذ الذي توفي في هذه السنة هو مولاي الشريف.

وكان من حسن حظ «المولى رشيد» أن هداه الله في هذه الظروف الصعبة إلى خزائن اليهودي ابن مشعل فاستولى عليها[46] واستعان بها على أمره، فبايعته جموع أخيه البيعة العامة وقدمت عليه الوفود بالهدايا، وكتب في سجل الجيش من كان مع أخيه، وكساهم وأعطاهم الخيل والسلاح، وجمع عسكرا من «شراقة» من بني سنوس ومديونة ومن بني عامر، والشجع، وهواره. ولما قضى غرضه ورتب جنده وجه رسله إلى الآفاق بالاعذار والإنذار والوعد والوعيد لأهل الطاعة والمعصية، وسار على آثارهم يقاتل من خالفه ويضم الناس تحت رايته على ما وصفناه من قبل[47].

ومع بداية عهد الرشيد عرف المغرب تحولا كبيرا، وظهر بمظهر جديد، يناسب الهمة العالية التي عرف بها هذا الأمير. ورغم قصر المدة بين تولى الرشيد الملك وموته فإن النتائج كانت باهرة، ويمكننا أن نختصر أهم المنجزات في النقط التالية :

1 - وحد الرشيد المغرب بالقضاء على الزعماء المنقسمين وأدخل كل الحواضر المغربية في طاعته فتمت له بيعة المغرب كله.

2 - بنى كيان الدولة وجند الجنود وساعده على ذلك ما استولى عليه من أموال أمراء الأقاليم كالدلائيين الذين أخرجهم من ديارهم بعد أن سلمه أميرهم ما كان تحت يده من أموال طائلة، وكاليهودي ابن مشعل بتازة وأحفاد المنصور الذهبي بمراكش...

---

46) يوجد تفصيل لهذه الأحداث في تاريخ الضعيف الرباطي ص 40. والذي يبدو مما حكاه صاحب الجيش العرمرم أن الاستيلاء على مال ابن مشعل وقع في دفعتين أولاهما عندما استولى الرشيد على داره وكان ذلك قبل موت مولاي محمد بن الشريف والثانية بعد موته عندما دلته زوجة ابن مشعل على محل في قصبته ففتحه ووجد فيه خوابي مملوءة ذهبا : الجيش ص 57.

47) استفدنا هنا من عدة مصادر تاريخية كالبستان الظريف والاستقصا وغيرهما.

3 ـ واتخذ منذ أعوامه الأولى تدابير اقتصادية هامة : فأمر بضرب السكة الرشيدية سنة إحدى وثمانين وألف وجعلها أربعا وعشرين في «الموزونة» وكانت قبل ذلك ثمانيا وأربعين[48]. وهذا التخفيض في سعر العملة ساعد على الرواج والازدهار الاقتصادي. كما أنه قدم قروضا للتجار قصد إنعاش التجارة وتنشيطها[49].

4 ـ وما إن استتب له الأمر حتى شرع في بعض الأعمال العمرانية : كبناء الأقواس بقنطرة وادي سبو، وبناء قصبة الخميس المعروفة اليوم بقصبة الشراردة، وبناء مدرسة الشراطين، وبناء وإصلاح مساجد وقناطر وأسوار كثيرة. حتى إنه جعل الفلائك على الأنهار احتسابا[50].

5 ـ هذا إلى جانب اهتمامه بأمر الثغور وتجنيد الأجناد لحماية البلاد : جاء في إحدى رسائل اليوسي «وقد حضرت بمدينة تطاوين أيام مولانا رشيد رحمه الله، فكانوا إذا سمعوا الصريخ تهتز الأرض خيلا ورماة»[51]، وكان الفرنسيون والبرتغال والاسبان والانجليز يساومونه بالأسلحة والأموال ليسمح لهم بالسيطرة على الشواطئ ولكنه كان يرفض تلك المساومات ويعمل جاهدا من أجل إبعادهم مهما كلفه ذلك[52].

6 ـ هذا إلى جانب اهتمامه بالتعليم، وقضائه على مظاهر الفساد الخلقي. وقد أشاد اليوسي بذلك في بعض رسائله إلى المولى إسماعيل[53].

☆ ☆ ☆

48) الترجمان المعرب للزياني ص 11 وتاريخ الضعيف الرباطي ص 53.

49) المقالة المرضية في الدولة العلوية خ.ق 493.

50) المقالة المرضية في الدولة العلوية خ.ق 493.

51) رسالة اليوسي إلى المولى إسماعيل.

52) انظر بعض التفاصيل في تاريخ المغرب لعبد العزيز بنعبد الله ج 2 ص 8.

53) الرسالة الجوابية خ.ع.

وإذا كان «المولى رشيد» هو الذي أرسى قواعد الدولة العلوية بالمغرب، فإن أخاه المولى إسماعيل «أخذ على عاتقه ضمان استمرار الدولة وإكمال بنائها. وقد كان رحمه الله في مستوى هذه المهمة إذ كان من عظماء الملوك. جاء في تحلية لأبي علي اليوسي في حقه : «مركز المجد والسناء ومأرز الحمد والثناء، وينبوع المحاسن والمفاخر، ومجمع المحامد والمآثر، السلطان الأعظم الأجل الأفخم أبو الثناء، مولانا إسماعيل بن الشريف الغني بارتفاع قدره عن التعريف»[54].

كانت بيعته سنة 1082 هـ بعد وفاة أخيه الرشيد، وحضر «اليوسي» تلك البيعة مع من حضر من كبار العلماء وأهل الحل والعقد، أمثال : أبي محمد عبد القادر الفاسي، وأبي عبد الله بن محمد بن علي الفلالي، وأبي العباس أحمد بن سعيد المجيلدي، وأبي زيد عبد الرحمن الفاسي، وأبي عبد الله محمد بن الحسن المجاصي[55] وغيرهم. ولم يكن اليوسي يتجاوز إذ ذاك الثانية والأربعين من عمره، وهذا دليل على نبوغه، إذ ليس من السهل على ابن البادية أن يصل في مثل هذه السن إلى المكانة الاجتماعية والعلمية التي تسمح له بحضور بيعة الملوك فيمن يحضرها من كبار العلماء وأعيان البلاد.

54) المنزع اللطيف ص 14. ونلاحظ أن اليوسي أكثر اقتصادا من غيره في هذه التحلية مثل عند أبي الحسن علي مصباح إذ يقول عنه «أعظم ملوك المغرب الذي دانت له سائر الأمم وخضعت لجلاله سلاطين العرب والعجم وغدت سدته ملتثما لشفاه الاقيال ومناخا لرجاء الآمال» المنزع ص 8. ومثل أبي عبد الله محمد بن عبد الوهاب الغساني الذي يقول عنه في كتابه رحلة الوزير في افتكاك الأسير «ذو الشيم التي أنست مآثر الأوائل والأواخر والمزايا التي فاضت على الأنام ولا فيضان البحور الزواخر...» وأبي عبد الله اليفرني الذي يقول عنه في كتابه روضة التعريف «من أنسى بحسن سيرته جميع الدول وتردى من مكارم الأخلاق ما لم يخطر ببال أحد في العصور الأول».

55) المنزع اللطيف ص 35 والجيش العرمرم ص 64.

وإذا نظرنا إلى ما وصل إلينا عن الحالة السياسية التي عاشها المغرب على عهد مولانا إسماعيل، وجدنا أنها لم تكن كلها حالة استقرار وأمن، بل إن الحروب الداخلية والخارجية استغرقت معظم العهد الاسماعيلي أثرا لما كان المغرب يعانيه إذ ذاك من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية التي خلفتها ثمانون سنة من الصراع على السلطة.

على أن الحالة بوجه عام كانت في هذا العهد أفضل بكثير من عهود أخرى : فقد أخذ المغرب يظهر بمظهر القوة، ويتمتع باحترام الدول الأجنبية، ويسترد الأطراف المغتصبة كالعرائش وأصيلة وطنجة...

ويمكن أن نلاحظ بصفة عامة، أن صلابة «المولى اسماعيل» وشجاعته وشدة بأسه، ساعدته على استتباب الأمن ولكن المغرب كان يمر في ظروف صعبة، فكان مع الاستقرار الذي يحرص السلطان عليه وتحتاج البلاد إليه، شيء غير قليل من ضيق الناس بأحوالهم وتمردهم في بعض الأحيان.

وكان المولى إسماعيل يواجه القلاقل الداخلية بمنتهى الصرامة والحزم، وإذا علمنا أنه لما ظفر بولده الثائر مولاي محمد العالم قطع يديه ورجليه وتركه يموت من شدة الألم مع[56] أنه فلذة كبده وأقرب أبنائه إلى قلبه، فإننا نستطيع أن ندرك ما كان ينتظر كل من سولت له نفسه شق عصا الطاعة والخروج على السلطان.

وإذا حاولنا أن نرسم الخطوط العريضة للسياسة الداخلية التي كان المولى إسماعيل ينهجها فلعل أوضح معالمها ما يلي :

1) ضمان استقرار النظام واستتباب الأمن واستمرار الدولة.

---

56) الحلل البهية للمشرفي ص 108 إلى 114.

2) تجريـد القبـائل من الخيل والسلاح وتكوين جيوش نظـامية من العبيد، وبنـاء قصبـات في جميع المواقع الرئيسيـة داخـل البـلاد تستقر فيهـا وحدات عسكرية دائمة لتمثيل السلطة المركزية وحفظ الأمن.

3) تنشيط العلماء وأرباب الزوايا بالصلات الجزيلة والعطايا المتواليـة وظهائر التوقير والاحترام لضمان تعاونهم مع النظـام القـائم والسعي فيما يجلب رضى الأمة على السياسة العامة.

4) اتخاذ تدابير اقتصـاديـة من شـأنهـا أن تقوي خزينـة القصر وتشيع الرخاء.

5) التوسع في العمران لإظهار الدولـة بمظهر القوة، وقـد سـاعـده على ذلك كثرة عدد الأسرى من الأوربيين والبربر، وإن الأسوار العظيمة والحصون المنيعة والقصور الفخمة التي بناها هذا الملك لتشهد بعظمته وقوته.

6) تحرير الشـواطئ المغربيـة من براثن الاستعمار الاسبـاني والبرتغـالي قياما بفريضة الجهاد وتنشيطـا للعسـاكر ورفعـا لمعنويـات الأمـة ورغبـة في توجيه حماسـة الشعب واستعـداده العسكري وجهـة صحيحـة تحقق الأهـداف الوطنية العليا عوضا عن إضاعة الجهد في حروب داخلية تضر الجميع ولا تنفع أحدا.

7) وقد كانت للمولى إسماعيل معرفة تامة بـالعنـاصر التي يتكون منهـا الشعب المغربي وبأصول القبائل وفروعها وطبائع أفرادهـا، وعوامل الألفـة أو الفرقة التي بينها فكان يسلك تجاه القبائل سياسـة متسمـة بـالـذكاء، كترحيل بعضها إلى جهات أخرى والسماح للبعض بالاحتفاظ بسلاحها وخيلها كامتياز خاص، وتجريد حملات عنيفة ضد قبائل بعينها...الخ.

وعلى العموم فإنه كان يسلك سياسة داخلية تفرضها عليه الظروف التي عاش فيها ويلخص لنا هو نفسه هذه الظروف بقوله : «وحين جاء الله بنا لهذا المغرب وولانا أمره وأقامنا فيه بمحض فضله واختياره جئناه على حين فترة من الملوك ووجدناه فارغا من الجيش والعيش، وخفيف العمارة بعيد العهد بالخلافة والإمارة، فبسبب تلك الفترة التي اعترته ودامت فيه نحو الثمانين سنة حتى تنوسي فيها أمور المملكة وسياستها واضمحلت فيها الأوضاع الملكية وتوالت فتن وأوجاع وهرج كثير لا أعاد الله ذلك على المسلمين، فصرنا نحن حيث أقامنا الله ونصبنا لهذا المنصب المبارك المحفوف بالخير المتدارك نبتدئ السيرة والطريقة من أولها ونعقدها من أصلها»[57].

وأما في الميدان الخارجي فقد كان المولى إسماعيل حريصا على إقامة علاقات طيبة مع سائر الملوك في أوربا والشرق الإسلامي، وكانت له مراسلات وسفارات مع عدد من الملوك كما كانت الهدايا تصله من أقطار كثيرة وصداقته بلويس الرابع عشر ومعاصريه من ملوك انجلترا واسبانيا مشهورة.

☆ ☆ ☆

هذه نظرة موجزة عن الحياة السياسية في عصر اليوسي جعلناها توطئة لدراسة حياته وشخصيته وقد كنا نهتم بتسجيل النتائج أكثر من اهتمامنا بسرد الأحداث، كما حاولنا استخلاص المعالم العامة للحياة السياسية من خلال ما صح لدينا من أخبار دون التعرض إلى التفاصيل التي هي من اختصاص كتب التاريخ، وتحدثنا عن أحداث سبقت ميلاد اليوسي لأن

---

57) رسالته إلى علماء المشرق الخزانة الملكية 3984.

الحديث عنها كان ضروريا لفهم ما وقع بعد ذلك من تغيرات ولأن آثارها لم تظهر في حينها بل تأخرت زمنا إلى الفترة التي وجد فيها اليوسي فأثرت في حياته تأثيرها في حياة كل المغاربة الذين عاصروه.

ونختم هذا الفصل بملاحظة عامة وهي أن تلك الأحداث السياسية التي قمنا بعرضها في هذا الفصل كان لها من الأثر على حياة اليوسي وشخصيته ما جعل الحديث عنها حديثا عن تلك الحياة وتلك الشخصية، ويكفي أن نذكر مثلا أن العداوة التي كانت بين الدلائيين والعلويين والتي انتهت بانهزام الدلائيين على يد الرشيد سنة 1079 ثم على يد المولى إسماعيل سنة 1088 بقي أثرها ساري المفعول في حياة اليوسي إلى سنة 1102 وأنها استطاعت أن تقلب تلك الحياة رأسا على عقب كما سنفصله في إبانه هذا بالإضافة إلى ما يكون للأحداث السياسية عادة من تأثير عام على الأخلاق الاجتماعية والأوضاع الاقتصادية والأحوال العامة للشعب بأكمله مما لا ينكر أهميته بالنسبة إلى عالم كبير كاليوسي قضى حياته كلها في رحيل دائم وتقلب بين حواضر المغرب وبواديه واتصال وثيق بأهل الحل والعقد في البلاد.

المبحث الثاني

الحياة الاجتماعية والاقتصادية

رأينا في الفصل السابق كيف كانت الحياة السياسية في عصر اليوسي مضطربة، وكيف كانت السلطة أول الأمر موزعة بين عدد من الزعماء، ثم أخذت تنتظم وتجتمع إلى أن صارت في يد مولاي رشيد ثم مولاي إسماعيل.

وبين تفرق السلطة واجتماعها، شهد المجتمع المغربي في الفترة بين سقوط الدولة السعدية واستقرار الدولة العلوية من الفتن والأهوال ما أثر على أخلاقه وتقاليده وعقيدته وتفكيره، وبث فيه نوعا من التشاؤم والحزن والسخط على تلك الحياة التي كادت تخلو من القيم الدينية والأخلاقية السامية خلوها من الأمن والاستقرار والثقة.

ومن خلال قراءتنا لآثار السلف من علماء هذه الفترة نجد ما يدل على هذا الهبوط في معنويات المجتمع المغربي. ولا أدل على ذلك من تسميتهم زمانهم بآخر الزمان، وإصرارهم على هذه التسمية، واستدلالهم عليها بما ظهر من فساد في المغرب وفي غيره من البلاد.

وآخر الزمان كما يقول الإمام «محمد بن سعيد المرغيثي» شيخ أبي علي اليوسي : «محل كل معنى خبيث، يقل فيه الخير، ويكثر فيه الشر، وينعدم النفع ويعظم الضر، ويظهر الفساد في البر والبحر، وينعكس الحال في كل أمر، ويكون المتمسك فيه على دينه كالقابض على الجمر»[1].

1) الإشارة الناصحة لمن طلب الولاية بالنية الصالحة للمرغيثي المخطوطة رقم 91 جـ خ ع.

ومن نظر فيا آلت إليه حال المجتمع المغربي في تلك الفترة يجد أن الكثير من هذه الصفات المميزة لآخر الزمان تنطبق عليه، وأن للناس العذر كل العذر في أن يعتقدوا أنهم كانوا يعيشون في آخر الزمان.

ولم يكن المغرب وحده يعاني من فساد الأوضاع وانحطاط الأخلاق وضعف الوازع الديني، بل إن الشرق الإسلامي كله كان في حال سيئة. وكتب الرحلات التي كتبها الحجاج المغاربة في هذه الفترة تدل على ذلك.

فمما جاء في كتاب المحاضرات لليوسي في تصوير حال المجتمع الإسلامي بصفة عامة قوله : «وأما الزمان فلا تسأل عنه، وقد مر في الحديث (صنفان إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس الأمراء والعلماء)، وقد فسدا جميعا وإلى الله المشتكى. وكان الأمر يصلح بأيمة العدل، وفقه الفقهاء، وأدب الصوفية، وقد فسد هؤلاء الثلاثة بالجور والمداهنة والبدعة ففسد الدين بهم أولا والدنيا ثانيا»[2].

وفي الفصل السابق أوردنا أمثلة كثيرة تبين فساد الأحوال في المغرب ولا بأس أن نذكر هنا هذا المثال من المشرق. يقول أبو سالم العياشي في رحلته عن مصر : «وأما رعيتها وفلاحتها فلا تسأل عما يلاقون من الجند من الظلم وما هم فيه من الاهانة والاحتقار تضرب ظهورهم وتؤخذ أموالهم ولا مشتكى لهم إلا الله»[3].

ومن الطبيعي أن يميل بعض الناس في مثل هذه الأحوال إلى الانزواء والعزلة والتصوف، رغبة في النجاة بأنفسهم، والتفرغ لإصلاح ذواتهم، والهروب مما يفتنهم عن القيام بواجباتهم الدينية، عملا بقول رسول الله ﷺ : «أؤمر بالمعروف وانه عن المنكر، حتى إذا رأيت شحا مطاعا،

2) المحاضرات ص 106.

3) رحلة العياشي ص 122.

وهوى متبعا، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك لا يضرك من ضل إذا اهتديت» وكنتيجة لهذا الميل العام نحو التصوف، كثرت الطرق الصوفية، وتعددت الزوايا إلا أن أهميتها اختلفت باختلاف شخصية رؤسائها من حيث كان فيهم أميون وعلماء وسنيون ومبتدعون : فكانت هنالك زوايا إصلاحية، أسهمت إسهاما قويا في إخراج المجتمع المغربي مما كان يتخبط فيه، بفضل العلماء الذين كونتهم، والدعاة الذين جندتهم، وبفضل تلك التربية الدينية السليمة التي تناولت بها أتباعها على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية والثقافية. ونذكر من بين هذه الزوايا : الزاوية الدلائية والزاوية العياشية والناصرية والفاسية والقادرية...

ووجدت أيضا زوايا مفسدة، خلقت في وسط المجتمع المغربي تيارا هداما، وأساءت إلى الصوفية بوجه عام، وكان الوكد من إنشائها جمع الأموال أو إحراز الشهرة وغير ذلك من الأغراض الدنوية، وبعضها أنشأه علماء فضلاء يريدون به إصلاحا فانحرف بعد موتهم إذ تولاه ابن فاسق أو جاهل من أبنائهم فبدل فيه. وإلى هذا النوع من الطرق المبتدعة يشير اليوسي بقوله : «وأما ما نحن فيه من ادعاء الاطلاع على الغيب، والتظاهر بالكشف والتصرف في الوجود، فهو الكثير في زماننا في المنتسبين دعوى منهم وتشبعا بما لم يعطوا إلا من عصمه الله وقليل ما هم»[4].

هذه الطرق الزائفة أخرت تطور المجتمع المغربي، وأوشكت أن توقف ذلك المد الثقافي والروحي والحضاري الذي أخذ ينبعث في كبريات الزوايا، وجعلت الناس لا يفهمون الإسلام إلا من خلال ذلك الضباب الكثيف من الخرافات والخوارق والكرامات الكاذبة وغير ذلك مما يتلقونه من أولئك الشيوخ المبتدعين. وساعد على ذلك أن الأمية كانت متفشية، والجهل كان

4) المحاضرات ص 107 ـ 108.

ضاربا أطنابه بين العوام، فلا يستطيع أحدهم أن يرجع إلى ما بين يديه من كتاب الله وسنة رسوله يستهديها ويستنير بنورهما لأنه غير قادر على القراءة، فإن قرأ فهو غير قادر على الفهم. وهكذا حدثت عزلة تكاد تكون تامة بين الناس وبين الإسلام في منابعه الصافية، ووجد المبطلون الفرصة لتضليل الناس واستغلال سلطان العقيدة على نفوسهم والتسلط عليهم بذريعة القربى من الله والوصول.

كان هناك إذا فساد في الأوضاع السياسية والاجتماعية نتج عنه زيادة ميل إلى التصوف وانتعشت الزوايا القديمة، وظهرت زوايا جديدة، ووجدت طرق وزوايا منحرفة زادت في فساد الأوضاع وتردي الأحوال. إلا أن اقتناعنا بوصول المجتمع المغربي في تلك الفترة إلى درك سافل من الانحلال لا يذهب بنا إلى تصديق كل ما تتداوله المصادر الأجنبية في هذا الشأن من أخبار : لأن الشعوب العريقة في الدين والحضارة والأخلاق وإن هي وقعت في مهاوي الفساد فإنها تبقى على قدر من أصالتها، وتحافظ على نصيب من كريم أخلاقها.

فنحن لا نصدق ما كتبه «وليم لنكو» عن مدينة فاس مثلا، وأنه وجد فيها - في مطلع القرن الحادي عشر الهجري - نحو اثني عشر ألفا من بيوت الدعارة، وغير ذلك مما لا يليق ذكره[5]...

ثم إن هناك نوعا من شدة الحساسية في الأمم الكريمة الأصل، ولذلك تجد أفرادها يقلقون ويضجون لظهور شيء من الفساد مع أنه عند غيرهم من الأمور العادية... فليس من التحقيق العلمي في شيء أن نفهم ما كتب في تلك الفترة عن فساد الأحوال الاجتماعية بمعزل عن فهمنا لما عرفت به أمتنا على مدى التاريخ من حساسية شديدة وغيرة قوية على الأخلاق والدين.

---

5) مجلة البينة ع 9 س 1964 ص 139. 140.

على أن ما أشرنا إليه من فساد لا يرجع إلى توزع السلطة السياسية وحده، وإنما يرجع كذلك إلى تدهور الأوضاع الاقتصادية، ولا سيما في المدن والأقاليم التي لم يقيض الله لها أميرا يستقل بها ويدوم استقلاله، والتي تعاقب عليها الأمراء، وألحت عليها الحروب فلم تذق طعم السلم ولا عرفت معنى الرخاء.

ولعل مدينة فاس ونواحيها أن تكون أصدق مثال لهذا النوع : فقد كانت تعيش أزمات اقتصادية متوالية من جراء طمع الأمراء فيها وتسابقهم إليها، أمثال «محمد الحاج الدلائي»، ومولاي محمد بن الشريف»، «وأبي عبد الله العياشي»، «والخضر غيلان» ومولاي رشيد وغيرهم...

ويوشك من يقرأ أخبار المؤرخين عن محنة فاس وأهلها بأزمات المجاعات ومحن الغلاء أن يتهم هذه الأخبار بالغلو والمبالغة : من ذلك مثلا ما ذكره «الضعيف الرباطي» في تاريخه عن أزمات القحط والمجاعة التي تعاقبت على فاس في سنوات 1071 هـ و1072 هـ و1073 هـ. حيث بلغ من ضراوة المجاعة أن أكلت جيف الموتى الذين غصت بهم طرق البلدة وزنقاتها بعد أن ضاق المارستان بمن دفن فيه من ضحايا مجاعة سنة 1073 وعدتهم أربعة وثمانون ألفا[6].

ويذكر الضعيف الرباطي وغيره أن المدينة خلت من الرجال وخربت في أعقاب هذه الأزمات، فكان يعد بحومة الدوح مثلا ستمائة رجل فلم يبق منهم إلا ثلاثون، ولم يسع أعيان فاس حينئذ إلا اللجوء إلى زاوية الدلاء يستغيثون بأهلها.

وزاد من بؤس البلد ونكبة أهلها أن وقع في سنة 1078 زلزال عظيم، اضطربت على اثره الحياة الاقتصادية من هبوط في الأسعار لقلة الطلب

---

6) تاريخ الضعيف الرباطي ص 25 و26.

خلال بضع سنوات، إلى الغلاء الفاحش سنة 1084 هـ لندرة المعروض من ضرورات العيش[7].

ولكن هذه الأخبار مهما تبد محتملة للغلو فيها، يمكن أن تعطينا فكرة واضحة عن الحالة الاقتصادية بفاس. ولنا أن نقول دون أن نطيل بذكر أمثلة أخرى إن مدينة مراكش كانت تعاني أيضا من أزمات اقتصادية[8] إلا أنها كانت مع ذلك أحسن حالا من فاس.

وأما بقية الأقاليم، فإن الحياة الاقتصادية فيها كانت أقل سوءا، رغم حالة الحرب التي شملتها جميعا : فمدينة تطوان كانت تستفيد من الأمن والعدل في ظل حكامها «أولاد النقسيس»[9]، وكانت لها معاملات مع تجار أوربا التي لا تبعد عنها إلا بأميال معدودة، فكانت تصدر السلع وتستوردها، وتقوت صناعتها وزراعتها بمن وفد عليها من العائلات الأندلسية المهاجرة ولا سيما في سنوات 1017 إلى 1019 هـ. إلا أن المدينة لم تسلم من شرين عظيمين : شر الحرب بين أولاد النقسيس وأبي عبد الله العياشي، وشر الوباء الذي نزل بها سنة 1088 هـ، والذي بلغ عدد ضحاياه خمسين ميتا في اليوم[10].

ثم إن تطوان بحكم موقعها الجغرافي وقربها الشديد من أوربا، واجهت ضغطا شديدا من قبل الدول الأوربية المجاورة مثل اسبانيا والبرتغال، ولكنها صمدت وقاومت الأطماع الأجنبية والحملات العسكرية الاستعمارية بشجاعة وصبر.

---

7) تاريخ الضعيف الرباطي ص 25 و26.

8) من ذلك غلاء السبعين وألف الذي أكل الناس فيه الجيف كما في نزهة الحادي ص 246.

9) تاريخ تطوان لمحمد داود القسم الثالث من المجلد الأول.

10) تاريخ تطوان لمحمد داود القسم الثالث من المجلد الأول ص 428. 430.

أما الأقاليم الأخرى، فإن حالتها لم تكن تختلف كثيرا عن حال تطوان : فمدينتا سلا وآزمور كان لهما أسطول بحري عرف من التطور زمن أبي عبد الله العياشي ما أقلق بال الدول الأوربية[11]، كما أن مرفأيهما كانا يشكلان بابا من أبواب التجارة المغربية مع الخارج، ثم إن عددا من العائلات الأندلسية استوطنت «سلا» مما زاد في إنعاش الحركة الاقتصادية بها.

والمدينتان معا كانتا تمارسان أعمال «القرصنة البحرية»، ونحن نستعمل هنا نفس المصطلح الذي تستعمله كتب التاريخ الأجنبية، وهو أول ما يتبادر إلى الذهن عندما نذكر أن المدينتين كانتا تتوفران على سفن حربية تعترض بها طريق السفن التجارية الأجنبية، وسفن القراصنة الأوربيين، وتسلبها حمولتها من البضائع وغيرها... إلا أن الأمر لم يكن على هذه الصورة المتبادرة إلى الذهن : ذلك أن المغاربة والأوربيين، كانوا يعيشون في حالة حرب، وكانت الأساطيل الأوربية توالي هجماتها على الشواطئ المغربية وكانت القوات الاسبانية والبرتغالية تحتل بعض المدن والثغور المغربية الشاطئية فعلا، وكان هناك تهاون من بعض الأمراء المغاربة في مواجهة هذه الأطماع وردع العدو الغاصب، فكان ما يسمى بالقرصنة المغربية التي ما هي في الواقع إلا صورة من صور المقاومة الشعبية ضد الحملات الاستعمارية الصليبية، ونوع من رد الفعل تجاه الأطماع الأجنبية.

أما الصحراء والسوس، فقد كانا ممرا لقوافل الذهب المصفى الآتية من غينية[12]، وكان لذلك الممر أهمية بالغة في إنعاش اقتصاد المنطقة. إلا أن الحروب التي كانت بين أبي حسون السملالي وشرفاء سجلماسة، أضرت بالأمن

11) انظر المراسلات التي ترجمها الأستاذ محمد الفاسي في مجلة البينة.

12) مجلة تطوان ع 9 س 1964 ص 65 ـ 66.

والاستقرار سنين طويلة من هذه الفترة التي نحاول فيها دراسة الحياة الاجتماعية، وترتب على ذلك اضطراب في الوضع العام لتلك الناحية[13].

وكان إقليم الدلاء ينعم هو الآخر بالحياة الهادئة طيلة حكم الدلائيين ـ وهو إقليم غني بزراعته وثروته الحيوانية، وكثرة موارده الاقتصادية ـ ولكن الأحوال اضطربت فيه بخروج الحكم من أيدي أبناء أبي بكر الدلائي، وتخريب الزاوية الدلائية وإخلائها على يد المولى رشيد.

☆ ☆ ☆

هذا عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في أهم الأقاليم المغربية إبان الفترة الفاصلة بين سقوط الدولة السعدية وقيام الدولة العلوية، وهي كما رأينا حياة مضطربة حافلة بالتقلبات السياسية والحروب الأهلية والكوارث الطبيعية والأزمات المالية.

وننتقل الآن إلى دراسة الحياة العامة في ظل الدولة العلوية الشريفة. وقد أشرنا في الفصل السابق إلى بعض الإصلاحات التي أدخلها مولاي رشيد على النظام النقدي وعلى الميزان التجاري في بعض المناطق، وعلى الحياة الاقتصادية بصفة عامة، مما كان له مردود عظيم أدى إلى تدارك الضعف الاقتصادي الذي كاد يؤدي بالمغرب إلى فقدان سيادته.

---

13) ومما يؤيد ذلك ما جاء في رسالة وجهها محمد بن أبي بكر الدلائي إلى أبي الحسن بن علي ابن موسى حيث يقول عن سجلماسة :

فهي قاعدة القرى الصحراوية فبصلاحها يصلح كلها أوجلها وبفسادها يفسد غيرها وقد كانت فيما قرب من تاريخ وقتنا دار علم ودين وصلاح ومستراح القاصدين والواردين ومتجر الرباح فتعاقبت عليها أيدي الولاة والعمال ونظر إليها ملوك وقتنا نظر إهمال ثم أعقب ذلك سنون الغلاء والشرور ودام عليها ذلك فكان دخولهم إياها على حين ضيقة وافتراق أهلها واضطراب أحوالها وتزلزلها... (المخطوط رقم 91 ج خ ع. ص 72).

أما المولى إسماعيل فرغم الاضطرابات الاقتصادية التي لم يسلم عهده منها، فإن المغرب عرف في أيامه رخاء ونماء اقتصاديا واتساعا في العمران بعد العهد بمثله : والسبب في ذلك، هو ما اتخذه هذا الملك العظيم من تدابير سياسية واجتماعية كان لها أطيب الأثر على الحياة الاقتصادية. ونجمل هذه التدابير في النقط الثلاث التالية :

أولا : السياسة الخارجية المتفتحة : ذلك أن المعاهدات التي أبرمها المولى إسماعيل مع الدول الأجنبية، والضمانات والتشجيعات التي كانت تمنح للتجار الأجانب، أدت إلى تصاعد مهم في حجم المبادلات التجارية بين المغرب والخارج. وكمثال على ذلك نذكر المعاهدة الأنجليزية المغربية سنة 1727 م[14] التي تم فيها الاعتراف لأول مرة في تاريخ المغرب بحق الحماية الأجنبية للرعايا الأجانب ولمصالحهم، وكل ذلك لأغراض تجارية. كما أن الحوار الذي كان مفتوحا ومستمرا بين مولاي إسماعيل ولويس الرابع عشر، أدى إلى إعطاء التجار الفرنسيين امتيازات وضمانات قوية، شجعتهم على التعامل مع المغرب وتزويده بما يحتاجه من البضائع الطبيعية والصناعية. وقد منح مولاي إسماعيل القنصل الفرنسي بمدينة سلا كل الضمانات لجميع التجار الفرنسيين لممارسة تجارتهم مع المغرب وحرية إخراج كل البضائع بما في ذلك الجلد، وكذلك موافقته على شراء العبيد[15]...

وهكذا تعددت وتنوعت واردات المغرب وصادراته بشكل يضمن حاجة السوق الداخلية وينعش الحياة التجارية والاقتصادية بالبلاد. ففي ما يتصل بالواردات مثلا، كان المغرب يتلقى الحرير والقطن والتوابل والفضة من الشرق، والكبريت من إيطاليا، والصباغة بأنواعها من إسبانيا، وكانت فرنسا

---

14) مجلة البحث العلمي غشت 1965.

15) Histoire du Maroc. par. J.B وانظر المنزع اللطيف لابن زيدان ص 188.

تزوده بأثواب إقليم (لون كدوك) والمنسوجات الصوفية والقلانس الحمراء من مرسيليا، والكتان من (روون)، وأسلاك الذهب من (ليون) والأواني النحاسية... وبصفة عامة كان الفرنسيون يحتكرون تجارة الكتان، والأنجليز تجارة الأثواب الصوفية، أما تجار البندقية فقد كانوا عاجزين على المنافسة في هذا الميدان، كما كانت أوربا مصدرا للأسلحة أما الموانئ المغربية فكانت تصدر الشمع الخام والصوف والنحاس والتمر واللوز وريش النعام والفخار والرصاص الخام[16]...

ومعلوم أن هذا النشاط التجاري من شأنه أن يدر على خزينة الدولة مداخيل مهمة، ولا سيا إذا علمنا أن الضرائب كانت مرتفعة : فبلغت بالنسبة للواردات 10 ٪ وبالنسبة للصادرات 25 ٪.

ثانيا : الأمن والاستقرار : وجهود المولى إسماعيل في هذا الميدان تستحق كل تقدير وتنويه، فقد جعل حدا للصوص وقطاع الطرق، وبث قواده وأعوانه والقضاة والحكام في كل المناطق المغربية حاضرة وبادية، فسهل على الناس الاحتكام في منازعاتهم إلى من ولاه الله أمرهم، وانتشر الأمن وساد العدل نسبيا فاطمأن الناس على أرزاقهم مما أعاد إلى الأسواق عمارتها وإلى التجارة نفاقها. يقول أحد الرهبان ممن كانوا بالمغرب أيام المولى إسماعيل لمواساة أسرى النصارى يإذن منه : «إنه طهر الطرقات والبوادي من القطاع قتال الأرواح، وكانت ملأى بهم من قبل. وان الأمن الذي يسود الآن بفضله راجع لعقابه بالروح أو بالمال كل جوار المحل الذي تقع به الجريمة حتى إنك تقطع اليوم إيالته كلها في أمن تام وسلام»[17].

---

16) Histoire du Maroc. par. J.B وانظر المنزع اللطيف لابن زيدان ص 188.

17) مجلة تطوان. العدد الخاص بمناسبة الذكرى المائوية الثالثة لجلوس المولى إسماعيل على العرش. ص 6.

ثالثا : التوسع في العمران : فقد ضرب فيه بسهم وافر، وأكثر من البناء حتى قال الناس إن له أعوانا من الجن تساعده. يقول المؤرخ الشريف مولاي عبد الرحمن بن زيدان عن المولى إسماعيل : «كان رحمه الله إذا فتح بلدة من البلاد، أو قرية من القرى، سواء كانت بعيدة أو قريبة، أعظم شيء يقدمه في أعماله هو بناء رباط يحتوي على عدة دور ودكاكين للتجارة، ومعامل للحرف والصنائع، وأبراج متينة وأسوار تحوط الجميع غالبا، وبيوت لخزن المؤن والسلاح والبارود. فكان المسافر ربما يمر على البلدة وهي قفرة خالية عن العمارة مخوفة، فيرجع عليها وقد أمست مأوى الهناء والأمن، مملوءة بالتجارة والحرف والمساجد والمدارس، كأن الأرض غير الأرض والرجال غير الرجال، حتى إنه يشك هل أخطأ الطريق أم لا»[18].

وآثار هذا الملك ما تزال قائمة إلى الآن، وخصوصا بمدينة «مكناس» التي كان يشتغل ببناء قصورها ثلاثون ألف شخص، يحملون على عشرة آلاف بغل، كما ورد في المنزع اللطيف نقلا عن رحلة «الكمندور استيفان» الانجليزي[19] وفي المصادر التاريخية وصف مسهب لهذه القصور[20] التي كان

---

18) المنزع اللطيف لابن زيدان ص 67. 68. 69. وكلامه صالح للاستدلال رغم ما يبدو عليه من التكثر والمبالغة. أما المدن التي يشير إليها فهي القصبات التي بناها المولى إسماعيل وملأها بجيش العبيد.

19) المنزع اللطيف ص 63.

20) جاء في كتاب (الترجمان المعرب : وجعل لهذه القصبة عشرين بابا عادية وفوقها بساتين للمدافع ومهارز وجعل داخل القصبة بركة عظيمة يسير فيها الفلائك للفرجة وجعل بها هريا للزرع وجعل بجواره سواني للماء في غاية العمق مقبوة وفوقها (سقالة) للمدافع وجعل بها اصطبلا لخيله وبغاله طوله ثلاثة أميال مسقف الدائرة بالبرشلة، قيل كان به مربط اثني عشر ألفا من الخيل. وهري مقبو تحت الأرض يكون به الشعير لعلف الخيل، وجعل في وسطه هريا عظيما في غاية الضخامة والارتفاع تكون به سروج الخيل وإقامتها وبنى فوقه قصرا اسماه المنصور فيه عشرون قبة كل قبة فيها برج مشرف على بسائط =

المولى إسماعيل يهتم ببنائها اهتماما خاصا جعله لا يتردد أن يتناول المسحاة أو أية آلة من آلات البناء بيده، ويعمل مع العمال، ويختبر الجير والتراب وغيره خشية أن يكون فيه غش، كما يختبر استقامة الجدران حتى لا يكون فيها ميل أو عيب[21]. حتى كاد البناء يشغله عن شؤون الرعية كما أشار إلى ذلك الزياني[22].

ورغم أن يد التخريب تسلطت على هذه المدينة، فإن ذلك لم ينل من جمالها : يقول الناصري ناقلا عن البستان الظريف : «ومن يوم مات المولى إسماعيل، والملوك من بنيه وحفدته يخربون تلك القصور على قدر وسعهم، وبحسب طاقتهم، ويبنون بأنقاضها من خشب وزليج، ورخام ولبن، وقرمود ومعدن، وغير ذلك إلى وقتنا هذا، وبنيت من أنقاضها مساجد، ومدارس، ورباطات، بكل بلد من بلدان المغرب وما أتوا على نصفها هذه مدة من مائة سنة. وأما الجدارات فلا زالت ماثلة كالجبال الشوامخ، وكل من شاهد تلك الآثار من سفراء الترك والروم يعجب من عظمته ويقول : ليس هذا من عمل بني آدم ولا يقوم به مال»[23].

= مكناسة وجبالها، وغرس بجوار هذا الاصطبل بستانا على طوله فيه من أنواع الأشجار كل غريب وبداخل هذه القصبة نحو الخمسين قصرا، كل قصر بمسجده وحمامه وميضاته لا يفتقر لغيره» ا.هـ.خ.ع 456 ص 13.

ووصف ابن زيدان هذه المدينة بتفصيل-في كتابه اتحاف اعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس. كما وصفها الكنسوس في الجيش العرمرم.

ووضع لها الأستاذ المنوني دليلا في مقال له نشر بمجلة دعوة الحق. وهو بحث تاريخي قيم تحت عنوان : «دليل القصبة الإسماعيلية بمكناس». دعوة الحق العدد الرابع السنة العاشرة مارس 1967.

21) الاتحاف لابن زيدان ج 2 ط 1930 ص 51 ـ 52.

22) الترجمان المعرب ص 13.

23) الاستقصا للناصري ج 7 ص 55. 56 والجيش العرمرم للكنسوس ص 68.

على أن التوسع في العمران الذي استفادت منـه البلاد وانتعشت بسببـه الحركة الاقتصادية، هو ذلك التوسع المنصرف إلى بناء القناطر، وشق الطرق، وإحداث الأسواق المنظمة في المدن الكبرى، وبناء المدارس والرباطات وإقامة المصـانع...الخ أمـا بنـاء القصـور والمنتزهـات، فلئن كان نـافعـا من النـاحيـة الحضارية، فإنه في رأينا كان سابقا لأوانه، لأن الدولة كانت فتيـة، والحروب الداخلية والخارجية تستنزف طاقاتها، ولم يكن من شأن تلك القصور الواسعة إلا أن ترهق الرعية بـالتكاليف[24]، وتـدفعهـا إلى إثـارة القلاقل، ورحم اللـه السلطان سيدي محمد الثالث الذي قال : «وددت أن جدنـا إسماعيل بنى تلـك البساتين العادية والأسوار الجافية الهائلة التي بقلعة مكناسة في ثغور المسلمين، لعمت جميعها وكانت نكاية في نحر العدو وحصنا حصينا للمسلمين»[25] وقبلـه كتب الشيخ أبو علي اليوسي إلى المـولى إسماعيـل نفسـه يقـول : «لم يتـأت في الوقت إلا عمارة الثغور وسيدنا غفل عنها فقد ضعفت اليوم غاية»[26].

بعد هذه النظرة العامة عن مجتمع اليوسي نود أن نقف عند بعض القضايا الاجتماعية التي تساعدنا على فهم الحياة العامة للأمـة وأحوال الشعب في تلـك الفترة.

1 ـ المعتقـدات والعـادات : يقول المؤرخ الشهير (أحمـد اكنسـوس في كتابه (الجيش العرمرم الخماسي) : «ومن محـاسن هـذه الـدولـة السعيـدة (يعني الدولة العلوية) وهو أمر قـد اختصت بـه لا يشـاركهـا فيـه غيرهـا من جميع الدول، خلو دولتهم من أمرين، الأول، فساد الاعتقاد كالتشيع والاعتزال.

24) جـاء في كنـاشـة العربي الـدكالي في وصف مـا تحملتـه الرعيـة من نفقـات : «العمال تجلب الأموال والرعايا تدفع بلا حسـاب، وصـار أهل المغرب كفلاحي مصر يخدمون ويـدفعون كل جمعة» المخطوطة رقم 91 جـ ص 112.

25) من مقال دليل القصبة الإسماعيلية بمكنـاس للبحـاثـة الأستـاذ محمـد المنوني دعوة الحق ع 4 س 10 مارس 1967.

26) الاستقصا للناصري ج 7.

والأمر الثاني، الانهماك في المعاصي والتجاهر بمخالفة الشريعة.

فجميع الدول لابد تجد فيها فردا أو أفرادا قد خلعوا جلباب الحياء عن وجوههم في استباحة محارم الشريعة بخلاف هذه الدولة. (....) وأما سوء الاعتقاد فإنه انقطع من بلاد المغرب بظهور هذه الدولة الطاهرة، فقد كان فيها الأباضية والصفرية، والروافض، والمعتزلة، والمجسمة، فقطع دابرهم والحمد لله»[27].

وما قاله (اكنسوس) أمر طبيعي بالنظر إلى أصل العلويين ونسبهم الشريف الذي يصل قلوبهم بالسنة، كما وصلهم نسبهم بصاحبها عليه الصلاة والسلام. وهو أمر طبيعي أيضا بالنظر إلى التكوين الخاص الذي تلقاه ملوك هذه الدولة عن آبائهم وأجدادهم الذين كان جلهم من العلماء الأجلاء المتمسكين بأهداب السنة النبوية الشريفة، فلا بدع إذا رأينا ملوك هذه الدولة يذودون عن السنة المحمدية، ويشهرون سيوف النقمة على أصحاب البدع والمذاهب الفاسدة. على أن هذا الفضل لا تختص به الدولة العلوية وحدها وإن كانت قد أربت على غيرها فيه. ذلك أن الدول السابقة في المغرب كانت في معظمها سير في هذا الاتجاه، ولا تألو جهدا في القضاء على فساد الاعتقاد، وفساد العادات، وانحطاط الأخلاق وما لا يوافق كتاب الله وسنة رسوله. حتى في فترة الفراغ السياسي الذي عرفه المغرب ما بين سقوط الدولة السعدية وقيام الدولة العلوية، وجدت السنة المحمدية من يذود عنها وينافح ويجاهد في سبيلها ويكافح، من رجال القرويين، وشيوخ بعض الزوايا الصالحة وغيرهم من العلماء.

ومع الجهود العظيمة التي بذلتها الدولة العلوية وبذلها أرباب الزوايا وعلماء الأمة في هذا الشأن، فإن المجتمع المغربي لم يسلم من الاعتقادات

---

27) الجيش العرمرم الخماسي ص 44 ـ 45.

الفاسدة، ومن الأفكار والتصورات الدينية الخاطئة في هذا العهد كما لم يسلم منها في العهود السابقة. ولا نجد مثالا على ذلك أحسن من الانحراف والفسوق والكفر الواضح في اعتقاد وسلوك (طائفة العكاكزة) تلك الطائفة الضالة التي أفتى فيها اليوسي فتواه الشهيرة فقال : «المتقرر عندنا أنهم كفار مع تجويز أن يكون فيهم جاهل بطريقهم، (...) والظاهر مع ذلك أنهم يستخفون من الناس إلا عند الأمن، فهم زنادقة. أما الكفر فيدل عليه أمور : (نلخصها من كلامه) فمن ذلك أنهم :

1 ـ لا يزالون عند جدالهم للمسلمين يقولون : «ديننا كذا ودينكم كذا»، ومن هذا المعنى قولهم للمسملين : إنكم أصحاب محمد، ونحن أصحاب أحمد وأصحاب المنزول.

2 ـ ومن ذلك ما شاع عنهم من القول في (المنزول)، فتارة يسندون إليه الأمور، يرون أنه هو الإله، وتارة يسندون إليه الأحكام، يرون أنه هو الشارع، وكلاهما كفر صراح.

3 ـ ومن ذلك ما ارتكبوه من رفض المأمورات كالصلاة والصيام... واقتحام المنهيات مستحلين غير مكترثين.

4 ـ وأما سفكهم لدماء من ظفروا به من المسلمين غيلة أو جهارا في زمن الفتنة فأمر شهير، وهو نتيجة ما يضمرون من تغاير الدينين، والكفر الموجب للبغضاء : وفي الحديث «من حمل علينا السلاح فليس منا».

5 ـ وأما اجتماعهم رجالا ونساء، وما يقع بينهم في ذلك من الفحشاء والمنكر، فأمر شهير أيضا لا ينكر.

6 ـ ومن ذلك أنهم لا يتعلمون الدين من الفقهاء، ولا يغشون مجالس علماء الملة، ولا يسألون عن الأحكام الشرعية، بل ولا يرفعون عقودهم للمسلمين، وذلك كله دليل على أن لهم في زعمهم شرعة اكتفوا بها.

7 - ومنهم من لا يرى تزويج نسائه من المسلمين (كالبضاضوة) من أعراب تادلا.

8 - وأما سبهم للنبي ﷺ، وتبريهم منه، والتصريح ببغضه، وتفضيل المنزول عليه، فأمر شهير أيضا لا يخفى.

وأما كون هؤلاء الفجار يستخفون، فأمر واضح يشهد به من عرفهم، وعلامة ذلك إنكارهم لما هم عليه عند الخوف.

وقد شاع عند العام والخاص أن لهم كتابا يعرف (بابن رباش)، فيه ما زعموا من المناجاة الواقعة للمنزول. وقد ثبت ارتداد من لا تحجزه رصانة التقوى ولجام التوفيق إلى دينهم، استحلاء لتلك الفواحش واستئناسا بتلك البطالة، وهذا من أعظم المصائب.

ومن مجادلاتهم ما حكاه بعض الطلبة قالوا : اجتمع العكازون فدعونا فقالوا نبيكم محمد ؟ قلنا «نعم» قالوا : به تقع شهادتكم عندما تموتون ؟ قلنا «نعم». قالوا فبأي شيء تشهد هو عند الموت ؟ إن آمن بنفسه فقد زكى نفسه، وإن آمن بغيره فأين غيره ؟».[28]

وظهور مثل هذه الطوائف ليس غريبا بالنظر إلى الأحداث التي عاشها المغرب في تلك الفترة العصيبة من تاريخه، ويمكننا أن نجد أمثلة أخرى عن فساد الاعتقاد والابتعاد عن السنة في تلك الأوساط الصوفية الدائرة في فلك بعض الأقطاب المزعومين المزورين، وما تلك الحلقات التي كانت تعقد للرقص في الزوايا، وتلك الهمجية التي تظهر في بعض المواسم الدينية بين جنبات الأضرحة والمزارات، وما ذلك التقديس الذي كان أرباب الطرق يحتفظون به لأنفسهم في قلوب أتباعهم، وما تلك الكرامات وخوارق العادات التي يدعيها أصحاب الزوايا وتلك القدرة على التصرف في الكون التي كانت تنتحلها شخصية القطب إلا أمثلة واضحة على فساد الاعتقاد.

---

28) فتوى اليوسي في العكاكزة. المخطوطة رقم 1224 ك. ص 167 خ.ع.

ب - قضية تمليك الحراطين : تعتبر هذه القضية من الأمثلة على مستوى الحريات العامة وحرية الفكر في المغرب في ذلك العصر سيما إذا نظرنا إلى ما أثارته هذه القضية من مناقشات طويلة، وجدال عنيف، بين علماء تلك الفترة فيما بينهم من جهة، وفيما بينهم وبين السلطان من جهة أخرى، وما كان لها من صدى واسع تعدى حدود المغرب حتى صدرت فيها أجوبة لعلماء المشرق بعد أن وصلتهم رسائل المولى إسماعيل تستفتيهم، وتعرض عليهم صورة الخلاف بينه وبين علماء المغرب.

وسيأتي مزيد بيان عن موقف العلماء من خلال فتاويهم في هذه النازلة وذلك في المبحث المتعلق بشخصية اليوسي عالما ومؤلفا.

وملخصها أن السلطان أراد أن يكون جيشا من العبيد، فجمعوا له من ثبتت رقية ومن لم تثبت، واستفتى العلماء في ذلك فأنكره معظمهم. وأصر السلطان على تكوين هذا الجيش بهذه الصفة لأسباب وظروف كانت تمليها ضرورة حماية البلاد من الفتن الداخلية والتهديدات الخارجية. وأصر العلماء على موقفهم إلا قلة قليلة. وتم الأمر للسلطان على ما أراد وأصبح جيش العبيد حقيقة واقعة.

والذي نميل إليه هو أن رعايا السلطان كانوا يعتبرون عزمه على شراء العبيد تصرفا عاديا من جملة التصرفات التي يباشرها عدد من الناس في ذلك العهد، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا إن الشعب كان إلى جانب السلطان، يحبذ فكرته ويؤيد مشروعه، ذلك أن الغاية من شراء العبيد، هي تكوين جيش قوي عتيد لحرب الكفار، وتحرير الشواطئ، وحفظ الأمن الداخلي، وهي مهمة كان المتطوعون والمجندون من أبناء الشعب هم الذين يقومون بها قبل تكوين جيش العبيد، مما كان يشغل الناس عن أعمالهم التجارية والفلاحية والصناعية، ويتسبب في نقص ملحوظ في الدخل الفردي

والجماعي، وتكوين جيش رسمي، من شأنه أن يخفف الأعباء عن الشعب، ويوفر له أسباب التفرغ للكسب، وهذا في حد ذاته سبب معقول لا يبعد أن يدفعه إلى تأييد المشروع.

أما الأشخاص الذين تنازلوا عن عبيدهم للسلطان فلم يلحقهم ضرر يذكر، لأن السلطان أدى لهم تعويضا مناسبا كما تشهد بذلك الوثائق المتعلقة بهذه المسألة.

ولم يكن هناك ما يأسف عليه العبيد الذين انتقلوا من ملكية أسيادهم إلى ملكية السلطان، لوجود الرقية والعبودية في الحالين، فلا مجال للتفضيل أو الخيار.

إنما الأشخاص الذين لا يخلو أمرهم من وقوع الضرر عليهم، هم أولئك الأحرار الذين لم يثبت وجه رقيتهم بحال، والذين تملكهم السلطان لمجرد سواد لونهم أو وجود صلة قرابة بينهم وبين الأرقاء الحقيقيين. وهذه المسألة بالذات هي التي كانت محل اعتراض العلماء، ومع ذلك فإن الضرر الحاصل لهؤلاء الأحرار هو التحاقهم بجيش السلطان ودخولهم في ملكيته، ولا يبعد أن يوجد من بينهم من اعتبر ذلك نعمة وشرفا، كما لا يبعد أن يكون أكثرهم قد رضي بوضعيته الجديدة، على اعتبار أنها تضمن له ولأسرته ضروريات العيش.

وبعد فإن قضية تمليك الحراطين من القضايا التي تتطلب فهما خاصا منطلقا من معطيات العصر الذي وقعت فيه. فنفس القضية يمكن أن نعتبرها من وجهة نظر عصرنا مأساة إنسانية، بينما لم تكن كذلك في وقتها.

أما موقف العلماء فهو الموقف المرجو من حملة الأمانة العظيمة التي أناطها الله بهم، وما كانوا ليوافقوا على تصرف يرونه مخالفا للشرع.

☆ ☆ ☆

ومن أهم القضايا التي تكتسي طابعا اجتماعيا، وتساعد على فهم دقيق لعصر اليوسي، قضية امتحان القضاة أيام المولى إسماعيل. وسببها أن الجهاز القضائي كان يشتمل على جماعة من القضاة الذين لا يتوفرون على المستوى اللائق من حيث فقه الشريعة المحمدية، والعلم بالأحكام، والبصر بفض المنازعات على الوجه الشرعي المطلوب. مما أدى إلى ظهور الأحكام الفاسدة، وكثرة الجور، وتفاحش الظلم.

والحق أن المولى إسماعيل كان حريصا كل الحرص على إقامة العدل بين رعيته، وعلى الإنصاف وتطبيق أحكام الشريعة المحمدية تطبيقا صحيحا، وكان رحمه الله يجلس بنفسه للاستماع إلى شكاوى الضعفاء والمظلومين والأرامل والأيتام، وكان ينصفهم ممن اعتدى عليهم كائنا من كان، بالإضافة إلى حرصه على السرعة في تنفيذ الأحكام، ومعاقبة الظلمة بأقسى أنواع العقوبات. كما أنه كان شديد العناية بالجهاز القضائي، كثير التحري في اختيار القضاة، جادا في السؤال عن أخبارهم وتتبع أحوالهم، غير متردد في معاقبة المرتشين الظالمين منهم والاحسان إلى النزهاء الفضلاء من بينهم. وقد وفقه الله إلى اختيار جماعة من أهل العلم والمروءة لتولي هذه الخطة، فحسنت سيرتهم وأثنى عليهم الخاص والعام[29]، ولكن هذه النخبة المختارة لم تكن تسد سوى حاجيات الحواضر، الشيء الذي جعل البوادي تعاني نقصا ملحوظا في هذا الباب. ولمواجهة هذا النقص، اضطرت الدولة إلى قبول عدد من القضاة الذين لا يتوفرون على الكفاءة العلمية أو الصفات الخلقية اللازمة.

---

29) انظر المنزع اللطيف لابن زيدان ولا سيما الفصل الخاص بقضاة المولى إسماعيل مخطوط خ.ع. 595 جـ.

ثم إن البوادي كان لها قانون عرفي خاص، توارثه أفراد القبائل أبا عن جد، وتلقاه جمهورهم بالقبول، ولم يكن هذا القانون موافقا للشريعة الإسلامية ولا سائرا على نهجها القويم في كثير من أحكامه وقواعده[30]، ومع ذلك رضيته القبائل وخضعت له، وكان قضاتها يصدرون الأحكام على وفقه، ولا سيما أن زادهم من فقه الشريعة قليل وبضاعتهم منه مزجاة.

كل هذه العوامل أدت إلى التفكير في إصلاح قضائي جذري، والإصلاح الذي من هذا النوع له أساليب متعددة من بينها إجراء اختبار على القضاة، وحملهم على تكميل تكوينهم، وإبعاد الأفراد الذين لا أمل في إصلاحهم، ومحاسبة أولئك الذين استغلوا وظيفتهم الشريفة للإثراء أو الاعتداء على حقوق الناس.

وهكذا في سنة 1093 «أمر السلطان بقبض جميع القضاة، وامتحنوا، ووصفوا بالجهل وسجنوا في مشور فاس الجديد على أن يتعلموا، ثم أخرجوا أيام المولد لمكناسة فهددوا أيضا حتى أمر بحبس بعضهم أو القتل وأطلقوا معزولين»[31].

قال أبو عبد الله الكنسوس تعليقا على هذا الخبر «ولعل المراد بهذا قضاة البوادي أو يراد العموم لأن من ولى الجاهل وقبل خطابه هو الجاهل الأكبر، ثم إذا وقع النظر والاحتجاج وأفضى الحال إلى الضرورة ظهر حكم آخر»[32].

---

30) نوازل العلمي خ.ع 832 ك.خ.ع يتضمن أقوالا لكثير من العلماء في ما كانت عليه البوادي.

31) الجيش العرمرم ص 119 والخبر منقول عن صاحب الأزهار الندية.

32) الجيش العرمرم لأبي عبد الله الكنسوس ص 119. خ.ع 315 ك.

وكلام صاحب الأزهار الندية فيه إطلاق لا يصح إلا مع التقييد. ذلك أن المغرب عرف في ذلك العهد قضاة مهرة يتمتعون إلى جانب مستواهم الخلقي الرفيع بعلم واسع ومعرفة كبيرة بفقه الدين واحترام زائد من قبل السلطان، وقول أبي عبد الله أكنسوس بأن المراد قضاة البادية أظهر وأقرب إلى الصواب.

ولا شك أن عملية امتحان القضاة هاته كان لها وقع حسن في نفوس المغاربة، لا سيما وأنهم عانوا من ظلم القضاة وجهلهم مدة طويلة، وقد كانت شعوب العالم وما تزال تواقة إلى العدل، كارهة للظلم، متحمسة لكل عمل من شأنه أن يضرب على أيدي العتاة الظلمة، أو المتلاعبين الموصوفين بالغش والرشوة والخيانة.

إلا أننا لا نذهب إلى أن المولى اسماعيل كان يقصد من وراء القضية إثارة حماس الأمة وجلب تأييدها لأغراض سياسية، ذلك أن المولى اسماعيل لم يكن في نظرنا محتاجا إلى هذه الأساليب، وإنما مرد الأمر إلى غيرته على العدل وحرصه على أن يسود حكم الشريعة في البلاد وينتفع به العباد.

ثم إن علماء المغرب في تلك الفترة ـ ومنهم شيخنا أبو علي اليوسي ـ لم يفتأوا يطالبون بالعدل والانصاف، ويستنكرون الظلم والاجحاف، ويعبرون عن تذمر الأمة وضيقها بالحكام، وكل ذلك وجد استجابة صادقة من طرف المولى اسماعيل، وأنهضه إلى الإصلاح. وقد سبق أن أشرنا إلى الرسالة التي بعث بها أبو علي اليوسي إلى المولى اسماعيل في هذا الشأن والتي حثه فيها على الالتفات إلى حالة الرعية مع الحكام والضرب على أيدي الظالمين ولا بأس أن نقتطف منها ما يتصل بالموضوع.

يقول أبو علي اليوسي في رسالته : «وأما الأمر الثالث (وهو الانتصاف من الظالم للمظلوم)، فقد اختل أيضا : لأن المنتصبين للانتصاف بين الناس

وهم العمال وخدامهم هم المشتغلون بظلم الناس، فكيف يزيل الظلم من يفعله ؟ ومن ذهب يشتكي سبقوه إلى الباب فزادوا عليه، فلا يقدر أحد أن يشتكي، فليتق الله سيدنا، وليتق دعوة المظلوم، فليس بينها وبين الله حجاب، وليجهد في العدل، فإنه قوام الملك وصلاح الدين والدنيا قالت تعالى : ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي**﴾ الآية وقال تعالى : ﴿**ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز**﴾ ثم ذكر تعالى المنصورين وشروط النصر فقال : ﴿**الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر**﴾ فضمن تعالى للملوك النصر وشرط عليهم هذه الأمور الأربعة، فمتى اختل عليهم أمر الرعية وتسلط عليهم من يفسد عليهم الدولة فليعلموا أن ذلك من إخلالهم بهذه الأمور، فكان عليهم الرجوع إلى الله تعالى، وتفقد ما أمرهم به، ورعاية ما استرعاهم إياه، وقد اتفقت حكماء العرب والعجم على أن الجور لا يثبت معه الملك ولا يستقيم، وان العدل يستقيم معه الملك ولو مع الكفر...الخ[33].

ولا شك أن هذه الرسالة ومثيلاتها من الرسائل التي صدرت من بعض العلماء الآخرين كان لها صدى طيب في نفس المولى إسماعيل ولا يبعد أن يكون ذلك من الأسباب التي دفعته إلى إصلاح الجهاز القضائي.

---

33) الاستقصا ج 7 ص 82. ولليوسي رسالة أخرى ذات أهمية كبرى في هذا الباب سماها : «ندب الملوك إلى العدل» وهي مخطوطة بالخزانة العامة تحت رقم : 647 ج.

المبحث الثالث :

الحياة الفكرية

أوت الثقافة الإسلامية إلى المغرب وهاجرت إليه مرتين : أولاهما مع الفتح الأول، على يد الجيوش الإسلامية التي كان من بين أفرادها علماء وفقهاء ومصلحون، يقاتلون في سبيل الله ويبلغون دعوة الإسلام ويعرضون على الناس مبادئ عقيدته، ويهدونهم الصراط المستقيم، ويعطونهم الكتاب والحكمة، ويغرسون في قلوبهم حب المعرفة.

والأخرى إثر سقوط الأندلس، حيث تدفقت على المغرب بخاصة وعلى شمال إفريقية بعامة أفواج من المهاجرين، تنقل معها ما استطاعت نقله من بقايا الثقافة الإسلامية الأندلسية، وتحمل إلى المغرب تراث أقوام لم يخلفوا شيئا أعز من العلم والفن والأدب.

ومنذ الفتح الإسلامي الأول، ووشائج الفكر مرتبطة بين المغرب والمشرق من جهة، وبينه وبين الأندلس من جهة أخرى، والرحلات العلمية حثيثة نشيطة بين هذه الأقطار لم تنقطع ولم تفتر على مر القرون وتعاقب الدهور.

ويشهد الواقع التاريخي بأن دول المغرب على اختلافها، لم تحرم الثقافة العربية الإسلامية من ظل رعايتها وفيض نوالها، بل إن كل واحدة من هذه الدول كانت تجتهد لتزيد على سابقاتها في رعاية الثقافة وتمهيد الطريق أمام كل ازدهار علمي منشود، لا نكاد نستثني من هذا الأمر دولة واحدة منها.

وكان من نتيجة ذلك أن عرف المغرب نهضة علمية كبيرة حتى في الوقت الذي كان المشرق يعاني من عصور الانحطاط بعد سقوط الدولة العباسية، وكأن أنوار العلوم ما غربت في المشرق إلا لتشرق في المغرب.

ففي القرن الحادي عشر الهجري مثلا حين كانت بلادنا تعرف أمثال الشيخ أبي علي اليوسي وغيره من العلماء الأعلام الذين سنذكرهم بعد قليل، كان المشرق يشهد فتورا ثقافيا ملحوظا حتى، إن أبا على اليوسي لما ذهب إلى الحج بحث عن أهل العلم بمصر فلم يجد سوى الفقيه سيدي محمد الخرشي شارح مختصر خليل، وأفراد قلائل لا يلزون في عداد العلماء. وقد اجتمع الخرشي بأبي على اليوسي وقرأ عليه شرحه على خليل وورقات من البخاري فأجازه اليوسي، وهذا يشير إلى أن الخرشي لم يكن إلا من طبقة تلاميذ اليوسي رحم الله الجميع[1].

جاء في الرحلة الحجازية التي كتبها ولد اليوسي ما نصه : «وليس بمصر من المساجد المشهورة للإقراء سوى جامع الأزهر، والغير لا تكاد تجد فيه مجلسا للعلم أصلا، وما كنا نسمعه قبل مشاهدتنا وحضورنا هذه البلدة، من إفشاء العلم والحث عليه، وكثرة العلماء والمتعلمين، وتعاطي الفنون ومداولتها، لم نر شيئا من ذلك، إما لدثوره وانقراضه بموت أهله كما في الحديث الشريف وإما لهراء المارين بهذه البلاد وهدرهم وافتخارهم بذلك بكونهم لقوا أهل العلم والصلاح، وقد قيل «حدث عن البحر ولا حرج

1) يقول ولد اليوسي في رحلته الحجية : «ووجدنا الشيخ الفقيه العلامة شارح مختصر خليل سيدي محمد الخرشي حيا واجتمعنا به وجاء لسيدي الوالد واجتمع به وقرأ عليه الخرشي ورقات من أوائل سيدي البخاري وأجازه سيدي الوالد (وهو رجل طويل أسمر اللون أمرد كبير السن). «الرحلة الورقة 83 خ.ع 1418 ك.

وحدث عن مصر ولا حرج» وكذلك أيضا أهل الصلاح والولاية المشهورين المعروفين المتصوفين ما رأينا منهم أحدا أيضا وقد بلغنا قبل هذا (...) بسيدي عبد الخالق بن سيدي الغازي حين حج وأخبرنا بشيء من هذا، فلم نزل نطلبهم ونسأل عنهم ونجد في ذلك فما لقينا أحدا منهم إما لاختفائهم عن الناس وخمولهم كما هو دأبهم وسجيتهم فيكون الناقل فوقه كذابا وإما لنقصاننا وعدم أهليتنا لرؤيتهم فلا حول ولا قوة إلا بالله»[2].

والجدير بالذكر أن المدة التي قضاها اليوسي بمصر كانت كافية للتعرف على البلد وأهله، فقد كان مقامه بها أثناء ذهابه إلى الحج قرابة نصف شهر وعند رجوعه مدة أربعة أشهر وتسعة أيام[3].

وما جاء في الرحلة من قول مؤلفها : «فلم نزل نطلبهم ونسأل عنهم ونجد في ذلك... إلخ» فيه تنبيه على خطإ من يظن أن اليوسي إنما عرف بمصر من أتى إليه ولم يسأل عمن لم يأت[4]، ونص عبارة الرحلة لا يخص أهل الصلاح بوقوع البحث عنهم دون أهل العلم بل إنه لا فرق بين أهل العلم وأهل الصلاح والولاية كما قال الإمام الشافعي رحمه الله : «إن لم يكن العلماء أولياء فليس لله من ولي»[5].

---

2) الرحلة الحجازية الورقة 99.

3) الرحلة الحجازية الورقة 100.

4) كالشيخ عبد الحي الكتاني الذي علق على ما جاء في الرحلة بقوله : «ولعل اليوسي وولده ما عرفا إلا من أتى إليهما فلم يقصدا أحدا لذلك عميت عنهم مقامات رجال ذلك الدور وهذا شأن الكثير من أهل المغرب إلى الآن وحتى الآن : استقر في طباعهم الاكتفاء بالقليل الذي عندهم فهرس الفهارس والاثبات ص 466.

5) النووي في كتاب التبيان. ويحكى نفس القول عن أبي حنيفة أيضا.

وقد ذكر الشيخ عبد الحي الكتاني بعض من كان في الشرق من كبار العلماء إبان رحلة اليوسي أمثال العجيمي[6] والبصري[7] والنخلي[8] في الحجاز وأحمد بن عبد الغني[9] المعروف بابن البنا الدمياطي والشمس البقري[10] والعجمي[11] والخرشي، في مصر، واتهم اليوسي بالإهمال الكبير إذ لم يأخذ عنهم «كما فعل كل أو جل أقرانه الذين رحلوا قبله وبعده[12]» ثم قال : «ولعله لم يجد من يملأ عينه هناك». ونحن أميل إلى هذا الرأي لما نعلمه من علو مرتبة اليوسي وتبحره في العلوم وعدم مواتاة الظروف في الشرق حينئذ

6) مسند مكة والحجاز وصوفيه أبو علي حسين بن علي العجيمي اليمني أصلا المكي دارا. له رسالة في الطرق الصوفية السائدة إلى زمانه في العالم الإسلامي، مع ذكر آدابها وأعمالها وأذكارها وأصلها وسلسلته إلى صاحبها وسلسلة صاحبها إلى مراجع الطرق. اشتملت على أربعين طريقة. توفي رحمه الله سنة 1113.

7) أحمد بن عبد الرضا البصري عالم مشارك في بعض العلوم كان حيا سنة 1085 هـ. له عدة تآليف منها آداب المناظرة، وعمدة الاعتماد في كيفية الاجتهاد...

8) أحمد بن محمد بن أحمد بن علي المكي الشافعي الشهير بالنخلي (أبو العباس) محدث صوفي ولد بمكة سنة 1044 وتوفي بها في المحرم سنة 1130. من تصانيفه : بغية الطالبين لبيان المشايخ المحققين المعتمدين...

9) شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الغني الدمياطي الشافعي المعروف بابن البنا عالم مشارك في أنواع من العلوم. ولد بدمياط ونشأ بها ثم ارتحل إلى القاهرة ثم جاور بالمدينة إلى أن مات بها. من تصانيفه اتحاف البشر بالقراءات الأربعة عشر، ومختصر السيرة الحلبية وكتاب في أشراط الساعة...

10) أحمد بن رجب بن محمد البقري المصري. عالم مشارك له مؤلفات منها در الكلم المنظوم بحل كتاب الشيخ ابن آجروم في النحو وتوفي سنة 1189 هـ.

11) شهاب الدين أحمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن محمد المعروف بالعجمي الشافعي الوفائي المصري. عالم مشارك. ولد سنة 1014 هـ وتوفي سنة 1086 (أي قبل حجة اليوسي) له من التصانيف شرح ثلاثيات البخاري وتنزيه المصطفى المختار عما لم يثبت من الأخبار والآثار وله فهرسة ذكر فيها شيوخه.

12) هنا تناقض مع ما نقلناه عنه من قوله : «وهذا شأن الكثير من أهل المغرب... الخ».

لظهور من هم في طبقته. فاليوسي كان غزالي وقته وكان من طبقة سعد الدين التفتزاني والسيد الجرجاني وأضرابهما كما صرح بذلك هو نفسه في كتابه (القول الفصل في الفرق بين الخاصة والفصل) وكما تشير إليه المصادر التي ترجمت له على ما يأتي بيانه عند دراسة شخصيته بحول الله.

ومع ما جاء في رحلة اليوسي، بخصوص الركود الثقافي الذي شهده الشرق في ذلك الوقت فإن أبا سالم العياشي لما قام برحلته الثالثة إلى المشرق سنة 1071 هـ، لم يلق بمصر من العلماء إلا أفرادا قلائل، مثل الشيخ عبد الجواد الطريني، وإبراهيم الميموني، الأول وجده قد أسن، والثاني : «أثر الهرم فيما عدا عقله، وأخذت السن من قواه ما ظهر أثره في قوله وفعله[13]». كما لقي الشيخ عبد السلام بن شيخ الإسلام أبي الأمداد إبراهيم اللقاني، وحضر أحد مجالسه : «وكان ميالا إلى الانفراد والنفور من العباد ولا يدرس إلا في الشهور الثلاثة : رجب وتالييه، وغالب تدريسه فيها الحديث». ولم يستفد العياشي منه شيئا كثيرا. وحضر أيضا درس الشيخ «موسى القليبي المالكي» الذي كان يقرئ (الجامع الصغير للجلال السيوطي) وكان العياشي يقبل من كلامه ويرد[14]. ولقي أيضا الشيخ «عمر فكرون» «وله شرح على (المختصر

---

13) رحلة العياشي ج1 ص 126.

14) ومن الأمثلة على ذلك قوله : ومن جملة ما قرر في حديث : «ايما عبد أبق من سيده فمات» إلى قوله ولو مات شهيدا «أن العبد إذا أبق فمات في قتال الكفار كان شهيدا من جهة قتله وعاصيا من جهة اباقه». ثم قال : بمنزلة من شرب خمرا فشرق به فمات، فإنه شهيد لغصته عاص بشرب الخمر اهـ كلامه. وهذا الأخير عندي غير مقبول لأن الشهادة رتبة شريفة وهي من الرخص التي ترخص الله بها لعباده المؤمنين فأكرمهم بها زيادة في ثوابهم على ما حملوا أنفسهم من المشقة المتلفة لأنفسهم في مرضاته، والعاصي بفعله لا يترخص له ولا سعي له في مرضاة ربه حتى يرضيه بالشهادة. رحلة العياشي ج 1 ص 127 ـ 128.

الفقهي) في أربع مجلدات إلا أنـه ليس بـذلـك «والشيخ» إبراهيم الميموني» «وهو ممن انفرد بتحقيق فني المعاني والبيان في هذه الـديـار بل وفي غيرهـا على مـا شهد به الاختبار وصدقته الأخبـار» وقـد صرح لـه هـذا الشيخ أثنـاء الحجـة الثانية لأبي سالم العياشي سنـة 1064 هـ بـأن الرغبـة في التوسع في هـذا الفن ضعيفة، فقصارى همة من يتعاطى هذا الفن مختصر السعـد ومـا يشـاكلـه من المختصرات. «ومن خيرة من لقيهم وأثنى عليهم الشيـخ «أبـو الحسن علي الشبراملسي الضرير»[15].

ولم تكن المدينة المنورة أحسن حالا من القاهرة، ولعل أكبر عـالم لقيـه العياشي بالمدينة هو «الملا إبراهيم» ومع أن العياشي قرأ عليه واستفـاد منـه إلا أن اتساع باع العياشي في الرواية جعل الملا إبراهيم يطلب منه الإجازة، قال العياشي : «فاستعنت بالله وكتبت له بطاقة تضمنت مرغوبه بعد أن نـاولتـه برامج رواياتي فقلت له اقتطف منه مـا أردت من الأسـانيـد وأسماء المشـايخ والمسموعات في أي ما فن لأن استيفاء جميعها يطول علي»[16].

وقـد تصـدر العيـاشي للتـدريس بـالمـدينـة، فـأقرأ مختصر خليل قراءة اعترف الحاضرون بأنهم «لم يروا مثلها منذ أزمان»[17]، قال العياشي «ولا بدع في ذلك فإن البلد شاغر من محققي العلوم سيما فقه المالكيـة، فلم نر من يحقق أدنى مسائله[18].

ووردت هذه الملاحظة العامـة في رحلـة العيـاشي حول المنـاصب الشرعيـة - وفيها يظهر غيـاب العلمـاء وانـدراس العلوم وخلو السـاحـة من الطبقـة التي تفرض نفسها على الحكام بما أوتيت من علم وإيمان وصلاح - يقول العيـاشي :

15) انظر الرحلة ص 145.

16) انظر الرحلة ج 1 ص 330.

17) رحلة العياشي ج 1 ص 330.

18) رحلة العياشي ج 1 ص 286.

«والحاصل أن المناصب الشرعية كلها في البلاد المشرقية حجازا ومصرا وشاما من إمامة وخطابة وأذان وإقامة وقضاء وفتوى وشهادة بل ووقيد المساجد إنما تنال بالشراء من الولاة، فإذا مات صاحب خطة أو عزل دفع الراغب فيها مالا للولاة فيولونه مكانه على أي حال كان من صلاحيته لذلك أم لا، فعظم الخطب على المسلمين والإسلام في ذلك، خصوصا منصب القضاء، فما رأينا ولا سمعنا في البلاد المشرقية كلها بقاض يقارب الحكم بما يشبه أن يكون شرعا، وإنما مدار أمرهم على الرشا جهارا، فينقض الحكم الواحد في اليوم الواحد مرارا متعددة بحسب كثرة الرشا وقلتها[19]».

فإذا كانت هذه هي انطباعات العياشي في رحلته فماذا عسى أن يستفيد أبو علي اليوسي من علماء تلك الديار. وهو على ما نعرف من اعتداد بعلمه ؟

نعم كان المغرب في القرن الحادي عشر للهجرة ينعم - وخصوصا على عهد المولى رشيد والمولى إسماعيل - بنهضة علمية لم تتوفر مثلها للمشرق، بل إن البلاد بقيت محافظة على نشاط فكري وثقافي ذي بال حتى في تلك الفترة المظلمة التي فصلت بين موت المنصور الذهبي سنة 1012 هـ، والتمكين لدولة مولاي رشيد سنة 1079 هـ، وفي رأينا أن الفضل في ذلك يرجع إلى وجود عدد من الزوايا التي كانت تجمع بين نشر العلم وبين التربية.

ومن أهم هذه الزوايا :

أ - الزاويتان الدلائية والناصرية وسياتي الحديث عنهما بتفصيل في المبحث الخاص بحياة اليوسي. على اعتبار أنهما أكثر الزوايا تأثيرا في شخصيته.

ب - والزاوية الفاسية التي أسسها أبو المحاسن الفاسي بالمخفية من مدينة فاس. وكانت مركزا علميا عظيما. وكانت لها صلات متينة بالزاوية

19) رحلة العياشي ج 1 ص 288.

الدلائية أشار إليها الأستاذ محمد حجي في رسالته بقوله : «فأبو المحاسن الفاسي هو أحد الشيوخ الأولين في السلسلة التي تصل محمد بن أبي بكر الدلائي بالإمامين أحمد زروق ومحمد بن سليمان الجزولي. وقد تتلمذ الحافظ أحمد بن أبي المحاسن الفاسي على شيخ زاوية الدلاء أبي بكر وخص أسانيده في طريق القوم بتآليف، وأقام أخوه أبو حامد محمد العربي الفاسي مدة طويلة في الزاوية الدلائية يدرس الحديث على الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي، ويلقي دروسا في مختلف العلوم على الطلبة إلى أن تخرج على يده كثير من العلماء الدلائيين، وله مراسلات مع الدلائيين، ومقامة أدبية، وقصائد في مدح أستاذه (محمد بن أبي بكر الدلائي) كما شد الرحلة إلى المدينة الإدريسية كثير من أحفاد الشيخ أبي بكر الدلائي للأخذ عن الإمام عبد القادر الفاسي حفيد الشيخ أبي المحاسن خصوصا في الوقت الذي كانت فاس خاضعة لنفوذ السلطان محمد الحاج الدلائي. ومن أشهر المتخرجين على يد الشيخ عبد القادر الفاسي : (الطيب بن المسناوي الدلائي) مفتي الزاوية البكرية. وفقيهها الكبير. وبعد النكبة التي أصابت الدلائيين كثر عدد طلبتهم في زاية «القلقليين بفاس وكأنهم وجدوها أشبه ما تكون بزاويتهم القديمة ففيها تعقد المجالس العلمية وحلقات الأذكار وتنشد الأشعار والموشحات والأزجال الصوفية»[20].

ج - والزاوية العياشية التي أسسها الشيخ محمد بن أبي بكر العياشي سنة 1044 هـ. وتربطها أيضا بالزاوية الدلائية روابط قوية ووشائج متينة، ولها إسهام كبير في الحياة العلمية في ذلك العصر، إذ كانت مركزا لتدريس العلوم وتلقين الأذكار، وكان الطلبة يتوافدون عليها من كل الجهات.

20) الزاوية الدلائية لمحمد حجي ص 63 - 64.

ومن أكبر أعلام هذه الزاوية وأشهرهم الشيخ «أبو سالم العياشي» الذي كرس حياته لتدريس العلوم بها، وابنه «حمزة» الذي تنسب إليه الزاوية إلى الآن فيقال لها زاوية سيدي حمزة أو الزاوية الحمزوية. وكانت هذه الزاوية تعرف أيضا بزاوية أبي سالم وزاوية سيدي محمد بن أبي بكر. وتقع جنوب مدينة (مدلت) من إقليم (تافيلالت) وتبعد عنها بستين كيلومترا.

وتعد هذه الزاوية من أعظم المراكز العلمية بالمغرب على ذلك العهد، بالإضافة إلى كونها مدرسة من أهم المدارس الصوفية التي تهتم بإطعام الطعام، وتلقين الأذكار، وتربية الناس تربية روحية موافقة للسنة وخالية من البدعة.

وأهم ما يستوقفنا عند النظر إلى نشاطها العلمي، تلك الخزانة العظيمة التي ما زالت إلى الآن تشهد بما كان لأهلها من اعتناء بالعلم واهتمام بالكتب واتساع في اقتناء نفائسها واكتناز دررها مع حرصهم على أن تعم فائدتها جميع المسلمين ويشمل نفعها جميع الدارسين. وممن كتب عن هذه الخزانة من العلماء المغاربة المحدثين الأستاذ «محمد المنوني».

واطلعنا على تقرير له في هذا الشأن ينيف على ثمانين صفحة، ومما جاء فيه أن المكونات الأولى لهذه المكتبة يصعد تاريخها إلى أيام الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر العياشي الذي أوقف هو وأخوه سيدي عبد الجبار جميع كتبهما على بنيهما الذكور، فتابع أبناؤهما هذه السنة وأوقفوا عددا من الكتب على من فيه قابلية علم وله تصرف وبحث في الفنون من أهل الزاوية.

ويذكر التقرير أسماء عدد من أبناء الزاوية العياشية الذين كان لهم ولوع باقتناء الكتب بالشراء والانتساخ والذين كانوا لا يكتفون بشراء ما في المغرب بل يجلبونها من الشرق، كأبي سالم عبد الله العياشي، وابنه سيدي

حمزة الذي يقول عنه إنه ضرب الرقم القياسي في جمع الكتب وحفظها، وغيرهم.

وكانت النساخة عنصرا قويا في مقومات المكتبة، وكان يضطلع بأكبر قسط منها أعلام من البيت العياشي كما كانوا يستكتبون المؤلفات من خارج الزاوية من فاس وغيرها.

وكان من موارد الخزانة العياشية ما يهديه لها الأمراء والعلماء من كتب وينقل الأستاذ المنوني عن أبي العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي الصنهاجي السجلماسي المتوفى سنة 1175 هـ أنه قال عنها : «وجدت بها ما يملأ العين قرة، ويسلي عن الأوطان كل غريب : دواوين في جل الفنون جليلة، ينال بها الآمال كل أريب».

وقال عنها صاحب نشر المثاني : «فيها ما لا يوجد في غيرها اليوم في سائر المغرب[21]» وهكذا وبفضل هذه الخزانة وبفضل من كان في الزاوية العياشية من رجالات العلم وشيوخه استطاعت الزاوية أن تؤدي رسالتها وتسد فراغا هائلا سواء في الناحية التي توجد فيها أو في المغرب كله.

وكما قامت هذه الزوايا بدورها في حماية العلم والدين في خضم تلك الفتن التي عمت سهل المغرب وحزنه فإنه الدولة العلوية التزمت هي الأخرى بجعل العلم والدين أساسا لها، وقدمت من المدد والتشجيع ما تقدمه كل دولة في سبيل دعم أسسها وحماية مقوماتها وفي هذه الفترة بالذات يمكن القول بأن الدولة العلوية تداركت العلم والدين وأعادت إليهما ما كادا يفقدانه من عز وصولة وكانت جهود الملوك العلويين جهودا عظيمة تستحق كل تقدير : فالمولى محمد بن الشريف مع قلة الوسائل التي كانت متوفرة لديه، وضيق الرقعة التي كانت تحت حكمه، وكثرة خصومه، وانشغاله بالحروب والخصومات

(21 ....

التي فرضتها ظروف تأسيس الدولة، لم يكن غافلا عن واجبه إزاء العلماء وطلبة العلم، بل كان يشجعهم ويسعى لتنشيط الحياة العلمية في إمارته بمختلف أنواع التشجيع. ولنا شهادة من «أبي علي اليوسي» الذي كان يطلب العلم بسجلماسة أيام هذا الملك، وهي شهادة لها وزنها بالنظر إلى شخصية كاتبها. يقول أبو علي اليوسي :«ثم جاء المولى محمد بن الشريف أخو سيدنا (يعني المولى إسماعيل)، فأحيا العلم في بلده، وأعطى الفقراء وأكرمهم وخالطهم، وحرر أهل البلاد للقراءة في القصبة فقام لهم ذلك التحرير مقام العطاء، وتسارعوا حتى إن الرجل المسن من أهل سجلماسة يكتب الأجرومية في لوحة يقرأها. وكثرت المجالس وكنا هناك حتى إن أكثر الأيام لا نذوق طعاما إلا عند الاصفرار لاشتغالنا بطلب العلم وتنقلنا في المجالس طول النهار»[22].

وما قاله اليوسي من أن هذا الأمير : «أعطى الفقهاء وأكرمهم» لا يتضح في الأذهان اتضاحا كاملا إلا إذا نظرنا إليه على ضوء ما تذكره المصادر التاريخية من سخاء المولى محمد بن الشريف وكرمه، ومن ذلك ما جاء في كتاب المفاخر العلية : «وكان لا يضاهيه جواد ولا يماثله سخي : أعطى بعض أهل تلمسان خمسا وعشرين رطلا من خالص الذهب زيادة على إحسان آخر عظيم لمدحه له بقصيدة ملحونة»[23].

والمولى رشيد رحمه الله كان هو الآخر مشهورا بمجالسته العلماء ومباسطتهم أمام الملأ وإكرامهم وإعظامهم، ومعروفا باهتمامه بالمساجد والمدارس، حتى إنه كلما حل ببلد لا يقدم أمرا قبل تعهد مساجده ومدارسه، وتفقد أحوالها، وربما حضر بها مجالس بعض كبار العلماء، فقد حضر مجلس

---

22) رسالته إلى المولى إسماعيل خ.ع 849 جـ.

23) المفاخر العلية والدرر السنية لعبد السلام اللجائي ص 198.

أبي علي اليوسي بالقرويين ودخل إلى المدرسة المصباحية بفاس على حين غفلة من أهلها «فتعرض له الإمام أبو علي اليوسي مع فقيه آخر فأعطى لكل منهما مائة مثقال»[24].

ومن تواضعه رحمه الله وتقديره للعلماء وإعلائه من شأن العلم ماذكره أبو عبد الله محمد بن أحمد أكنسوس في (الجيش العرمرم) قال : «إن مولانا رشيد استدعى ذات يوم أحد الفقهاء ليقرأ عليه فامتنع ذلك الفقيه، وقال كما قال الإمام مالك رضي الله عنهما : العلم يؤتى ولا يأتي، وكما قال الإمام محمد بن إسماعيل البخاري رضي الله عنه، فلما رجع الرسول إلى مولانا الرشيد وأخبره بقول الفقيه وامتناعه، قال : صدق فكان السلطان مولانا الرشيد يذهب لداره فيقرأ عليه»[25].

وهذه القصة تشير إلى أمرين هامين : أولهما حرص الرشيد على اكتساب العلم وهذه منقبة عظيمة. وثانيهما حرمة العلم وجلاله لدى السلف من علمائنا ولدى السلطان، وسنرى عند دراستنا لشخصية أبي علي اليوسي ما يؤيد ذلك.

وفيما سبق من حديث عن الحياة السياسية رأينا ما كان اليوسي يحظى به لدى هذا السلطان من عناية ورعاية، حتى إنه كما وصفنا كان يحس بالتغير الخفيف يطرأ على صحته فيعالجه بنفسه.

وإذا أدخلنا في حسابنا ما كان اليوسي مشهورا به من حب الزاوية الدلائية وأهلها، وأن السلطان كان يعرف منه ذلك وكان يعاتبه من أجله، أدركنا أن العناية التي كان العلماء يحظون بها كانت فوق كل اعتبار آخر.

---

24) تاريخ الضعيف الرباطي ص 55.

25) الجيش العرمرم ص 62.

أما الدلائيون أنفسهم فقد كان من المتوقع بعد أن انتصر عليهم الرشيد أن يعمل السيف في رقابهم كما فعل بغيرهم من خصومه، إلا أن قدسية العلم وحرمته وشرفه منعته منهم، «فما أسال من دمائهم قطرة، ولا كشف لهم عورة، وربما مد بعض الظلمة من المحلة يده في شيء فانتقم منه أشد الانتقام»[26].

وهاهنا لطيفة نحب أن نذكرها تتصل بنكبة الدلائيين وتشير إلى لطف الرشيد وسماحته وكرمه ورفقه بأهل العلم والأدب : ذلك أن أحد تلاميذ الزاوية الدلائية نظم قصيدة ممتازة في تمجيد أشياخه أهل الدلاء، ووقعت القصيدة بيد الأمير الرشيد، فأمر بصاحبها فحمل إليه. ولما مثل بين يديه سأله لماذا قال فيهم :

لن يبرح المجد فيهم   حتى تقوم القيامة

فأجاب على البديهة بقوله ﷺ : «من مات قامت قيامته». وذلك بمحضر بعض أعيان علماء الوقت، ثم إن الأمير أتى بهدية من مال جزيل وموز فخص العالم بالمال وأعطى الموز لسيدي عبد الوهاب بن العربي صاحب القصيدة تنكيتا عليه فأنشده بديهة :

يا مهدي الموز تبقى   وميمه لك فاء
وزايه عن قريب   ممن يعاديك تاء

فاستحسن الأمير والحاضرون ذلك وأحسن جائزته[27].

---

26) الترجمان المعرب للزياني ص 10 وتاريخ الضعيف الرباطي ص 45.

27) تذكرة المحسنين مجموع 270 ك خ ع ص 321.

وهكذا فإن المولى الرشيد كان كما جاء في نزهة الحادي : «محبا في جانب العلماء ومؤثرا لأغراضهم مولعا بمجالستهم محسنا إليهم حيث كانوا، وكان جوادا سخيا رحل الناس إليه من المشرق فما دونه»[28].

وبهذا السلوك الحسن تدارك العلم قبل انطماس آثاره وكشف الغمة عن أهله، ورد إلى مجالس الاقراء طلبتها وأساتذتها الذين أزعجتهم عنها الفتن، وشتتهم المحن وشغلتهم الأهوال وكسرت عزماتهم الفاقة.

أما أخوه المولى إسماعيل فأخباره مع العلماء مشهورة، وبمداد الفخر والاعتزاز مسطورة، مع أنه كان رجل دولة أكثر منه رجل علم[29].

---

28) نزهة الحادي ص 249.

29) يحتاج الجانب العلمي من شخصية المولى إسماعيل إلى دراسة خاصة، فهناك أخبار تدل على أنه كان مشاركا في كثير من الفنون إلا أننا نتقبل هذه الأخبار بشيء من التحفظ نظرا لما يظهر عليها من المبالغة، ونظرا لكونها غير متواترة. إذ يكاد ينفرد بها معاصره أبو عبد الله اليفرني، وجل الكتب التي ترددها إنما تنقل عنه ولا بأس أن نذكر بعض تلك الأخبار هنا :

جاء في روضة التعريف لليفرني ما نصه : «وقد جمع (يعني المولى إسماعيل) من الدفاتر ما يحير العاقل، ومن عادته أن يسرد عليه كل يوم فصل من كتاب إلى أن يختمه ويبتدئ كتابا آخر، وكل مامر على أذنه من الحكايات الرائقة والأخبار المستظرفة لا ينسى منها شيئا بل يستدل بذلك في مواضع الاستدلال ويفصل بواسطتها عقود ألفاظه البليغة ولم ير الناس أحفظ منه ولا أثبت ذهنا ولا من يقاربه في سيلان الذهن وجودة القريحة» وجاء في الصفحة 67 «وهذا دأبه في المشاكل التي يشكل عليه حكمها فإنه يراجع علماء العصر فيها مع أن له من الفهم الثاقب والعقل الراجح ما يحير عقول العلماء. وكثيرا ما تدور في مجلسه غرر المسائل فإذا تكلم فيها أبهت الحاضرين وأذهل المتكلمين. وأما مسائل التاريخ ومعرفة الأنساب فهو ابن بجدتها والعارف بدسائسها، يعرف القبائل العربية والشعوب البربرية ويميز كل واحد بقعدوده ولم يكن في وقته أعرف منه بالأنساب كأنما جمعت له في صعيد واحد وهو ينظر إليها نظرة واحدة. وأما علم السير ففي يده كالماء وله فيه اليد الطولى =

فقد كان رحمه الله حريصا على أخذ رأي العلماء في كل أمر، سواء ما كان يتصل بدولته أو ما يتعلق بحياته الخاصة، حتى إن أبا علي اليوسي تضجر من كثرة ما كان يرهقه به من السؤال والفتوى فأعرب عن ذلك في مقدمة إحدى رسائله كما سيأتي في موضعه بإذن الله.

وكانت له في عدد من الأقضية مراسلات ومفاوضات ومشاورات مع أعيان علماء دولته بل مع علماء الشرق الإسلامي. وهذه المشاورات والمراسلات التي كانت بين المولى إسماعيل وعلماء الوقت قمينة بأن تضفي على العلم والعلماء حرمة من تقدير المجتمع وتعظيمه وإجلاله، وأن تحفز الهمم للاجتهاد طمعا في بلوغ هذه المكانة العالية والمنزلة السامية التي كان العلماء يتمتعون بها، مما يعود على الحياة الفكرية بكل خير. كما أن الأفكار التي كانت للمولى اسماعيل حول علاقة الحاكمين بالعلماء لم يكن من شأنها إلا أن تخلق للعلم جوا صالحا يزدهر فيه وينتشر، جاء في إحدى رسائله إلى علماء فاس : وسئل الخليل بن أحمد : هل العلم أفضل أو المال ؟ قال : العلم. قيل له : فما بال العلماء يزدحمون على أبواب الملوك والملوك لا يزدحمون على أبواب العلماء ؟ قال لمعرفة العلماء بحق الملوك وجهل الملوك بحق العلماء[30]. ولست

= وكم من مرة يسأل علماء عصره بمجلسه عن نسب أحد من الصحابة أو وقيعة له أو منقبة وسم بها فلا يجد معهم شيئا من ذلك وربما أفادهم بفوائد ما خطرت لهم على بال» اهـ.

وجاء في كتاب الدرر المكنونة العالية في وصف أهل الدولة العلوية العالية أنه «ذات يوم نام عن صلاة العشاء فانتبه وأنشأ يقول :

رب، أنت بحالة العبد أدرى	وعليه بكل قول وفعل
فإذا نام عن صلاته عمدا	كيف يطمع قلبه بالتسلي
	....الخ

30) واضح أنه لا يقصد من الملوك من جمع الله له شرف العلم وعز الملك.

والحمد لله من هذا القبيل وليس لي إلى ملوكه سبيل، فإني أعلم أن الملوك حكام على الدنيا والعلماء حكام على الملوك، وأعلم أن العالم في الأرض كالنجم في السماء. من ترك العالم ضل ومن غاب عنه النجم تحير[31].

وملك هذه أفكاره، لا يسع العلماء في عصره إلا أن يستفرغوا الجهد والطاقة ليكونوا عند حسن ظنه بهم وكريم تقديره لهم.

ومما يدل على العناية الخاصة التي يشمل بها المولى إسماعيل علماء دولته هذه الرسالة التي وجهها إلى سيدي عبد القادر الفاسي[32] يسأل فيها عن أحواله ويهنئه بسلامته من الوباء الذي أصاب مدينة فاس.

«العالم العلامة الفقيه من نسأل الله أن يعصمه من كل داء ويقيه السيد عبد القادر بن علي الفاسي سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد، فلتعلم أن البال لم يزل متعلقا بكم منذ حل ذلك المرض بمدينة فاس راجين لكم السلامة، وأسعد ما سمعناه أن قيل لنا أنتم وأولادكم على خير بعد أن سألنا عنكم وعن أهلكم وأولادكم فحمدنا الله تعالى حيث نجاكم الله وشكرناه على

31) يوجد نص الرسالة في المنزع اللطيف لابن زيدان.

32) انظر ترجمته في الفصل الخاص بشيوخ اليوسي. وسيدي عبد القادر هذا هو الذي تولى أمر الزاوية الفاسية بعد وفاة العارف سيدي عبد الرحمن، واشتغل فيها بتدريس العلوم وتربية المريدين، فانتفع به خلق كثير وجدد بناءها له ووسعها مع التأنق البديع سلطان وقته «مولاي إسماعيل بن الشريف»، وكان هذا الشيخ من أخص تلاميذ سيدي عبد الرحمن، وأقرب الناس إليه، وأكثرهم استفادة منه. وقد دفن رحمه الله في نفس المكان الذي كان يدرس فيه العلم بالزاوية وهو أطهر مكان بلا ريب.

عـافيتكم ولا نطلب من اللـه إلا بقـاءكم إذ أنتم دار[33] علم وموت العلمـاء قـد جرحت منا الأكباد وتفطر منه الفؤاد[34].

33) يشير إلى الزاوية الفاسية، وخصوصا ذلك الفرع الذي أسسه الشيخ «أبو زيد عبد الرحمان ابن محمد الفاسي» بحي «القلقليين» بفـاس على غرار الزاويـة التي أسسهـا أخوه «أبو المحـاسن» بحي «المخفية» من المدينة نفسها.

وكان سيدي عبد الرحمن المذكور عالما مشاركا مع تضلع في العلوم الحكمية من هيئـة وطب وغير ذلك، حتى كان والده يقول فيه بأنه «أسيوطي» زمانه. وبلغ من اتساع مشاركتـه في العلوم أن قرأ عليه كثير من أشياخـه وأقرانه. والحق أن أمارات النجابة كانت ظاهرة عليه منذ الصغر فالطفل الذي يحفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين لا شك أنه من النجبـاء الموهوبين. ورغم أن هذا الشيخ لم يمتد به العمر طويلا فإنه ترك لنا تـآليف تـدل على علو كعبه في العلوم وطول باعه في الفنون، فبلغ عـدد تـآليفـه أزيـد من سبعين ومـائـة مؤلف منها : (مفتاح الشفا)، و(أزهار البستان في أخبـار الشيخ عبـد الرحمن) ، و(ابتهـاج القلوب بخبر الشيخ أبي المحاسن وشيخه المجذوب) و(الأقنوم في مباحث العلوم)... الخ.

فلما أسس زاويته قعد فيها للتدريس والعبـادة. ومما يحكى عنـه أنـه قـال بعـه فراغـه من بنائها : «والله الذي لا إله إلا هو لا أعلم درهمـا من حرام بنيت بـه هـذه الزاويـة». وقـد بارك الله في أعمال سيدي عبد الرحمن فتخرج من هذه الزاوية عـدد كبير من العلمـاء ممن قرأوا عليه أو على غيره من أساتذها الأعلام.

ومن أئمة الزاوية الفاسية سيدي محمـد الطيب الفـاسي كان لـه بهـا مجلس حفيل في التفسير والفقه، وهومن العلماء المحققين، حافظ متبحر متضلع في الفقه والحـديث والأصول والبيـان والمنطق والتصوف والتاريخ. من شيوخه والـده وعمـه وجـده، وولـد عم أبيـه سيـدي محمـد المهدي بن أحمد الفاسي، وأبو سالم العياشي... وله تآليف ورسائل في الأصول والتاريخ. انظر سلوة الأنفاس للكتاني ص 319.

34) مجلة تطوان العدد الخاص برسائل المولى إسماعيل ص 37.

والمولى إسماعيل في مجلس علماء دولته شخص متواضع[35]، كريم لين الجانب، منبسط سؤول لا يترك فرصة تفوت دون أن يستغلها في إظهار عطفه على العلماء وتقديره لهم كما وقع عندما ختم الإمام أبو عبد الله المجاصي تفسير القرآن الكريم، إذ استدعى السلطان العلماء من فاس لقصره، ونصب المنبر للفقيه المذكور في بيته الخاص، وأفاض على الضيوف بعد الدرس من ألوان الطعام ما لذ وراق، وتولى هو بنفسه صب الماء على أيديهم[36]، وفرق الجوائز فيهم بيده، وهذا منتهى الإكرام.. وأي طالب علم يسمع بما ينال العلماء عند السلطان في تلك الأيام فلا تتحرك نفسه للاقتداء بهم واتباع سبيلهم لنيل الشرف الذي نالوه والعز الذي حازوه ؟

على أن المولى إسماعيل إلى جانب هذه العناية الكريمة كان يتتبع نشاط العلماء باهتمام بالغ، فإذا رأى منهم تقصيرا في القيام بالواجب عاتبهم على ذلك، وهز نفوسهم للعمل، وأيقظ عزائمهم للجد والمثابرة، بالترغيب والترهيب، وتوفر الظروف الملائمة للعمل، المساعدة على النشاط. ولنا من

---

35) ومن تواضعه ما ذكره الناصري في الاستقصا نقلا عن صاحب البستان، وصاحب الجيش قال : «ولما ولي المامون على مراكش (وهو ابن المولى إسماعيل) أمر برئيس الحضرة وإمام الكتاب الفقيه أبا العباس أحمد اليحمدي أن يعطيه التقليد ويوصيه بما ينبغي الوصاية به وكان المولى المامون منحرفا عن الوزير المذكور فمشى إليه على كره منه وحازمنه التقليد واستمع لوصيته امتثالا لأمر والده، ثم عاد إليه فقال : «يا مولانا إن اليحمدي ينقصك ويزعم أنه الذي علمك دينك في كلام آخر.. فقال له السلطان رحمه الله» والله إن كان قد قال ذلك إنه لصادق فإنه الذي علمني ديني وعرفني بربي». الاستقصا ج 7 ص 79.

36) ينقل صاحب المفاخر العلية عن شرح الاحياء للشيخ مرتضى في باب الضيافة أن المولى إسماعيل صب الماء على أيدي العلماء في هذا الحفل، فامتنع أبو الوفاء اليوسي فغضب السلطان من امتناعه «وأبو علي اليوسي لم يكن مشهورا بهذه الكنية، وقد ذكر هو نفسه كنيته في المحاضرات فقال :«والكنية أبو علي وأبو المواهب وأبو السعود وأبومحمد».

رسائله إلى العلماء في هذا الشأن خير شاهد ودليل. ونحن نختار منها هذه الرسالة التي بعث بها إلى علماء فاس وقال فيما قال :

«وأنتم علماء المسلمين وأيمة الدين، طرق سمعنا أنكم اشتغلتم باللذات، واتبعتم الشهوات واتبعت العامة والخاصة طريقكم، وسلكوا سبيلكم، وبلغني أنه حصل منكم تقصير في التعليم حتى كاد أن يضيع العلم من فاس وهي أم مدن المغرب فيكون في غيرها أضيع فنأمركم أن ترجعوا لما كنتم عليه من الاجتهاد ونفع الحاضر والباد، واعملوا بما ينفعكم يوم المعاد، وستعمكم منا عطايا تعم المعلم والمتعلم، متبوعة بغيرها من غير ألم الانتظار والابعاد، ولا تسويف ولا تخصيص زيد أو عمرو، نعم من ظهر منه الجد في المطلوب والمراد أخصصه بصلات وزيادة رفع القدر، وينال مرغوبه في كل أمر، وتحمد عاقبة اجتهاده في السر والجهر، ومن بقي على تقصيره ولم يراع كتابنا ولا أمره تركناه على حاله، ولا نراعيه في أقواله ولا أفعاله والسلام»[37].

ومن الطريف أن نشير هنا إلى أن هذه الرسالة كان لها وقع كبير في نفوس العلماء، إذ سرعان ما دبت حركة نشاط في صفوفهم، وعمروا المساجد بالاقراء بكرة وعشية، وكتبوا إلى السلطان يخبرونه بذلك ويطلبون منه إنجاز وعده فقالوا : فنطلب الدعاء (....) وأن يتفقد الأمير أحوال المتعلمين وأحوالنا فإننا يجب على بيت المال مواساتنا، بل نص بعض العلماء أنهم يقدمون في بيت المال على غيرهم، وأن الواجب كفايتهم...».

ووجه المولى اسماعيل رسالة جوابية إلى سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي[38] يقول فيها : «وكتابك هذا أيها الفقيه على علو منصبك في العلم لم نستفد منه زيادة على المعلوم، ولا شيئا مما كنا نترقبه فيه من دقائق العلوم،

37) المنزع اللطيف ص 101 ـ 104.

38) «أبو عبد الله سيدي محمد فتحا» ابن سيدي عبد القادر الفاسي المذكور. كان رحمه الله إماما في المعقول والمنقول، زاهدا ورعا وكان مرجعا في الفتوى. عرضت عليه المناصب فرفضها

وهذه الطريقة المثلى ومجالس العلم التي سمعنا حديثها يتلى والثناء عليها يكرر ويجلى، وددنا والله أن لو رأينا لها نتائج لنا بها شغفا ولنا فيها حاجة بل حوائج. فذكرك اعتكافك على طلب العلم وطول لبثك ومكثك في تحصيله وتدريسه وشهرتك بأخذ الحظ الوافر من غامضه ونفيسه، أمر مسلم صدقت وصدقناك فيما أثنيت على نفسك من ذلك، وباعك في العلوم لا يجحد ولا يتمارى فيه من الخاصة والعامة أحد، ولكن أروني أين هؤلاء التلاميذ والطلبة المدرسين (كذا) الذين جنوا ثمارها ولبسوا ديباجها أو أطمارها يراهم الرائي اليوم عاقدين في العلم المجالس آتين من دقائقه ورقائقه بما يتنافس فيه المتنافس، فطالما استقصينا الخبر والبحث عمن حصل علما أو أدبا جما، وبرز في فنون العلم رواية ودراية وفهما ودرسا ومطالعة، وتضلع فصاحة وخطابة وهمة وبراعة وبلاغة من أبناء هذا العصر ممن تخرج عليك ومن مجلسك أو مجلس غيرك من المدعين العلم والمتفقهين في الدين ليظهر للناس بعلمه ونجابته ـ نقربه من مجلسنا للانتفاع به والأخذ عنه والاستفادة منه كلا والله ما وجدنا من يكون بهذه المثابة ولا على هذه الصورة كما كان السلف رضوان الله عليهم...».

=مكتفيا بتدريس العلم، وحتى التدريس لم يكن يقبل عليه أجرا بل كان يقوم به تطوعا واحتسابا.

من شيوخه أبوه «سيدي عبد القادر» و«أبو العباس الزموري» و«أبو الحسن علي الزرهوني» و«أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن جلال» «وأبو العباس الأبار» وأجازه عم والده سيدي العربي الفاسي وعدد من علماء المشرق. وله تآليف عديدة منها (شرحه لشواهد ابن هشام»، وشرح نظم نخبة ابن حجر في اصطلاح الحديث لعم أبيه سيدي العربي بن أبي المحاسن الفاسي، و(شرح الطالع المشرق في سماء المنطق) له، و(المباحث الإنشائية في الجملة الخبرية والإنشائية) وغير ذلك من الرسائل والفتاوى. وتوفي رحمه الله سنة ست عشرة ومائة وألف ودفن هو أيضاً في موضع تدريسه بالزاوية.

(انظر سلوة الأنفاس للكتاني).

وهذه الرسالة وإن كان المولى إسماعيل قد كتبها في سورة غضبه على العلماء بسبب قضية تمليك الحراطين على ما وصفناه في الفصل السابق فإنها تبرهن على علو همته وحرصه على مضاعفة الجهود من أجل تكوين طبقة عالية من العلماء تعتمد عليها الدولة وينتفع بها الناس كما كان الشأن بالنسبة للسلف الصالح من علماء الإسلام. كما أنها ترسم المثل الأعلى للعلماء كما يراه المولى إسماعيل وكما يجب أن ترتقي إليه همم الدارسين في وقته.

والجدير بالذكر أن أبا علي اليوسي كان في طليعة العلماء الذين يحثون السلطان على تشجيع أهل العلم بالبذل والسخاء، وكان يصارحه بأن أسفه على العلم وحزنه على العلماء لا يغني شيئا فيما هو بصدده من إحياء العلوم وإنما يكفيه أن ينفق المال «فإذا الدنيا زاهرة وأهل العلم متظافرة وليس من دون أن تسقط الطير الا نثر الحب»[39].

وهكذا يتضح أن الحوار كان مفتوحا بين الملك وجماعة العلماء، وأن الدولة كانت مهتمة بشؤون التعليم وبالحياة الفكرية عموما، ولا شك أن هذه السياسة الرشيدة أثرت تأثيرا محمودا على الحركة العلمية في هذا العصر، عبر عنه أبو عبد الله اليفرني في (روضة التعريف)، فبعد أن نقل عن أشياخه أنهم كانوا لا يجدون من يتقن مسائل العلم المعقول، وأن الأرجوزة المسماة بالسلم المرونق لم يكن يعرفها بفاس إلا رجل أو رجلان قال : «فلما مهد الله لهذه الدولة الأكناف، وأسمى قدرها وأناف، تدفقت على الناس العلوم، وذلت صعاب الفنون والفهوم، حتى عاد صغار الطلبة يعرفون فنونا عديدة ويكون لهم فيها عارضة شديدة، وقد تخرج في هذه المدة السعيدة جماعة من الأعلام، لهم القدم الراسخ في العلم واليد الطولى في الاتقان، وألفوا تآليف حسنة، ومنهم من فسر كتاب الله تعالى ووضع عليه تقييدا فائقا ومنهم من شرح

---

39) رسالته الجوابية إلى المولى إسماعيل خ.ع 849 جـ.

موطأ الإمام مالك بن أنس ومنهم من شرح الشفا للقاضي عياض ومنهم من شرح مختصر خليل شرحا لم يظهر له نظير ومنهم من شرح ألفية ابن مالك ووضع على ابن هشام حاشية وغير ذلك من الشروح اليانعة السروح (...) وقد تلقيت من غير واحد أن القبيلة كانت قبل هذه المدة لا يوجد فيها إلا طالب واحد أو لم يوجد، وربما احتاج أهل «مدشر» أو «دوار» إلى من يقرأ لهم رسالة فلا يوجد من يحسن لهم ذلك حتى يرحلوا المسافة البعيدة لطالب يذكر لهم، والآن كل مدشر ودوار بل كل خيمة فيها طالب، ولم يبق التفاخر بين الطلبة اليوم إلا في قراءة السبع أو العشر، وأما مجرد حفظ آي القرآن فحملته اليوم لا يحصون كثرة والحمد لله حق حمده، وأما آلات العلم وجمع الكتب ونفائس الذخائر فله في ذلك نصره الله (يعني المولى إسماعيل) الهمة البالغة والرغبة السابغة»[40].

ومن أهم النصوص التي تصف ازدهار الحياة العلمية وخصوصا أيام المولى إسماعيل ما نقله المولى عبد الرحمن بن زيدان» في (درره الفاخرة) عن أبي العباس أحمد بن يعقوب الولالي في طالعة مؤلفه (أشرف المقاصد) قال : «فإن العلم بمغربنا قبل هذا متضائل الحجة متضايق المحجة، حين معالمه موسومة بالاندراس، ورجوع الحشاشة إليه من روحه بادية الايـاس، لتضاعف أهوال على معاشره تشيب لها النواصي، فشغل كل عن نفسه بكثرة ما يقاسي، ولترادف فاقات كاسرة لعزماتهم أشد من كسر الهام العواصي، فهي بحيث تذوب لها الجنادل الصلب القواسي، حتى صار من هو منهم أهل لاقتناص أزاهره وجدير بنظم فرائد جواهره منبوذا بالعراء لزوم أفنية الورى منقطع المدد في تلك المدد لا يلوي على أحد، فهام حزب أهل العلم في ظلمات الافتقار، وطال عليهم ليل الإلغاء والاحتقار، إلى أن تداركتهم نعمة من ربهم بطلوع طالع السعادة لحزبهم، وذلك بظهور الدولة الشريفة المولوية الهاشمية

40) روضة التعريف لليفرني ص 67 ـ 68.

الإسماعيلية، فإذا بدور عزهم طالعة مسفرة، وإذا وجوه أفراحهم ضاحكة مستبشرة، فذهبوا في العلوم حينئذ كل مذهب وتنسموا في المدارك أعلى ما يتطلب فعمت مجالس التدريس مساجدهم وغشيت رحمة التعاطي للفهوم معاهدهم، وصارت حجج العلم لديهم تتمايل اتضاحا، وشبهات الجهل في جانبهم تتضاءل افتضاحا، ولم يزالوا في الارتقاء في تلك المدارج والتنافس فيها طلبا لسلوك أعدل المناهج إلى أن بلغوا أعلى مراتب الإنشاء والتأليف فصاروا بعد التعرف والتعلم رؤوس التعاليم والتعاريف....»[41].

وإلى جانب ما تضمنه هذا النص من وصف الركود الذي عرفته الحياة العلمية إبان الفترة المشؤومة التي عرفتها البلاد في الثلثين الأولين من القرن الحادي عشر الهجري، وما جاء فيه من تصوير الطفرة التي حققتها الثقافة والوثبة التي وثبتها العلوم بفضل عناية ورعاية ملوك الدولة العلوية وخصوصا المولى إسماعيل، فإن ما يتسم به أسلوب أبي العباس الولالي من خصائص يرسم مثلا صادقا لمستوى الكتابة في هذا العصر.

ولا نذكر الحياة الفكرية في هذا العصر وجهود المولى إسماعيل في سبيل ازدهارها دون أن نذكر خزانة الكتب التي كانت لهذا السلطان بمكناس والتي كانت مفتوحة للعلماء والدارسين، ويقدر رصيدها من الكتب باثني عشر ألف مجلد[42].

---

41) الدرر الفاخرة لمولى عبد الرحمن بن زيدان ص 36 وما بعدها.

42) انظر مقال الأستاذ محمد المنوني المنشور بدعوة الحق تحت عنوان (دليل القصبة) الإسماعلية بمكناس ع 4 س 10 حيث أورد عددا مهما من أقوال المؤرخين في وصف هذه الخزانة ومقال الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله في الكتاب الذهبي لجامعة القرويين تحت عنوان (تاريخ التعليم الإسلامي) وجاء في الأعلام لعباس بن إبراهيم أن سيدي محمد بن عبد الله حبس خزانة كتب جده السلطان الأعظم أبي النصر إسماعيل التي كانت بدويرة الكتب الشهيرة بمكناس وفرقها على جميع مساجد المغرب وكانت تزيد على إثنى عشر ألف مجلد رجاء نفع عموم الناس وسعياً وراء نشر العلم وتحصيله (الأعلام ج 5 ص 117).

وإذا شئنا أن نحدد المراكز الفكرية في هذا العصر، فاننا نجد في كبريات العواصم مثل مدن فاس ومكناس ومراكش وتارودانت وتطوان بالإضافة إلى الجهات التي كانت مقرا للزوايا مثل الدلائية والعياشية والناصرية وغيرها.

أما فاس ومراكش فلكونها أكبر الحواضر المغربية حتى إن البيعة لا تتم لملك ما لم تبايعه هاتان المدينتان، وأما مكناس فلكونها أصبحت في هذا العصر عاصمة المملكة فكان من الطبيعي أن يكثر تردد العلماء عليها واجتماعهم بها لا سيا مع وجود ملك ميال إلى مجالسة العلماء كالمولى إسماعيل. وأما تارودانت فقد كان بها عدد لا يستهان به من العلماء والأدباء.

وفي القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين كانت سوق العلوم فيها نافقة حتى إن القاضي عبد الرحمن التامنارتي دخلها ذاذوءابة فلم يبرحها لطلب العلم بغيرها حتى صار قاضيا بها ومؤلفا، كما أن العلامة عبد الله بن يعقوب السملالي تلميذ السكتاني لازمها لأخذ العلم بها سبع عشرة سنة ومنها عاد إلى بلاده فأسس مدرسته الشهيرة بتازمورت[43]. ثم قيض الله لها في هذا العهد أميرا عالما هو مولاي مَحمد فتحا المعروف بالعالم، وهو أشهر أبناء المولى إسماعيل وأعظمهم منزلة علمية. فاستطاع أن يخلق بها نشاطا فكريا وأدبيا احتفظت لنا كتب التاريخ بوصفه وخصوصا كتاب (نفحات الشباب)[44] للروداني.

ولكن من سوء حظ العلوم والآداب بتارودانت، أن قام المولى محمد العالم بثورته المشهورة على أبيه، ولم يكتب له النجاح في ما سعى إليه، «فظفر به (أبوه) وأعدمه، وكانت قضيته من الفتن العظيمة بالمغرب، عمت

43) من مقال تحت عنوان أبو مهدي عيسى السكتاني المثال الحي للعالم المسلم بقلم محمد بن عبد الله الروداني ع 1 س 16 يونيو 1973. دعوة الحق.

44) نشره العلامة المختار السوسي رحمه الله ضمن الجزء الثامن عشر من كتابه (المعسول).

أهل القطر السوسي وخصت الأعيان من العلماء الذين كانوا يخالطون محمدا العالم[45] هذا «ولا بأس أن نورد هنا وصفا لأحد مجالسه العلمية التي كادت تكون يومية والتي كان يجتمع فيها علماء من مكناس وفاس والسوس وغيرها من أقطار المغرب : قال الروداني في نفحاته : «فجلس العلماء وهم نحو ثلاثين وما منهم إذ ذاك إلا عالم كبير كسيدي محمد السملالي حفيد الشيخ سيدي عبد الله بن يعقوب، وسيدي محمد بن محمد العباسي، وكان الذي يتولى الدرس بين يدي الخليفة أحد العلماء الذين جاءوا معه من مكناس، وإنما يسرد الآخرون مناوبة أحيانا وأحيانا يسرد سيدي محمد الفاسي الذي هو السارد دائما لمولانا محمد رحم الله الجميع وكان الخليفة هو الذي يثير البحوث ويجيب كل من يجاذبه فيه، ولكن لهيبته قلما يقدم على ذلك الا علماء مكناس والا سيدي محمد المسناوي حين جاء إليه. (رجع) إلى ما قال السادات[46]، قالوا وجدناهم في البخاري في (كتاب الصوم) فأعطونا نسخة فلم يشاركوا في البحث ذلك النهار حتى عاتبهم الخليفة، فكان سيدي إبراهيم السكتاني بعد ذلك. لا يترك شيئا فكان ذلك سبب ارتفاعه في عين الخليفة»[47].

وقد كانت المنافسة حادة بين المكناسيين والسوسيين وبين هؤلاء والفاسيين يعكسها بوضوح كتاب (نفحات الشباب) الذي كتب في هذه

---

45) أمراؤنا الشعراء لعبد الله كنون الحسنى ص 56.

46) ويعني هنا الفقهاء الشعراء الثلاثة : محمد الزدوتي، وإبراهيم السكتاني، ومحمد الهلالي. قتل الثاني والثالث في قضية محمد العالم وهرب الأول إلى المشرق. نفحات الشباب ص 313.

47) نفحات الشباب ص 297. ومما جاء «.... شأن هذا الخليفة في الأدب والعلم قد أجمع الناس عليه طرا، وقد كان مذكورا في كل مجمع حتى صار مثلا سائرا في معرفة الشعر وانتقاده، ولم يكشف ذلك إلا ما انتشرت فيه حتى قتل فخاف الناس فصار الحديث عنه بتورية ثم صار ذلك ينسى شيئا فشيئا. والرجل بين إخوته غريب في الدين والعلم والأدب والكرم ومخالفة الناس، وكان أهلا للإمارة غير أنه أسرع إليها قبل إبانها (...) وقد ورد علينا كثيرون من إخوته وغالبهم ذو علم ولكن أين الثرى من الثريا ص 318.

الفترة. ومن الأمثلة الناطقة بصدق ذلك قول مؤلفه على لسان صاحبيه الهلالي والزدوتي : «إنما الذي لا نرضى أن ينتقدنا هم المكناسيون فالموت الأحمر أحلى عندنا من ذلك ولولا خوف إساءة الأدب مع الخليفة لطلبت منه أن يدخلوا معنا في الحلبة لناتنهم»[48].

والكتاب بجملته موجه إلى أبناء فاس ليعرفوا أن الأدب بالسوس «أيضا» كان «كثيرا كالعلوم الأخرى»[49]، وهذه المنافسة من شأنها أن تعود على الحياة الفكرية بالنفع، ولعلها في حاجة إلى دراسة خاصة ترتكز على مبادئ علم الاجتماع لتكشف جذورها وتبين انعكاساتها على الحياة العامة في مجتمع هذا العصر.

وأما تطوان، فان الحياة العلمية بها في أوائل القرن الحادي عشر الهجري كانت على حال من المتوسط إذ لم ينبغ فيها عالم كبير أو مؤلف شهير أو ذو أدب غزير[50].

ثم تبدلت الحال بتطوان خلال الربع الأخير من هذا القرن. والفضل في ذلك يرجع إلى الشيخ سيدي الحاج على بركة الذي عاد إليها من فاس مملوء الوطاب علما وأدبا «فتصدى لنشر العلوم وإرشاد الخصوص والعموم بالتدريس والتأليف والوعظ والخطابة وكان كالبدر المنير في سماء تطوان فانتفعت به كل الطبقات»[51].

وهذا الشيخ الجليل هو من تلاميذ أبي علي اليوسي، ووجوده في تطوان وإحياؤه العلم بها، وإدخال الطريقة الناصرية إليها، وإسهامه في إصلاح المجتمع وتطهيره، كل ذلك يبرهن على الدور الخطير الذي كان لليوسي في

48) نفحات الشباب ص 315.

49) نفحات الشباب ص 311.

50) تاريخ تطوان لمحمد داود. القسم الثالث من المجلد الأول ص 426 وما بعدها.

51) نفس المرجع.

الحياة الفكريـة والاجتماعيـة في عصره. ولا بـأس أن نلم بـذكر بعض مشـاهير العلماء في هذا العصر إكمالا للصورة التي نحاول في هـذا الفصل رسمهـا للحيـاة الفكريـة تـاركين إلى فصل لاحـق استكمالهـا بـالحـديث عن شيـوخ اليـوسي وتلاميذه.

مولاي عبد الله بن علي بن طاهر :

ابن طاهر الحسني السجلماسي، ولـد بعـد الستين وتسعمائـة، ودرس على عدة شيوخ أهمهم حسب برنامج مرويـاتـه أبو العبـاس أحمـد بن علي المنجور الفاسي المتوفى سنة خمس وتسعين وتسعمائـة، فهو يروي فهرسـة المنجور عنـه، ويروي عنه فهرسة خروف التونسي، وفهرسة ابن غـازي عن المنجور عن ابن هارون عنـه، وجميع فهرسـة سقين عن المنجور عنـه، وجميع فهرسـة ابن حجر عن المنجور عن سقين عن زكرياء عنه[52].

كان مولاي عبد الله من كبـار علمـاء زمـانـه. حلاه تلميـذه المرغثي في إجازته للشيخ أبي عبـد اللـه بن نـاصر بخـاتمـة الحفـاظ بـالمغرب، وقـال عنـه تلميذه البوسعيدي في بذل المنـاصحـة : سيـدي عبـد اللـه من كبـار الشرفـاء وعظماء العلماء كان ثاقب زمانه في حفظ أيام الصحابة وأنسـاب العرب وسير السلف الصالح وبصيرة بالمذاهب السنية والابتداعية لسان الانتقاد على الفرق الباغية.

والبوسعيدي المذكور هو أبو العبـاس أحمـد بن علي البوسعيـدي المرغتي السوسي ومن طريقه يتصل سند أبي علي اليوسي بمولاي عبد الله.

ومما يدل على صحة عقيدة مولاي عبد الله بن علي بن طاهر مـا ذكره أبو يعقوب الـولالي في مبـاحث الأنـوار حيث قـال : ...ومنهـا ان الشريف

52) فهرس الفهارس ج 1 ص 352.

الأجل العالم السني الأكمل أبو محمد عبد الله بن علي بن طاهر السجلماسي كان له ولد عزيز اسمه عبد الهادي، فغاب بفاس وهو حينئذ معه بالزاوية. والطريق مخافة، فتخوف على ولده فقال له الشيخ محمد بن أبي بكر - وكان يعرفه ينكر وقائع الفقراء - ما تقول يا مولاي عبد الله إن أخبرتك بشيء مما يخبر به الفقراء من الغيب ؟ فقال ما ذاك ؟ قال إن ولدك مولاي عبد الهادي هو الآن في كذا ويأتيك قريبا في كذا. فقال له : ننظر ما تقول. فجاءه في الوقت الذي عين له، وسأل أين كان في الوقت الذي ذكر له أنه الآن فيه فأخبر بما يطابق ما قال فقال له : لقد وافقتك القدرة. ولم يستطع أن يقول إن ما يقوله الفقراء صحيح حفظا على الجري على ظاهر الشرع والعادة»[53].

وفد مولاي عبد الله بن علي بن طاهر على مراكش سنة أربع وألف، وانتصب للتدريس بمساجدها، وكانت دروسه في التفسير بجامع الحرة من الدروس الحافلة، كما أنه كان نسيج وحده في علم الحديث رواية ودراية. ومن تآليفه (الدر الأزهر المستخرج من بحر الاسم الأطهر) في علوم القراءة يقال إنه جمع فيه اثنين وسبعين فنا حدا به حدو الاتقان للسيوطي وزاد عليه...

وله (حاشية على المرادي) و(نظم في اصطلاح الحديث) وعقيدتان بديعتان صغرى وكبرى اقتصر فيهما على الحروف التي اشتملت عليها سورة الإخلاص فساقه ذلك إلى ارتكاب الغريب من اللغة. وله ديوان شعر في الأمداح النبوية[54].

وتوفي رحمه الله سنة خمس وأربعين وألف، وكان أبناؤه بعده أعيانا في الشرف والعلم نذكر منهم مولاي عبد الهادي الذي كان من أعيان علماء عصره مبرزا في الحديث وعلومه. أجازه والده والقصار وأبو العباس بن القاضي.

---

(53) مباحث الأنوار ص 175.

(54) صفوة من انتشر ص 4 نسخة دار الحديث 3374.

أبو بكر بن يوسف السجتاني :

«الفقيه المحدث المقرئ المفسر العالم العلامة الدراكة الفهامة الرحالة المحقق الصوفي الناسك» هكذا حلاه الحضيكي في طبقاته[55]، رحل إلى المشرق ثلاث مرات وجاور بمصر والحجاز سنين متعددة، وسافر إلى القدس وحج أكثر من عشر حجات. أخذ بالمغرب عن سيدي أحمد باب، وسيدي أبي القاسم ابن محمد الدرعي، وهو يروي عن ابن مجبر عن ابن غازي، وهذا أعلى سند يوجد في زمانه. وأخذ بمصر عن ابراهيم اللقاني، وكان مقيما بداره من جملة أولاده، وعن ابن فجلة الزرقاني وغيرهما من العلماء، كما أخذ في القدس عن الشيخ أحمد العلمي واكتسب منه الطريقة الصوفية. ثم رجع إلى المغرب وتصدر للتدريس بمراكش فأخذ عنه خلق كثير منهم العلامة سيدي محمد بن سعيد المرغثي شيخ أبي علي اليوسي، والشيخ الإمام أبو عبد الله بن ناصر، وأبو سالم العياشي.

وتوفي رحمه الله بمراكش ودفن بباب الدباغ سنة ثلاث وستين وألف.

محمد بن أحمد ميارة الفاسي :

أبو عبد الله محمد بن أحمد ميارة الفاسي، حلاه الحضيكي في طبقاته بقوله : «الإمام القدوة الفقيه الحافظ الجليل البازي الأشهب المتقن المحقق المحصل»[56] وقال عنه الأفراني في الصفوة «كان من أوعية العلم»[57]. أخذ عن ابن عاشر وأبي العباس المقري وغيرهما. وله تآليف عديدة وتصانيف مفيدة منها شرحه الكبير والصغير على المرشد المعين لشيخه ابن عاشر، (وزبدة

---

55) طبقات الحضيكي خ.ع 2328 ك.

56) الصفوة ص 140.

57) طبقات الحضيكي مخطوط غير مرقم.

الأوطاب في مختصر الحطاب) و(شرح تحفة ابن عاصم) و(شرح لامية الزقاق) و(حاشية البخاري) اختصر فيها مقدمة ابن حجر مع زوائد. و(تذييل المنهج وشرحه) و(تنبيه المغترين على حرمة التفرقة بين المسلمين) وغير ذلك. وقد حصل وعم الانتفاع به وبعلومه جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيرا وكان رضي الله عنه متقشفا ورعا زاهدا مقبلا على شأنه. وتوفي رحمه الله سنة اثنين وسبعين وألف.

أبو سالم العياشي :

أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن يوسف بن موسى بن محمد بن يوسف العياشي المالكي، وهو من آيت عياش قبيلة من البربر من أحواز سجلماسة. ولد سنة 1037 هـ وأخذ عن شيوخ جلة بالمغرب ثم رحل إلى المشرق ثلاث مرات، أولاهن سنة 1059 هـ والثانية سنة 1064 هـ والثالثة سنة 1072 هـ وفي جميع هذه الرحلات كان يأخذ عن المشارقة ما انتهى اليهم من أسانيد عالية وعلوم مات جل فرسانها وبقيت إذ ذاك في عهدة قلة قليلة من الشيوخ تنتظر من يتلقفها قبل أن يحين أجلهم فتضيع بضياعهم، وهكذا أخذ عن الشيخ الشبراملسي الضرير، والملا إبراهيم، والشيخ موسى القليبي المالكي، والشيخ عبد الجواد الطريني، والشيخ عبد السلام بن إبراهيم اللقاني. والشيخ إبراهيم الميموني وغيرهم ممن ذكرهم في (اقتفاء الأثر) وفي (الرحلة).

ولأبي سالم العياشي تآليف كثيرة منها : (أجوبة الخليل عما استشكل من كلام خليل)، و(المغربات في إصلاح الوتريات)، و(العلاوة فيمن ركع في محل سجود التلاوة) و(القول المحكم في عقود الأصم الأبكم) و(شرح المحلى) لم يكمل. و(معونة المكتسب وبغية التاجر المحتسب) وهو رجز نظم فيه بيوع

ابن جماعة التونسي. و(إرشاد المنتسب إلى فهم معونة المكتسب) وهو شرح الرجز السابق. و(تحرير الكلام في أمر النبي ﷺ في المنام)... وله مؤلفات في الحديث والتصوف وفهرسة في كتابين، ومجموع أشعار وكتاب الرحلة المشهور.

وكان رحمه الله ينسب إلى طريق القوم، وقد أذن له أبو يوسف السجتاني المراكشي في لبس الخرقة والجلوس على السجادة لموعظة المريدين(58) وأعطاه الشيخ عمر العلمي المقدسي الفوطة ليحتزم بها. وكان العياشي زاهدا في الحياة مكبا على العلم رافضا لما يشغله عن العبادة والدرس، حتى إنه لما طلب منه السلطان تولي منصب القضاء لم يقبل، الشيء الذي تسبب له في الانزعاج وترحيله إلى فاس جبرا سنة 1083 هـ. وكان رضي الله عنه يكتفي من الصوفي بأن لا يغفل قلبه عن ذكر الله، وأن لا يزيد على الصلوات الخمس، وأن يعلم العلم ويحسن النية، أما ما زاد على ذلك من كثرة الأوراد وقيام الليل والرياضات وغيرها فلا حاجة إليه في نظره. أفرده حفيده أبو عبد الله محمد بن حمزة بتأليف في ترجمته سماه (الزهر الباسم في جملة من كلام أبي سالم) قال فيه : كان كلفا بالرواية مستريحا إليها من أثقال الدراية علما منه أن علو الاسناد مرغب فيه عند جميع النقاد. وتوفي رحمه الله يوم الجمعة 18 ذي القعدة عام 1090 هـ وسنه 53 سنة.

أبو الوليد عبد الملك التاجموعتي :

أبو الوليد عبد الملك بن محمد التاجموعتي قاضي سجلماسة الإمام المحدث النوازلي الخطيب الأديب. أخذ عن كبار المشايخ بالمغرب مثل الشيخ محمد ابن سعيد المرغتي وأبي السعود الفاسي وغيرهما ثم حج وجاور هناك سنوات،

58) الثغر الباسم للعياشي ص 5 وص 91 و 19.

وألف بالحرمين الشريفين، وأجازه الحافظ البابلي والزرقاني والخرشي وعمر الفكروني السوسي نسبة إلى سوسة والبرهان الكوراني[59].

حلاه تلميذه الشهاب النخلي في بغية الطالبين بحافظ عصره ووحيد دهره، وقال عنه القادري في نشر المثاني : كان إماما محدثا وكان له وجاهة عند السلطان في الهيبة وتوقير ناسب منصب العلم، يصدع له بالحق في مواطن وكان التاجموعتي ينكر ولوع أهل المغرب برواية ابن سعادة في صحيح البخاري ويعجب من تلقيهم لها بالقبول مع أن رواية ابن سعادة من قبيل الوجادة، كما كان يدعي أن المغرب شاغر من صحيح الروايات. ولعل تحمله عن أبي إسحاق الكوراني بالمدينة المنورة جعله يشعر بالتفوق على المغاربة، وأطلق لسانه بما جر عليه إنكار شيوخ العصر. ويكاد التاجموعتي لا يذكر إلا ويذكر معه أبو علي اليوسي نظرا للخصومة التي وقعت بينهما في مسألة علم النبي، وبسبب تلك الخصومة ألف رسالته المسماة (ملاك الطلب في جواب أستاذ حلب) يعني أبا العباس أحمد بن عبد الحي الحلبي يرد فيها على أبي علي اليوسي، ثم رد عليه اليوسي برسالة أخرى ثم انتقدها عليه بتأليف سماه (خلع الأطمار اليوسية بدفع الأسطار اليوسية). وقد تعرضنا لهذه الخصومة في حديثنا عن شخصية اليوسي.

أبو العباس العطار :[60]

العالم الصوفي أبو العباس الشيخ العطار بارع في العلوم المعقولات بصير بمعضلاتها مطلع على دقائقها، أخذ عن قاضي الجماعة أبي مهدي السكتاني شيخ أبي علي اليوسي وأخذ عن أبي عبد الله المزوار وغيرهما من أئمة مراكش،

---

59) فهرس الفهارس للكتاني ج 1 ص 184.

60) الاعلام لعباس بن إبراهيم ج 2 ص 124.

ورحل إلى فاس فأخذ عن أبي محمد عبد القادر الفاسي، وأخذ فن القراءات عن أبي سعيد المرغتي. وأخذ علم الباطن عن سيدي محمد بن عبد الله الأندلسي دفين جنان بنشقرة وعن أبي العباس أحمد بن إبراهيم التاملي... كان عارفا بعلم الطب خبيرا برجز ابن سينا فيه وفيه يقول الأديب أبو عبد الله ابن زاكور الفاسي يطلب منه قراءة أرجوزة ابن سينا :

ما ذا على العطار لو أهدى لنا	نفحاته من جونة الأرجوزة
وأباحنا أسرارها تلك التي	هي لم تزل من دوننا محروزة
وغصون روض الشكر وهي نضيرة	ما إن تزال بذكره مهزوزة
لا أرتضي لكماله حاشاه أن	تبقى المعارف عنده حزوزة

وله طرر كثيرة وتقاييد في مسائل شتى وقعت بينه وبين أبي علي اليوسي في إبطال التسلسل. ومما قاله في اليوسي هذان البيتان اللذان يدلان على الاحترام والتقدير :

متى نظمت عقودا من علاك حكت	شمائل الحسن الرضى ابن مسعود
فتى له قدم في الفضل راسخة	ومنزل في العفاف غير مجحود

أبو عبد الله الصباغ البعقيلي :[61]

أبو عبد الله محمد بن أحمد الصباغ لقبا البعقيلي نسبا أصله من مكناس، ونشأ بفاس وأخذ بها عن أبي العباس أحمد بن القاضي وابن عمه وغيرهما. كان عارفا بعلم الحديث، مشاركا في الفقه ماهرا في علم الحساب والهيئة والفرائض. سلم له أهل عصره في ذلك ورجعوا إليه في خبايا تلك

61) طبقات الحضيكي والصفوة ص 145.

العلوم. له تآليف عديدة منها شرحه لمنية ابن غازي الذي سماه (البغية في شرح المنية)، وكتاب (اليواقيت في الحساب والفرائض والمواقيت)، و(كشف قناع الالتباس عن بعض ما تضمنته بدع مدينة فاس)، كما اختصر شرح المنجور على المنهاج، وشرح الروضة وغيرها وتوفي رحمه الله عام ستة وسبعين وألف عن ست وثمانين سنة ودفن بفاس.

محمد بن محمد بن سليمان السوسي :[62]

الشيخ محمد بن محمد بن سليمان بن الفاسي بن طاهر السوسي المغربي الروداني المراكشي المالكي نزيل الحرمين ولد سنة سبع وثلاثين وألف بتارودانت، وقرأ بالمغرب على جملة من المشايخ منهم قاضي القضاة أبو مهدي عيسى السكتاني، وسيدي محمد بن سعيد المرغتي، وسيدي محمد بن أبي بكر الدلائي، والشيخ سعيد بن ابراهيم المعروف بقدورة مفتي الجزائر. ودرس التفسير والحديث والفقه والتصوف على أبي عبد الله محمد بن ناصر الدرعي، ثم رحل إلى المشرق وأخذ عمن بمصر من الأعلام، ثم رجع إلى الحرمين الشريفين وجاور بمكة والمدينة سنين عديدة وانكب في هذه المدة على التصنيف والتدريس ثم توجه إلى بلاد الروم سنة إحدى وثمانين وألف ثم رجع بعد سنة إلى مكة المكرمة وحصلت له بها رئاسة عظيمة حتى إنهم فوضوا إليه النظر في أمور الحرمين، ثم رحل إلى دمشق واشتغل بتأليف كتاب الجمع بين الكتب الستة، وسماه (جمع الفوائد لجامع الأصول ومجمع الزوائد)، وله تآليف أخرى منها : «مختصر التحرير» في أصول الحنفية لابن الهمام وشرحه، «ومختصر تلخيص المفتاح» وشرحه، وله حاشية على التسهيل، وحاشية على التوضيح، ومنظومة في علم الميقات وشرحها، وجدول جمع فيه مسائل

---

62) استغرقت ترجمته من ص 334 إلى 359 من ج 4 من الاعلام لعباس بن إبراهيم.

العروض، وله فهرسة جمع فيها مروياته وأشياخه سماها (صلة الخلف بموصول السلف).

محمد العالم بن المولى إسماعيل :

أحد الأمراء العلماء الذين أحيوا العلوم والآداب في القطر السوسي. نشأ في بيت ملك وعلم، لأن أسرة المولى إسماعيل لم يشغلها الجاه والسلطان عن طلب العلم، فنافست غيرها من الأسر المغربية في الارتواء من معينه، وهكذا اشتهر من أبناء المولى إسماعيل أفراد من العلماء الأدباء مثل مولاي زيدان ومولاي عبد المالك... وكانت (لالة خناثة) زوجة مولاي إسماعيل عالمة، وما تزال نسخة مخطوطة من الإصابة لابن حجر عليها تعليقات لهذه الأميرة موجودة بالخزانة الملكية إلى الآن[63]. (إلا أن مولاي محمد) كان أكثر إخوته شهرة بالعلم، وكانت له مشاركة قوية في شتى العلوم والفنون مع حسن التصرف فيها واستحضار دقائقها والملكة العظيمة في الحفظ والفهم، بالإضافة إلى تكوين أدبي رفيع جعله من بين أدباء عصره المشهود لهم بالتبريز ومن بين النقاد ذوي البصائر النافذة في هذا الفن.

وهذه الخصائص التي امتازت بها شخصيته هي التي جعلت الناس يلقبونه بالعالم. جاء في كتاب (نفحات الشباب : «شأن هذا الخليفة في الأدب والعلم قد أجمع الناس عليه طرا، وقد كان مذكورا بذلك في كل مجمع حتى صار مثلا سائرا في معرفة الشعر وانتقاده»[64].

وجاء في نشر المثاني : «كان المولى محمد العالم ماهرا في علوم النحو والبيان والمنطق والكلام والأصول وكان ينفعل للشعر ويتأثر به»[65].

---

63) خ.ق 5932.

64) نفحات الشباب للروداني ضمن الجزء 18 من (المعسول) للمختار السوسي ص 318.

65) نشر المثاني للقادري.

وجاء في كتاب (أمراؤنا الشعراء) : «وكان هذا الأمير يعرف بمّحمد العالم لتضلعه ومهارته في العلوم والفنون كالنحو والبيان والمنطق والكلام والأصول فضلا عن[66] الأدب».

قرأ على عدة شيوخ وممن أجازه شيخه العلامة سيدي أحمد بن العربي ابن الحاج، وسيدي محمد المسناوي وسيدي محمد بن أحمد الولالي[67].

وكان هذا الأمير خليفة لوالده بتارودانت سنة (1109 هـ) ولأسباب سياسية وشخصية ثار على والده سنة (1118 هـ) ودعا لنفسه، واستولى على مراكش، فبعث المولى إسماعيل جيشا بقيادة ولده الأمير مولاي زيدان، للقضاء على تلك الثورة الخطيرة. واستمرت الحرب بين الاخوين ثلاث سنوات، انتهت باستيلاء مولاي زيدان على تارودانت وقبضه على أخيه مولاي محَمد.

كان المولى إسماعيل يحب ولده (مولاي محّمد) إلا أنه وقف منه موقف السلطان من مطلق الثوار، ولم يتأثر بعواطف الأبوة التي كانت تجيش في نفسه، فأمر بقطع يدي الأمير الثائر ورجليه[68] بل يقال إنه أمر بشطر جسده إلى شطرين طولا وهذه[69] أقصى عقوبة ينزلها أب بولده.

ولعل مراد المولى إسماعيل رحمه الله أن يضرب المثل لبقية أولاده حتى لا تسول لهم أنفسهم التمرد عليه من جديد، ولا سيا أن بعض الشائعات تقول إنهم ضاقوا به، وكانوا يلقبونه فيا بينهم (بالحي الدائم) نظرا لطول عمره، والله أعلم.

---

66) أمراؤنا الشعراء لعبد الله كنون ص 56.

67) الاعلام لعباس بن إبراهيم ج 5 ص 15.

68) الاستقصا للناصري ج 7 ص 91.

69) الحلل البهية ص 108 ـ 114. وتتضمن معلومات مهمة عن المولى محمد العالم.

وقضية المولى مّحمد العـالم من الفتن العظيمـة التي ذهب ضحيتهـا عـدد كبير من العلماء والأدبـاء لا في تـارودانت وحـدهـا ولكن في المغرب بـأسره، مثل سيدي محمد بن الحسن الهلالي الذي مات مقتولا في حصار ردانـه، ومثل سيدي إبراهيم السكتاني الذي سجن بمكناس ثم قتله السلطان، ومثل أبي عبـد الله المسنـاوي وغيرهم لأن التهمـة بـدأت تحوم منـذ مقتلـه حول كل من كان على صلة به، حتى إن السلطان غضب على القاضي أبي عبـد اللـه محمـد العربي بردلة لمجرد أنه صلى عليه. وكتب السلطـان إليـه يتهـدده ويوبخـه فـأجـابـه القاضي بأن صلاته عليـه نظيرة صلاة الحسن البصري على الحجـاج بن يوسف وقال : «فلما ليم (الحسن البصري) على ذلك قال : (استحييت من اللـه تعـالى أن استعظم ذنب الحجـاج في جنب كرم اللــه الغفــور الرحيم) على أني مـا صليت عليه بغير إذن بل خرج الإذن من الدار المولوية... فلا افتيـات بعـد ذلـك بل الواجب هو القيـام بـذلـك ولو بغير إذن إجـلالا وتعظيـا لجـانب مولانا نصره الله. ولما قال ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي اللـه عنـه في قضيـة الحديبية : «امح لفظة رسول اللـه» قـال علي رضي اللـه عنـه واللـه لا أمحوه أبـدا فتعـارض وجوب امتثـال أمر الرسول بـالمحو ووجـوب الاجـلال لمقـامـه الأرفع فرجح رضي اللـه عنــه وجـوب الاجـلال. ثم إن الصحيـح أن الحـدود كفارة ...الخ[70].

ومهما كان الخطـأ الـذي ارتكبـه مولاي مّحمـد العـالم فـإن مـوتـه كان خسارة كبرى للعلم والأدب، كما أن أسفنا عليه لا يمكن أن يميل بنا إلى إغفال الدوافع والظروف التي دفعت المولى إسماعيل إلى قتله.

---

70) الاعلام لعباس بن إبراهيم ج 5 ص 16.

الباب الثاني

اليوسي في بيئته وعصره

المبحث الأول

حياة اليوسي

في دراستنا لعصر اليوسي، حاولنا أن نستوضح رؤية المكانة التي كان اليوسي يحتلها في عصره، وعلاقته بأهم الأحداث التي جرت في وقته، وأن نكشف الروابط الجامعة بين مختلف البيئات التي تنقل فيها، ونلقي الأضواء على ما كان منها ذات تأثير ملموس في شخصيته.

وقد كان عصر اليوسي مضطربا، وكذلك كانت حياته نفسها لا تعرف الاستقرار، إذ أنه عاش في رحيل دائم واغتراب مستمر. فكانت دراسة عصره تقتضي منا البحث فيما كان يموج به من أحداث، والربط بينها من جهة وعلاقتها بحياة اليوسي من جهة أخرى.

وإذا علمنا أن المصادر التاريخية التي بين أيدينا لم تكن تهتم بهذا الربط، وإنما كانت تقتصر في الغالب على سرد الأحداث المتفرقة وتكتفي بتكرار الأخبار محفوظة بنفس العبارة أحيانا فلعل في محاولتنا تنسيق هذه الأخبار ولمح صلتها باليوسي ما يجدي على فهمنا لتأثره بها وتأثيره فيها.

وإذ ننتقل الآن إلى دراسة حياة اليوسي وشخصيته، نشعر بالاطمئنان إلى أن فكرة عامة عن اليوسي في عصره قد تكونت لدينا : فهو عالم كبير ظهر في عصر من أسوأ العصور اضطرابا وخللا فاضطربت حياته باضطراب العصر، ثم استتب الهدوء وانتشر الأمن وقويت الدولة فاستقرت أحوال

اليوسي بعض الاستقرار وإن لم تصل إلى ما كان يحتاج إليه من هدوء واطمئنان. ثم إن هذا العالم الذي طبعته (زاوية تمكروت) بطابعها وغذته (الزاوية الدلائية) بعلمها وأدبها وسلوكها أصبح له شأن بين العلماء : فجالسه الملوك وسعوا إلى درسه، واستفتوه في النوازل، وأقبل على درسه خلق كثير، وتخرج على يده جم غفير، منهم من أخذ العلم ومنهم من أخذ (الطريق) ومنهم من أخذهما معا.

هذه الفكرة العامة تمهيد لابد منه لما نحن بصدده من دراسة حياة اليوسي ثم دراسة شخصيته.

يقدم لها اليوسي نفسه في كتاب (المحاضرات) فيقول : «أنا الحسن بن مسعود بن محمد بن علي بن يوسف بن أحمد بن إبراهيم بن محمد بن أحمد بن علي بن عمرو بن يوسف وهو أبو القبيلة ابن داود بن يدراسن بن يلنتن (...) والكنية أبو علي، وأبو المواهب، وأبو السعود، وأبو محمد[1]»، ومن «يوسف» أبي القبيلة أخذ اليوسي نسبه الذي عرف به واشتهر. والقياس اليوسفي لكن القبيلة تسقط الفاء من لغتها، أو أنها سقطت لكثرة الاستعمال.

وجاء في كتاب (فهرس الفهارس والأثبات) للشيخ عبد الحي الكتاني ما نصه :

«أبو علي الحسن بن مسعود، بن محمد بن علي بن يوسف بن داود بن يدراسن اليوسي البوحديوي من آيت بوحدوا، هكذا لأبي التوفيق العربي الدمنتي في فهرسته، ولغيره بعد داود بن حدوا بن أويس المعروف باليوسي اليدراسني. ومن العجيب أن المترجم له في محاضراته لما ذكر أنه ابن مسعود ابن محمد بن علي بن يوسف قال : (وهو أبو القبيلة). وهو عجيب فإن جده

1) المحاضرات ص 10.

يوسف هذا رابع الآباء، ومع قربه من زمنه تفرعت منه خلائق فإن قبيلته اليوم وقبله كبيرة كثيرة جدا من أعظم قبائل المغرب»[2].

وهذا سبق قلم. فالشيخ الكتاني لم ينتبه إلى أن رابع الآباء هو (يوسف ابن أحمد) وليس (يوسف بن داود) وأن أبا القبيلة هو هذا الأخير وهو الأب الحادي عشر في سلسلة نسب اليوسي كما نص عليه هو نفسه في المحاضرات.

وقوله : «وهو عجيب فإن جده يوسف هذا رابع الآباء... إلخ» هي عبارة منقولة بالحرف من نشر المثاني للقادري. إذ يقول : «وهذا عجب فإن جده يوسف هذا هو رابع الآباء ومع قربه من زمنه تفرع منه خلق كثيرون فإن قبيلته اليوم كبيرة جدا ولا عجب في أمر الله[3]» ولعل هذا النقل بدون روية ولا تثبت هو الذي أوقع الشيخ عبد الحي الكتاني في الغلط، وليته إذ نقل، نسب العبارة إلى صاحبها كما تقتضيه صنعة التأليف وآداب العلم.

أما عن قبيلة (آيت يوسي) فالذي يبدو من الأخبار القليلة المتوفرة لدينا عنها أنها كانت قبيلة كبيرة الشأن ولا سيما من الناحية العسكرية، فقد كانت لها حروب مع الودايا، وفي سنة ست وتسعين وألف ثارت ضد المولى إسماعيل فيمن ثار من قبائل بلاد ملوية ثم انهزمت ودفعت خيلها وسلاحها للسلطان[4]. وكان المستضئ بالله ابن المولى إسماعيل يخطب ودها ليتقوى بها ضد أخيه عبد الله، ثم رأيناها بعد ذلك تخوض غمار الحرب إلى جانب السلطان مولاي عبد الله ضد منافسيه[5].

2) فهرس الفهارس والأثبات لعبد الحي الكتاني ص 464 ج 2.

3) نشر المثاني للقادري ص 16.

4) الاستقصا للناصري ج 7 ص 68.

5) الاتحاف لعبد الرحمن بن زيدان ج 4 ص 340 ـ 345 ـ 428.

وتقطن (آيت يوسي) جنوبي فـاس، وتتكون من ثـلاث عمـائر كبيرة : آيت يوسي أمكـلا وهي تـابعـة إداريـا لـدائرة صفرو، وآيت يـوسي انجيـل، وآيت يوسي كيكو، وكلتاهما تابعة لقيادة بولمان عمالة فاس وتشتمل كل عمارة على عدد كبير من العشائر[6].

ومن العشائر التي تتكون منها القبيلة : آيت بوحدو[7]، وإخترن، وهما يسكنـان في قريـة انجيـل، وآيت بنعمرو في تيجـام وهـو سهـل كثير الميـاه، وآيت همي في عسلوج بين قرية انجيل والغشوة تحيط به جبال عبو وأودكسو المكسوة بالغابات.

أما آيت يوسي كيكو، فمنهم آيت حمزة من اخترن وآيت كايس، وآيت بنعمرو لهم قصور في توردة والزقلات الواقعتين بين قرية انجيل والخوخات.

ويعـد من آيت يـوسي كـذلـك آيت لحسن، وسرغينـة وآينت بنمـوسى وتاغزوت، وتزوطـة وآيت خبـاش وكل هـذه الفرق الست يطلق عليهـا اسم آيت حلي وهي فرع من آيت يـوسي. وهنـاك فرقـة أخرى من آيت يـوسي تسمى آيت يوسي غرابة وقصورهم جهة أمكلة.

هذا ما استطعنا أن نصل إليه من معلومات عن هذه القبيلـة التي قلمـا تتحدث عنها المصادر التاريخيـة وكنـا نود أن يحـدثنـا اليوسي عن قبيلتـه كما حدثنـا عن نفسـه في كتـابـه «المحـاضرات» أو غيره من كتبـه ولكنـه لم يفعل حسب علمنا.

---

6) عبد الوهاب بن منصور في تعليقه على كتاب العز والصولة لابن زيدان ج 1 ص 159..

7) آيت عند البربر تستعمل تـارة بمعنى البنين والأولاد كآيت فلان بمعنى بنى فلان وتـارة بمعنى الأهل كآيت فاس بمعنى أهلها وبمعنى الرهط والقبيلة أيضا. البدور الضاوية لسليمـان الحوات ص 109.

أمـا العشيرة التي منهـا اليوسي فقـد وقع فيهـا اختلاف. «فـأبو التوفيق العربي الدمنتي» يقول إنه من آيت بوحدو. و«القاضي التاجمعتي» يقول إنه من آيت كايس. ونحن نعلم أن آيت كايس فرع من آيت يـوسي كيكـو التي ذكرنـا بقيـة فروعهـا أعـلاه. وذكر لي بعض أبنـائـه أن أجـداده ينتسبـون إلى قبيلـة فركلة من فخذة منها تسمى حارة الأقلال وأنهم ليسوا من قبيلـة آيت يوسي. والشائع عند حفدته الآن أن أباه منحدر من الساقية الحمراء وأنـه ينتسب إلى المولى إدريس رضي الله عنه.

ومما يؤيـد هـذا أن الشيخ عبـد الحي الكتـاني يـذكر أن المترجم (يعني اليوسي) يشعر في رسالتـه الكبرى للسلطـان أبي الأملاك المولى إسماعيل بـأنـه من أهل النسب[8]» إلا أن آثار اليوسي تدل على أنه بربري أصيل والله أعلم..

ورغم أن اليوسي غادر قبيلته صبيا ولم يعد إليها في كبره إلا لماما، فـإن تأثيرها في شخصيته كان قويـا إذ بقي بـدويـا يوسيـا لم تستطع الحواضر التي عاش فيها والأوساط الراقية التي اتصل بها، أن تغير من طبيعته شيئـا كثيرا. كما أنه بقي إلى آخر أيامه وفيا لقبيلتـه شـديـد التعلق بهـا كثير الحنين إليهـا معتزا ببداوته محافظا على أصالته، وقد عبر عن ذلـك في إحـدى رسـائلـه إلى المولى إسماعيل فقال :

«إنما أنا رجل بدوي» وقـال «وأمـا عـذري في استثقـال الحـاضرة فوجوه كثيرة : فإني لم أولد فيها بل في الفجاج الواسعـة بين الشيح والريح والجنوب والشمال، فأي عجب إذا حننت إلى مسقط رأسي ومحل أبناء جنسي[9]».

وان حبه لقومه وتعلقـه بقبيلتـه، وشغفـه بتلـك الحيـاة البـدويـة التي يعيشها البربر بين الشيح والريح كل ذلك خلق في نفسـه نوعـا من العصبيـة

---

8) فهرس الفهارس والأثبات ص 464 ج 2.

9) رسالته الجوابية إلى المولى إسماعيل خ.ع 849 جـ.

البربرية لا تفتأ أن تثور كلما حدث ما يحركها ولو كلمة ينطق بها طاعن أو موقف مشبوه يتخذه أجنبي. ومن ذلك ما ذكره الشيخ عبد السلام اللجائي قال : قال الشاطبي مستملحة قال أبو علي الفلالي :

فلو كنت في الفردوس جار البرابر ... لحولت رحلي من نعيم إلى سقر
يقولون للرحمن بابا بزعمهم ... ومن قال للرحمن بابا فقد كفر

ورد عليه العلامة سيدي الحسن بن مسعود اليوسي بقوله :

كفى بك جهلا أن تحن إلى سقر ... بديلا من الفردوس في خير مستقر
وتجعل معنى مستبين مجازه ... لدى كل ذي فهم سليم وذي نظر
فإن أبا الانسان يدعوه إنه ... كفيل وقيوم له رحم وبر
ومن قال للرحمن بابا فقد عنى ... له ذلك المعنى المجاز وما كفر
وقد قال عيسى إنني ذاهب إلى ... أبي وأبيكم جاء ذلك في الأثر
عليه سلام الله بعد صلاته ... على المصطفى المختار من سائر البشر[10]

واليوسي لا يالو جهدا في الدفاع عن قومه حتى عندما يكون المهاجم أمير المومنين، وأشد السلاطين بأسا وأخطرهم فتكا وأسرعهم غضبا وأكبرهم نصيبا من حرب البربر وفتنهم، فقد تصدى للرد على المولى إسماعيل في إحدى رسائله فكان رده عنيفا بما يتضمنه من تعريض خفي. يقول اليوسي : «وأما قول الكتاب صدق الصادق المصدوق إلى قوله في البربر لا يجاوز إيمانهم تراقيهم فأقول : هذا بعض معنى الحديث الذي في الصحيح وأنه يأتي في آخر الزمان قوم حدثان الأسنان سفهاء الأحلام الخ وقد اتفق السلف والخلف فيما علمنا على أن الحديث خرج في الخوارج (...) وأولئك كلهم عرب وليس فيهم بربري واحد، ولا يجوز التحدث عن النبي ﷺ بغير سند معتبر. وقول الكتاب فأراك رجلا بربريا فأقول نعم هو كذلك في الظاهر والأصل

10) المفاخر العلية والدرر السنية للجائي ص 60.

يعلمه الله فإن أطعت الله لم يخططني نسب فإن نسب الإنسان طينه وحسبه دينه أنتم بنو آدام وآدم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم[11]».

وفي هذا النص تصريح واضح بنسبته البربرية وليس فيه ما يفيد أنه عربي ولا ما يشير إلى أنه من أهل النسب.

أما أسرة اليوسي فيحدثنا عنها بشيء من التفصيل، فيذكر لنا أن والده سيدي مسعود كان «رجلا أميا» ولكنه «كان رجلا متدينا مخالطا لأهل الخير محبا للصالحين زوارا لهم[12] «وفيما عدا الأسية فإن اليوسي لا يختلف عن والده في كل هذه الصفات.

وقد أعطي أبوه الرؤية الصالحة، وأعطي عبارتها فكان يرى الرؤيا ويعبرها لنفسه فتجيئ كفلق الصبح، وهو مدفون رحمه الله في بني النجيل وعسلوج أو عتلوج الذي ورد ذكره في بعض أشعاره وهي بلدة جميلة بها مياه عذبة وعلى جوانبها الغابات الفسيحة وقبره ما يزال مقصودا للزيارة إلى الآن.

أما أمه فقد توفيت وهو ما يزال صبيا، فحرم حنانها وعطفها وكان موتها أول صدمة قوية واجهته فتنكرت عليه الأرض وأهلها كما جاء في فهرسته. إلا أن الصدمة أحدثت في نفسه أثرا عكسيا لم يكن منتظرا : ذلك أن الطفل الذي كان كثير الهروب من الكتاب شديد العزوف عن التعليم، أصبح بعد وفاة أمه محبا للعلم مقبلا على الدرس، يطلب من والده أن يغربه إلى الأمصار لطلب العلم. وهذا فتح رباني كما عبر عنه اليوسي نفسه[13].

11) رسالته إلى المولى إسماعيل خ.ع 849 جـ.

12) المحاضرات ص 29.

13) فهرسة اليوسي ص 129.

وكان لليوسي أخوان أميان أسن منه، وكانت له أخت لا ندري أكانت أكبر منه سنا أم أصغر وإذا لم يكن له من إخوته من شاركه في فضل العلم فقد كان له من أبناء عمومته من نصت المصادر على مشاركته في العلوم مثل : أبي عمرو عثمان بن علي اليوسي، الذي كان عالما فاضلا شاعرا ماجدا والمتوفى سنة أربع وثمانين وألف، وأحمد بن عثمان اليوسي ومحمد بن عمرو اليوسي وهما عالمان مشاركان،ذكرهما أحمد بن محمد الهشتوكي في فهرسته[14]. ومن أبناء عمه الأدباء الشعراء نذكر أبا سعيد عثمان بن علي اليوسي ذكره في المحاضرات[15].

ويحدثنا اليوسي عن أسرته وأخلاقها فيقول : «وقد كان أسلافنا وهم عامة يعيشون بما رزقهم الله تعالى قانعين به، ويخوضون في الأسباب الشرعية غير متمتعين لأحد (كذا)، وخلوص من دنس الطمع، وحرية من منن الناس، وجعت ظهورهم من التتبعات، وكثيرا ما نتمنى أحوالهم لولا ما من الله علينا من تلاوة كتابه ومزيد التفقه في دينه[16].

فالأسر ة إذن أسرة عادية لم تشتهر بعلم ولا بمال، مع أخلاق عالية تمثل في القناعة بالقليل والتحرر من منن الناس. وإذا كان اليوسي قد شابه أسرته في الصفة الثانية فكان عزوفا عيوفا لا تسوقه قدماه إلى مهاوي الطمع، ولا تضعه نفسه حيث يكون لغيره عليه فضل أومنة، فإنه خالف الأسرة في الصفة الاولى : طلب العلم ولم يقنع منه بالقليل، بل جاب أرجاء المغرب في طلبه، وأفنى عمره في تحصيله حتى اجتمع له منه حظ وافر.

---

14) فهرسة الهشتوكي خ.ع 147 ق 51 و 70.

15) المحاضرات ص 28.

16) وصيته لأولاده الورقة 61 من المجموع 612 جـ خ.ع.

ويمكننا أن نقول إن الرغبة في المال بدأت منذ وقت مبكر تهجس في نفسه إلى جانب الرغبة في العلم، فكان من أمنياته الأولى أن يكثر ماله، إلا أنه لم يجعله وكد حياته، وإن كثر لديه بعد ذلك وحدثت له فيه بسطة، يقول اليوسي في فهرسته : «... ذهبنا لزيارة الشيخ أبي يعزى، ووقع في سمعي أن الناس يطلبون الحوائج عنده، فحضر في عقلي ثلاث حوائج : وهي العلم، والمال، والحج، وذلك مبلغ عقلي في صغري. فأما ثنتان فقد حصل منها ما لا ننكره من فضل الله تعالى له الحمد والمنة، وأما الثالثة فنرجو أن يمن بها علينا مبرورة متقبلة[17]».

ويبدو من بعض النصوص أن اليوسي كانت له أموال، وأنه كان له خدم وحشم، وكان إذا أراد الرحيل احتاج إلى دواب كثيرة يبعثها له السلطان، وكان له وكيل على مؤن الدار، وامرأة في منصب رئيسة الخدم...[18].

إلا أن اليوسي في أواخر أيامه لم يعد يعتبر المال الذي بين يديه ملكا له، وإنما هو مال الله ينفق في سبيل الله، ولا يحل لأحد من أولاده أن يأخذه إرثا يتملكه، أو يدخره لنفسه وعياله : «وإنما ذلك مرصدا للانفاق في سبيل الله، وما خزن منه إلى وقت ما فإنما خزن لذلك، وليس لنا منه ولا لعيالنا وأولادنا إلا أن نصيب منه حاجتنا من غير تمول ولا تكاثر». ويزيد قائلا : «فليس لنا مال، وإنما نحن فقراء نعيش في فضل الله، ولولا النظر إلى ظاهر الشرع لما أخرجنا زكاة حب وماشية ولا غير ذلك إن كان، لأن الكل ملك لله ولا ملك لنا، ولا كنا خوطبنا بحكم الحوز، والله المستعان»[19].

17) الفهرسة ص 130 وتحققت أمنيته الثالثة فحج كما سيأتي.

18) يتامى الدرر ص 251.

19) وصيته لأولاده الورقة 59 من المجموع 612 جـ خ.ع.

وإذا كان اليوسي في الفهرسة يعترف بأن اللـه حقق أمنيتـه في حصول العلم والمال، ويذكر في بعض كتبه أنه كان يتعاطى أعمال الحرث، وكان ينال الراتب والجوائز من عند السلطان وذلك من أسباب التمول، وفي وصيته يقول إنه فقير حتى إنـه لولا النظر إلى ظـاهر الشرع لمـا أخرج الزكاة. فـإنـه ليس هنـاك تنـاقض بين هـذه النصوص لأنـه كان يعتبر أن جميع الأموال التي بين يديه هي أموال الزاوية اليوسية، منها ما جمع من الصدقات، وحـازه الشيخ، ومنها ما هو من أمواله الخاصة ضمه إلى أموال الزاوية متصـدقـا بـه في سبيل الله، وضاربا المثل لغيره بنفسه، أو أن أمواله الخاصة أنفقها جميعها في تأسيس الزاوية وإطعام الفقراء قبل أن تجتمع لـه الصـدقـات، فلمـا اجتمعت صـار لـه حق الأكل منها بالمعروف دون تمول ولا تكاثر، وصح منه أن ينفي الملك عن نفسه وإن كان حائزا.

وموقفه هذا من المال موضعه فيما يلي من حـديث عن شخصيتـه وإنمـا أشرنا إليه هنا لصلته بأسرته..

أمـا أزواج اليـوسي، فنفهم من نص وصيتـه أنـه تـوفي عن حرائر منهن وإمـاء. قـال : «وأمـا النسـاء الحرائر، فيؤخـذ من كل واحـدة مـا فضـل عن صداقها ممـا في يـدهـا، ويجعل من مـال اللـه، ويترك لكل واحـدة صـداقهـا محسوبا بما فات منه عندها، ثم من شـاءت أن تبقى في الـدار فهي من جملـة الأولاد، تـأكل من مـال وتلبس مـا عـاشت، ولمن أحبت أن تتزوج فـلا يعترض[20] لها «وإنمـا استفـدنـا وجود الإمـاء من تنصيصـه على الحرائر وإلا لقال : وأما النساء فيؤخذ من كل واحدة...الخ.

20) وصيته لأولاده الورقة 59 من المجموع 612 جـ غ.ع.

وسكت عن الإماء لجريان حكم الرقيق عليهن، فلا خفاء في حكمهن. على أن المصادر تمسك عن ذكر هؤلاء الأزواج، فلسنا نعرف عنهن شيئا، باستثناء أربع مذكورات في إراثة سيدي الحسن اليوسي، إحداهن لا يقرأ اسمها والثانية تسمى وزي بنت الشيخ عبد القادر الحمادي والثالثة هي الطالبة زهراء الصميلية الفاسية(20م) وهي مذكورة في أسانيد الرواة عن اليوسي، مما يفيد أنها كانت من أهل العلم، معروفة عند علماء زمانها. ولعلها تلك التي تزوجها في الزاوية الدلائية في أول شبابه. ذكرها الشيخ عبد الحي الكتاني في سند مروياته عن أبي علي اليوسي فقال : نروي ما لأبي علي اليوسي المذكور، من طريق ابن عبد السلام بناني، وأحمد المشتوكي عنه. (ح). ومن طريق الغربي الرباطي، عن أبي الحسن العكاري وغيره عنه (ح) وبأسانيدنا إلى ابن الطيب الشرقي، عن عمته الزهراء بنت محمد الشرقية زوجة أبي علي اليوسي، عنه».[21]

وهذا غلط من الشيخ الكتاني عفا الله عنه فهذه السيدة صميلية فاسية وليست شرقية والرابعة تسمى عزيزة.

وننتقل إلى الحديث عن أبناء اليوسي، وهو في الواقع حديث عن اليوسي الأب. وأول ما نلاحظه هو أنه كان يأخذ أبناءه بتربية بدوية صرفة، وكان يسعى لحمايتهم من أخلاق أبناء الحاضرة، ولا سيما بعض الأخلاق التي كان يعتبرها هجينة كاللؤم، والبخل، وقلة السماحة. كما كان يحرص على حماية نسائه من قلة الحياء، وفساد الطباع، وتعلم الشهوات والاتساع فيها. وكان هذا ما جعله يرفض الإقامة بالحواضر، ويفضل سكنى البادية حتى ولو خالف رغبة المولى إسماعيل الذي كان يلح عليه في الإقامة بالمدن لينتفع

20م) من وثيقة عدلية تتضمن مخارجة بين ورثة سيدي الحسن اليوسي في متروكه. زودنا بها أحد أبنائه شكر الله له.

21) فهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني ج 2 ص 468. والحاء المذكورة في السند تحويل.

الناس بعلمه. جاء في إحدى رسائله إلى المولى إسماعيل عند حديثه عن الأسباب التي جعلته يستثقل سكنى الحاضرة : «ومنها فساد الأهل، والأولاد، والأصحاب. ونخشى ذلك أيضا في أنفسنا، وذلك من جهات : «أحدها تعلم الشهوات والاتساع فيها، وإنا كنا في البادية لا نعرفها، ووجدنا آباءنا يعيشون بما وجدوا، قانعين به، يلبسون الصوف الخشين، ويأكلون البر تارة، والشعير أخرى، والبلوط أخرى، وحب العرعار أخرى، حامدين شاكرين. ما رأوا قط لباب البر، ولا إبزارا، ولا عطرا، ولا كتانا ملفا. حتى درجوا سالمين غير تابعين ولا متبوعين. وكنا نتمنى أحوالهم لولا ما من الله به علينا من حفظ كتابه والتفقه في دينه. نسأل الله تعالى أن يرزقنا بذلك إقبالا عليه، وإدبارا عن زهرة الدنيا حتى نلقاه آمنين. فلما دخلنا الحاضرة ظهرت الشهوات، ونظر النساء إلى النساء، والصبيان إلى الصبيان، والرجال إلى الرجال، فطلبوا الاتساع كما اتسعوا وابتلينا كما ابتلوا.

ثانيها الوقاحة في ذلك وقلة الحياء، فقد كنا في البادية تستحي المرأة أن تطلب اللحم فيكف بما وراءه، ولكن تتشوف إلى المواسم، أو ضيف ينزل فيذبح ويشترى له، أو إنفاق يأتي به الله من غير استدعاء. فوجدنا المرأة في الحاضرة تراعي الباب وتقول للرجل : أنفق وارجع للسوق. فلا تسمع إلا سوق اللحم، وسوق الحوت، وسوق الزعفران، وهكذا. والا يكون ذلك وقع التداعي وجاء الرجل القاضي.

ثالثها أن يتعلم الصبيان اللؤم، والبخل، وقلة السماحة، كما هو دأب أهل الحاضرة. وما فسدت طبائع العرب إلا في الحواضر[22]».

وقد كان لليوسي من الأولاد ثمانية، خمسة ذكور، وثلاث بنات، أما الأولاد الذكور فهم محمد، ومَحمد فتحا، وعبد الله، وعبد الكريم، والعربي،

---

22) رسالته إلى المولى إسماعيل 849 جـ.خ.ع.

أما الأول وهو محمد الكبير فجاء في (الاعلام) أنه من الفضلاء النبلاء، ومن أكابر النبهاء، وهو معدود في جملة الفقهاء، موصوفا بالصلاح والخير والفلاح»[23] له كتاب سماه (تنبيه الإخوان على ترك البدع والعصيان)[24] وله كتاب (الرحلة الحجازية). وهي على صغر حجمها مفيدة، وأسلوبه فيها متين، وملاحظاته دقيقة، مع الصراحة وخفة الروح، كما أنه بعيد عن الادعاء والتكلف، بعيد عن الإطناب. وقد أرخ في رحلته لحجة والده، وقصد في الوقت نفسه إلى تزويد الحجاج المغاربة بالمعلومات الضرورية عن الطريق إلى بيت الله الحرام، ومسالك القوافل، ومواقع الماء والأسواق، وأين تحسن الإقامة، ومتى ينبغي الرحيل وحيث يجب الحذر من اللصوص، وحيوية أسلوبه تأتي من صدق المعاناة لتجربة الرحلة، وصراحة التعبير عما لقي فيها. وأغلب الظن أنه كان يدون تجاربه ومشاهده أثناء الطريق، وعاد بها مدونة جاهزة، مما سهل عليه ضبط الأيام والمواقع، وذكر التفاصيل والجزئيات.

وفي رأيي أن هذه الرحلة وغيرها من الرحلات الحجازية التي يوجد منها عدد كثير في خزانتنا المغربية، في حاجة إلى دراسة خاصة : لأنها تكمل نقصا في كتب التاريخ، من حيث تهتم هذه الكتب أساسا بتاريخ الدول والملوك، وما جرى في عهودهم من حروب، وما أحدثوا من إصلاحات... الخ، بينما كتب الرحلة، تجلو الجوانب الاجتماعية، وتنقل إلينا النشاط العادي للشعوب نقلا يعطينا مادة لتحليل الأوضاع الاجتماعية وفهمها والحكم عليها.

وأما بقية الأولاد الذكور فلا نعرف عنهم شيئاً.

وأما البنات فواحدة تسمى أُم كلثوم، والثانية تسمى عائشة، والثالثة تسمى البغدادية ولا نعلم عن حياتهن سوى أن إحداهن تزوجها تلميذه أحمد

23) الاعلام لعباس بن إبراهيم ج 5 ص 10.

24) مخطوط موجود في خزانة زاوية تنعملت بإقليم بني ملال تحت رقم 282.

ابن يعقوب الولالي وعلى كل حال فإن من الطبيعي أن تكون المصادر ضنينة بالمعلومات الكافية عن حريمه بحكم الأعراف والتقاليد.

وكان أولاد اليوسي يقيمون بالدار الخلفونية بآيت يوسي، وهي مقر الزاوية ومما ورد في وصيته، أن على الأولاد أن يقيموا بهذه الدار : «ثم المتولي يسكن في الدار وعليه أن يأوي من معه من الإخوة إن وسعهم وإلا فليبن لهم حوله كسائر التعلقات»[25]. ويعني بالمتولي من تولى أمر الزاوية.

كما أنه عهد إليهم بأمر الزاوية، والقيام بخدمة الفقراء والمساكين وأهل النسبة، ومواصلة إطعام الطعام كما كان الأمر في أيامه، «فإن رأوا أن الله تعالى قد أقام ذلك عل يد واحد منهم بخصوصه، كبيرا أو صغيرا، فعلى الآخرين أن يسلموا له، ولا ينازعوه بظواهرهم ولا ببواطنهم، وليشكروا الله تعالى أن جعل الأمر فيهم ولم يخرج الخير عنهم، وعليهم أن يجتهدوا في خدمته وإعانته، قولا[26] وفعلا» وهكذا يظهر جانب آخر من جوانب حياة اليوسي، حيث يعالج أمور أبنائه بروح الأب، وعقل المربي الموجه ويحرص كل الحرص على ضمان التماسك والانسجام، والتعاون والوئام بينهم..

وكما كانت همة اليوسي عالية، ونفسه شريفة، ترتفع عن ذل السؤال، وتسمو فوق هذا المكر الرخيص الذي يتورط فيه الناس من أجل متاع الدنيا، فكذلك كان يريد لأبنائه أن يكونوا. وكان يحذرهم مما يتعاطاه أكثر أبناء المنتسبين إلى الطريقة من تكفف الناس، والطمع في أموالهم، ولا سيما مع الطوفان على المحلات والقبائل. قال : «فإنه العار والفقر الحاضر، (...)

---

25) الوصية.

26) الوصية.

وهو مهانة، وسخافة، وسقوط همة، وصاحبها مع ما يعانيه من التكليف، واقتحام الشبهات، وغير ذلك من القبائح الدينية والدنيوية، مسقط لمروءته مهين لنفسه[27]».

☆ ☆ ☆

وآن لنا أن نتحدث عن اليوسي نفسه، بعد أن تحدثنا عن قبيلته وأسرته :

ولد اليوسي كما ذكرنا سنة 1040 هـ بقرية (تمزيزت)، بقرب قرية (صفرو) على أقل من مرحلة من فاس. وسبقت مولده إرهاصات في فكر والديه وخيالهما، على شكل رؤى تبشر بمولود له شأن. ولا شك أن آمال الوالدين هي التي خايلتهما بهذه الرؤى. وقد سبقت الإشارة إلى أن والد الحسن اليوسي أعطي الرؤيا الصالحة، وأعطي تعبيرها، فكان يرى الرؤيا ويعبرها فتجيئ كفلق الصبح : وكان مما رآه عينان من الماء، إحداهما له والأخرى لأخيه علي، قال : «غير أن عين علي كنا نسقي بها في بلدنا، وعيني خرجت إلى ناحية أخرى، وكانت العين التي هي لي أقوى ماء وأكثر فيضا» ثم عبر رؤياه تلك بمولودين ينتفع بهما : قال اليوسي : فولد أبو سعيد (عثمان ابن علي) وولدت أنا[28].

وانتقل الطفل إلى الكتاب القرآني كما ينتقل أبناء القرية، إلا أن أمره لم يستقم فيه أول عهده به، فقد كان نفورا من التعليم، كارها للكتاب، يريد أن يبقى حرا لأنه شديد الحياء، ولا يحب أن يجد نفسه مضطرا دائما إلى الاستئذان حتى «في قضاء حاجة الإنسان». ويصف لنا اليوسي تلك الحيل

---

27) الوصية.

28) المحاضرات ص 29 وأبو سعيد المذكور أديب بارع توفى قبل 1095 هـ.

الصغيرة البريئة التي كان يتخلص بها من الكتـاب فيقول : «كنت إذا أرسلني أهلي إلى المكتب أنتكب عنـه، وربمـا أحتـال في ذلـك، فـأكمن في طريـق الصبيـان حتى إذا خرجـوا من المكتب جئت معهم كأني قـد قرأت معهم، ولم أقرأ. وسبب ذلـك أني كنت شـديـد الحيـاء في صغري، حتى إن الحيـاء كان يمنعني من ضروريات نفسي أن أتناولها أو أتحرك فيها عند النـاس، فكان مما ألقي في وهمي أن من دخـل المكتب كيف يتـأتى لـه أن يخرج إلى حـاجـة الإنسان ؟ وكيف يمكنه أن يذكر ذلك أو يشاور عليه المؤدب أو غيره ؟ فلم يمكني إلا الهروب[29]».

وبقي على نفوره من الكتـاب حتى مـاتت أمـه. فكانت الصـدمـة التي هزت وجدان الصبي، وأرهفت حسـه، وغيرت من سلوكـه : أقبل على التعليم إقبالا كبيرا على عكس ما كان منتظرا منـه، ويسر اللـه لـه «مقرئـا لكتـاب الله» متعففا على محارمه، محافظـا على دينـه، حسن العشرة، هو «أبو إسحـاق إبراهيم بن يوسف الحـداد اليوسفي»، فـأخـذ بيـده، وجـد في تعليمـه، فـأقبـل اليوسي على ما كان يرجى منه من حفظ القرآن، وتطلعت همته كـذلـك، في هذه السن المبكرة، إلى التثقف بما كان يجده عند مؤدبه من الكتب.

وتمتد يد الصبي ذات يوم إلى مجموع يحتوي على كتابين (للجوزي). ومـا يدري أحد يومئذ أن سيكون لهما أكبر الأثر على شخصيته، وسيطبعانـه منـذ صغره بطابع صوفي يلازمه سائر حياته. الكتابـان همـا (المورد العـذب) و(بحر الدموع) يقول اليوسي فكنت آخذه (يعني المجموع) أنظر فيه فأطالع حكايات من فيــه من الصــالحين، كأويس القرني وإبراهيم بن أدهم وإبراهيم الخــواص وغيرهم رضي اللـه عن جميعهم ونفعنـا بهم، فـانتقشت تلـك المـآثر في عقلي ووقعت حلاوتها في قلبي، فكان ذلك بذرا لما أنعم اللـه تعـالى بـه من الإيمـان

29) الفهرسة ص 129.

بالطريقة ومحبة أهلها والتسليم لهم، نسأله سبحانه أن يكمل هذه النعم التي لا نحصي لها شكرا باللحاق بهم، والانخراط في سلكهم في الدارين[30]».

وكأن ثقافة القرية لم تعد ترضي طموح الصبي فأخذ يلح على والده في تغريبه إلى الأمصار. ولبى الوالد رغبة ولده، وما كان له بد من إسعافه تطييبا لخاطره الذي ما يزال كسيرا بموت الأم.

وترك الصبي لوحه في الكتاب، وقد كتبت عليه سورة (والمرسلات عرفا) أي أنه لم يقرأ من القرآن إلا جزئين. وانتقل إلى ناحية القبلة، وكان أول شيوخه فيها «أبو زيان محمد» قرأ عليه جملة كثيرة من القرآن. ثم الشيخ «أبو محمد الحسين التعلاليني» الذي قال عنه في فهرسته «هو أول من أخذت عنه شيئا من العلم بعد كتاب الله تعالى[31]» سمع عليه شيئا من الديانات، وصدرا من (رسالة الشيخ أبي محمد) وصدرا من (مورد الظمآن) للخراز.

وممن قرأ عليهم القرآن العظيم أيضا الشيخ «أبو محمد الحسين بن أحمد المدوري» وقرأ عليه أيضا (منظومة الرقعي) في الديانات.

ومنهم الشيخ «أبو عبد الله محمد بن الحسن المدوري» ثم الشيخ الإمام «أبو بكر بن الحسن التطافي» الذي قرأ عليه ختمة منه. وقرأ ختمة أُخرى على الشيخ «أبي العباس أحمد الدراوي». وقرأ جملة من القرآن على كل من الشيخ «أبي عبد الله محمد بن محمد التجمعتي» والشيخ «أبي العباس أحمد بن محمد التجمعتي»...

ولسنا هنا هنا بصدد ذكر كل من قرأ عليهم اليوسي فإن لذلك موضعا خاصا سيأتي.

---

30) الفهرسة ص 130 ـ 131.

31) الفهرسة ص 131.

وحسب ما لدينا من معلومات، فإن اليوسي واجه صعوبات كثيرة في غربته هذه، وكثيرا ما كان يتأسى بهذين البيتين اللذين حفظهما عن شيخه أبي محمد الحسين بن أبي بكر :

ثمانية تجري على الناس كلهم	ولابد للإنسان يلقى الثمانيه
سرور وحزن واجتماع وفرقة	ويسر وعسر ثم سقم وعافيه

وكان من شدة وطأة الغربة عليه، ميله إلى سماع الحكايات المضحكة، وسعيه إلى حلقات المضحكين ورغبته في مجالسة من يصبره ويواسيه. جاء في المحاضرات : «كنت في أعوام الستين وألف مرتحلا في طلب العلم. فدخلت قرية في أرض دكالة فرأيت رجلا مسنا قد لازم المسجد منقطعا عن الناس فجلست إلى مستحسنا لحاله. وفي الحديث : «إذا رأيتم الرجل قد أعطي زهدا في الدنيا وقلة منطق فادنوا منه فإنه يلقي الحكمة» فلما دنوت منه إذا هو يعظم العلم وأهله تعظيما بالغا فازددت به عجبا، فكنت أجلس بين يديه ويحدثني ويصبرني على الغربة ويحضني على العلم، رحمة الله عليه.

وأنشدني في شأن الغربة ملحونا :

أنا الغريب المتوح	صابر على كل هانا[32]
إلى ننجرح ما نقول أح	في قلب من قطعت أنا

ويبدو أن رحلة اليوسي لم تنغصها الغربة وحدها بل إن الفقر قد شق عليه أيضا، وإن كنا لا نتوفر على الشواهد الكافية للجزم بأنه كان معدما في تلك الفترة. والقصة التي ذكرها الأفراني في الصفوة[33] والتي يفهم منها أن اليوسي قضى بفاس مدة لا يذوق الطعام إلا من الليل إلى الليل لشدة فقره

32) المحاضرات ص 47.

33) الصفوة للأفراني ص 117.

أيام رحلته في طلب العلم، ذكرها اليوسي نفسه في الفهرسة ولكنها لا تعنيه هو بالذات بل تعني صديقا له من قبيلته، وهذا سهو من صاحب الصفوة • غفر الله لنا وله.

ولعلنا نجد ما ينبئ عن فقره في هذه الأبيات التي نظن أنه نظمها في شبابه والتي يناجي فيها المولى إدريس ويشكو له ما أصابه من فقر وحرمان ويطلب منه تغيير حاله وإبدال العسر باليسر :

أمولاي إدريس يا ملجأ الورى	ويا غوث أهل الجود والفخر والمجد
أتيت كسير القلب مما أصابني	من الذل والهوان والضيم والفقر
أغثني أغثني إن فقري أضر بي	فمن فيض جودكم ندى البر والبحر
وجد لي بما أرجوه منك تكرما	وفضلا وأبدل حالة العسر باليسر
وذلي عزا والهوان كرامة	وضمي نص الاتضاح مدى العمر
فلا زلت أرجو من جنابك نصرة	أنال بها أمنا ويمنا بلا نكر
لأنك باب الله في كل وجهة	وقاصدكم في الأمن من صولة الدهر
شفيعي إليك المصطفى نخبة الورى	ملاذ جميع الرسل في موقف الحشر[34]

وإنما قلنا إن هذه الأبيات ترجع إلى أيام شبابه لما يشوبها من فساد في العقيدة فهو يرجو من المولى إدريس رضي الله عنه مالا يرجى إلا من الله تعالى، ويزيد فيجعل الرسول الأعظم مجرد شفيع له عند المولى إدريس، وهذا لا يصدر عن اليوسي إلا قبل أن يكتمل له علم الدين والعقيدة.. وعلى كل حال فهي واضحة في دلالتها على ما أصاب اليوسي من فقر في فترة من فترات حياته، ولن تكون تلك الفترة إلا أيام شبابه ذلك أنه كان فيما بعد موسرا كما ذكرنا.

---

34) كناشة سيدي عبد الرحمن المدغري خ.ع 3634 ص 312.

إن من الشجاعة أن ينطلق شاب دون العشرين في رحلة ترمي به ما بين فاس ومراكش وسجلماسة ودرعة والسوس وتارودانت ودكالة وغيرها، مع كثرة الفتن واضطراب الأحوال السياسية والاجتماعية في مجموع البلاد. وإن من علامات التوفيق الإلهي أن يبقى محافظا على أخلاقه الكريمة سالكا مسلك الصالحين الأتقياء المومنين رغم اشتداد المحن وتوالي الاحن وتوافر الأسباب الداعية إلى ارتكاب الحرام والوقوع في المحظور.

وإذا كانت رحلة اليوسي شاقة بسبب قلة الوسائل وبعد الأهل وانعدام الأمن، فإنها كانت تجربة وامتحانا خرجت منها أخلاقه سالمة. وليس معنى هذا أنه معصوماً أو أنه لم يكن يتعاطى ما يتعاطاه الشباب من لهو ولغو وإنما معناه أن الخاتمة كانت حسنة وأنه سرعان ما فطن إلى ما يجب التخلص منه والابتعاد عنه من مفاسد الأخلاق وقبائح الأعمال وأصبح مثالا للشباب المسلم الحق. وفي الجانب الخلقي كان تأثير شيخه سيدي محمد بن ناصر الدرعي واضحا. ذلك أن اليوسي اتصل به وهو ابن عشرين سنة أي في ريعان شبابه فتولاه الشيخ بالإصلاح والتهذيب وكانت نصائحه وتوجيهاته عميقة الأثر في نفسه. وأنقل هنا نصا من فهرسة اليوسي يجلو الدور الذي كان الشيخ الدرعي يقوم به في تربيته.

يقول اليوسي : «أجمعت السفر إلى ناحية الغرب وكنت إذ ذاك أعاشر الطلبة، ولا نخلو عند الاجتماع كما هو العادة من كثرة اللغو واللهو والهذر، فلما ودعني قال (يعني شيخه الدرعي) : عليك بالعزلة عن الخلق ما استطعت. وأشاح بوجهه، فلم يزل كلامه قائما بين عيني، فلما بلغت الزاوية البكرية تزوجت فانقطعت عني تلك الخلطة. ثم وقعت في مهاوي الشهوات، ودخلت مداخل النساء، فرجعت إليه مرة أخرى زائرا، فحين جلست إليه قال : عليك بمخالفة النفس. وجعل يلاحظني وكأنه يقول : فعلت وفعلت،

وأدركني خجل عظيم. وحكى لي عن أستاذه سيدي عبد الله بن حسين رحمه الله أنه كان يقول للفقراء إذا طلبت أحدا منكم نفسه بشرب الماء فليطلها ساعة، لا لأن في شرب الماء حرجا، ولكن ليلا يعودها المسارعة إلى ما تحب. فلم يزل كلامه هذا أيضا قائما بين عيني»[35].

وبعد فقد اغترب اليوسي في سبيل طلب العلم وتنقل بين أهم المراكز العلمية الموجودة في المغرب آنذاك وحصل أكثر ما يمكن تحصيله من العلوم واجتهد وصبر على الجوع والكد ما وسعه الصبر، حتى إنه لما كان في سجلماسة كان لا يذوق الطعام إلا عند الاصفرار لاشتغاله بالدرس والتحصيل وتنقله في المجالس طول النهار[36]، وعندما كان في (سوس) كان يقضي الليل كله أحيانا مع الطلبة يذاكرهم مسائل العلم. جاء في كتاب (المحاضرات) «كنت أيام طلب العلم في بلاد القبلة حتى أخذت بطرف من العربية فحدث لي انتقال إلى ناحية مراكش وذلك في دولة السلطان محمد الشيخ فأخذت في فنون أخرى كالأصول والمنطق والكلام وتركت العربية، ثم إني دخلت السوس الأقصى واتصلت بشيخنا أبي فارس عبد العزيز بن أحمد الرسموكي رحمه الله فوجدت أهل تلك البلاد يشتغلون بتصريف الأفعال ويستحضرون معها النصوص من الخلاصة ونحوها، فحضرت معهم فإذا أثبات الخلاصة تشذعن فكري لطول العهد بها، فلما رأيت ذلك أحببت أن أحدث عهدا بها فقلت للطلبة : من أحب أن يسمع الخلاصة فليأتني. فشرعنا فيها وكنا نجلس إليها بعد العشاء الأخيرة بساعة أو أكثر فنقطع الليل كله في المجلس، وأنقل كل ما في شرح المرادي بأكمل التقرير والتحرير وختمنا في نحو شهر وعشر ليال»[37].

---

35) فهرسة اليوسي ص 142.

36) رسالته إلى المولى إسماعيل 849 جـ.

37) المحاضرات ص 142.

وكذلك كان شأنه بفاس ومراكش وبالزاوية الدلائية وغيرها من المراكز العلمية.

وفي هذه المرحلة التقى اليوسي بعدد من الشيوخ سبق أن أشرنا إلى بعضهم ومنهم شيخه الإمام وقدوته سيدي محمد بن ناصر الدرعي، الذي وفد عليه اليوسي بدرعة، ومدحه بقصيدة تدل على موهبة التلميذ الشاب في الأدب واتساع باعه في اللغة منذ تلك السن المبكرة. وقد انبسط الشيخ إذ ذاك لتلك القصيدة وكتب لتلميذه.

أبا علي جزيت الخير والنعما ونلت كل المنى من ربنا قسما

يامرحبا بك كل الرحب مابرحت قرائح الفكر منك تجتني حكما

ومنذ ذلك اليوم أصبح اليوسي يعرف بأبي علي، تلك الكنية التي حافظ عليها واعتزبها طول حياته. ولازم اليوسي شيخه الدرعي فانتفع به ظاهرا وباطنا كما قال[38] ويتضح ذلك في تأثير الشيخ على شخصيته العلمية وعلى سلوكه ورياضته على احتمال ظروف العيش.

فالشيخ الدرعي لم يكن غنيا بل كان إلى الفقر أقرب منه إلى الغنى، فكانت ظروفه قريبة من ظروف تلميذه وكانت نفسه قد ذاقت قسوة الفقر وشظف العيش ومرارة الحرمان، وكثيرا ما نام هذا الشيخ مع أهله على التراب لعدم ما يشتري به حصيرا يفرشه[39]، وكثيرا ما بات طاويا لا يجد ما ينفق، فلا جرم أن يكون أقرب إلى نفس اليوسي وأقدر من غيره على فهم أحواله وتقدير متاعبه وضبط توجيهه.

---

38) الفهرسة ص 135.

وسيأتي الكلام بتفصيل عن هذا الشيخ في الباب المخصص لشيوخ اليوسي ولكننا نحب أن نشير هنا إلى تلك المدرسة التي من خلالها استطاع الشيخ ابن ناصر الدرعي التأثير في شخصية اليوسي، ونقصد بذلك الزاوية الناصرية. فإلى هذه الزاوية ينتسب اليوسي، وهي معهده الأول، ومشربه الذي عليه اعتمد وعول.

طبعت شخصيته بطابعها، وهيمنت على روحه بما في أشياخها من إخلاص النية وسلامة الطوية ومحبة العلم وأهله والجهاد في سبيل الله ودينه. فلم تستطع الزاوية الدلائية نفسها رغم المدة الطويلة التي قضاها اليوسي في أحضانها أن تنسخ ما في نفسه من حب للزاوية الناصرية وتعلق بها وحنين إلى أهلها وأيامهم.

وتنتسب الزاوية الناصرية إلى الشيخ أبي العباس سيدي أحمد بن الولي العارف أبي عبد الله سيدي محمد بن ناصر الدرعي وهي في الأصل للوالد «سيدي محمد» المذكور، بناها تلميذه «سيدي محمد بن ابراهيم الخياطي» دفين درب الحرة من طالعة فاس، واشتهرت نسبتها إلى الابن لأنه كان خليفة عن والده من بعده، وكانت له شهرة تفوق شهرة الوالد.

وأبو العباس أحمد كان وليا صالحا عارفا ناصحا نحويا لغويا[40]، وكان إمام عصره علما وعملا، مواظبا على سرد الحديث وعلومه والتفسير والتصوف وأصول الدين، عاكفا على تدريس المؤلفات المتنوعة[41]. له تآليف في الصلاة على النبي ﷺ، ورحلة ألفها في ذهابه إلى المشرق، وكتابات في الطريقة

---

39) طلعة المشتري لأحمد الناصري السلاوي ج 1 ص 133.

40) سلوة الأنفاس للكتاني ج 1 ص 263 ـ 265.

41) من مقال الأستاذ محمد المنوني تحت عنوان حضارة وادي درعة من خلال النصوص والآثار. دعوة الحق. أكتوبر 1973.

الصوفية. جمع مناقبه تلميذه ومرافقه في رحلته العالم الصالح أبو محمد سيدي الحسين بن محمد بن شرحبيل الدرعي.

أما نشاط الزاوية فقد بدأ سنة 1040 هـ على يد سيدي محمد بن ناصر الدرعي، وكان نشاطا علميا ودينيا مثمرا ولا سيما في تلك الفترة المظلمة التي تزعزع فيها كيان المجتمع المغربي وتعرضت قيمه الروحية وتراثه العلمي والحضاري لشرور وأخطار نتيجة للصراع الطويل في سبيل وحدة البلاد.

كانت الزاوية الناصرية دار علم وعبادة ومدرسة تربوية، منهاجها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. أما أنها دار علم فإن ذلك نتيجة طبيعية لوجود سيدي محمد بن ناصر الدرعي على رأسها، وهو أحد الثلاثة الذين أحيوا العلم بالمغرب : (سيدي محمد بن ناصر في درعة، وسيدي محمد بن أبي بكر الدلائي في الدلاء، وسيدي عبد القادر الفاسي بفاس) كان رحمه الله أستاذا لمن يقصد الزاوية من الطلبة من كل أطراف المغرب، وكان الطلبة يجدون فيه بغيتهم في دراسة الفقه والتفسير أو النحو أو الحديث أو التصوف أو غيرها وكانت له طريقة في التدريس لطيفة تغري الطلبة به وبدرسه فلم يكن يكثر من النقول أو يتكلف الدخول في بحث الخلافات والاعتراضات ولا سيا مع المبتدئين بل كان يقتصر على صورة المسألة يعرضها بأبسط لفظ وأسهل عبارة مع الضبط والاتقان وإصابة المفصل في إجمال القواعد وذكر الكليات وما يتفرع منها[42]...

وكذلك كان ابنه وخلفه الإمام أبو العباس أحمد الذي عرفت الزاوية في عهده ازدهارا واتساعا بما أضيف إليها من بنايات مدرسية ركزت اتجاهها التعليمي وساعدت عليه، فقد أسس هذا الشيخ بجانب جامع الخلوة إيوانا

42) راجع الدرر المرصعة ص 326.

لطيفا ليكون مركزا للتدريس وابتنى مدرسة لسكنى الطلبة وحماما للطلبة وغيرهم من الوافدين زوده بالماء الساخن في جميع الأوقات[43].

وكانت للزاوية الناصرية خزانة كتب حافلة أسسها سيدي محمد بن ناصر الدرعي بمجموعة من الكتب لا بأس بها، ولم تكن في عهده متوفرة على مكان خاص يحفظها من الضياع والتلاشي فكان رحمه الله يضعها على الأرض إلى أن أهدي له حصير ينام عليه هو وأولاده فآثر الكتب به واستمر ينام بلا فراش، وليس فوق هذا دليل على محبة العلم وتكريم الكتب وإخلاص النية... على أن الخزانة صارت لها بناية خاصة في عهد خلفه الشيخ أبي العباس أحمد كما أن عدد كتبها تضاعف بالنسبة إلى ما كان عليه زمن تأسيسها. ويذكر الأستاذ المنوني أن عدد المؤلفات التي توجد بالزاوية الناصرية اليوم يصل إلى 4200 مؤلفا.

وفي هذه الزاوية كان يتم تدريس علوم وفنون كثيرة كالتفسير والحديث والفقه والأصول واللغة والأدب وسائر علوم الشريعة وفنون العربية، كما كان يتم إقراء كتب أمهات مثل التسهيل، ومختصر خليل، والمدخل لابن الحاج، والإحياء للغزالي، وصحيح البخاري، والشفا للقاضي عياض، وطبقات الشعراني، والرسالة، وكافية ابن الحاجب، وصغرى السنوسي، والكافي في علم القوافي، والأجرومية والإيضاح لأبي علي الفارسي، والجمل للزجاج، وكتاب سيبويه، والمفصل للزمخشري، وجمع الجوامع للسيوطي، والفصيح لثعلب، وتهذيب البراذعي وشروح كثيرة على عدد من الكتب المتقدمة الذكر بالإضافة إلى دواوين الشعر والمقامات وغيرها. وأما نشاط الزاوية الاجتماعي فتشبه فيه بقية الزوايا، سواء من حيث تلقين الأوراد وأخذ الناس بتربية صوفية هادفة إلى تخفيف حدة أطماعهم المادية وتقوية

43) راجع الدرر المرصعة ص 55.

الروابط الروحية بينهم وإخضاع سلوكهم لمقتضيات الشريعة، أو من حيث الاحسان إلى الفقراء وجبر قلوبهم عن طريق إطعام الطعام وإيواء المساكين وغرباء الطلبة المحتاجين...

وإذا كانت الوضعية المادية للزاوية زمن سيدي محمد بن ناصر لم تسمح لها بإطعام الطعام وإكرام الفقراء فإنها نهضت بذلك زمن ولده أبي العباس، ولعل هذا وما ذكرناه من توسعة بنايتها وتضخم خزانتها في عهد الابن هو ما جعل شهرته تغلب على شهرة أبيه وجعل الزاوية تنسب إليه.

على أن الزاوية الناصرية إذا كانت تشبه بقية الزوايا فيما ذكرنا من أنواع النشاط الاجتماعي، فإن أسلوبها يمتاز على غيره بميزتين أساسيتين : أولاهما البساطة في الأوراد والأذكار والأدعية بحيث لا يوجد تعقيد ولا تطويل ممل، وثانيتهما مراعاة الفروق الموجودة بين الناس بحيث تختلف الأوراد التي تلقن للحضري عن تلك التي تلقن للبدوي، كما تختلف الأوراد التي تلقن للرجال عن تلك التي تلقن للنساء، وبالتالي لم يكن للزاوية الناصرية ورد مخصوص، فإذا قارنا بينها وبين غيرها من الزوايا في هذه المسألة بعينها أدركنا السر في سرعة انتشار الطريقة الناصرية وتكاثر أتباعها حتى كانت لها فروع مثل الفرع الذي أسسه «الشيخ علي بركة» بتطوان وغيره.

وأقام اليوسي بالزاوية الناصرية سنوات ثم فارقها لطلب المزيد من العلم، إلا أنه لم ينقطع عن زيارة شيخه الدرعي وزيارة هذه الزاوية التي تعتبر مدرسته الأولى كلما سمحت له الظروف بذلك.

رحل اليوسي إلى جبل دمنات حيث كان يحضر مجلس أبي الحسن علي ابن العباس، ثم التحق بالزاوية الدلائية. أعظم زوايا المغرب في ذلك الوقت، وأكبر مركز علمي في المغرب في هذه الفترة من تاريخه.

ويبدو أن هذه الزاوية لم توفر لليوسي، أول الأمر، كل ما كان محتاجا إليه في معيشته، بل تركته يفترش الثرى ولا يجد ما يتقي به برد الشتاء، فلم يسعه إلا أن كتب إلى بعض أعيان الدلاء بهذه الأبيات.

أيها السيد الأثيل السناء ... والأبي السني حلف العلاء

من بدا في بروج سعد وعز ... بدرتم منور الأرجاء

ومن احتاز في بحور علم ... سبق كل يجول في استقصاء

تشتكي المعضلات دهما إليه ... فتعود مجلوة بالذكاء

وإذا ما الظماء طافت بنهل ... عنده أدركته ذا إرواء

خص في القوم بالثلاث : بعلم ... باهر، وتواضع، وسخاء

إن في القر بالشتاء لشغلا ... شاغلا عن تمكن الاقراء

ثم كيف اصطبار جنب على البر ... دين : برد الثرى وبرد الشتاء

أترانا وقد عشونا لدار ... ملئت من نمارق لثراء

ثم إن لم نكن لذلك أهلا ... فلضيف الكرام حق العلاء(44)

وسرعان ما أخذت ظروفه تستقيم وتنبه طلبة الزاوية وأساتذتها إلى نبوغه فأناله ذلك الحظوة عند «السلطان محمد الحاج الدلائي»، وجعله يتمتع عنده بمزيد اعتناء واحتفال، فاستقام له الأمر، وانكب على الدرس والتحصيل وتزوج في الزاوية واستقر فيها نحو عشرين سنة.

والزاوية الدلائية هذه من تقع بناياتها القديمة على ربوة في سفح جبل «بوثور» ناحية «خنيفرة»، كما أن بناياتها الحديثة التي بناها السلطان محمد الحاج الدلائي توجد في المكان المعروف اليوم بزاوية «آيت اسحاق»(45).

---

44) المخطوط رقم 91 جـ خ.ع ص 45.

45) الزاوية الدلائية لمحمد حجي ص 37.

وكان لهذه الزاوية صيت عظيم، وتخرج منها جماعة من صدور العلماء وأعيانهم، بما كان فيها من معاناة العلوم والدءوب على التدريس[46]، وقد بدأت نشاطها منذ الثلث الأخير من القرن العاشر الهجري على يد مؤسسها الشيخ «أبي بكر محمد بن سعيد الدلائي» المتوفى سنة 1021 : وهو من رجال العلم والدين، رحل إلى مكناس وفاس للدراسة، «فتضلع في قواعد الشريعة، وتبحر في موارد الحقيقة»[47]، ثم رحل إلى مراكش فالتقى بالشيخ أبي عمر ابن أحمد بن أبي القاسم الأندلسي القسطلي المراكشي وأخذ عنه عهد الشاذلية[48].

وكان أبناء الشيخ أبي بكر وأحفاده من كبار علماء الزاوية وخيرة أساتذتها، كما تخرج منها عدد كبير من العلماء الذين ليسوا دلائيين، نظرا لانفتاح الزاوية أمام الجميع وتنزهها عن كل عصبية قبلية.

وقد توفرت لليوسي بالزاوية الدلائية عوامل كثيرة ساعدته على الدرس وشجعته على التحصيل. ومن أهم هذه العوامل في نظري.

---

46) نزهة الحادي ص 239.

47) البدور الضاوية لسليمان الحوات عند ترجمة أبي بكر الدلائي.

48) وهذا مثال عن الصلات الفكرية (بين المغرب والأندلس في هذا العهد المتأخر. وقد أورد صاحب البدور الضاوية) سند الدلائيين إلى الطريقة الشاذلية عن سيدي عمر المراكشي رحمه الله فقال» : «وجد بخط الفقيه العلامة أبي العباس سيدي أحمد بن يوسف الفاسي رحمه الله ما نصه : أخذ شيخنا الإمام سيدي أبو بكر بن محمد الدلائي رضي الله عنه عن الشيخ سيدي عمر المراكشي رحمه الله عن سيدي عبد الكريم الفلاح عن سيدي عبد العزيز ابن عبد الحق التباع عن سيدي محمد بن سليمان الجزولي وهو فيما رأيت عند جماعة الفقراء بفاس بخط شيخ الجماعة التباعية سيدي علي صالح أنه أخذ عن سيدي محمد بن عبد الله أمغار عن أبي عثمان سيدي سعيد الهرتاتي عن سيدي عبد الرحمن الرجراجي الذي أقام بحرم الله عشرين سنة، عن سيدي أبي الفضل الهندي عن سيدي عنوس البدري عن الإمام أبي أحمد القرافي عن الشيخ أبي عبد الله المقري، عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي «البدور الضاوية» ص 31.

1 - هدوء البادية وبعدها عن ضجيج الاضطرابات السياسية الحادة التي كانت تعاني منها الحواضر في تلك الفترة.

2 - ما وفرته له الزاوية من ضروريات حيث ضمنت له المأكل والمسكن، ونشير هنا إلى أن مساكن الطلبة بالزاوية بلغت ألفا وأربعمائة مسكن ولم تكن كافية، فكان يسكن في البيت الواحد طالبان فأكثر، وهكذا يمكن أن نستنتج أن عدد الطلبة كان كبيرا جدا.

3 - كرم رؤساء الزاوية الدلائية وعادتهم التي نشأوا عليها من إطعام الطعام والاعتناء بالضيوف وفتح أبوابهم لطلاب العلم. وهذا الكرم جلب للزاوية عددا من الأساتذة من مختلف أنحاء المغرب.

4 - وجود خزانة حافلة بنفائس الكتب بلغ رصيدها أكثر من عشرة آلاف سفر مما يفيد الطلبة والأساتذة جميعا في المذاكرة والمراجعة والتدريس والتأليف.

5 - ذلك الجو الصوفي النقي الذي يرتقي بميول الإنسان ويصرف همه عن الدنيا ويهون عليه ما يلقاه من شظف العيش ويساعده على القناعة بالقليل والرضى بالميسور والانصراف إلى غرضه من علم أو عبادة انصرافا كليا لا تكدره وساوس النفس وهواجس الطبع.

وهكذا طلعت في سماء هذه الزاوية بدور المعرفة، وأشرقت شمس الدين، وظهر من الدلائيين رجال حملوا لواء العلم في أفق المغرب عاليا خفاقا وأغنوا الخزانة العربية الإسلامية بعطاء غزير. ومن هؤلاء السادة الأعلام نذكر الشيخ أبا عبد الله سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي «المتوفى سنة 1040 وهو عالم مشارك جليل استغرقت ترجمته من كتاب «البدور الضاوية ما يقارب الخمسين ومائتي صفحة» ومن خلال قائمة شيوخه والفنون التي أتقنها وكان له التصرف فيها يمكننا أن نلاحظ ما كانت بلادنا تعرفه من نشاط

علمي جدير بالتقدير والتنويه وما كانت تحفل به هذه الزاوية من علم وعلماء. له تآليف متنوعة منها شرحه للأربعين حديثا ومنها الفهرسة وغيرهما.

ومن شيوخ الزاوية كذلك «أبو العباس سيدي أحمد المدعو بالحارثي» : كانت له «اليد الطولى في التاريخ والحساب واللغة والبيان والأدب والأصول والفقه والحديث»[49] ومن تآليفه «شرح مختصر ابن الحاجب» وديوان شعر وغير ذلك من التآليف الحسنة.

ومنهم «خاتمة النحاة، الإمام الهمام الباحث النافث، أبو عبد الله محمد ابن محمد بن أبي بكر الدلائي المعروف بالمرابط»[50]، وهو من شيوخ أبي علي اليوسي، ذكره في فهرسته، وذكر مؤلفاته. وسنترجم له بتفصيل فيما بعد. ومنهم «الفقيه المحدث الكبير الوارد من حياض المجد منهلا يروي ويمير»[51] «أبو عبد الله محمد المسناوي ابن أبي بكر : أخذ العلم بفاس، ثم رجع إلى الزاوية الدلائية فأقبل عليه طلابها إقبالا عظيما. وله تآليف كثيرة منها «نصرة القبض والرد على من أنكر مشروعيته في صلاتي النفل والفرض» ومنها كتاب «صرف الهمة في تحقيق معنى الذمة» وله نوازل في حوالي ثلاثمائة صفحة، وتقاييد كثيرة... وتوفي سنة 1059 هـ. ومنهم «أبو عمر ابن محمد بن أبي بكر الدلائي» الذي كان مختصا بتدريس تلخيص المفتاح وجمع الجوامع وألفية ابن مالك. وتوفي سنة 1069 هـ. ومنهم «الطيب بن المسناوي الدلائي» أخذ العلم عن علماء الزاوية، ثم رحل إلى فاس فأخذ عن سيدي عبد القادر الفاسي، ثم رجع إلى الزاوية وقام بالتدريس خير قيام، وتوفي سنة 1077 هـ.

---

49) البدور الضاوية ص 307.

50) فهرسة اليوسي ص 135 ـ 137.

51) نشر المثاني للقادري.

ومنهم «الشرقي بن أبي بكر الدلائي المتوفى سنة 1079 هـ، و«الشاذلي ابن محمد بن أبي بكر الدلائي، المتوفى سنة 1103، وغيرهم من أبناء هذه الزاوية.

ثم إن من الوافدين على الزاوية من ينسبون إلى الدلائيين وإن لم يكونوا منهم، ذلك أن الزاوية طبعتهم بطابعها وزرعت في قلوبهم محبتها والوفاء لها، ويوم أخلى الرشيد زاوية الدلاء ونقل أهلها إلى فاس لم يفرق بين من هو دلائي نسبا ومن هو دلائي تعلما لأن الزاوية أصبحت مدرسة فكرية وهوية علمية، وهكذا نقل أبا علي اليوسي إلى فاس، وظل يعتبره دلائيا لما يعلمه من وفائه لتلك الدار التي قضى بها زهاء عشرين سنة من عمره.

استقر اليوسي في الزاوية الدلائية هذه المدة ولكنه بقي وفيا لأحبته وأهله.

فلم يكن ينقطع عن زيارة شيخه الدرعي، كما أن زيارة الصالحين كانت من هواياته، المفضلة، فكان يقوم بأسفار طويلة لزيارة هذا الولي أو ذاك والتبرك به والدعاء عنده. ومع بعد المزار، وقلة الوسائل لم يكن اليوسي ينقطع عن زيارة أهله وإن كان يغيب عنهم الأعوام الطويلة، وكان أهله يعينونه بما قدروا عليه، وكان والده يفيض عليه من حبه وعطفه ما يقر عينه. وكثيرا ما كان يقص عليه ما رأى في المنام أثناء غيبته ويفسر له هذه الرؤى تفسيرا يشد أزره ويقوي عزمه ويشجعه على الصبر. ومما أعان اليوسي على طلب العلم والجد فيه أمران : قوة الشباب، وصلابة البادية. يقول في كتابه القانون : «كنت أيام الصبا في مجلس شيخنا أبي بكر التطافي رحمه الله، فلما اشتد الحر أرادوا أن يريحوا أنفسهم شيئا، فقلت لهم : نشتغل ولا بأس علينا من الحر، وكانت في إذ ذاك قوة الشباب وصلابة البادية فقال لي الشيخ المذكور : نحكي لك حكاية في مثل هذا نريك الفرق بيننا وبينك :

وهي أن بعض أمراء مصر ذكر له بعض الأطباء عن عشبة عندهم أن من أكلها يموت بإذن الله. وكان أعرابي بدوي حاضرا معهم فقال : هاتوا هذه العشبة وأنا آكلها فأكلها، ولم يألم بها فضلا عن أن يموت. فلما رأى الأمير ذلك غضب على الطبيب وقال : تكذبني فقال الطبيب : أيها الأمير أنا لم أتعرض لهذا الجنس - يعني أهل البدو - ولكن إن أردت أن تعرف صحة قولي فخذ هذا الأعرابي وأعطه دارا وفراشا حسنا ومأكلا حسنا حتى يكمل الحول، فأعطه العشبة يأكلها، فإن لم يمت إذ ذاك فاقتلني. ففعل الأمير بالأعرابي ذلك، فلما أتى عليه الحول في الرفاهية أكلها فمات»[52].

☆ ☆ ☆

ومرت أعوام على اليوسي وهو طالب بالزاوية الدلائية، حتى إذا اشتد عوده واستوى عالما كامل الأدوات واسع الثقافة ناضج الفكر، تصدر للتدريس بها متمتعا بثقة رؤسائها وأساتذتها وطلبتها، ولم يكن بلغ سن الأربعين.

وتوقف نشاط الزاوية الدلائية سنة 1079 هـ كما ذكرنا سابقا، وخربها المولى رشيد، ونقل علماءها إلى فاس، ومن ألمعهم وقتذاك أبو علي اليوسي، الذي لم يتوقف نشاطه بتوقف الزاوية بل تابع نشاطه العلمي في فاس وغيرها على ما سوف نذكره بعد بمزيد تفصيل.

وقد أشرنا في فصل سابق إلى ما كان اليوسي يحظى به من تقدير واحترام وإكرام من جانب المولى رشيد، ونريد هنا أن نزيد هذا الموضوع بيانا ونسجل الملاحظات التالية :

52) القانون لليوسي ص 270.

أولا : أن اليوسي كان يتمتع بثقة الرشيد وهو الذي أصدر إليه الأمر للتدريس بالقرويين بعد نقله إلى فاس وكان اليوسي لا يجد حرجا في أخذ الجوائز والرواتب منه ولا يخشى من ذلك شيئا على دينه أو على سمعته، لأنه كان يعتبر ذلك حقا من حقوقه في بيت المال، يستفيد منه كما يستفيد منه غيره.

جاء في كتاب القانون «وكنت مرة بمدينة فاس أيام الرشيد بن الشريف فكنت أدرس وآخذ الجوائز وأركب إليه وآكل طعامه وألبس كغيري».

فاليوسي كان من المقربين لدى الرشيد يحظى منه برعاية خاصة حتى إنه ليشعر بالتغير الخفيف يطرأ على صحته فيستفسره عن حاله ويهتم بعلاجه كأنه أخ من إخوته. يقول «أبو علي اليوسي في (محاضراته) : «دخلنا مدينة فاس حرسها الله عام تسع وسبعين وألف فأصابني إسهال مفرط وطال بي، وكان الطبيب يعتني بأمري فلم يترك من دواء يستحسنه إلا صنعه لي، فلما لم يفد ذلك أرسل في غيبة مني إلى عيالي يقول لهم إن كان ثم من الطعام ما يعتاده في بلده فأطعموه، فذكروا الأقط، واصطنعوا عليه طعاما فأكلته فعافاني الله تعالى، وقد أصابني مرة أخرى ذلك فدخلت على السلطان رشيد ابن الشريف وكان يكرمني ويجلني فرأى تغيرا في وجهي فسألني فأخبرته، فقال وماذا صنعت من علاج ؟ فقلت له : إن الطبيب يصنع لي شراب الريحان،فتضاحك ثم قال: سبحان الله،مالنا ولشراب الريحان وأين عهدته؟ خذ سويق الشعير واخلطه بالماء، فذلك دواؤه. ثم ضحك فقال : هذا مثل قصة العمراني ...الخ»[53].

53) المحاضرات ص 66.

وجاء في جواب له على رسالة من المولى إسماعيل :

«والفرق بين ما يعطى اليوم وما يعطيه مولانا الرشيد أن ذلك موجود وهذا غير موجود. لا فرق بينهما غير ذلك، وإلا فما أعطانا السلطان اليوم عطاء فرددناه عليه وقلنا لا تأكل الحرام ؟ نعم كنت في الأول متشوفا واليوم لا أتشوف، ووجه ذلك أني كنت إذ ذاك في شبابي وصحتي قويا على التدريس وكنت في المدينة لا حرث لي ولا معاش فعلمت أن لي حقا في بيت المال بما يجري الله على يدي من النفع مع وجود الحاجة».

ثانيا : أن اليوسي مع ما عرف عنه من اعتزاز بنفسه، وعزوفه عن أبواب أصحاب الرياسة، وبعده عن تملقهم والتحبب إليهم بأنواع المجاملات وأشكال النفاق فإنه لم يجد حرجا في مدح الرشيد نظما ونثرا. ولعل أهمية هذا المدح تظهر بوضوح إذا ما تذكرنا الأيادي البيضاء التي كانت للدلائيين على اليوسي، وأن الممدوح هو الذي استأصل شأفتهم وبدد جموعهم وان طول صحبتنا لليوسي أثناء اعدادنا لهذه الرسالة لتهدينا إلى القول بأنه لم يمدح الرشيد إلا عن إخلاص وتقدير، ولقد رثى الدلائيين دون أن يعبأ بغضب الرشيد، كما مدحه دون أن يعبأ بغضب الدلائيين، وهو في الموقفين صادر عن صدق وإخلاص. ولابأس أن ننقل هنا أبياتا من مدائح اليوسي :[54]

فخر السلاطين الرشيد المرتدي	حلل الجلالة والجمال الباه
ملك إذا ملك سما بمناقب	فيه المناقب تستمى وتباه
وإذا الملوك سعت لتدرك منصبا	سعت المناصب نحوه بمهاه[55]
وإذا اكتفوا بمصيص برض من	على ورد الحياض بناهل شفاه

54) يتامى الدرر خ.ع 157 ص 109.

55) المهاه : الطراوة والحسن.

لم يكفـه إرث التليـد من العلى | حتى كسـاه طريفهـا بنبـاه
ويعـاف ورد المجـد وارد همـة | منـه وروض العيش وهـو الراه[56]
من لم يكن أثرا لكل مهنـد | عضب وكل مسـوم وهـواه[57]
من قاس نجـدتـه بنجـدة خـادر | وسخـاءه بـالـزاخر الميـاه[58]
لم يعطـه نصفـا فـأين المـاء | والسرحـان من ملـك أميرنـاه
ما الليث إلا بعض ما هـو واجـد | والبحر إلا بعض مـا هـولاه[59]
ورد البـلاد ورود وبـل سـاجم | هـام على جرد من الأتيـاه[60]
وبنـو الـزمـان كأنهم في مهمـه | همـل أغيث بسـائـل فهفـاه[61]

ثالثا : أن السبب في الحظوة التي نـالها اليوسي عنـد الرشيـد ليس هو هذا المدح وإنما هو علم اليوسي واتساع معارفه وكمال ديـانتـه وصلاحـه. وقـد بلغ من تقدير الرشيد له ما جعله يحضر دروسه بفاس طلبا للفائدة وتشجيعا للعلماء على الجد والمثابرة وطلب الكمال.

بعد هذه الملاحظات نرجع القول إلى انتقال اليوسي إلى فـاس وتصـدره للتدريس بأكبر مساجدها وأعظم جامعة إسلامية في ذلك الوقت موجودة في رحابها.

لم يكن التدريس بالقرويين في ذلك الزمان ولا قبله مهمـة سهلـة، ولم يكن في مقدور كل واحد أن يتبوأ مقعد الأستاذية. ذلـك أن مـدينـة فـاس هي دار العلم، اجتمع فيها من العلماء ما لم يجتمع في غيرها، وقصـدهـا الطلاب

---

56) الراه : عيش راه واسع رافه.

57) وهواه : فرس وهوه ووهواه نشيط حديد.

58) الخادر : الأسد ـ الزاخر ـ البحر.

59) لهاه : أعطاه اللهو أي العطية فهو لاه.

60) الأتياه : ج تيه بالكسر المفازة.

61) فهفاه : رجل فهفاه على المال حسن القيام به.

من كل صوب فعمروها وأسهموا في خلق وعي ثقافي عام لدى جمهورها، فكان العالم إذا تصدر للتدريس لا يجتمع حوله الطلاب فقط بل يختلط بهم سواد كبير من المستنيرين والعوام هواة مجالس العلم، بعضهم للاستفادة وبعضهم للتبرك... وكان العالم لا يسلم من النقد بل ربما اتفقت جماعة على اختباره وكشف حقيقته للعيان فتحرجه بالأسئلة، وتفاجئه بالمناقشة والجدل وتبغته بالمعضلات، فإن ضعف أنزلوه عن كرسي التدريس، وإن برهن على جدارته أصبح عالم المدينة كلها تلهج بذكره وتلجأ إليه في الفتوى.

دخل اليوسي مدينة فاس سنة تسع وسبعين وألف، فأقبل طلبة العلم للأخذ عنه بجامع القرويين، وانتفع به خلق كثير، ودرس علوما كثيرة وكتبا متنوعة، ولقد احتفظ لنا بعض تلاميذه بصورة مما كانوا يقرأون عليه.

من ذلك ما نقله ابن زاكور من نشر أزاهر البستان عن الشيخ علي بركة تلميذ اليوسي قال :

«ثم إنه لما أراد سبحانه أن يتوجنا بتاج المعالم العلمية ويروجنا برواج المكارم البهية السنية، ألقينا إلى من ألقت إليه العلوم القياد، وانجابت عنه سحب شموسها بما خرج عن محل الاعتياد، البحر الزاخر، والحبر الذي يفخر به هذا العصر الآخر، مالك ملاك العلوم وسامك سماه ذي المنثور والمنظوم، محط رحاب أرباب المنقول والمعقول، ومناط أصحاب الادراكات والعقول، الذي إذا قال فيه القائل : إن الزمان بمثله لبخيل، يحق أن يقال له ما أصدقه من قيل، الهمام الذي لا يدع من جمعه الله به أن يقول الحمد لله الذي أذهب عني بهذا السيد عناي وبؤسي الشيخ أبو علي سيدنا الحسن بن مسعود اليوسي، أسمى الله سبحانه مكانته وأدام كرامته، فإني قد استمسكت بغرزه مدة مديدة وأنبطت من ينابع علومه عيونا سليلة الجرية جديدة، وتمتعت به في الحضر والسفر، ورجعت من عنده بفضل الله تعالى بتمام الفلح والظفر،

فأخذت عنه رضي الله عنه وكان له، وبلغه من خير الدارين أمله، في الفقه مختصر الشيخ خليل، وفي الأصول جمع الجوامع (...) وفي علم المنطق والميزان مختصر الشيخ السنوسي وكبراه عمدة أهل التوفيق والتسديد، وفي علم العربية جملة صالحة من التسهيل وشيئا من ألفية ابن مالك، وفي علم البيان والمعاني الشرح المختصر على التلخيص لسعد الدين التفتزاني وقرأت عليه بنفسي قراءة إتقان وإيضاح متن تلخيص المفتاح، وسمعت عليه أيضا في فن الأصول المهذب المذاهب نحوالنصف من مختصر ابن الحاجب، وسمعت عليه في الحديث النبوي أماكن من صحيح البخاري وجميع شمائل الترمذي»، هذا إلى جانب الشفا للقاضي عياض والمعرفة بأحوال المصطفى وكتاب الاكتفا للإمام الكلاعي...».

وتخلفت جماعة من المشاهير عن الأخذ عنه فتألم اليوسي لتخلفهم مع حاجتهم إلى درسه وفسر ذلك بغلبة الأنانية على طباعهم وتحرك الحسد في صدورهم، وانفعل انفعالا شديدا فقال هذين البيتين اللذين ندم عليهما بعد ذلك واعتبرهما من فرطات النفس وسقطاتها :

ما أنصفت فاس ولا أعلامها	علمي ولا عرفوا جلالة منصبي
لو أنصفوا لصبوا إلي كما صبا	راعي سنين إلى الغمام الصيب

وساءت الحال بينه وبين أهل فاس في أول الأمر، لتآمر بعض الأعيان عليه. ورد عليه العلامة سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي بقوله :[62]

بل أنصفت فاس ومن إنصافها	أبدا سقوط المدعي والمعجب
تنفي الدجاجل عاجلا أو آجلا	منها فهي طريدة من يثرب

62) وذكر صاحب الصفوة أن الذي أجابه بهذين البيتين هو أبو زيد عبد الرحمن بن شيخ الجماعة أبي محمد عبد القادر الفاسي. خلافا لما نقلناه نحن عن حاشية المحاضرات.

قال الأفراني في (الصفوة) : «فلما وقع الجواب بيد أبي علي طالع به شيخ الجماعة أبا محمد فقال له : البادي أظلم، وأنت أزلت عنك جلباب الوقار وأنحست مقدارك بتصديك لمعارضة الأحداث وإصغائك لمقال من لم يساوك في علم ولا فن».

ومما يحكى أن بعض أعيان علماء فاس أرسل إليه بطاقة فيها جواب عن قوله السابق، فلما قرئت عليه كتب له لفظة «سلاما» وحدها، فلما ردت البطاقة إلى مرسلها اعترف ببراعة الجواب وفهم أنه يشير إلى قوله تعالى : **﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾**[63].

وذهب المتعنتون والمتعصبون من أهل فاس إلى أن سحروا اليوسي حسب زعمه، فكان إذا صعد لكرسيه بجامع القرويين أصابه صداع عظيم، فإذا نزل من الكرسي زال عنه، فلما رأى ذلك تخلى عن التدريس.

يقول اليوسي في وصف هذه الفتنة : وقبلت قول السلطان (يعني أمر المولى رشيد بالرحيل إلى فاس) وارتحلت بنية صالحة على أني أعلم من جاءني (...) فبت خارج فاس نحو ليلتين والطلبة يترددون إلي فلم أدخل المدينة حتى لم تبق لي نية من كثرة القيل والقال. ثم بدأنا القراءة فأصفقت علي الطلبة أهل البلد والغرباء، وكان المجلس حافلا وذلك في غيبة السلطان إلى سوس. فتحرك الحسد والوسواس وكثر القيل والقال وجعل كل من يحبني يحذرني من الناس ومن أكل طعامهم، فما يمكنني أن أشرب ماء ولا آكل طعاما من يد أحد، ولا أجلس على سليخة الكرسي حتى يقلبها أصحابي ولا تفريط. وصرنا في فتنة وبلاء، ثم لم ألبث إلا قليلا حتى مرضت، فبقيت حتى نقهت واسترحت، فذهبت للقراءة فلم أكن إلا أن طلعت على الكرسي حتى أصابني ذلك، فنزلت وجئت الدار فرقدت أيضا حتى نقهت، فرجعت

63) سورة الفرقان : الآية 63.

فكان الأمر كالأول. فعند ذلك قام إلي أصحابي فقالوا : هـذا أمر واضح بين، هذا عمل عمل لك على مجلس القراءة ليلا تشتغل به فإنـك ميلت عن النـاس تلامذتهم وأخليت مجالسهم، وجعلوا يكتبون لي معاذات لم تزل اليوم علي فمن ثم أمكنني بإذن الله أن أحضر الميعاد»[64].

ونحن إذا حاولنا أن نبحث عن الأسبـاب الحقيقيـة لهـذه الخصومـة بين الفاسيين واليوسي، فإننـا نجـد بعضهـا يكمن في كبريـاء اليوسي وشـدة اعتزازه بنفسه وثقته في علمه وتعاليـه على هؤلاء الضعـاف الـذين يقـاوونـه والقصـار الذين يطاولونه، ولعل أصدق مثال على ذلـك هو هـذا الجواب الـذي رد بـه على سائل أثناء الدرس : «اسمع مـا لم تسمعـه من إنسـان، ولا تجـده محررا في ديوان، ولا تراه مسطرا ببنان وإنما هو من مواهب الرحمن»[65].

ولعله ما قال هـذا إلا اعتـدادا بعزة العلم وجلالـه. لكنـه يبـدو لبعض الناس صلفا، واستعلاء، ويدفعهم إلى الإنكار والتشنيع وسوء الأدب. واليوسي بطبيعته كان ـ فيما نعرف من شخصيته ـ أبعـد النـاس عن التكبر وأدنـاهم إلى التواضع، فعذر أهل فاس أنهم لم يميزوا بين كبرياء العلم والتكبر.

ولا ينبغي أن يفهم من حديثنـا عن الخصومـة التي وقعت بين اليوسي وبعض أعيان فاس أن مدينة فاس تنكرت له، وأن الإقبال على دروسـه كان قليلا، فإن الخبر متواتر بأن مجلسه ما كان قط إلا غاصا بـالطلبـة والأعيـان، وأنه اتفق له من اجتماع الناس عليـه وإقبـالهم على درسـه مـا لم يتفق لغيره، ويكفي أن نذكر أن السلطـان مولاي رشيـد كان يحضر درسـه ولا يبعـد أن يكون هـذا النجـاح العظيم من الأسبـاب التي أثـارت خصـومـه حسـدا منهم وغيرة.

---

64) رسالته إلى المولى إسماعيل مخطوط 849 ج.

65) طبقات الحضيكي خ.ع 2328 ك.

ثم إن اليوسي كان صريحا شجاعا، فكان ينتقد الفاسيين على مرأى منهم ومسمع دفاعا عن النفس مما زاد في غضبهم منه ودعا إلى تألبهم عليه : أوعز خصومه إلى السارد أن يفتتح الدرس بقوله تعالى : ﴿**مثله كمثل الكلب...**﴾ الآية. فقرر اليوسي الآية تقريرا عجيبا وذكر محاسن الكلاب وذكر عيوبها حتى تعرض إلى نباحها في الضيوف فقال : إنكم يا أهل فاس تشتركون مع الكلاب في هذه الصفة !!

☆ ☆ ☆

وأخيرا عزم اليوسي على مغادرة فاس واللجوء إلى البادية وكأنه ضاق بالمدينة وأهلها. إلا أن الظروف السياسية لم تكن مواتية ولا سيما أن المولى إسماعيل كان ما يزال حديث عهد بالخلافة، وأقل ما يظنه باليوسي أنه رحل عن فاس لعدم تأييده له وقلة ثقته في حكمه أو لنفوره منه، فبقي ينتظر الفرصة المواتية إلى أن جاء الله بالفرج فثار أهل فاس على السلطان وجاء الأمر بخروج اليوسي من المدينة.

وهكذا خرج اليوسي من فاس وزار مدينة تطوان سنة 1083 هـ وكانت تعيش ظروفا صعبة أشرنا إليها عند حديثنا عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وكانت تواجه حملات عسكرية أجنبية متوالية بسبب طمع الإسبان والبرتغال فيها فشاركها اليوسي صمودها بقصائد جهادية وكان دائما يقدر في أهلها روح الجهاد ويذكرهم عند السلطان بذلك فمما جاء في إحدى رسائله إلى المولى إسماعيل : «وقد حضرت بمدينة تطاوين أيام مولانا رشيد رحمه الله فكانوا إذا سمعوا الصريخ تهتز الأرض خيلا ورماة» ومن قصائده فيهم :

يا أهل هذا الفحص كيف معاشكم	وحوالكم تلك النواقس تضرب
بل لم يزالوا يغتدون بغارة	شعواء تقتل فيكم وتسلب

مـا بينكم بحر ولا بعـد المـدى	والخيـل تعلف في الأري وتشرب
يـا أهـل أنـدلس ألم تستخرجـوا	من أرضكم وديـاركم وتنكبـوا
هـلا انتصرتم مثـل مـا انتصر العـدا	هـلا تخربتم غـداة تخربـوا
هـلا جعلتم في نحـورهم القنـا	ودعـوتم رب العبـاد لتغلبـوا
أين الشجـاعـة والحفـاظ وأنتم	عرب وللعرب الحفـائـظ تنسب[66]

وبقيت مدينة تطوان ذاكرة لليوسي هذه المشاركة كما ظلت مدينة لـه بشيخها وعـالمها الأكبر ومصلحها الأعظم الشيخ علي بركة تلميذ اليوسي وخريج مدرسته العلمية والصوفية.

وعندما حلت سنة 1084 هـ كان اليوسي مستقرا في البادية[67] ويبدو أنه أصاب فيها ما كان يرجوه من هدوء بـال وسكون وتفرغ كامل لـدراسة العلم وعبادة الله واستراحة شاملة من فتنة الحواضر وخصومات الناس : جاء في إحدى رسائله إلى المولى إسماعيل : «ونزلت في الشعب الـذي كنت فيه وبنيت دويرات بغير مؤنة واتسعت وجعلت لنفسي موضعا وبابا لا أرى فيه قط امرأة من غيرعيالي، وبنيت بيتا ملتصقا بالمسجد، فـإن رأيت في الخـارج خلطـة لا تعجبني نفرت لهم فـأقـاموا الصلاة وصليت معهم. وأنـا أسمع قراءة الإمـام. وأبقى على ذلـك إن شئت الشهر والشهرين لا أرى أحـدا ولا يراني، أنظر في كتبي حتى تقـام الصلاة ولا يضيع علي شيء من أوقـاتي، وسـاقيتـان تجريان في وسط الدار والخضرة في وسط الدار وعلى بـابهـا والحطب في بـاب الـدار والمؤنـة مكفيـة ومـا لم يوجـد يستغنى عنـه إذ لا جـار يفتن ولا سوق يقطع العـذر، وجـاءت طلبـة وكنـا نـدرس العلم للـه، لا يتشوف أحـد منـا

66) يتامى الدرر ص 6 ـ 7.

67) ترجمة سيدي عبد القادر القادري المخطوط رقم 1234 ك ص 116 خ.ع.

لمرتب، ولا يرائي أحدنا أحدا، ولا نسمع قال فلان ولا قرأ فلان، فاسترحنا وحمدنا الله تعالى ووجدنا صالح ديننا وراحة قلوبنا وأبداننا»[68].

ولكن الحظ العاثر أبى إلا أن يلاحق اليوسي ويقلق راحته، ويخرجه من عزلته التي طالما تمناها، فجاءه الأمر بالرحيل إلى مراكش، ورحل أسيفا حزينا ليقضي في مراكش ثلاث سنوات بعيدا عن أهليه وتلك الحياة الوادعة التي اطمأن إليها في البادية.

ثم رحل إلى مراكش سنة 1087 هـ ومكث بها إلى سنة 1093 هـ[69]، وفي مراكش تصدر لإقراء علم التفسير بجامع الأشراف، ورحب به السكان ترحيبا لا ميزد عليه، ومهدوا له الديار والقصور، ومكث في رغد عيش وطيب حال، لا يرى ما يشوش البال الخاطر ولا ما يشين الظاهر والباطن، إلا ما كان من تعلق القلب بالأوطان وحزنه على فراق الأحباب والاخوان[70].

وكانت دروس اليوسي بجامع الأشراف بمراكش من الدروس التي يكاد لا يوجد لها نظير بالمغرب في ذلك الوقت، سواء من حيث مستواها الرفيع أو من حيث عدد الطلاب الحاضرين. جاء في طبقات الحضيكي «ولما تصدر للتدريس بجامع الأشراف بمراكش مكث في تفسير الفاتحة قريبا من ثلاثة أشهر يبدي في كل يوم أسلوبا وتحريات عجيبة فعجب الناس لحسن إلقائه وليس ذلك من مطالعة كتب التفسير بل ربما بات عند ضريح بعض

---

68) رسالته الجوابية إلى المولى إسماعيل.

69) يبدو مما ذكره ولده في الرحلة وما ذكره هو في المحاضرات أنه خرج من مراكش سنة 1090 هـ ثم عاد إليها وبقي فيها إلى أواخر 1093 هـ.

70) الرحلة الحجازية لولد اليوسي ص 69.

الأولياء ما طالع كتابا ولا راجع كلاما فيصبح ويلقي من العلوم ما يبهر العقول ويحير الألباب والأذهان وفضل الله يوتيه من يشاء»[71].

وليته استقر بمراكش، فهي مركز علمي كبير، والطلبة يحجون إليها من كل جهات المغرب، وهي صالحة لتكون مستقرا له يؤدي فيه رسالته العلمية تدريسا وتوجيها وتأليفا. ولكن سوء الحظ لا يفارقه وحساده كانوا ـ فيما يظهر ـ لا يفتأون يوغرون قلب السلطان عليه ويسولون له إزعاجه لاتقاء شره، وهكذا وبينما الحياة تمضي باليوسي هادئة بمراكش، وبينما هو منهمك في الاشتغال بما ألف من تعليم الناس وإرشادهم وتأليف ما يعين له تأليفه من كتب، إذا بالأمر يأتي بتغريبه ثانية وإذا بالمكان الذي اختير له هذه المرة «أرض خالية لا توجد فيها دار ولا جدار ولا أثر فيها لما يؤنس النفس أو يخفف من وطأة الغربة، فليس إلا الثلج والريح وأنقاض الزاوية الدلائية الخربة، وأفراد من الناس كانوا أخبث قلبا وقالبا ودينا وأدبا»[72].

إنها أرض الزاوية البكرية بعد خرابها، يعود إليها اليوسي في ذل وانكسار، وكأن السلطان يريد أن يريه عاقبة السنوات العشرين التي قضاها فيها أيام كان أهلها أهل صولة وكانت لهم الألوية والرايات يوجهونها إلى كل الجهات لتركيز سلطانهم وتدعيم ملكهم ونشر نفوذهم والفتك بمنافسيهم بما فيهم سلف السلطان وأخوه الرشيد بن الشريف.

نفاه المولى إسماعيل إلى أرض الزاوية البكرية لأن اليوسي من طبعه الوفاء والإخلاص والحب الصادق، فهو وفي لشيوخه الدلائيين، ومخلص لتلك الثقافة الإسلامية التي تلقاها على أيديهم، ومحب صادق لا يستطيع قلبه أن ينسى أولئك الأحبة الذين عاش معهم عقدين من عمره.

---

71) طبقات الحضيكي خ.ع 2328 ك.

72) الرحلة الحجازية ص 69.

إن المولى إسماعيل لم ينس أن اليوسي تربى في حجر الدلائيين وأنه بربري مثلهم، فمن الحزم أن يبعده وينفيه ليعيش في عزلة بين خرائب الزاوية الدلائية، لا سيا وأن البربر والدلائيين كانوا سادرين إلى ذلك الحين في عصيانهم وثورتهم.

بقي اليوسي في الزاوية الدلائية من سنة خمسة وتسعين وألف إلى سنة ثمانية وتسعين وألف، ثم جاءه الأمر السلطاني بالرحيل، فانتقل إلى شعاب حمود حيث أقام سبعة أشهر، ثم رحل منها فاتح صفر الخير سنة ستة وتسعين وألف عامدا إلى قرية صنهاجة فنزل بها في نفس الشهر، وهي أسوأ من أرض الزاوية البكرية ليس فيها دار ولا جار ولا منزل ولا قرار، قال ولده في الرحلة : «لو أبصر الشيطان صورة وجهها تعوذ منها حين يمسي ويصبح، وأما ناسها فكأنهم خشب مسندة وعمد ممددة لا يسمعون ولا يعون ولا يفهمون ولا يعقلون»[73] وماذا يصنع اليوسي وهو عبد ضعيف مأمور لا يسعده إلا أن يخضع لإرادة السلطان ونظره.

أقام اليوسي في قرية صنهاجة ستة عشر شهرا ثم هيأ الله له الأسباب وألان له قلب المولى إسماعيل، فأمره بالرحيل إلى فاس، وما إن وصله الأمر حتى رحل من غده فدخل فاس يوم الخميس أواسط جمادة الثانية عام مائة ألف، إلا أن الأحوال لم تستقم له، وكأن تلك النفرة القديمة التي كانت بين اليوسي وهذه المدينة بقيت حية إلى هذا الوقت، فما كان منه إلا أن غادرها بعد سبعة أشهر ونصف فقط.

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هي

يؤيد هذا ما جاء في رسالة وجهها المولى إسماعيل إلى سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي وقال فيها :

---

73) الرحلة الحجازية ص 71.

وقد حزنا السيد الحسن اليوسي على سكنى فاس واشتغاله بالقراءة فيها فاشتكى من إذاية أهلها وذلك لا يكون في الإنسان إلا أن يعلم أن الله تعالى أعطاه من العلم ما كفاه عن الغير»[74].

أما الأسباب المباشرة لرحيل اليوسي عن فاس فلا ندري أهي أوامر جديدة من السلطان، أم هي إساءة أخرى من خصومه القدماء، أم أن تلك العزلة الطويلة في المنفى قد أكسبته نفسية جديدة تضيق بما يسود الحياة في الحاضرة من تعقيد....

وعلى كل حال فقد غادر اليوسي مدينة فاس، ونزل بقرية تمزيزيت بلاد أولاد عباد. وهي بلدة قليلة الأنس خالية من شياطين الانس وأهلها همج مسلمون لا ينفعون ولا يضرون[75].

والحق أن اليوسي تعب من الرحيل، وشق عليه أن يرى حياته تتبدد في تنقلات لا فائدة فيها، ووقته الغالي يذهب هدرا مع أنه رجل مسالم، لا ينازع أولي الأمر ولا يمالئ عليهم، ولا يعصي لهم أمرا، ومنتهى ما تصبو إليه نفسه هو أن يخلو بكتبه وطلبته يدرس العلم ويدرسه ويؤلف فيه، بعيدا عن فتن السياسة وضوضاء الحواضر. ولعل أصدق ما يعبر عن نفسيته في تلك الفترة من حياته هي هذه الأبيات التي أنشأها وهو متوجه إلى ضريح سيدي محمد الشرقي :

إلى كم ترى ما عشت في هائم البرق ... وفي كل يوم أنت معتسف الطرق
كأنك قد وكلت بالأرض تقتدي ... مقاديرها أو ترتعي مزن الودق
أما آن بعد الأين للبين تنثني ... ركائبه عن جوب كل فلا خرق
أما آن للعافين أن يدركوا الغنى ... ويلقوا عصا التسيار بعد النوى السحق[76]

74) مجلة تطوان ص 38.

75) الرحلة الحجازية ص 71.

76) كناشة العربي الدكالي ص 237 خ.ع 91 جـ.

وإذا كان لابد من الرحيل فليكن رحيله إلى أطيب أرض وأقدس بلد وليقصد بيت الله الحرام حاجا ومحققا ذلك الأمل الذي طالما راوده وهو صغير، وليزر مدينة الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، وليقف عند قبره الطاهر عسى أن تخفف هذه الزيارة ما يملأ نفسه من ألم وضيم، وعسى أن تستقر أحواله ببركة رسول الله وأن تكون هذه الحجة خاتمة حسنة لحياته الطويلة المتعبة المضطربة.

خرج اليوسي لأداء فريضة الحج في جمادى الأولى سنة إحدى ومائة بعد الألف. فلنترك تتبع المرحلة الأخيرة من حياته ولنقف وقفة قصيرة نحاول أن نتعرف فيها على الأسباب التي تكمن خلف ازعاجه من قبل السلطان ومواصلة ترحيله.

☆ ☆ ☆

أهم هذه الأسباب هي :

أولا : طبيعة اليوسي نفسه، إذ كان شخصا صعب الانقياد، لا يرضى لنفسه أن يبيع دينه بدنياه ولا تنخدع نفسه بالحظوة لدى أهل الرياسة بقدر ما تحرص على إرضاء خالقها والفوز عند باريها. وكان السلطان مولاي إسماعيل على بينة من نفسية اليوسي وطبعه فمما يحكى عنه أنه قال : «علماء الوقت على أربعة أقسام، قسم لا يخاف إلا من الله ولا يخاف منا، وقسم يخاف من الله ومنا، وقسم يخاف منا ولا يخاف من الله. وقسم لا يخاف من الله ولا منا» ومثل للقسم الأول باليوسي[77].

ثانيا : أن اليوسي كان كثير الأتباع يجتمع عليه الناس، ويزدحمون على مجلسه من شدة الاعجاب والتقدير، وكان ترحيله لا يزيد الناس إلا تعلقا به فلا يحل في مكان حتى يجتمع عليه أضعاف ما اجتمع عليه في المكان

77) نشر المثاني للقادري ص 25.

الأول الشيء الذي اضطر السلطان إلى ترحيله كل مرة وهـذا من الأمور التي لا حيلة فيها للسلطان ومما يفرضه تدبير أحوال الرعية.

ثـالثـا : أن السلطـان كان يمحص اليوسي ويبتليـه : «لما يشي عنـده بعض أهل مجلسه الذي يليه[78]، ويمكننا أن نربط هذا بما ذكرناه سابقـا من كثرة حساده وخصومه بفاس.

رابعا : فتن البربر وحروبهم في ذلـك الوقت، واليوسي بربري بل من كبار البربر، فكان من الطبيعي أن لا يرتاح السلطان إليه وأن يسيئ الظن به.

على أن تقديرنا لليوسي لا ينبغي أن يحجب عنا ظروف السلطان وما تقتضيه مسؤوليته من الحزم فإن ذلك أسلم والله أعلم.

☆ ☆ ☆

قفـل اليـوسي من الحـج، وبلـغ داره بتمـزيـزت يـوم الأحـد الخـامس والعشرين من شوال سنة اثنتين ومائـة وألف، وكأن المنيـة أمهلتـه ريثما يعود ويراه أهله وأولاده ويملأ عينيه منهم أياما معدودات.

ثم مـات اليوسي يـوم الاثنين الثـالث والعشرين من الحجـة الحرام[79]، ودفن بالقرية المذكورة وكان كفنه رداء الشيخ وإزاره، مع خرقـة من لبـاس الشيخ سيـدي عبـد اللـه بن حسين، وأخرى من لبـاس سيـدي أحمـد ابن أبي القاسم الصومعي، وغير ذلك مما كان مخزونا للبركة وأوصى به قبل موته[80].

---

78) الرحلة الحجازية لولد اليوسي ص 69.

79) تذكرة المحسنين خ.ع 270 ك.

80) وصية اليوسي الورقة 62 خ.ع 612 جـ.

وىما جاء في تاريخ وفاته قول الأديب الشريف أبي عبد الله الحوات :

وفي غرب هـذا الغرب حلت كآبـة على العـالم اليـوسي الشهير أبي علي
علت رتب اليـوسي ليلـة حـاطـه بحجة ثاني عام حجه الأفضل[81]

وظن الناس أن ذلك الجسد المتعب قد وجد مستقرا ومستراحا وأنه سيطمئن فيه إلى يوم القيامة، ولكن الرحيل كان خلا وفيا لليوسي، فما هي إلا أن نادى مناديه فنبش القبر بعد عشرين سنة من تاريخ الوفاة، ونقل جثمان اليوسي إلى حيث يوجد ضريحه اليوم[82]. ذلك أمر الله لا مرد له ولله الأمر من قبل ومن بعد.

مات اليوسي ولم يمت عمله، وبقيت ذكراه حية في التاريخ، وبقيت كتبه ورسائله تراثا من بعده شاهدا بعظمته وزادا للأجيال.

وبقي اليوسي حيا في نفوس الآلاف من المؤمنين يذكرونه ويثنون عليه ويدعون له ويسألون الله أن يكتبهم معه لما تيقنوه من صلاحه وتقواه وقوة إيمانه وصدق جهاده. ومن أصدق الأمثلة على ما كان الناس يكنونه لليوسي من حب وما تركه فقده، من أثر في نفوسهم هذه القصة التي ذكرها الهشتوكي في رحلته :

«أخبرني السيد أبو حفص عمر بن الخديم بن أبي بكر الدلائي أيده الله، وهو ممن يوثق به، ذو علم ودين ونية خالصة، ومن العلماء العاملين المخلصين لله رب العالمين، أن أستاذه صاحبنا الولي الصالح سيدي أحمد اليماني مدفون فاس رحمه الله تعالى، رأى الشيخ الإمام العالم العامل العلام إمام عصره في المعقول والمنقول والفروع والأصول أبا علي سيدي الحسن بن مسعود بن محمد اليوسي ـ رحمه الله تعالى وأفاض عليه ملابس رضوانه وأحله قرارة أمنه

81) الدرر المرصعة ص 408.

82) يوجد ضريحه اليوم قرب مدينة صفرو.

وأمانه وأسكنه بحبوحة جنانه - في المنام يطير في الهواء فسأله عن لقائه مع ربه تعالى، فقال له أعطاني ربي مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهو رحمه الله تعالى ينشد بلسان المقال :

قل لإخوان رأوني ميتا   فرثوني وبكوني حزنا
أعلى الغائب مني حزنكم   أم على الحاضر معكم هاهنا
لا تظنوا الموت موتا إنه   لحياة هو غايات المنى
لا ترعكم هجمة الموت فهو   كانتقال من هناكم لهنا[83]

فانظر إلى قوله : «أعطاني ربي مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» ذلك هو المقام الذي يرجوه له تلاميذه والمنتفعون به والمحبون له وقد جاءت الرؤيا تعبيرا عن هذا الرجاء وذلك لما كان يتمتع به من المنزلة في قلوب الناس وجميل الذكر في نفوسهم.

83) رحلة أحمد بن محمد بن داود الجزولي المشتوكي ص 70 خ.ع 147.



صورة لضريح
الفقيه أبي علي اليوسي

الحمد لله وحده — صلى الله على سيدنا محمد

اشهدنا [illegible] عبد الله [illegible] على [illegible] احمد

[illegible] عبد الله [illegible] جميع [illegible] رحمه الله [illegible]

[illegible] جميع [illegible] عبد الكريم واخته الشقيقة ام كلثوم

رحمها الله واخيه للاب [illegible] عبد الرحمن [illegible] عائشة وامها [illegible]

عبد القادر [illegible] و[illegible] الشيلية العباسية وانه [illegible]

[illegible] اختنا [illegible]

[illegible]

[illegible] عبد الرحمن [illegible] زينب [illegible]

[illegible]

مائة من الغنم [illegible]

فسمناها على خمسة [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] وبغلة [illegible]

من [illegible] ومائة شاة [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] ومائة والف [illegible]

[illegible]

[illegible]

لسادات الحلقة المركزية

[illegible]

الحمد لله ادى بفضله واعلم به عبده

[illegible]

الحمد لله اعلم باعلامه عبد ربه تعالى

[illegible]

المبحث الثاني

شخصيته عالما ومؤلفا

المبحث الثاني : شخصية اليوسي عالما ومؤلفا :

توسع المغاربة في فن التراجم توسعا يلفت النظر وخصوصا في القرنين العاشر والحادي عشر وما بعدهما وتناولوها بالترتيب والتصنيف : فهذا كتاب عن أخبار صلحاء درعة، وهذا آخر في التعريف بأهل الزاوية الدلائية، وثالث في أعيان القرن الحادي عشر وغيره في أخبار الصالحين من أهل فاس، بالإضافة إلى الكتب التي أفردت لترجمة شخص واحد كمرآة المحاسن، وتحفة الأكابر، وروضة التعريف، وابتهاج القلوب، وبغية الرائي[1] الخ. هذا إلى جانب ما اشتملت عليه كتب التاريخ والفهرسات والتقاييد.

---

1) الكتب التي أشرنا إليها هي : (الدرر المرصعة في أخبار صلحاء درعة) لمحمد بن موسى بن محمد بن محمد بن ناصر. خ.ع 265 ك. والبدور الضاوية في التعريف بالسادا أهل الزاوية الدلائية) لأبي الربيع سليمان بن محمد. خ.ع 1454 و 261 د. وصفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر لأبي عبد الله محمد الصغير اليفرني خ.ع 671 د. والروض العاطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس لأبي عبد الله بن عيشون خ.ع 1246 د. ومرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن الفاسي، مطبوع وتحفة الأكابر في مناقب الشيخ عبد القادر لولده أبي زيد عبد الرحمن خ.ع 2330 ك وروضة التعريف بمفاخر مولانا إسماعيل ابن الشريف للصغير اليفراني خ.ق 2472 وابتهاج القلوب بخبر الشيخ أبي المحاسن وشيخه المجدوب لأبي زيد عبد الرحمن الفاسي خ.ع 2386 ك وبغية الرائي في التعريف بالشيخ أبي عبد الله محمد الدلائي للدلائي الولد خ.ع 2996 ك.

ويمكن تعليل هذه الظاهرة بأنها ظاهرة اعتزاز بتراث السلف من العلماء المغاربة، في الوقت الذي بدا فيه أنهم بلغوا الغاية في علوم العربية والإسلام، فشغل المصنفون بإحياء ذكرهم و الترجمة لهم في انتظار آفاق جديدة للبحث والتأليف، لم تكن ظهرت بعد لرجال مرحلة الانتقال ما بين عصور الإزدهار العلمي والحضاري، وحركة التحول التاريخي للحضارة والعلم من الشرق الإسلامي إلى الغرب الأروبي، ومن ثم أخذ التصنيف في التراجم مكانا ظاهرا في مكتبة القرن الحادي عشر، وتوسع فيه المصنفون ما لم يتوسعوا في غيره من الفنون التي تستدعي التضلع في الفنون و إتقان صنعة التأليف. وغلب على كثير منها ظاهرة التكرار مع قصر الترجمة وضعف أسلوبها واقتصارها على النقل دون بحث أو تحقيق في الغالب..

ومع هذا فإن هذه الكتب ثروة عظيمة الفائدة لكل باحث في التراث المغربي. ولقد استفدنا منها الكثير في دراستنا لشخصية اليوسي أبي علي الحسن بن مسعود، إذ حظي باهتمام بالغ من قبل كتاب التراجم بل إن ترجمته أفردت بالتأليف على ما ذكره الشيخ عبد الحي الكتاني في كتابه (فهرس الفهارس) وإن كنا لم نعثر عليها بعد طول البحث، ولعله يعني كتاب (الجواهر الصفية من المحاسن اليوسية) لأبي عيسى المهدي الفاسي، وهو مفقود.

وسنحاول أن نتعرف في هذا الفصل على شخصية اليوسي كما تقدمها لنا كتب التراجم والتاريخ، ثم ندرسها كما يقدمها لنا اليوسي نفسه، وبعد ذلك نتحدث عنها كما نراها من خلال ما بين أيدينا من الوثائق والشواهد.

وإن أحسن شهادة في اليوسي هي شهادة شيوخه، لشدة قربه منهم وقوة معرفتهم به. يقول أستاذه أبو عبد الله محمد المرابط في إجازته له : «الصدر الرئيس، فارس الإملاء والتدريس، شيخ الجماعة بالديار البكرية والحضرة الدلائية، ذو التدقيق المعهود أبو علي الحسن بن مسعود صاحب

النباهة الشامخة، والنزاهة الباذخة، والجلالة العليا والهمة التي نيطت بالثريا، المتمسك من الرواية بأسبابها ومن الدراية بأهذابها وألقت إليه المعارف زمامها وجمعت السيادة ما وراءها من المجد وأمامها[2]»، وقال عنه شيخه سيدي عبد القادر بن علي الفاسي : «الفقيه العلامة، المحقق الفهامة، الصدر الأوحد والعلم المفرد، رئيس الاقراء والمتهيئ للمناصب العلمية السنية الشماء، الباذل في إيصال النفع لطالبيه غاية المجهود أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي[3]».

ويلي هذه الشهادة في الرتبة شهادة تلاميذه الذين لازموه وتخرجوا على يديه ومنهم تلميذه الشيخ علي بركة الذي يقول فيه : «البحر الزاخر، والحبر الذي يفخر به هذا العصر الآخر، مالك ملاك العلوم، وسامك سماه ذي المنثور والمنظوم، محط رحال أرباب المنقول والمعقول، ومناط همم أصحاب الإدراكات والعقول، الذي إذا قال فيه القائل إن الزمان بمثله لبخيل يحق أن يقال له ما أصدقه من قيل» من إجازته لابن زاكور[4].

أما شخصية اليوسي في كتب التراجم والتاريخ فهي موضع الإعجاب والتقدير نظرا لما أسبغه الكتاب عليها من أوصاف شريفة ونعوت في سماء الفضل منيفة : فهو في بعض الكتب «الشيخ الإمام علم الأعلام وآخر علماء المغرب على الإطلاق ومن وقع على علمه وصلاحه الإجماع والاتفاق» وهو خاتمة الفحول والرجال والمجدد على رأس المائة لما اجتمع فيه من العلم والعمل[5].

---

2) إجازة أبي عبد الله محمد المرابط لليوسي الفهرسة ص 138 مخطوطة رقم 1234 خ.ع.

3) إجازة سيدي عبد القادر الفاسي لليوسي الفهرسة ص 137 مخطوطة رقم 1234 ك.

4) تاريخ تطوان لمحمد داود. القسم الثالث من المجلد الأول ص 353 ـ 355.

5) صفوة من انتشر.

بحر زاخر لا تأخذه في الحق لومة لائم، مبالغ في الذب عن الشريعة والحرص على تقرير أصولها الرفيعة، وهو سيف من سيوف الدين قاطع لحجج المبطلين[6].

«آية في المعقول والمنقول وإليه المرجع فيهما وآية في النبل والإدراك، مع الحظ الوافر في الأدب وحفظ دواوين الشعر، ثم هو من العلماء الذين عظم بهم النفع للمسلمين وأحيا الله بهم السنة والدين، لأن تأديبه بالعلم الظاهر اندرج فيه التأديب بالعلم الباطن[7]».

«وكان لصاحب الترجمة أصحاب وأتباع وإقبال من الناس ولا يكون مجلسه إلا غاصا بالأعيان وكان محققا للدراية والرواية له عارضة كبيرة في النقل والتحقيق... وخص من أهل عصره بالصدع بالحق بين يدي خليفة الوقت.. وأقبل الناس عليه قبولا عظيما فكان حيثما قرأ أطبق الناس عليه، وغص عليه المجلس بالخلائق ما لا يتفق لغيره مع استمالة العامة إليه فكان بسبب ذلك لا يدعه السلطان أن يتقرر في موضع بل يأمره بالرحيل لموضع آخر فيكثر الناس عليه أكثر من ذلك وهلم جرا».

ووصفه بعضهم بأنه : «عالم المغرب ونادرته وصاعقته في سعة الملكة وفصاحة القلم واللسان، مع الزعامة والإقدام والصدع بما يتراءى له، وكثرة التصنيف على طريق بعد العهد بمثله» وهو الكلام الخالي من النقل إلا ما لابد منه... وأود لو وفق للتصنيف في التفسير أو لو وضع شرحا على الموطأ أو أحد الصحيحين ولكن بكل أسف إنه وغيره غالبا يؤلفون بحسب البضاعة النافقة في زمانهم لا على حسب مقدرتهم ومعلوماتهم[8].

---

6) التقاط الدرر ص 64 ـ 65.

7) نشر المثاني ص 20 ـ 33 ـ 16.

8) فهرس الفهارس والاثبات ص 464 ـ 470.

وقال آخرون : كان رضي الله عنه بحرا في العلوم العقلية والمواهب اللدنية والحكم الربانية، فهو سعد الدين التفتزاني والجرجاني زمانه بحيث يقبل ويرد من كلامهم...وبالجملة فهو رضي الله عنه خاتمة العلماء وآخرهم، حتى قيل إنه المجدد على رأس هذه المائة، بعثه الله مجددا للدين وناصرا للإسلام.[9].

«كان رضي الله عنه غزالي وقته علما وتحقيقا وزهدا وورعا»[10] وقال الشيخ سيدي عبد السلام بن الطيب القادري من قصيدة له في مدحه:[11]

قسما بمروة والصفا وبزمزم	قسم التقى والبر غير غموس
ما حاز ذو علم ولا ذو همة	كلا، ولا داني مقام اليوسي

وقال الإمام أبو سالم العياشي:

من فاته الحسن البصري يصحبه	فليصحب الحسن اليوسي يكفيه

ولو شئنا أن نتتبع جميع ما قيل في اليوسي نثرا وشعرا ثناء عليه وتقديرا له وإعجابا به وتعبيرا صادقا عن العاطفة الطيبة التي تخلقها شخصيته في النفوس، لطال بنا الحديث والنقل. فلعل ما قدمناه يقوم بما توخيناه من التعريف بشخصية اليوسي كما ترسمها كتب التراجم والتاريخ. ولنا على ما سبق عرضه ملاحظات :

---

9) طبقات الحضيكي مخطوطة رقم 2328 ك خ.ع.

10) الاستقصاء ج 7 ص 108 ـ 109 مطبوع.

11) الدرر المرصعة ص 51.

أما أن اليوسي ماهر في المعقول والمنقول فصيح القلم واللسان لا تأخذه في الحق لومة لائم، فشيء وجدناه مؤيدا بالدلائل مدعما بالحجج القاطعة التي لا تدع مجالا للشك.

وأما أنه آخر علماء المغرب على الإطلاق، وخاتمة الفحول والرجال، فشطط وغلو لا يقبله عقل ولا يشهد له نقل. كيف والرسول ﷺ يقول : «يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» مما يفيد دوام العلم والعلماء ما تعاقب الحدثان وتوالت الأزمان ؟ ثم إن الله تعالى لم يقصر العلم على زمان ولا جعله موقوفا على إنسان، ولكنها مبالغات أصحاب التراجم يعمدون إليها حين تبهرهم شخصية العالم الذي يترجمون له، فينساقون إلى الغلو في تمجيده بأقوال وعبارات مرسلة يعوزها ضبط الأحكام المبنية على الدرس والتمحيص. وإذا كنا نستنكر المبالغة في الثناء فإننا نرفض معها المبالغة في التواضع أيضا كمثل ما نراه من قول بعض العلماء في كتاباتهم : «يقول العبد الفقير الذليل الحقير... الخ أو يقول أحقر الخلق وأقلهم وأضعفهم... الخ فكل ذلك يتنافى مع التكريم الذي خص الله به بني آدم عموما ومن له إلى العلم انتساب أو صلة. واليوسي نفسه وقع منه شيء من ذلك، ولعله جرى فيه على تقليد السلف فيما يحسبونه من التواضع الذي عندهم من سمة العلماء.

☆ ☆ ☆

وفي دراستنا لشخصية اليوسي من خلال آثاره نلتفت أول ما نلتفت إلى أنها شخصية متعددة الجوانب كثيرة الوجوه على غرار الشخصيات التي اتسعت آفاق ثقافتها فاستوعبت علوم عصرها وبيئتها، ويبرز مع ذلك جانبان من شخصية اليوسي يمكن أن تندرج فيهما سائر جوانبها الأخرى.

أولهما : اليوسي الأديب. ولا يدخل في مجال بحثنا هنا بصفة مباشرة، لكنه يجدي على فهمنا لشخصيته بوجه عام. ومن ثم لم نستغن عن قراءة

شعره والاطلاع على تآليفه الأدبية مثل : (الديوان) و(المحاضرات) و(زهر الأكم في الأمثال والحكم)، وغير ذلك، استكمالا للنظرة واستعابا لجميع جوانب شخصيته واستئناسنا به في فهم بعض الوقائع من حياة اليوسي وفهم نفسيته وأخلاقه.

ولا أقول من ذلك ان قراءتي لأدب اليوسي تسمح لي بالتعريف به أديبا. فحسبي أن أنقل فيه كلمة أستاذنا سيدي عبد الله كَنون :

«إن أدب اليوسي أدب حي يستمد من فكرة وقادة وثقافة عربية واسعة، ففي النثر له قلم سيال يصرفه في ضروب الإنشاء كيف شاء، وفي الشعر له نفس عال يجاري به كبار الشعراء من العرب الأولين ولذلك تجده متين العبارة جزل الألفاظ، أشبه بشعر شعراء الجاهلية وصدر الإسلام منه بشعر المولدين وشعراء الحضر من العراقيين والأندلسيين»(12).

الجانب الثاني : اليوسي العالم أو اليوسي الفقيه وهو موضوع بحثنا في هذه الرسالة التي قصدنا بها إلى بيان مشاركته في العلوم الإسلامية تلقيا وعطاء وتأليفا وتدريسا وتأثرا وتأثيرا...

ويتسع هذا الجانب من شخصيته عالما للحديث عن اليوسي الفقيه ثم اليوسي الأصولي ثم اليوسي المحدث و المفسر ثم اليوسي الصوفي.

وكمدخل لهذه الدراسة سنتحدث عن اليوسي العالم المجدد ثم عن منهجية اليوسي :

عند قراءتنا لما كتب عن اليوسي لم نجد من كتاب التراجم من اعتنى بميزة تكاد تكون أهم ما تمتاز به شخصيته عالما ومؤلفا وهي ميزة الاستقلال في الرأي.

---

12) خل وبقل ص 273 مطبوع.

وليس معنى الرأي هنا اتباع الهوى، وإنما معناه الترجيح القائم على العلم، ومعناه أيضا ظهور شخصية الباحث في المسائل والقضايا التي يتناولها، ظهورا يرتفع به من غمار المقلدين إلى علياء المجددين المجتهدين. فالاستقلال في الرأي سمة أصالة. وقد يبدو هناك تعارض بين ما في معنى الاستقلال من انفصال وما في معنى الأصالة من ارتباط، لكن عند التحقيق يظهر أنهما متكاملان. فالاستقلال بدون أصالة شذوذ والأصالة بدون استقلال جمود. والشخصية الجامعة بين الأصالة والتجديد نادرة الوجود، ولا تكون إلا زبدة جيل أو مخاض عصر بأكمله : ولعل هذا من أسرار الحديث الشريف الذي سبقت الإشارة إليه وهو قوله ﷺ «يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» فالمجدد لا يظهر في الأمة إلا نتيجة لتفاعل قوي ومخاض طويل قد يمتد قرنا أو نحوه، لذلك كان الاحتفال بأمره واجبا والاعتناء بآراءه وآثاره متعينا، وكانت دراسته من حيث كونه مجددا أحرى بالتقديم وأحق بالإهتمام.

ولقد كان اليوسي رحمه الله من المجددين المجتهدين الذين تظهر أصالتهم واستقلالهم في الرأي في جل أبحاثهم وآثارهم. وكان في الفقه أو الأصول أو غيرهما ينحو منحى خاصا فيقبل من كلام القدماء ويرد، وربما أتى برأي ينافس به فحولهم ويخالفهم. ومعلوم أن الرأي المخالف إن كان من الدلائل الشرعية التفصيلية و كان صاحبه ممن توفرت فيه الشروط اللازمة فهو اجتهاد لا يغض من قدر الرجل حتى في حال الخطأ، فأحرى عند مجرد المخالفة، سواء تعلق الأمر بالاجتهاد المطلق، أو اجتهاد المذهب، أو اجتهاد الفتوى بشروطه[13]، وقد كان اليوسي يعرف من الناس أنهم يرون ذلك

13) كالعلم بالعربية والعلم بالقرآن الكريم ناسخه ومنسوخه، والعلم بالسنة ومعرفة مواضع الإجماع ومواضع الخلاف ومعرفة القياس ومقاصد الأحكام وصحة الفهم وحسن التقدير وصحة النية وسلامة الاعتقاد.

بدعا وشذوذا وكأنهم ما صدقوا أن آيت يوسي يخرج منها من هو في طبقة الغزالي والسعد التفتزاني والسيد الجرجاني... فتجرد لإزالة هذا الوهم من الأذهان وتعرض في كتابه «القول الفصل في تمييز الخاصة عن الفصل» لبيان ما يمكن أن يقع في كلامه مما لا يعهده الناس. وحدد منهجه في البحث وطريقته في التأليف.

وبما أننا جعلنا من شرطنا أن ندرس شخصية اليوسي كما يقدمها لنا هو نفسه فقد ناسب أن نبدأ بهذه المسألة فنقرأ لليوسي وهو يتحدث بصراحة نادرة عن مكانته في العلم ومنزلته بين العلماء، ونظرته إلى الأقدمين :

جاء في المبحث السادس عشر من خاتمة كتابه (القول الفصل في تمييز الخاصة عن الفصل) ما نصه : «قد يقع فيما مر من العبارات أو التقسيمات شيء مما لا تعهده أيها الناظر أو لا تجده عند غيرنا، فلا تعجل بإنكار توهما منك أنا ممن يتصدى لحكاية أقوال الناس وتلفيق كلامهم، وممن قصارى علمه ومنتهى جهده أن يقول : قال فلان وفلان. كلا والله لسنا إن شاء الله من ذلك الشد ولا ذلك العنق، وإنا نعوذ بالله أن نسخم وجوه القراطيس ونكثر عدة الدفاتر كلابس ثوبي زور ولا سيما في نحو هذه العلوم التي هي على الدراية موقوفة وإلى منهاجها مصروفة. ولم يكن أحد من علماء العقلاء وعقلاء العلماء يقيم للمقلد التابع كل ناعق وزنا أو يثبت له فضلا أو يعده عالما أو فقيها، وإنما كان يعد في نحو دواوين القصاص أو المؤرخين وأصحاب الخرافات وأهل النوادر والحكايات، حتى فشا الفساد وكثر الجهل والعناد فاختلط الفائق بالمائق والسائق بالسابق (...) فليكن في علمك أيها الناظر أنا ما أودعنا موضوعنا هذا أو غيره من الموضوعات إلا ما اعتقدنا صحته تصورا وتصديقا عن ضرورة أو بينة وضحت أو بصيرة انشرحت، فلا يهجس في وهمك طمع أن تعارضنا بكلام أو رأي لغيرنا مما تقدم أو تأخر يخالف ما

رسمناه وينقض ما أكحمناه فننقاد إليك ونخضع بين يديك، اللهم إلا أن تظهر بعد صحته وتتبين بينته، فيكون الإنصاف إن شاء الله تعالى شيمتنا والرجوع إلى الحق طريقتنا. ولا تحسب أيها الناظر أن الذين أساير في مفاوز الفضل والفهم وأماسرهم بقداح التحصيل في كل حكم وأسابقهم في مضمار الحكمة والعلم هم أهل زمانك، كلا ولكن حجة الإسلام وفخر الدين وعضد الدين وسعد الدين وسائر المحصلين. على أني لا أقلدهم تحكيما ولا ألتزم شأوهم ذميلا ورسيما، ولكن أذكر ما ذكروه إن صحت عندي صحته وتقوت لدي قوته، وإلا نبذته إلى وراء وخلفته بالعراء، أو ذكرت ما فيه تصريحا أو تلويحا. وليس يحرمني من ذلك منصبي أو يحطني عن درجي قول جهول أو حسود : «ليس بعشك فادرجي» ولا قول واعظ منتصح : «فلا تزكوا أنفسكم» لعدم علمه أن تزكية النفس إنما هي الثناء عليها واعتقاد براءتها من العيوب وإثباتها بين يدي ملك الملوك وعلام الغيوب، وأما التحدث بالنعم واستعظام العطية والاعتراف بالمنة والاستغناء برب البرية، فمن مقامات الصالحين[14]».

وبعد كلام طويل في الأسباب التي تجعل الناس يغضون من معاصريهم ويفضلون عليهم القديم لقدمه دون نظر إلى ما يصح به التفضيل من تفاوت في العلم والنظر يقول :

«ولا تذهب بك الأوهام فتظنني أبتغي بذلك الكلام قدحا في سلف الأيمة أو توهينا في أعلام الأمة أو غضا من مراتبهم العلية أو إخفاء لمناصبهم الجلية. وأعوذ بالله أن أقوله ابتغاء الظهور الذي يقطع الظهور، أو حرصا على العلو المعدود من الغلو. ولكن غيرة على أديم العلم أن تنتاشه أيدي الغواة المتشبهين وحماية لورده الصافي أن تكدره شفاه الجهلة المموهين» اهـ.

---

14) القول الفصل مخطوط تحت رقم 1072 د خ.ع.

وقد نظرنا في كلام اليوسي من حيث موقعه في النفس ومطابقته للحق، وموافقته للعقل، وتأملنا سيرته وتفكرنا في آثاره، فما وجدنا فيما صرح به هنا شيئا ننكره عليه. إنما هو إحساس اجتهد اليوسي في إخفائه تواضعا فلما رأى أن الحق سيحجبه الباطل لم يسعه إلا التصريح. ولو كان هذا الكلام إنما نقل عنه لقلنا إنه ادعاء، أما وهو يسجله في كتبه ويتحدى به علماء زمانه ولا يأمن أن يواجهوه به عند السلطان ويعرضوه للاختبار والامتحان، فإنه بعيد عن الادعاء.

واليوسي لا يخاف المواجهة لأنه واثق من نفسه وعلمه، جاء في إحدى رسائله إلى المولى إسماعيل : «فأي شيء يعوزني لو أردت القول : اللسان عربي والمعقول والمنقول تحت جنبي»[15]، فهو متمكن من المعقول والمنقول، ومعنى ذلك أن شروط الاجتهاد موفورة. فإن جاء في أبحاثه بما يخالف رأي الأقدمين، أو ما هو جديد لم يعهد وحديث لم يعرف في كتب السابقين، فلا غرابة في الأمر، فهو مجتهد وهم مجتهدون، وميزان الشريعة والحقيقة قائم بينهم فمن رجحت أقواله فيه (عن ضرورة أو بينة وضحت أو بصيرة انشرحت) فهو الراجح وغيره المرجوح. يؤيد ذلك ويشهد له قول الإمام مالك رضي الله عنه «كل كلام فمنه مقبول ومردود إلا ما كان من كلام صاحب هذا القبر» يعني الرسول ﷺ، وقول الإمام الشافعي رحمه الله «ما قاله النبي ﷺ فعلى الرأس والعين وما قاله أصحابه رضي الله عنهم فنأخذ منه ونترك، وما قاله غيرهم فهم رجال ونحن رجال».

وأهم ما نلتفت إليه هنا، هو أنه في عصر انحسر فيه ظل الفكر المبتكر الخلاق، وأشفق الناس من الاجتهاد كل إشفاق والتزموا طريق التقليد، وتقاصرت هممهم عن التجديد، وعكفوا على آثار السابقين حفظا واستظهارا

15) المخطوطة رقم 849 جـ خ.ع.

ونقلا واجترارا، نهض أبو علي اليوسي ليثور على هذا الجمود، وتوجه إلى أولئك الأعلام الذين يقدسهم معاصروه ويرهبونهم «فسايرهم في مفاوز الفضل والفهم وماسرهم بقداح التحصيل في كل حكم وسابقهم في مضمار الحكمة والعلم» وقبل من كلامهم ورد، وجد في مقارعتهم بالحجة كل الجد، مع اعترافه بفضلهم وتقديره لمنصبهم فكان بذلك مثالا يحتذى في الاجتهاد والتجديد والروح العلمية العالية.

وإذا قلنا إن عصر اليوسي كان متسما بالجمود فهو كلام على الغالب من جهة، وبالقياس إلى العصور الذهبية للفكر الإسلامي من جهة أخرى، وإلا فإن المغرب في هذا العصر لم يخل من أئمة راسخين في علوم الشريعة والحقيقة على ما بيناه في دراستنا للحياة الفكرية.

وإذا كان اليوسي قد تحرر من التقليد الأعمى ودعا إلى الاجتهاد فإنه لم يترام على هذا المقام ترامي من استخفه الغرور وحركه النزق وإنما تقدم إليه بعد أن رسم لنفسه ولمن يتبعه منهاجا علميا سديدا. عن رسوخ في العلم ووضوح في المنهج.

وكما حدثنا اليوسي عن موقفه بين التقليد والتجديد وأطلعنا بذلك على جانب مهم من شخصيته العلمية حدثنا أيضا عن منهجه وطريقته في دراسة الأقوال وبحث الآراء. وفيما يلي عرض عام لأهم القواعد التي يقوم عليها منهجه مما نص عليه أو استنتجناه من قراءتنا لآثاره :

القاعدة الأولى : جواز الاشتغال بجميع العلوم والأمور بمقاصدها :
وتظهر أهمية هذه القاعدة بالنظر إلى الخصومات التي ثارت بين العلماء حول جواز تعلم بعض العلوم أو تعليمها كالفلسفة والمنطق والسحر... وإذا كان علماء المغرب والأندلس قد أفتوا بوجوب إحراق الإحياء للغزالي في عهد المرابطين فإن الفقهاء لم يتراجعوا عن عدائهم القديم لهذا النوع من العلوم بل

تمادوا في التشنيع على أهله والطعن في منتحليه إلى عهد اليوسي وقول اليوسي بجواز الاشتغال بجميع العلوم دليل على اتساع أفقه وصحة طريقته وسلامة منهجه.

جاء في فهرسته ما نصه : «ولو أردنا بالشرعي ما يباح تعاطيه شرعا أو ماله إعانة في الشرع لكانت العلوم المتداولة كلها شرعية. ولا نلتفت إلى من يحرم علم النفس والمنطق مثلا، فإن جميع الوسائل تعتبر بمقاصدها، فمن تعلم علما يتوصل به إلى محرم أو مكروه حرم أو كره تعلمه لذلك، ومن تعلمه ليتوصل به إلى واجب أو مندوب أو مباح وجب تعلمه أو ندب أو أبيح، حتى إن علم السحر مثلا من تعلمه ليؤذي به معصوم الدم كان تعلمه له حراما كفعله، ولو تعلمه أحد لمجرد أن يتحققه ليميز بينه وبين المعجزة مثلا أو ليتحقق فاعليه عندما ينسب إليه ليقع الحكم عليه بالقتل مثلا، كان تعلمه لذلك جائزا أو واجبا لأن الحكم على الشيء فرع تصوره، فالحكم بالحد على الساحر فرع تصور الساحر وتصور الساحر فرع تصور السحر فافهم هذا المقصد ولا تلتفت إلى أراجيف المتنطعين[16]».

القاعدة الثانية : لابد من المعرفة بترتيب فنون العلم وترتيب المسائل : وهذه قاعدة أساسية في منهج اليوسي، ولعل اقتناعه بها هو ما دفعه إلى تأليف كتابه (القانون في مبادئ العلوم). ذكر فيه أقسام العلوم ومسائل كل علم وما ينبغي تقديمه أو تأخيره منها فجاء كتابه كمدخل عام لدراسة العلوم. فإن ترتيب فنون العلم وترتيب المسائل هما أول ما ينبغي للعالم مراعاته ليعم النفع بعلمه وخصوصا مع المبتدئين في كل علم يقول اليوسي : العارف من العلماء بترتيب فنون العلم وترتيب المسائل للمبتدئ أنفع

16) الفهرسة ص 116. المجموع المخطوط رقم 1234 ك خ.ع.

للعباد ممن لا يحسن ذلك[17]، وهذا المبدأ مما تراعيه المنهجية العلمية. والكتب والدراسات التي تناولته في القديم والحديث كثيرة[18] مما يدل على أنه مبدأ أصيل. أما إذا نظرنا إلى آثار اليوسي، فإننا نجد الترتيب والنظام طابعا عاما لتلك الآثار، فالأبحاث تأتي مرتبة مما جعل كتبه سهلة التناول، واضحة المعالم.

القاعدة الثالثة : الإمعان في تدبر الألفاظ وما تدل عليه من أنواع الدلالات : يلاحظ اليوسي أن منشأ الخلاف بين العلماء غالبا ما يرجع إلى إهمال الألفاظ وما تدل عليه من أنواع الدلالات. فاللفظ قد يكون في دلالته حقيقة أو مجازا منفردا أو مشتركا مرادفا لغيره أو غير مرادف والمعرفة بتلك الدلالات ضرورية لتحصيل الفهوم، وأي خطأ في تحديد دلالة اللفظ يؤدي إلى خطأ في الفهم وهذا يؤدي إلى الخلاف. والطريقة المثلى هي أن يتجنب الباحث الأحكام العامة، وينظر في الاحتمالات حسب الدلالات المحتملة للفظ فما دل عليه اللفظ بنفسه أو بقرينة أو دليل فهو المعتمد.

القاعدة الرابعة : وجوب الالتفات إلى ضروب المعاني المتشعبة : وذلك بالتمييز بين الكلي والجزئي، والذهني والخارجي، وهكذا. فإن حمل الباحث ما هو كلي على ما هو جزئي أو العكس فإن الخطأ يكون أساسيا وجوهريا ويترتب عليه خطأ ما ينبني عليه من النتائج وما يتفرع عليه من الفروع. وربما توهم الباحث أن الحجب قد انكشفت له عن حقائق لم يدركها غيره ومسائل لم ينتبه إليها خصمه فيدخل في مناقشات وخصومات

---

17) القانون ص 311 المخطوط رقم 2382 د خ.ع.

18) مثل جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، ومقدمة ابن خلدون والأقنوم في مبادئ العلوم...

مع أنه لو تدبر ما في كلامه من المعاني وبحث بحثا علميا مجردا ما هو مقصود منها لديه وما هو مردود وسلك في الدراسة منهجا سليما وطريقا نقديا قويما، لأغناه ذلك عن الخصومة والجدال.

القاعدة الخامسة : استحضار الفنون المختلفة من معقول ومنقول : وتظهر هذه القاعدة وكأنها هامشية بالنظر إلى ما استقر في الأذهان ووقر في النفوس من كون الباحث لا يكتب إلا إذا كان على علم بما يكتب وبالفنون الأخرى التي تعتبر كأدوات للبحث. والواقع أن التهاون في مراعاة هذه القاعدة أوقع الباحثين في أغلاط فادحة ومناكير مستقبحة، وبث بينهم خلافا كثيرا لا سيا وأن كلمة «لا أدري» لا تجد من بعضهم إلا الاعراض وكأنها في حقهم منقصة أو في تاريخهم معرة. فالمفروض فيمن تصدى لبحث مسئلة من المسائل أن يكون عالما بها وبالفنون المساعدة التي يحتاج إليها في البحث فإن لم يتوفر له ذلك فليسلك سبيل السلامة وليلذ بلا أدري إلى أن يحصل له علم.

والقواعد الثلاث الأخيرة وهي الثالثة والرابعة والخامسة نص عليها اليوسي في كتابه «مشرب العام والخاص في كلمة الإخلاص» مع مبدأ عام يشكل قاعدة سادسة وهو «حسن الظن» ولسنا في حاجة إلى شرح هذه القاعدة لأن في كلام اليوسي ما يغني عن الشرح. يقول المؤلف رحمه الله عند ذكره لما وقع من تشنيع وتقريع بين بعض المشايخ كالخروبي واليستثني والهبطي[19] حول معاني كلمة التوحيد ما نصه :

---

19) أبو عبد الله الخروبي الطرابلسي وأبو عبد الله محمد بن أحمد اليستثني وأبو محمد عبد الله بن محمد الهبطي.

«مـا أتي مثـل هـؤلاء في إنكار بعضهم على بعض ومبـادرة بعضهم إلى تجهيل غيره وتضليله، إلا من إهمال الألفاظ وما تدل عليه من أنواع الدلالـة، وقلـة الالتفـات إلى ضروب المعـاني المتشعبـة من ذهنيـة وخـارجيـة وجزئيـة وكلية، وقلة استحضـار الفنون المختلفـة من معقول ومنقول. فعلى البـاحث أن يوفي كل ذي حق حقه وغير ذلك مما يجب اعتباره ويتـذرع مع ذلـك بحسن الظن والتماس المخـارج لمطلق المـومنين فكيف بـالعلمـاء الراسخين ؟ فـإن أدنى شيء يقع للمعترض على غيره أن يجد لفظا ظـاهر الـدلالـة على معنى فـاسـد، بعيد الدلالة على الصحيح، فمـا يتوقف أن يحملـه على الفـاسـد فيتم الاعتراض محتجا لنفسه الأمارة أن المحمل القريب الظاهر أولى من البعيـد، ومـا يـدري المسكين أن هذا وإن كان بعيدا فمعه ظاهر يقويه، وهذا المحمل الفاسـد وإن كان ظـاهرا فمعـه بعيـد يضعفـه ويوهنـه، وذلـك أن ينظر إلى حـال علمـاء الإسلام المعروفين بـالعلم والـدين واتبـاع سنـة السلف الصـالحين مـا الغـالب والمظنون في اعتقـادهم وكلامهم، فيعلم أن الغـالب والمظنـون الظـاهر منهم في الجملـة هو اعتقـاد الحق وإرادة الصواب، بل الخير مظنون بكل مـومن فكيف بالعلماء ؟ فيعلم حينئذ أن بعد اعتقادهم للفساد يبعد هذا المحمل الفاسـد وإن كان قريبـا، وظهور اعتقـادهم للحـق، يقرب هـذا المحمـل الصحيـح وإن كان بعيدا، مع السلامة وامتثال أمر الله تعالى في الثـاني دون الأول. نعم للمعترض أن يوفي كلا من القول والقائل حقه فيقول : هذا القول ظـاهر في كـذا وهو فـاسـد فيجب أن يكون مرادا لقـائل كـذا وهو صحيـح. وهـذا مـا دام يجـد للصواب مخرجا وللحق منهجا. فإن أعوزه لكون اللفظ صريحا في الفسـاد غير قابل للتأويل بوجه من الوجوه بعد الإمعان في التـأمل، فمقتضى حسن الظن أن يقول : سبق قلم، حتى يتبين من خارج أو من سـابق الكلام ولاحقـه أن

كذلك مذهب القائل. والله تعالى يعصمنا من الزلل في القول والعمل ويجعلنا من أهل الصدور السليمة والمذاهب المستقيمة بمنه ويمنه[20]».

القاعدة السابعة : تحرير ما نقل والتنبيه على ما أغفل : نص اليوسي على هذه القاعدة في كتابه (البدور اللوامع في شرح جمع الجوامع)[21] وجعلها من فوائد التأليف : ذلك أن المؤلف الذي ينقل كلام غيره بأمانة بحيث لا يتصرف فيه بزيادة أو نقصان أو تعديل أو تصويب يؤدي للعلم خدمة كبيرة ويفيد الباحثين فائدة جليلة، فإن أغفل شيئا مما نقل نبه عليه وأشار إليه. فقد نقرأ نصا منقولا من كتاب ونستفيد منه حكما أو رأيا فإذا رجعنا إلى النص في أصله وجدناه لا يدل على ذلك الحكم أو ذلك الرأي وربما دل على عكسه. وما ذلك إلا لأن الناقل غير لفظا بلفظ أو نقص أو زاد.

القاعدة الثامنة : الأمانة وتجنب الانتحال : يقول اليوسي «حق على كل مؤلف أن لا يدع بحثا ولا فائدة ما صدرت عن غيره إلا نسب ذلك إلى مبتكره وأضافه إلى أبي عذره فبذلك يتحرى الصدق ونصف من نفسه لغيره ويعطي كل ذي حق حقه»[22] وهذه قاعدة مشهورة، ولكن تكرار الإشارة إليها والنص عليها من قبل العلماء يدل على شدة الحاجة إليها. واليوسي لا يرى مانعا من أن يجمل الباحث عدة أبحاث بعضها له وبعضها لغيره اتكالا على تعرف ذلك في الخارج وشهرته في الناس ويترتب على ذلك في نظرنا فائدتان :

---

20) مشرب العام والخاص. مطبوع ص 72.

21) البدور اللوامع في شرح جمع الجوامع مخطوط.

22) البدور اللوامع في شرح جمع الجوامع مخطوط.

الأولى : رفع الحرج على العلماء وذلك بإعفائهم من نسبة ما هو من قبيل المشهور المتداول.

الثانية : أن التهمة بالانتحال لا تكون إلا في غير ما ذكر، وعلى هذا فينبغي أن لا توجه هذه التهمة إلا ممن بلغ درجة خاصة من العلم تخوله التمييز بين ما هو من قبيل الانتحال وبين غيره.

القاعدة التاسعة : حسن النظم وتجنب الاستطراد والحشو : وتلك من سمات الأسلوب اليوسي. ونلاحظ من جهة أخرى أن أسلوبه يتغير بتغير الموضوع فهو في كتابه (منهج الخلاص) غيره في كتاب (المحاضرات) وهو في (زهر الأكم) غيره في (القول الفصل) ففي كتبه الأصولية أو الفقهية لا تجد إلا لغة الأصوليين أو الفقهاء حتى إنه ليصعب على القارئ أن يسايره أو يفهمه إذا لم تكن له مشاركة في ذلك الفن، وفي الكتب الأدبية تجد آثار الصنعة واختيار الكلمات والتراكيب وارتكاب الغريب مع سيلان القريحة وانسياب الطبع وطول النفس حتى تكاد تشعر بأن اليوسي لا يتكلف فيه، وإنما يرسل الكلام فيأتي على تلك الصفة. ولليوسي مع ذلك رسائل وتصانيف سهلت فيها لغته وتواضع أسلوبه وجاء كلامه فيها عاديا حتى إنه لولا قوة الأفكار والمعاني التي يحملها لاعتبر كلاما دارجا لا تملأ به الصحف ولا يلتفت إليه أهل العلم.

وخلو كلامه ـ غالبا ـ من الاستطراد والحشو منسجم مع عقليته التي تحب الترتيب وتكره الخلط، وهذه المزية أكسبت كتبه خاصية التقصي والاستيعاب. فاليوسي لا ينتهي من الموضوع إلا إذا استوعب جوانبه وأحاط بمسائله وما لم يستطع تفصيله أجمله، وما لم يجد مجالا للتصريح به أشار إليه، وهو يبدأ بذكر الأقسام أو الوجوه الداخلة في البحث

والخارجة منه، ثم يتتبع تلك الأقسام قسما قسما لا يترك لنفسه مجالا للاستطراد أو الحشو إلى أن ينتهي إلى آخر قسم ويجمع أطراف الموضوع.

القاعدة العاشرة : الاعتماد على العقل والنقل : وقد رزق اليوسي حافظة قوية فكان يحفظ دواوين الشعر والمقامات وكتب الفقه والأصول والحديث واللغة وكان يجهد نفسه في الحفظ حتى إنه لتمر عليه الأيام والليالي المتوالية في ذلك : وهذه المحفوظات أكسبته ملكة نادرة فكان في معقوله منتفعا بقوة المنقول، وكانت آراؤه الخاصة ثمرة التفاعل بين فكره وتلك الأخلاط من العلوم والآداب التي هضمها وحفظها، ولذلك كانت آراؤه أصيلة في تجديدها، قوية في شكلها ومضمونها. وكثيرا ما كانت الفتاوى تفاجئ اليوسي ولا يمهله حامل الفتوى ليراجع المظان فيضطر إلى الاجابة كما اتفق، وإذ ذاك تظهر ثقافة اليوسي في أجلى صورها فتراه يذكر الأقوال المختلفة في المسئلة الواحدة ويفصل وجوه الخلاف بين المذاهب ويذكر شواهد كل مذهب حتى لتخاله يقرأ في كتاب. فلا نستغرب إذا ما قرره اليوسي من وجوب الاعتماد على السماع والحفظ والفهم[23].

القاعدة الحادية عشر : وتتصل بمنهجه في الفتوى : وخلاصته أنه لا يحكم في النازلة الواحدة بحكم واحد، بمعنى أنه ينظر إلى الوجوه والاحتمالات المختلفة في النازلة الواحدة ثم يفصل الأحكام بحيث يعطي لكل وجه حكمه ولكل احتمال جوابه، ولا يبقى على السائل إلا أن

---

23) القانون لليوسي ص 277 المخطوط رقم 2382 د خ.ع.

يبحث عن حالته بين الحالات المذكورة في الفتوى إذ هو أعلم بنفسه وبواقعه من غيره وسنورد أمثلة على ذلك عند حديثنا عن اليوسي الفقيه.

وعلى العموم فإن اليوسي من خلال آرائه وأفكاره وما سطره في كتبه رجل منظم الفكر مهذب الذوق ولعله اكتسب هذه الميزة من طول تمرسه بالعلم عموما وبالمنطق والأصول خصوصا. ومنهجه سليم، ومسلكه في المناقشة قويم وطريقته في النقد دقيقة. وان ما يدعو إليه من حسن الظن والتماس المخارج لو التزمه العلماء لتخلصوا مما يشوب تآليفهم من تنقيص وتجهيل وانفعال وشتائم. قال تعالى : ﴿**وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾ وقال تعالى : ﴿**خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين، وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله**﴾ وقد رأينا كتبا يظهر الغضب من عناوينها فكيف بفصولها[24] مع أن عهدنا بالعلماء أن يكونوا مجللين بالوقار والسماحة معروفين بالعفو وما كان علماء السلف وأئمة المذاهب رضوان الله عليهم حيث يقع منهم شيء من هذه الخصومات[25] لكمال عقولهم وصفاء قلوبهم وسلامة صدورهم وتشبعهم بالدين وتمكنهم من العلم.

---

24) مثل كتاب «الصواعق المرسلة إلى من أنكر الجهر في الفريضة بالبسملة» لمحمد كنون وكتاب «تبيين البله ممن أنكر ورود حديث ومن لغا فلا جمعة له» لابن الصديق الغماري. وكتاب «الحسام المشرفي لقطع لسان الساب العجرفي الناطق بخرافات الجعسوس سيئ الظن اكنسوس» للعربي المشرفي، وكتاب «سيف النصر على كل ذي بغي ومكر» لمحمد بن ناصر الدرعي.. فعجبا للسيوف تشهر على العلماء، وعجبا للصواعق ترسل عليهم.

25) روى المقري في تأليفه في النعل الشريف عن الحافظ زين الدين العراقي أنه روى عن الإمام أحمد أنه غسل قميصا للشافعي وشرب الماء الذي غسله به. وهذا كله من فرط المحبة والتقدير. وأما الخلافات والخصومات بين المالكية والشافعية والحنابلة والحنفية فلم تكن قط=

وفيما درسنا من آثار اليوسي ومؤلفاته، وجدناه ملتزما ما استطاع في مواضع الخلاف بينه وبين العلماء - بضوابط منهجه التي نقلناها آنفا من وجوب اعتماد حسن الظن مبدأ وأصلا، والتماس المخارج واحترام آراء الغير، والتروي والتدبر قبل الاعتراض والانتقاد، مع مراجعة المظان واستحضار الفنون المختلفة من معقول ومنقول.

= بين أئمة هذه المذاهب، وإنما كانت بين اتباعهم خلافا لما يتوهمه البعض مثل ما جاء في رسالة لنجم الدين الطوفي ونصه : «ومن تأمل ما حدث بين أئمة المذاهب من التشاجر والتنافر علم صحة ما قلنا حتى إن المالكية استقلوا بالمغرب والحنفية استقلوا بالمشرق...» وهو قول باطل فكل الأمثلة التي أتى بها الطوفي على هذا التشاجر لا يوجد بينها مثال واحد عن تشاجر وقع بين الأئمة. قال : «حتى بلغنا أن أهل جيلان من الحنابلة إذا دخل عليهم حنفي قتلوه وجعلوا ماله فيئا حكمهم في الكفار وحتى بلغنا أن بعض بلاد ما وراء النهر من بلاد الحنفية كان فيه مسجد واحد للشافعية وكان ولي البلد يخرج كل يوم لصلاة الصبح فيرى ذلك المسجد فيقول أما آن لهذه الكنيسة أن تغلق. وحتى أن المالكية يقولون الشافعي غلام مالك،والشافعية يقولون أحمد بن حنبل غلام الشافعي والحنابلة يقولون الشافعي غلام مالك، والشافعية يقولون أحمد بن حنبل غلام الشافعي والحنابلة يقولون الشافعي غلام أحمد بن حنبل... وحتى أن الشافعية يطعنون بأن أبا حنيفة من الموالي وأنه ليس من أئمة الحديث. وأحوج ذلك الحنفية إلى الطعن في نسب الشافعي وأنه ليس قرشيا بل من موالي قريش ولا إماما في الحديث لأن البخاري ومسلما أدركاه ولم يرويا عنه مع أنهما لم يدركا إماما إلا رويا عنه... وحتى جعل كل فريق يروي السنة في تفضيل إمامه. فالمالكية رووا «يوشك أن تضرب أكباد الإبل ولا يوجد أعلم من عالم المدينة» قالوا وهو مالك والشافعية رووا «الأئمة من قريش» «تعلموا من قريش ولا تعلموها» أو «عالم قريش ملأ الأرض علما». قالوا ولم يظهر من قريش بهذه الصفة إلا الشافعي. والحنفية رووا «يكون في أمتي رجل يقال له النعمان هو سراج أمتي ويكون فيهم رجل يقال له محمد بن إدريس هو أضر على أمتي من إبليس» والحنابلة رووا «يكون في أمتي رجل يقال له أحمد بن حنبل يسير على سنتي سير الأنبياء». الخ.

وبعد، فهذه نظرة موجزة عن منهج اليوسي، والمنهج أهم عنصر من عناصر الشخصية العلمية فعسى أن نكون قد جلونا هذا الجانب بما يعين على فهم شخصية اليوسي.

☆ ☆ ☆

اليوسي الفقيه : درس اليوسي الفقه دراسة متينة، وقام بتدريسه بالزاوية الدلائية وجامع القرويين بفاس ومسجد الأنوار بمراكش مدة طويلة، وتخصص في الفقه المالكي وله إجازة فيه عامة من شيخه الفقيه محمد بن سعيد المرغثي ولا سيما : المدونة السحنونية ومختصراتها، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني، وفرعي الإمام ابن الحاجب وأصليه، ومختصر خليل، وإذا كان علم الفقه على مذهب مالك هو اختصاص المغاربة بالدرجة الأولى فإن لليوسي في هذا الاختصاص مشيخة عالية مثل شيخه سيدي محمد بن ناصر الدرعي، وشيخه أبي بكر بن الحسن التصافي، وشيخه أبي العباس أحمد بن محمد التجمعتي، وشيخه أبي عبد الله محمد بن ابراهيم الهشتوكي وغيرهم.كما أن اليوسي من الذين تخرج عليهم جماعة من كبار فقهاء المغرب وسيتضح ذلك عند ترجمتنالتلاميذه وحديثنا عن الكتب الفقهية التي قرأوها عليه.

ومن آثار اليوسي التي تدل على شخصيته الفقهية مع أنها من كتب الأصول كتابه : «البدور اللوامع في شرح جمع الجوامع» وهو كتاب نفيس إلا أن النسخة الوحيدة الموجودة بين أيدينا منه غير كاملة[26]. فلم يصلنا منه إلا حوالي مائتي صفحة تنتهي بقول المصنف : «والأصح أن المباح ليس بجنس للواجب» ومع ذلك فالكتاب مفيد في بابه، وكاف في تحقيق الغرض بالنسبة إلى من يحاول فهم شخصية اليوسي الفقيه أو الأصولي كذلك.

26) هذه النسخة مخطوطة في خزانة صديقنا المرحوم سيدي حسن الزهراوي.

ويبدو من كلام اليوسي في خطبة شرحه أنه نحا فيه نحوا خاصا لم يسبقه إليه غيره على كثرة الشروح التي وضعت على جمع الجوامع، ذلك أنه لاحظ افتقار الكتاب إلى شرح يحمي حقائق المذهب المالكي إذا اختلفت المذاهب، وينبه على بعض ما يقع في الشروح مما هو فصل الخطاب، فوضع شرحه لتحقيق هذا المطلب.

فهو ليس مجرد شرح وإنما هو دراسة مفصلة للكتاب وشروحه، على المذهب المالكي، وهذا ما يفرض تقديمه بين آثاره الفقهية وإن كان له ارتباط وثيق بعلم الأصول. وسنعود إلى الحديث عن هذا الكتاب عند حديثنا عن اليوسي الأصولي.

ومن آثاره الفقهية أيضا منظومته في العبادات، وهي تقع في ثمانية وأربعين ومائتي بيت أولها :

الحمد لله الولي الأحد   الحكم العدل العلي الصمد

وقد حدد غرضها وموضوعها بقوله :

وبعد فالمقصود ذكر ما طلب   من المكلف وجوبا أو ندب

ونقدم هنا بابا من أبواب هذه المنظومة يعطينا فكرة عن أسلوب اليوسي فيها وعن قيمتها من الناحية الفقهية :

باب الزكاة

ففي المواشي الملك[27] والنصاب   والحول كاملا لها أسباب
وهكذا النقد. فأما الإبل   فخمسة «شاة» عليها تجعل

27) في نسخة (جـ) «المال» وهي النسخة الموجودة بالخزانة العامة تحت رقم 157 جـ.
أما النسخة (د) فرقمها 1164 د وهي بالخزانة العامة أيضا.

حتى يكون فوق[28] عشرين فذا — زكاته بالإبل[29] حتما تحتذى
والغنم اجعل أربعين منهـا — نصابها زك بشاة عنهـا
لمائة مع واحد وعشرتين — فزك عنها[30] باثنتين دون مين
لمائتين مع شاة فادفع — عنها ثلاثا لمئين أربع
فأعط عنها أربعا ثم اجعلا — شاة لكل مائة فيما علا[31]
واجعل اثنين نصاب البقر — وبتبيع سنتين فمر
نصاب نقد من[32] دنانير الذهب — عشرون ربع العشر فيه قد وجب
أو مائتان درهما سنيا — من فضة أو منهما سويا
والحرث في خمسة أوسق عشر — إلا إذا يسقى بآلة تضر
فنصف عشر يوم درس وكذا — معدن أو ركاز الحكم خذا
وتصرف الزكاة للثمانية — في الذكر والآية فيهم وافية
وواحد يكفي من الاصناف — ويؤثر المضطر بالاسعاف
وتجب الزكاة يوم الفطر — من غالب القوت بصاع تمر
أوبر أو غيرهما مما طعم — عن نفسه ومن يصون إن لزم
ودفعها للمسلمين الأحرار — من المساكين بغير استنظار

وسنعود إلى الحديث عن هذه الأرجوزة عند حديثنا عن آثاره.

وترك اليوسي أيضا مجموعة من الفتاوى والأجوبة يقع ما جمع منها في نحو مائتي صفحة وما لم يجمع يوجد بعضه متفرقا في بطون الكتب، وأكثره يعتبر في حكم المفقود، والذي نطمئن إليه أن فتاويه أكثر مما وصل منها إلى أيدينا :

28) في (جـ) «حتى تكون».
29) في (جـ) «الإبل».
30) في (د) «فزد».
31) هذا البيت ساقط من (جـ) وكذلك البيتان اللذان قبله.

فاليوسي كان كثير الأتباع واسع الشهرة في عصره، مشهودا له بالعلم والصلاح. فكان من الطبيعي أن يلح الناس عليه بالفتوى. وقد كانت الفتوي ترد عليه وهو ابن عشرين سنة مما[33] يدل على أن الفتوى استغرقت حظا وافرا من حياته العلمية. وكان صلاحه للفتوى من الأسباب التي جعلت السلطان «المولى إسماعيل» يلومه على سكنى البادية جاء في جواب لليوسي على كتاب من السلطان :

«وقول الكتاب : وهل يستفتوك وأنت في البادية ؟ فأقول : أما أهل البادية فلا يطلبون غيري وأما أهل الحاضرة فعندهم من يكفيهم ومن احتاج إلي فلياتني[34] والمولى إسماعيل نفسه لم يكن مستغنيا عن فتاويه، بل إنه كان يلح عليه حتى إن اليوسي لم يخف ضيقه بهذا الإلحاح فقال في إحدى فتاويه مخاطبا السلطان : (وقد أرهقنا مولانا بالفتوى، ولم تكن من شأننا ولا كنا أهلا لها في أدنى شيء فكيف في هذا الجناب الأعظم)[35].

والقدر الذي وصل إلينا من فتاويه لا يناسب الشواهد الدالة على كثرتها. فلعل بعض الباحثين تتجه عنايته إلى جمعها وتحقيقها، لتكون مادة خصبة لدراسي الفقه ومؤرخيه.

ومن أشهر فتاويه :

فتواه في العكاكزة.

وفتواه في نصارى العرائش.

وفتواه في وصل الشعر.

---

(32) في (جـ) «والنقد فيه من...».

(33) الرسالة المخطوطة رقم 849 جـ خ.ع.

(34) الرسالة المخطوطة رقم 849 جـ خ.ع.

(35) المنزع اللطيف ص 89 مخطوط.

بالإضافة إلى أجوبة وفتاوى متفرقة أشرنا إلى مكان وجودها في ثبت آثاره.

ومن آثاره الفقهية الناطقة بقوة عارضته في الفقه والحديث كتاب «قواعد الإسلام من مضمون حديث النبي عليه السلام، وقد شرحه تلميذه أبو العباس أحمد الهشتوكي في كتاب «فتح العلام في شرح قواعد الإسلام».

ونسوق هنا جوابا له عن سؤال في الفقه مع جوابين عن السؤال لعالمين جليلين من معاصريه، ليتضح الفرق بينه وبين غيره في الطريقة والمنهاج، لعلنا نستطيع من خلال المقارنة أن نحكم على شخصية اليوسي الفقهية ولا سيما أن جوابه عن السؤال كان على البديهة بلا كبير روية لاستعجال الحامل ولا مراجعة المظان لخلو اليد من الكتب[36].

أما السؤال فنصه : «سيدي رضي الله عنكم، جوابكم في قضية رجل وقعت بيده أمة في إنصاف من قبيلة أهلها فأصابها الرجل المذكور هل وطؤه إياها ينشر الحرمة بينها وبين أقاربها كابنتها مثلا، أم لا ؟».

وأما السائل فهو السلطان المولى إسماعيل.

وقد أجاب الفقيه القاضي أبو مروان عبد المالك التجمعتي بقوله :

«إن إصابة المشار إليه في السؤال للأمة المأخوذة من أهلها على الوجه المنبه عليه، إصابة ملغاة في نشر الحرمة في أصولها وفصولها، فلا يترتب شيء من لوازم الوطء الشرعي. فيحل وطء ابنتها مثلا بالملك والنكاح، وعليه درج الإمام مالك في (الموطأ)[37] وكفى به قدوة وحجة

---

36) المنزع اللطيف ص 89 مخطوط.

37) قال مالك رحمه الله في الرجل يزني بالمرأة فيقام عليه الحد فيها : إنه ينكح ابنتها وينكحها ابنه إن شاء الله، وذلك أنه أصابها حراما وإنما الذي حرم الله ما أصيب بالحلال أو على وجه الشبهة بالنكاح قال الله تبارك وتعالى ﴿**ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من**=

وما وقع في (المدونة) محمولا عند بعض العلماء على الكراهة، وعليه فالخطب في المسئلة سهل. والله أعلم».

وأجاب القاضي أبو عبد الله سيدي محمد بن الحسن المجاصي فقال : «الجواب أعلاه صحيح، وما نقل عن الإمام في الموطأ قال الحافظ : عليه جل أصحابه. بل قد قال غير واحد : إن جميعهم عليه. قال سحنون : ولا اختلاف بينهم. وبما تقدم عن الإمام، جزم مالك زمانه ابن أبي زيد : هذا هو المشهور، وتشهير مقابله لم يقف المحققون على بعد البحث عنه عليه. والاغترار بكلام (التهذيب) مدفوع بكلام عياض على الأصل. وبالجملة قول الإمام السابق هو المعول عليه ويؤيده من جهة النظر أن المعدوم شرعا كالمعدوم حسا، حسبما تقرر في القواعد».

ثم أجاب الشيخ أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي بقوله : «ينبغي أن ينظر إلى حال السائل عند مواقعته الأمة المذكورة، فإنه لا يخلو ساعتئذ من ثلاث حالات : الأولى أن يطأها معتقدا لحريتها مقتحما لذلك بلا وجه ولا شبهة الزنا المحض الذي يترتب فيه الحد وينتفي الولد.

الثانية : أن يطأها معتقدا للحلية متمسكا بوجه شرعي عنده بأن يرى لنفسه صحة الملكية على الأمة المذكورة بسبب يعتبره، إما أن يكون المال المأخوذ مثلا في الحقيقة خراجا وان سماه اسما آخر وكون ذلك من

= **النساء**» قال مالك فلو أن رجلا نكح امرأة في عدتها نكاحا حلالا فأصابها حرمت على ابنه أن يتزوجها وذلك أن أباه نكحها على وجه الحلال لا يقام عليه فيه الحد ويلحق به الولد الذي يولد فيه بأبيه وكما حرمت على ابنه أن يتزوجها حين تزوجها أبوه في عدتها وأصابها فكذلك تحرم على الأب ابنتها إذا هو أصاب أمها.
تنوير الحوالك للإمام جلال الدين السيوطي) ج 2 ص 69.

المصالح العامة المرسلة التي ينضبط بها أمر الناس أو من العقوبات بالمال لأجل ذلك، ويدين بمذهب من يرى شيئا من ذلك في المذهب أو خارجه، أو إنما المأخوذ غصبا إنما هو النقد والأمة مشتراة اشتراء صحيحا لا يتعلق الغصب بعينها، بل يترتب ثمنها فقط أو نحو ذلك من التأويلات، ثم يرى أنها إذا حصلت بذلك الوجه وصارت في عدد المال كان له حق في المال فلتكن هي ذلك النصيب أو بعضا منه، ويكون في هذا كله قد نظر لنفسه في المسألة إن كانت له مشاركة أو قد أفتاه مفت يرضاه فقلده.

الثالثة : أن يطأها معتقدا للحلية لا بوجه، ولكن جهلا منه بتلك الصورة، وظنا منه أنها من جملة المباح له. فأما في الحالة الأولى، فالمسألة هي مسألة الموطأ المشار إليها في الأجوبة فوقه، لأنها إنما فرضت عند الإمام مالك وغيره في الزنا وهو وطء من لا ملك له على الاتفاق بلا شبهة ولا غلط ولا جهل للحكم ولا للعين، كما لا تخفى حقيقته. وما أجاب به السادة فوقه أصلحهم الله وأبقى وجودهم للإسلام، صحيح يعمل به ولا مزيد عليه.

وأما في الحالة الثانية، فالحرمة تنتشر بين الموطوءة وأصولها ولا سبيل للوطء إلى ابنتها، لأنه يرى أنه وطئ أمها بملك اليمين، وذلك ينشر الحرمة وكون تلك الشبهة لا يلتفت إليها في نفسها ولا تجوز الفتوى ولا العمل بمقتضاها في المذهب، لا يقدح في هذا لأن المطلوب فيه مجرد الوجه المخرج عن الزنا الموجب للحد، دليلا كان أو شبهة، وقد حصل وهذا أمر واضح لا نزاع فيه، حيث يقع الوطء كمسألتنا، وإنما التفصيل في غيره، وأما في الحالة الثالثة، فلم يقبل منه ادعاء الجهل اعتبارا بالغالب أو بأن ذلك من الحرام الواضح الذي لا يقبل فيه الجهل مطلقا،

فالحكم حكم الحالة الأولى ولا إشكال، وإن قبل ادعاء الجهل اعتبارا، فإنه الأصل في كل صورة حتى يقع الخروج عنه فيها ببيان وبأن الأمر المذكور ليس مسلما وضوحه ولا سيما فيمن علم منه الاستيلاء والجور والملك الحسي والاقتداء بما جرت به عادة من قبله في ذلك، مع أن في القدر الواضح قولين في المذهب فالحرمة أيضا تنتشر في الأمة المذكورة لأن الوطء حينئذ شبهة وانه لا فرق في المسألة بين جهل الحكم إذا قبل، وبين جهل العين. والنصوص في جهل العين معلومة وانه إذا وطئ امرأة يظنها زوجته أو أمته تحرم عليه بناتها وأمهاتها على المشهور كما قال ابن عبد السلام بعد حكايته هذا القول، إنما هو على أن الزنا لا يحرم الحلال وأما على أنه يحرم فلا إشكال أن وطء الاشتباه ينشر الحرمة وهو واضح لأن كل من يعتبر الزنا فهو يعتبر الشبهة بالوجه الأحرى، وقد بنوا الخلاف علىالمكره على كونه زانيا أو معذورا لأنه حصل منه النشاز عمدا وعلم أن الزنا هو الضابط، وكل ما قصر عنه فمعتبر. ويدخل في ذلك الغلط والسهو والجهل بالعين أو بالحكم عما قررناه وقرر بعض المتأخرين، مسألة ابن التبان بأن يلتذ ولا يطأ فإن وطئ فهو شبهة قال ووطء الشبهة ينشر الحرمة على المشهور، وهو كلام شامل بجانبهما العين والحكم، والله الموفق وإذا علم السائل حكم حالته فهو بصير على نفسه فيما أقدم عليه أولا فينبني عليه والله المستعان» اهـ.

وحاصل جواب اليوسي أن هناك أربع حالات تنتشر الحرمة بين الأمة وبين أقاربها في اثنتين منها ولا تنتشر في الأخريين.

أما الحالتان اللتان تنتشر فيهما الحرمة فهما :

أولا : أن يطأ السائل الأمة معتقدا للحلية متمسكا بوجه شرعي عنده.

ثانيا : أن يطأها معتقدا للحلية لا بوجه، ولكن جهلا منه بتلك الصورة وظنا منه أنها من جملة المباح له، فإن قبل منه ادعاء الجهل اعتبارا فالحرمة تنشر لأن الوطء حينئذ شبهة.

أما الحالتان اللتان لا تنتشر فيهما الحرمة بين الأمة وأقاربها فهما :

أولا : إذا وطئها السائل معتقدا لحريتها وهو الزنا المحض.

ثانيا : أن يطأها معتقدا للحلية لا بوجه ولكن جهلا منه وظنا أنها من جملة المباح له، وفي هذه الحالة لا يقبل منه ادعاء الجهل اعتبارا بالغالب فالحكم أن الحرمة لا تنتشر أيضا.

وهكذا نرى ما تمتاز به طريقة اليوسي من تفصيل وتفريع وما نتج عن ذلك من بيان شاق للأحكام وتنزيل الأقوال في منازلها المعتبرة مما يزيل التعارض ويقرب شقة الخلاف ويساعد على التوفيق والجمع.

هذا إلى جانب الترتيب والنظام والاستيعاب والتقليل من الاحالات على كتب الفقه وضرب بعضها ببعض كما هو عند غيره.

والفتوى ابتلاء وامتحان لا سيما إذا كان العالم في عصر ملوكه متعلقون بأحكام الشريعة متطلعون إلى رأي العلماء في كل صغيرة وكبيرة مثل عصر اليوسي الذي اشتهر فيه السلطان المولى إسماعيل على الخصوص بكثرة استفتائه للعلماء، مما كان يوقعهم في حرج كبير لا سيما مع حاشية السلطان التي كانت تود في الغالب أن تجيئ الفتوى وفق رغباتها.

ولعل من أحسن الأمثلة على ذلك قضية تمليك الحراطين[38].

---

38) يقول الأستاذ مولاي التقي العلوي في مقال له تحت عنوان : أصول المغاربة : «الحرطاني : معناها أنها علم على شخص لا هو بالبربري ولا هو بالعربي، وقد وصفوا من طرف من درس ملامحهم هكذا : القامة فوق المتوسط، والأكتاف عريضة ومربعة، وقفص الصدر يشكل جذعا مخروطيا منعكسا مع ضيق في أعلى الحوض، والجمجمة طويلة والقمة ضيقة

وملخص القضية هو أن «المنصور الذهبي» آخر عظماء ملوك الدولة السعدية، كان له جيش من العبيد، وكان لهذا الجيش سجل أو ديوان، يتضمن أسماء أفراده وأنسابهم، ووجه رقيتهم، وسائر المعلومات المتعلقة بهم. فلما انتثر عقد الدولة السعدية، انفك هؤلاء العبيد من رق العبودية بحكم الواقع لا بحكم الشرع، وتفرقوا في كل صقع من بلاد المغرب، إلا من انتقلت ملكيته إلى شخص من الأشخاص بشراء أو هبة أو غيرهما من وجوه التملك، فبقي على عبوديته. فلما جاء عهد المولى إسماعيل، كان أكثر هؤلاء الحراطين قد قضوا سنين طويلة يتفيأون ظلال الحرية، ويتعاطون من الأعمال ما يتعاطاه سائر الناس ويختلطون بغيرهم عن طريق المصاهرة وغيرها، ويتوالدون ويتكاثرون، حتى صار من العسير التعرف على أصلهم وعلى من يصح إلحاقه بالجيش الذي كان السجل المذكور يحصي أفراده وأصبح من الصعب ضبط وجه الرقية أو الحرية بالنسبة لكل واحد منهم ضبطا لا شبهة فيه. ومع ذلك فإنه وجد في حاشية السلطان المولى إسماعيل من زين له جمع هؤلاء العبيد من جديد، وتأليف جيش منهم، يكون أفراده تابعين للسلطان بالملك والرقية هم وأبناؤهم وأزواجهم، لا تلهيهم تجارة ولا حرث ولا كسب عن أعمال الجندية وأوامر السلطان.

= والقذال بارز والجبهة منحرفة زوراء والحاجبان مقرونان مع بروز واضح وكبير في الوجنتين والأنف قصير أخنس ولكنه غير أفطس ومقعر بعيد القعر على شكل هلال، والفم كبير مع شفتين عظيمتين مائلة إلى الوراء في أعلاها، والعيون سوداء والشعر ليس بالمفلفل.

ولا ينبغي أن يلتبس هذا النموذج بآخر جيء به من إفريقيا في ظروف مختلفة. وهذا يحمل خصائص الزنوج حقا، وفي نظر بعض الباحثين أن النموذج الأول عريق في القدم بالمغرب على النقيض من أخيه المجلوب حديثا». أصول المغاربة ـ القسم البربري ـ مجلة البحث العلمي. ع 19 يناير ـ يونيو 1972 (الأستاذ مولاي التقي العلوي).

كان في حاشية المولى إسماعيل رجل يدعى (عليليش) واسمه محمد ابن قاسم، وكان يملك دفترا فيه أسماء العبيد الذين كانوا في عسكر المنصور السعدي. فسأله السلطان هل بقي منهم أحد ؟ قال : «نعم، كثير منهم ومن أولادهم، وهم متفرقون بمراكش وأحوازها وبقبائل (الدير) ولو أمرني مولانا بجمعهم لجمعتهم» فولاه أمرهم، وكتب له إلى قواد القبائل يأمرهم بشد عضده وإعانته على ما هو بصدده، فأخذ (عليليش) يبحث عنهم بمراكش وينقر عن أنسابهم، إلى أن جمع من بها منهم. ثم خرج إلى (الدير) فجمع من وجد به ثم سار إلى (قبائل الحوز)، فاستقصى من فيها حتى لم يترك بتلك القبائل كلها أسود، سواء كان مملوكا أو حرطانيا أو حرا أسود. واتسع الخرق، وعسر الرتق، فجمع في سنة واحدة ثلاثة آلاف رأس، منهم المتزوج والعزب، ثم كتبهم في دفتر وبعث به إلى السلطان بمكناسة، فتصفحه السلطان وأعجبه ذلك، فكتب إليه يأمره بشراء الاماء للأعزاب منهم، ويدفع أثمان المماليك منهم إلى ملاكهم، ويكسوهم من أعشار مراكش، ويأتيه بهم إلى مكناسة. ثم بعث السلطان كاتبه أبا عبد الله محمد بن العياشي[39] المكناسي إلى قبائل الغرب وبني حسن، وأمره بجمع العبيد الذين بها، فمن لا ملك لأحد عليه يأخذه مجانا، ومن كان مملوكا لأحد فليعط صاحبه ثمنه ويحوزه منه... وكان السلطان قد كتب أيضا إلى عماله بالأمصار بأن يشتروا له العبيد والاماء من فاس ومكناسة وغيرهما من حواضر المغرب، عشرة مثاقيل للعبد، وعشرة مثاقيل للأمة.

---

39) أبو عبد الله محمد بن العياشي الفقيه المفتي النوازلي القاضي العلامة المدرس، قرأ بمراكش على شيوخها وحصل الفقه وفروعه، واشتغل بتدريس مختصر خليل وفروع الفقه والتحفة واللامية وصدرت عنه فتاوى كثيرة، وكان بارعا في القياس وله عقل راجح سريع الحركة في الرأي بالإضافة إلى اشتهاره بالحفظ. انظر ترجمته في الاعلام لعباس بن إبراهيم ج 5 ص 39.

فاستوعبوا ما وجدوا حتى لم يبق عند أحد عبد ولا أمة، ثم ألزم السلطان قبائل (تامسنا) و(دكالة) يأتوا بعبيد المخزن الذين عندهم، فلم يسعهم إلا الامتثال. فجمعوا كل عبد في بلادهم، وزادوا بالشراء من عندهم، وأعطوهم الخيل والسلاح وبعثوا بهم إليه... ثم دخلت سنة تسع وثمانين وألف، فغزا السلطان صحراء السوس وجلب في هذه الغزوة ألفين من الحراطين... فكان عدد ما جمع من عسكر العبيد أربعة عشر ألفا، ثم تناسلوا وكثروا حتى ما مات المولى إسماعيل إلا وقد بلغ عددهم مائة وخمسين ألفا[40].

إن الأسباب التي دفعت المولى إسماعيل إلى تكوين هذا الجيش أسباب كثيرة : منها أنه لم يكن يطمئن إلى ذلك الخليط من العرب والبربر الذي كان جيشه يتألف منه، ولم يكن مرتاحا إلى تلك القبائل التي تحارب في صفه وهو لا يعلم نواياها وأطماعها ومبلغ إخلاصها، وكانت الظروف التي وجد فيها المولى إسماعيل ظروفا صعبة : فالحروب الداخلية لا تنقطع، والأطماع الأجنبية تهدد سيادة المغرب، وأعمال السلب والنهب وقطع الطرق تنخر كيان المجتمع المغربي، وجيش المولى إسماعيل غير قادر على الصمود الطويل لأن القبائل تحارب لفترة محدودة ثم تريد الرجوع إلى باديتها للقيام بأعمال الحرث ورعي الماشية. وكذلك سكان الحواضر عندهم التزامات عائلية وأشغال خاصة، فلم يكن هنالك بد من تأليف جيش خاص منتظم لا شغل له إلا ملء الثكنات والثغور والقيام بالأعمال العسكرية الصرفة. وما أحسن أن يكون هذا الجيش مكونا من **عنصر واحد، ومنعزلا في مواقع خاصة، وطبيعي أن جيش العبيد هو** الجيش الذي تتوفر فيه الشروط المطلوبة.

40) الاستقصا للناصري باختصار ج 7 ص 57 ـ 58.

على أن المولى إسماعيل ما كان ينساق مع هواه فيما يتخذه من تدابير تنظم دولته وتضبط سيرها وتحقق أهدافها، بل كان يستشير العلماء في كل صغيرة وكبيرة، هادفا بذلك إلى إخضاع أعماله وسياسته لمقتضيات الشرع، وإلى ضمان حسن العاقبة في الدنيا والآخرة.

وهكذا توقف في هذه القضية ناظرا وباحثا عن حكم الشريعة الإسلامية، وكتب إلى العلماء يعرض عليهم صورة المسألة ويطلب منهم الجواب. وهنا يشعر الباحث بحيرة عند مراجعة الرسائل المتبادلة في هذا الشأن بين العلماء والمولى إسماعيل : فالعلماء يجيبون، والمولى إسماعيل لا يقتنع بما يرد عليه من الأجوبة، ويكرر طلب الفتوى ملاحظا أن أجوبتهم في جملتها، تقتصر على ذكر الخلافات المذهبية، والأقوال التي في المذهب المالكي، دون أن تنص صراحة على الجواب الشافي في النازلة التي وقع السؤال عنها. وكمثال على ذلك نعرض هذه المقتطفات من الرسالة التي كتبها المولى إسماعيل إلى الشيخ سيدي عبد القادر بن علي الفاسي[41].

يقول السلطان مخاطبا سيدي عبد القادر : «بلغنا كتابكم، وقرأناه وفهمنا ما تضمنه لفظه ومعناه، فعلى كل حال كنا لما جبلنا الله عليه من الخير ومن محبة العلم نتبرك بكتب أمثالكم، ونريد أن نستفيد منها فائدة علمية ندخرها لدينا ونحفظها عندنا، تزيدنا إلى ما لدينا من الحق الذي وفقنا الله إليه تقوية، لكن لم يستوفى المعنى الذي كتبنا لك عليه وقررناه في السؤال من الأمر الذي دار الكلام بيننا وبين العلماء فيه، وكثرت المحاورة والمراجعة بسببه. فكان من الأولى والآكد المقدم هو تحرير حرف النزاع، وبيان صورة المسألة وحقيقتها. (...) وطلبة الوقت

41) ستأتي ترجمته في الفصل الخاص بالحياة الفكرية.

هؤلاء وإن تقدم منهم ما تقدم من الكلام في هذه المسألة، رأيناهم كلما ازداد البحث والتنقير والتحرير والتحري وكشف القناع لا يزدادون إلا تلكيا (كذا) ونفورا، وتلكيهم مرة ورجوعهم أخرى، وقبولهم تارة ونفورهم أخرى، ما عرفنا له وجها شرعيا ولا طبعيا. فإن كان لديهم لهذه المسألة أساس صحيح ونقل صريح، ورأوا ما رأيناه نحن من الصواب الذي وفقنا الله إليه، وأعاننا عليه، ورأينا فيه التيسير من كل الوجوه، والمصلحة العامة التابعة للمسلمين من كل جهة، فرجوعهم إلى الحق والانصاف والاعتراف والاسعاف هو أولى من المكابرة والمغالطة[42].

ويقول في رسالة أخرى وجهها إليه «...وفي هذا الشراء والحمد لله كما لايخفى عن سيادتكم سر كبير، وقد رزقنا الله فيه وله المنة سهولة، ومن علامة الإذن التيسير. ورأينا هؤلاء طلبة الوقت مقصرين على الخوض معنا في هذا الفن تقصيرا أدى بهم على التشكيك، ولم يزيدوا مع كثرة البحث منا والتنقير عن أصول هذا الفن لمسائله والاستيعاب لفروعه وأصوله وتعريف مفصله من مجمله إلا نفورا وشكا، مع تحققنا أنا والحمد لله على جادة قويمة، موفقون من الله تعالى، سالكون طريقا مستقيمة، نفوسنا مطمئنة، وقلوبنا ساكنة، لم يزدنا كشف الغطاء بقبولهم ذلك وتضحيحهم له قبولا، ولا قوى لنا تغافلهم عنه أو تقولهم فيه تشكيكا، إلا أنا نظرنا في أمرهم فرأيناهم ساكتين لا ينطقون بحق ولا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر، وإذا نحن بحثناهم عن أمر لا يقنعون في الجواب، وأعيانا أمرهم مع أنا والحمد لله متعودون بالحق ومجبولون على قبوله والعمل به. فمن أجل ذلك خاطبناهم بهذه الكراسة تعريفا لهم بما نحن عليه من الجد وبسبب اقتنائنا لهذا الجند من

---

42) مجلة تطوان ـ العدد الخاص بالمولى إسماعيل.

الوصفان، وقلنا لهم أنتم قلتم لا يسوغ شراء هؤلاء الوصفان لهذه المصحلة أرونا من يقوم بهذا الوظيف الديني فأفتونا بفتوى تبيح لنا ترك اقتناء الجند واتخاذه رأسا...».[43].

والذي نميل إليه هو أن العلماء فيما يبدو لم يكونوا موافقين على المشروع، وكانوا يرون في عملية تمليك الأحرار خروجا عن الحق واعتداء على حرية الناس، ولكن منهم من عبر عن ذلك صراحة،ومنهم من اكتفى بالإشارة، ومنهم من تلكأ في الجواب حتى إذا أرغم على التصريح صرح بأشياء لا تتصل بالسؤال من قريب أو من بعيد.

وكان أبو علي اليوسي من جملة العلماء الذين استشارهم المولى إسماعيل في هذه القضية، وحين أحضره إلى مكناس فيمن أحضر من العلماء لم يوافق على عمل السلطان، شأنه شأن رفقائه الأعلام، مثل الشيخ أبي محمد عبد السلام بن حمدون جسوس، والشيخ أبي عبد الله محمد بن أحمد المسناوي الدلائي، والشيخ أبي عبد الله محمد بن الشادني الدلائي، والعلامة أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن زكري، وأبي عبد الله محمد بن المشاط، وأبي عبد الله محمد بن العافية[44].

وقد قامت حاشية السلطان بمساع حثيثة لإغراء العلماء بموافقته على رأيه، وإدخال السرور على نفسه بجواب يوافق رغبته ويحقق أمنيته، ومارست هذه الحاشية ضغوطا مختلفة على العلماء[45]، ولكن العلماء

---

43) مجلة تطوان ـ العدد الخاص بالمولى إسماعيل.

44) الحلل البهية للمشرفي خ.ع 1463 ص 120. وهو خلاف ما جاء في كتاب (الجيش العرمرم) لأبي عبد الله أكنسوس حيث قال (ردا على الزياني الذي ذكر أن السلطان ادعى ملكية الأحرار ووبخ العلماء على عدم موافقتهم على تمليكهم) : «ولو كان ما ذكره الزياني متصفا به السلطان المذكور لكان ذلك أول ما ينكره اليوسي ولا يسعه السكوت عليه مع أنه أنكر ما هو أقل من ذلك وأخف بمراتب» الجيش العرمرم ص 137 خ.ع 315 ك.

45) مجلة تطوان : عدد خاص برسائل مولاي إسماعيل.

صمدوا وتشبثوا بموقفهم، ولم يرضوا إلا النصح للسلطان والوفاء له اللهم إلا ما كان من جماعة من ضعاف النفوس، بادرت إلى الافتاء بالإيجاب والموافقة، وكاتبت العلماء تزين لهم ذلك. وبقي الأمر كذلك إلى أن كانت سنة 1120 فألزم السلطان العلماء بالموافقة على ديوان العبيد، وهددهم بالتجنيد وإرسال العلماء إلى مواقع القتال.

كانت هذه القضية من المحن العظيمة التي واجهت علماء تلك الفترة، لكن رغم كل ما حدث فإن شخصية المولى إسماعيل لا يغض منها هذا الموقف لعدة أسباب : أهمها أن المولى إسماعيل كان مقتنعا بوجهة نظره، مؤمنا بعدالة قضيته، واثقا من موافقته للشرع، صادرا في كل ذلك عن رغبة صادقة في أن يوفر لدولته الأسباب الخليقة بحفظ استقرارها وأمنها وازدهارها. مقتنعا بأن المشروع لصالح الأمة ولا يضيره أنه مضى فيما عزم عليه معتمدا على القناعة التي حصلت وعلى فتاوى بعض العلماء، لأن العبرة بنتيجة عمله، وهي نتيجة عظيمة، لأن جيش العبيد أدى للإسلام والمسلمين خدمة كبيرة، وأسهم في تحرير شواطئ المغرب من براثن الغاصبين ووطد دعائم الأمن والاستقرار داخل البلاد، فكانت المصلحة التي حصلت بسببه تربو على كل مفسدة يمكن أن تكون قد ترتبت من جراء تكوينه وان كان درء المفاسد مقدما على جلب المصالح[46].



46) للتوسع في هذه القضية هناك : الترجمان المعرب للزياني ص 16 خ.ع 456.
والمجموع المخطوط رقم 660 خ.ع ص 8379 والمنزع اللطيف لابن زيدان ص 137 خ.ع 595 جـ. وكتاب الاعلام لعباس بن إبراهيم ج 5 ص 21. والاستقصا للناصري ج 7 ونزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي ص 45. وحكم بيع العبيد المجلوبين من السودان لأبي العباس أحمد بن أحمد بابا الصنهاجي التبكتي. خ.ع 1079 و 1724.

اليوسي الأصولي : ومما يتمم حديثنا عن اليوسي الفقيه ويزيد في كشف الأبعاد الحقيقية لشخصيته الفقهية أن نلقي نظرة على مشاركته في علم الأصول. ومعلوم أن الأصول علمان : علم أصول الفقه وعلم أصول الدين أو علم الكلام، وكلاهما شارك فيه اليوسي مشاركة قوية وكان له فيه ملكة واختصاص ودراية واطلاع، وكانت له أقوال واعتراضات وأجوبة وتعليقات وأبحاث تدل على أن الرجل لم يكن مقلدا يكتفي بنقل أقوال غيره وترديدها وإنما كان عالما درس المادة ورسخت درايته لها وأصبح له فيها رأي وتصرف.

ولا نقول هذا قصدا إلى مدح اليوسي فما نحن بصدد المدح أو الذم وإنما نسجل ما هدانا إليه البحث بعد طول عكوف على كتبه قراءة ودراسة وتلخيصا وتمحيصا.

ونسجل هنا ملحظا آخر لا يفوت من يقرأ آثار اليوسي قراءة فاحصة وهو أن علم الأصول بما فيه أصول الفقه وأصول الدين هو اختصاص اليوسي بالدرجة الأولى وأن سائر العلوم في تكوينه العلمي تأتي تبعا لهذا العلم. ومن شاء أن يتحقق ذلك فلينظر في الأبحاث التي يميل إليها اليوسي ويكثر منها، من أي علم هي، ولينظر إلى المسائل التي يتوسع عادة في شرحها، وليتأمل أسلوبه وألفاظه وليحاول أن يفهم منهما عقليته وتفكيره، فإنه سيجد نفسه أمام أصولي راسخ متمكن ومتكلم ريان من علم الكلام.

وله في الأصول كتابان : أولهما (كتاب البدور واللوامع في شرح جمع الجوامع) وهو كتاب جليل سبقت الإشارة إليه. شرح فيه كتاب جمع الجوامع لأبي نصر عبد الوهاب بن الشيخ تقي الدين أبي الحسن السبكي واليوسي لم يكتف في هذا الكتاب بالشرح، وإنما حاول أن يتدارك ما فات المصنف وأن يبسط ما أجمله، ويتجاوز ما قصرت عبارة السبكي

وراءه كما أنه عكف على شروح الكتاب يبحث عن اختلاف المذاهب في ما ورد من المسائل والمطالب ويحتج لمذهبه المالكي ما وسعه الاحتجاج، ويرد على غيره ما وسعه الرد بالإضافة إلى أنه اجتهد في وضع هذا الشرح ليكون منقحا سالما من العيوب التي تشوب الشروح الأخرى.

ومن خلال الملاحظات التي سجلها اليوسي على (جمع الجوامع) وشروحه تظهر قيمة كتاب (البدور اللوامع) :

1) أن مصنف (جمع الجوامع) من فرط الشغف بالاكثار مع حسن الاختصار لم يلم بالدلائل ولا بين وجوه المسائل.

2) الكثير من كتاب (جمع الجوامع) صعب المدرك وعر المسلك.

3) هناك بعض الشروح واضحة في الإيضاح والبيان والافصاح ولكنها أغفلت كثيرا من الدقائق.

4) وهناك شروح أخرى «بالغة في الإيجاز إلى درجة الاعجاز فلا يكاد تتخلص منه الحقائق».

5) أنه لا يوجد من المالكية من شرحه شرحا يعتد به في هذه المطالب، حاميا للحقائق إذا اختلفت المذاهب.

وسبقت الإشارة عند حديثنا عن اليوسي الفقيه إلى أن الكتاب شاهد لتضلع اليوسي في الفقه وتمكنه من أصوله يبدو ذلك بوضوح في الأبحاث التي رتبها على أقوال من سبقوه : فقد كان يذكر المسألة ويتناولها بالشرح والبيان حتى إذا وقف على موطن من مواطن الاشكال أو مهمة من مهمات العلم قال : (وها هنا أبحاث) فيكون قوله ذاك إيذانا بوصولنا إلى موضع من الكتاب نلتقي فيه بعقلية اليوسي بسعة اطلاعه في الفقه والأصول وقوته في الاحتجاج والاقناع والتخريج والتوجيه والتحقيق وحسن العرض.

وأما الكتاب الثاني فهو (مشرب العام والخاص من كلمة الإخلاص) وموضوعه تفسير الكلمة المجيدة (لا إله إلا الله) وهي كلمة الإخلاص التي جعلت ترجمة على الإيمان في حق العام والخاص.

ورتب اليوسي كلامه فيه في مقصدين :

الأول : في تفسير معنى كلمة الإخلاص وتبيين فحواها على ما يجب اعتقاده على جميع المومنين وهو مرجع مباحث المتكلمين.

الثاني : في الإشارة إلى ما يتملح فيها بعدما ذكر من اللطائف، وهو منظر أهل الحقائق والمعارف وكلامه في معنى كلمة الإخلاص وفي المنفي المستثنى منه وما يتعلق بذلك من مسائل اللغة والنحو عالي المستوى، يشعر معه القارئ ـ غير الفقيه بالعربية ـ أن الكتاب يحتاج إلى شرح يقرب مسائله من الافهام أما مباحثه الكلامية فتتطلب من القارئ التوفر على مستوى خاص من العلم حتى يستطيع أن يساير المؤلف في البحث وإذا كنا قد نقلنا عن اليوسي في مطلع هذا الفصل قوله : «ولا تحسب أيها الناظر أن الذين أسايرهم في مفاوز الفضل والفهم وأماسرهم بقداح التحصيل في كل حكم وأسابقهم في مضمار الحكمة والعلم، هم أهل زمانك كلا ولكن حجة الإسلام وفخر الدين وعضد الدين وسعد الدين وسائر المحصلين» فإن أحسن ما نقدمه مثالا على ما ذكره هنا هو هذان الكتابان (البدور اللوامع) و(مشرب العام والخاص) ففيهما تجده مع أولئك العلماء الأعلام : يناقشهم، ويقارع حجتهم بحجته، ويقرن رأيهم برأيه، مع الاحترام الكامل والأدب التام.

☆ ☆ ☆

اليوسي المفسر : وإلى جانب هذه المشاركة القوية في علمي الفقه والأصول فإن لليوسي مشاركة لا تقل عنهما في علمي التفسير والحديث :

أما التفسير فقد اشتهرت دروسه فيه شهرة تحدثت عنها كتب التاريخ والتراجم وكانت مجالسه التفسيرية سواء بفاس أو بمراكش أو غيرهما، يقصدها كبار العلماء فضلا عن جمهور غفير من عامة المسلمين، وكان كثيرا ما يمكث في تفسير السورة الواحدة ثلاثة أشهر أو أكثر، وهو يبدي في كل يوم فنونا من أساليب البيان وضروب البراعة.

ومما يؤسف له أن اليوسي لم يترك لنا كتابا جامعا في التفسير، ذلك أن اليوسي وإن لم يترك لنا كتابا جامعا في التفسير، فقد ترك «كناشة» صغيرة مستقلة جمع فيها فوائد في التفسير تتناول آيات متفرقة لم نجد موضوعا يجمع بينها أو ملحظا عاما يشير إلى سبب اختيارها وإفرادها بالتفسير، ولعلها دروس في التفسير ألقاها في مناسبات مختلفة ثم جمعها بعد ذلك وليس لهذه الكناشة اسم خاص وإنما تعرف «بكناشة اليوسي»[47].

ومن قراءتنا لها نستخلص أن اليوسي لم يكن يعنيه إلا أن يجلو معاني الآيات وأسرارها دون توجيه أو تعصب مما شاب بعض كتب التفسير المذهبية من التأويلات انتصارا لمذهب في الفقه أو رأي في العقيدة أو قول في النحو أو قاعدة في اللغة : فالزمخشري يتعصب للمعتزلة في الكشاف، والنيسابوري يميل إلى الباطنية، والفخر الرازي ينتصر لآراء الشافعية وابن العربي يسير مع المالكية. ولليوسي رأي في علم التفسير، وهو أن هذا العلم لم يدونه الأقدمون على ما تقتضيه الصنعة وإنما اشتغلوا بتفسير القرآن العظيم بالفعل، وليس ذلك هو الفن المعدود في الفنون.

---

47) مخطوطة بالخزانة الحسنية تحت رقم 5995.

وإنما ذلك بمثابة ما يقع من الحاكم في تنفيذ الأحكام واستعمال الفروع عند التداعي والخصام وعند الافتاء مثلا، وليس ذلك هو فن الفقه.

ومع أن اليوسي يسجل أن المتأخرين تنبهوا لذلك فذكروا معظمه كجلال الدين السيوطي في الاتقان وقبله شيخه الكافيجي والجلال البلقيني والبدر الزركشي، إلا أنه يلاحظ أنهم إنما نصبوا الحديث في القرآن وعلومه وهذا ليس هو علم التفسير.

ويوضح اليوسي رأيه ويبين الكيفية التي يراها صالحة لتدوين علم التفسير فيقول «فالحق أن يدون التفسير كسائر الفنون، ويتعرض فيه لبيان حقيقته وموضوعه واستمداده ومسائله وغايته ونحو ذلك كغيره» ثم يقول «فأما حقيقته فما مر، وقد ذكر معها الاسم واشتقاقه، وأما موضوعه فالقرآن العظيم ولا بأس أن يذكر فيه شرف الموضوع وهي فضائل القرآن، وأما مباديه فكثيرة جدا، فإن القرآن بحر زاخر صاحبه محتاج إلى عدة عظيمة ولنقسمها إلى قسمين : قسم خاص، وقسم عام له ولغيره.

فالأول كمعرفة أسباب النزول إذ بذلك تفهم الآي النازلة لأسباب، وكالمكي والمدني ليعرف المتقدم والمتأخر فيعرف الناسخ والمنسوخ، وهذا من توسع الفن حيث يتعرض المفسر لبيان الحكم المعمول به وإلا فحظه بيان مدلول، وما وراء ذلك فإلى الفقيه المجتهد في الأحكام. وهكذا سائر ما ذكروا من أنواع علوم القرآن الخاصة به. وقد ادرجوا كثيرا مما لا يتوقف عليه التفسير كالليلي والنهاري والصيفي والشتائي وكيفية النزول والجمع والتحزيب والتعشير، وغير ذلك مما يذكر توسيعا ولقصد استيفاء الأنواع والأحوال. وهذا الجنس يصح أن يسمى علما مستقلا هو علم القرآن، ويضاف إليه ما توقف التفسير عليه منه فيكون مجموعه علما يتوقف التفسير عليه في الجملة، وهذا القسم علم القراءة فإن منها ما

يحتاج في التفسير لاختلاف الدلالة عند اختلافه من ذات اللفظ أو من إعرابه ومنها مالا يحتاج كالمد والإمالة، وما يرجع إلى مجرد الأداء ويذكر توسيعا.

الثاني : علوم لا يستغني مريد التفسير عن استحضارها لاشتمال القرآن عليها. فمنها الفقه والحديث، والقصص والأخبار، ومنها أصول الدين وأصول الفقه ومنها التصوف ومتن اللغة والنحو والبيان... والعلوم المذكورة هي الغالبة الأكثرية، وإلا فالقرآن بحر واسع قد وقعت فيه الإشارات إلى جميع العلوم فالمفسر ينبغي له أن يتضلع منها لئلا يفوته تحقيق.

وأما مسائله فما يذكر في نفس التفسير، ومن مقدمات ذلك أن يعلم أن كل ما في القرآن راجع إلى الدعوة إلى معرفة الله تعالى وإلى عبادته، والأول العقائد بما تحتاج إليه من الأدلة وهو أصول الدين، والثاني الأمر والنهي والإجابة وهي الأحكام الشرعية، ويحتاج ذلك كله إلى ما يبعث على التوجه إليه علما وعملا وهو الترغيب والترهيب فإذا فصلت معاني القرآن وجدت سبعة وهي : علم الربوبية، والنبوءة، والمعاد والأحكام والوعد والوعيد والقصص.

ثم يعلم أن التفسير منه مأثور ومستنبط، ومنه متفق عليه ومختلف فيه.

وأما غايته فمعرفة ما أنزل الله تعالى من الأحكام والحكم للفوز بالسعادة في الدارين، وناهيك بذلك وبهذا يظهر شرفه وفضله.

وأما واضعه فيصح أن يسنب إلى النبي ﷺ، وناهيك به لأنه أول من فسره. ويمكن أن ينسب إلى الله تعالى لأن القرآن قد فسر بعضه بعضا فهو علم قرآني[48].

---

48) القانون لليوسي ص 81 ـ 87.

هذا رأى اليوسي في علم التفسير باختصار أورده في كتاب (القانون في مبادئ العلوم) وهو عبارة عن منهج خاص لعلم قائم بذاته هو علم التفسير والفائدة المرجوة من هذا المنهج هي ضبط مسائل هذا العلم وجمع ما تفرق منها في كتب التفسير وعلوم القرآن. وحسب الخطة التي وضعها اليوسي فإن هذا العلم سيشتمل على ستة مباحث :

1) حقيقة التفسير.
2) موضوع التفسير.
3) استمداده.
4) مسائله.
5) غايته.
6) واضعه.

وهذا الرأي ليس له فائدة تنظيمية فحسب وإنما له فائدة عملية كذلك فكما نشعر بالفرق العملي بين دراسة علم التاريخ وبين قراءة التاريخ كذلك نشعر بالفرق بين علم التفسير وبين التفسير، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن علم القرآن ليس هو علم التفسير فعلم القرآن يهتم بدراسة كل ملحظ عام اهتدى إليه المفسرون بناء على استقراء تام لآي الكتاب العزيز، بينما علم التفسير ينظر إلى التفسير من حيث هو علم وهذا التمييز والتنظيم والترتيب ينسجم مع العقلية العلمية لليوسي، ومعلوم أنه ليس بوسع العالم أن يبدي مثل هذا النوع من الملاحظات وينص على ما انتبه إليه الأقدمون ـ وما أغفلوه في كليات العلوم وجزئياتها إذا لم يكن قد بلغ درجة عالية من العلم ومن المفيد أن نشير إلى أن كتابه

(القانون) يتضمن جملة صالحة من الملاحظات والأفكار الخاصة[49] المتصلة بمراتب العلوم ومناهجها وطرق اكتسابها ونشرها وسيأتي الكلام عليه في الفصل الخاص بآثاره إن شاء الله.

اليوسي المحدث : أخذ أبو علي اليوسي الحديث الشريف عن جملة من كبار مشايخ عصره بالشروط المعتبرة في الأخذ والرواية وكانت له أسانيد عالية في رواية الحديث، جعلت جماعة من العلماء ترغب في اتصال سندها به فتقصده للأخذ عنه.

روى اليوسي صحيح البخاري عن شيخه أبي عبد الله محمد بن سعيد المرغيثي «بالسند الذي لا يوجد في الدنيا أعلى منه عن الشيخ الحافظ

---

49) من ذلك قوله : (واعلم أن اللغة محتاجة إلى علمين : أحدها بيان مدلولات الألفاظ العربية الثاني في بيان أوصافها في المصطلح من كون هذا اللفظ مثلا في دلالته حقيقة أو مجازا منفردا أو مشتركا أو مرادفا لغيره أو نحو ذلك وقد تصدى اللغويون للمعنى الأول ولم يهتبلوا فيما علمنا بهذا الثاني وهو مهم ولاشك أنه معلوم من الأول عند أرباب الفن لأنه إذا فسر لفظ بمعنى فهو موضوعه فيكون حقيقة فيه وإذا فسر لفظ بمعنيين أو أكثر علم أنه مشترك فيها وإذا فسر لفظان بمعنى واحد علما أنهما مترادفان وهكذا ولكن الأولى التعرض له لوجهين أحدهما تسهيل التحصيل فإن تتبع أمهات اللغة بالنظر ليعلم أن اللفظ له موضوع آخر وليس له يشق على الطالبين لتحقيق الفهوم وتحصيل مهمات من العلوم الثاني أنه قد يقع ممن همته في استيفاء اللغة ذكر الألفاظ والتعرض لكل ما تطلق فيه وإن لم يكن بطريق الحقيقة مثلا وذلك تلبيس ورفع للثقة بموضوع اللفظ ما هو كما قال القائل : أعرف للسيف خمسين اسما فقال الآخر ما أعرف له إلا اسما واحدا وهو السيف يعني والباقي أوصاف فيكون تحرير هذه الألقاب من المهمات. وذكر الأصوليين لها إنما هو تعريف لحقائقها في الاصطلاح في الإلمام بأحكامها في الجملة من كونها موجودة مطلقا أو في السنة فلابد من التعرض لأعيان الألفاظ اللغوية حتى يعرف في كل لفظ لفظ ما هو. وهو فقه اللغة) اهـ.
القانون لليوسي ص 92 إلى 93.

الحسني أبي محمد سيدي عبد الله بن علي بن طاهر الحسني السجلماسي»[50].

وأجازه شيخه المرغيثي أيضا في الموطأ والصحيحين والترمذي والنسائي وأبي داود وفي كتب المساند والسند، كمسند أحمد ومسند الدارمي، وسنن ابن ماجه وابن حبان والحاكم والبيهقي وابن خزيمة والمصابيح للبغوي كما أخذ عنه اليوسي حديث المصافحة بسنده إلى أحمد ابن دهان قال صافحني خلف بن تميم قال دخلنا على هرمز نعوده فصافحنا وقال : دخلنا على أنس بن مالك (رضي الله عنه نعوده فصافحنا وقال صافحت بكفي هذه كف رسول الله ﷺ فما مسست خزا ولا حريرا ألين من كفه ﷺ[51].

---

50) جاء في إجازة المرغيثي ما نصه (أما صحيح البخاري فبالسند الذي لايوجد في الدنيا أعلى منه عن الشيخ الحافظ الحسني أبي محمد مولاي وسمط محياي سيدي عبد الله بن علي بن طاهر الحسني السجلماسي رحمه الله سماعا عليه لنحو نصفه بقراءة ولده العلامة أبي عبد الله مولاي عبد الهادي، وباقيه بالإجازة عن عدة من شيوخه منهم الشيخ أبو عبد الله السيد محمد بن قاسم القصار القيسي، عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي الفضل خروف التونسي عن قاضي القضاة الطويل القادري عن شهاب الدين عن أبي المجد الدمشقي عن الحجار عن الزبيري عن أبي الوقت عبد الأول بن عيسى السجزي عن الداودي عن ابن حموية السرخسي عن ابن مطر الفربري عن أبي عبد الله الإمام محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله قال : بسم الله الرحمن الرحيم.
كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ الخ إجازة المرغيثي لتلميذه اليوسي.
انظر الفصل الخاص بالشيوخ.

51) قال أبو علي اليوسي في فهرسته متحدثا عن شيخه المرغيثي (لقيته بالزاوية البكرية فجالسته مرارا وصافحني عن شيخه أبي محمد عبد الله بن علي بن طاهر الحسني وقال بسنده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه، فأفصح بالحديث ولم يفصح بالسند، وبعد ذلك بزمان عثرت على فهرسته فألفيت فيها المصافحة بسندها وحديثها الذي ذكر، فلم أشك في أنها هي التي أراد يوم صافحني رحمه الله، فكتبتها منها بحمد الله ونصها ومن خطه =

ومن شاء أن يطلع على أسانيد اليوسي ويرى كثرة الطرق التي يروى بها الحديث الشريف وعلوها فليقرأ تلك الفهرسات التي أجازه فيها شيوخه وهي كما يلي :

1) فهرسة الإمام ابن غازي أجازه فيها شيخه أبو عبد الله محمد المرابط الدلائي بروايته إياها عن شيخ الإسلام أبي عبد الله محمد العربي ابن أبي المحاسن يوسف الفاسي عن أبي عبد الله القصار عن أبي النعيم رضوان بن عبد الله عن أبي محمد عبد الرحمن بن علي الشهير بسقير عن مؤلفها أبي عبد الله بن غازي.

وأجازه فيها شيخه المرغيثي أيضا والشيخ أبو محمد عبد القادر بن علي الفاسي.

2) فهرسة أبي العباس المنجور.

3) فهرسة ابن الزبير.

4) فهرسة الإمام المنثوري.

5) فهرسة ابن النديم.

= نقلت : صافحني الإمام الحافظ شيخنا وقدوتنا أبو محمد عبد الله بن علي بن طاهر الحسني قال صافحني شيخنا الإمام أبو العباس المنجور قال صافحني شيخنا الإمام أبو زيد بن سقين قال صافحني الإمام شيخ الإسلام أبو يحي زكرياء الأنصاري قال صافحني شيخ الإسلام ابن حجر قال صافحني الزين العراقي وصافحني رضوان المستملي قالا صافحنا أبو طاهر الربعي قال صافحني أبو إسحاق القصي وأنا في الربعة قال صافحني النجيب أبو عبد الله الخولي قال صافحني أبو المجد القزويني قال صافحني أبو بكر المقري قال صافحني القاضي أبو الحسن علي بن محمد بن إسماعيل بن أبي زرعة قال صافحني أبو منصور عبد الرحمن بن عبد الله البزار قال صافحني أبو محمد عبد الملك بن محمد بن نجيد بن عبد الكريم البغوي بها قال صافحني أبو القاسم عيدان بن حميد بن عبدان المنجي قال صافحني عمر ابن سعيد بن سنان المنجي قال صافحني أحمد بن دهان.

(انظر تتمة السند فوقه) - الفهرسة ص 138 خ.ع 1234 ك.

6) فهرسة ابن يعيش.

7) فهرسة الإمام الحافظ أبي زيد السيوطي.

8) فهرسة شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني.

9) فهرسة أبي عبد الله القصار.

10) فهرسة أبي عبد الله الجنان الأندلسي.

وكل هذه الفهرسات يرويها عن سيدي عبد الله بن علي بن طاهر الحسني بطريق شيخه المرغيثي إلا فهرسة الجنان لأن المرغيثي يرويها عن مؤلفها بلا واسطة كما يروي فهرسة ابن غازي والمنثوري وابن الزبير عن شيخه أبي محمد عبد القادر الفاسي، عن عمه العارف أبي زيد عبد الرحمن الفاسي، والشيخ أبي عبد الله محمد العربي الفاسي، وأبي العباس المقري وأبي عبد الله الجنان وأبي محمد عبد الواحد بن عاشر.

وكما تلقى اليوسي الحديث الشريف عن رجاله رواية وإجازة، تلقاه منه طلاب هذا العلم، ورغبوا في أسانيده العالية. فالشيخ محمد بن الحسن البناني يروي صحيح البخاري عن شيخه أبي عبد الله سيدي محمد بن عبد السلام البناني عن الشيخ أبي علي اليوسي[52].

والشيخ التاودي بن سودة يروي الموطأ عن شيخه أبي عبد الله محمد بن عبد السلام بناني الناصري عن الإمام الشهير ذي القدر الخطير وارث معارف الطوسي أبي علي الحسن اليوسي،[53] وهكذا.

---

52) المجموع المخطوط رقم 1388 ك خ.ع ص 185.

53) يقول الشيخ التاودي بن سودة في فهرسته (رويت الموطأ عن شيخنا الإمام الأوحد الهمام أبي عبد الله محمد بن عبد السلام بناني الناصري وهو يروي عن شيوخ ثلاثة الأول الإمام المحدث العارف بالله ملين القلب القاسي أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي وثانيهم الإمام الشهير ذو القدر الخطير وارث معارف الطوسي أبو علي الحسن اليوسي=

ومع هذا كله فقد لاحظ «المسناوي» أن أستاذه اليوسي «لم يكن له كبير اعتناء بالرواية، وإنما كان الغالب عليه الدراية[54] ولعل مراده والله أعلم هو أن اليوسي كان إذا ذكر الحديث لا يذكر سنده في الغالب فيأتي بالمتن ويبحث فيه من المعنى وما يستنبط منه من أحكام وما يوجد فيه من شواهد ولا يلتفت كثيرا إلى ذكر الطرق التي يروى بها ذلك الحديث وإلى أوصافه من حيث السند، وليس في هذا ما يغض من شخصية اليوسي المحدث ما دام الثابت هو أن اليوسي عالم بالرواية متمسك بأسبابها واصل حبله بأعلامها وعدم اهتباله بذكر الأسانيد مرجعه إلى ما كان عليه غالب علماء الوقت بالمغرب من قلة اعتناء بذكر السندِ قال شيخه سيدي محمد ابن ناصر الدرعي ما كنا نعتني بذلك (يعني ذكر السند) وقد قضيت العجب من المشارقة واعتنائهم بمثل هذا حتى إنه لما دخلت مصر كان كل من يأخذ عني عهد الشاذلية يكتب الورد والرواية والزمان والمكان الواقع فيه ذلك.

على أن القول بأن اليوسي إنما غلبت عليه الدراية ولم يكن له كبير اعتناء بالرواية أجدر بأن يزيد مكانته علوا على المشهور من قول السلف: (همة العلماء دراية وهمة السفهاء رواية).

= وثالثهم الشيخ الخاشع أبو الفضل سيدي أحمد بن الحاج ثلاثهم عن والد الأول من عليه في علم الحقيقة والشريعة المعول سيدي عبد القادر المذكور عن الإمام النظار أبي عبد الله القصار عن الإمام أبي عبد الله خروف التونسي عن سقين عن شيخ الإسلام زكرياء عن أبي الفرات عن ابن جماعة عن ابن الزبير عن ابن خليل عن ابن رزقون عن الخلواني عن الطلمنكي عن أبي عيسى عبد الله بن يحي عن أبيه يحي الليثي عن الإمام مالك رحمه الله (فهرسة الشيخ التاودي بن سودة الورقة 2 المخطوطة رقم 725).

54) من إجازة المسناوي.

ومن خلال قراءتنا لما كتبه اليوسي في فصول متفرقة في الحديث نجده يميل إلى شرح الحديث بالمعقول وكثيرا ما تكون له تخريجات عن التفات إلى أسرار الحديث والتوفيق بينها وبين ظاهر النص والجمع بين الحكمة والشريعة ومن أمثلة ذلك ما جاء في شرحه لحديث (لا عدوى ولا طيرة) وحديث (اطلبوا الخير عند حسان الوجوه) وحديث (من رآني فقد رآني[55]) ومنها ما جاء في رد اليوسي على أبي مروان عبد المالك التجموعتي في قضية علم النبي وقوله ﷺ : «أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس» وغيره من الأحاديث الواردة في علمه عليه الصلاة والسلام فقد ذهب (التجموعتي) إلى أن النبي ﷺ لم يقبضه الله إليه حتى آتاه علم كل شيء واستدل على ذلك بجملة من الأحاديث وأقوال العلماء مشايعا من ذهب هذا المذهب من الطلبة وذكر الخلاف في الخمس التي استأثر الله بها ثم صحح أنه علمها أيضا فكان بذلك قد علم كل شيء.

هذا ملخص قول القاضي عبد الملك التجموعتي أما جواب اليوسي فملخصه ما يلي :

إن القائل بتعميم علم لابد أن يقال له ما تريد بهذا التعميم ؟ الحقيقي بحيث يكون علم النبي ﷺ على حد علم الله تعالى بلا فرق من الإحاطة بجميع الواجبات والجائزات والمستحيلات الموجودات والمعدومات الحاضرة والماضية والآتية جملة وتفصيلا أم تعميما إضافيا دون ذلك ؟ فإن أردت الأول فقد وقعت في الورطة العظمى وأشركت مع الله غيره ووقعت في نحو ما وقع فيه القائلون باتحاد اللاهوت والناسوت فإن الله تعالى كما أنه لا تشبه ذاته الذوات لا تشبه صفاته الصفات، والوحدانية نفي الكم المتصل والمنفصل في الذات والصفات، ومعلوم أن

55) المحاضرات ص 82 ـ 101.

الكم المنفصل في الصفات هو أن يكون لغير الله تعالى علم كعلمه أو قدرة كقدرته، وهو واضح. فإن أجاب بأنه يدفع التماثل المحظور بأن العلم هنا حادث وهناك قديم والعموم هنا جائز وهناك واجب، قلنا بعد تسليم ذلك : فليس كل جائز واقعا... وعلى ما فسرنا وتجد من حديث أو أثر من علم كل شيء على هذا الإجمال لا يفيد شيئا، لأن العمومات تقع حقيقية وإضافية بحسب صنف أو نوع أو جنس متوسط أو سافل. وقد قال تعالى في حق نبيه موسى عليه الصلاة والسلام (وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء) ثم قال بعد ذلك (عبد لنا بمجمع البحرين هو أعلم منك) وقال في كتابنا نبينا ﷺ (ما فرطنا في الكتاب من شيء) وقال (تبيانا لكل شيء) ثم قال (وقل رب زدني علما) ومن الدليل عقلا على ما ذكرنا أن يقال : علم الحادث حادث متعلق القدرة الأزلية، ومعلوم أن المقدورات لا تتناهى لاستحالة التخصيص لا بالأعداد ولا بالأزمان، فالعلوم الحادثة لا تتناهى ولو علم كل شيء على مافسرناه تناهت بحيث لا يمكن خلق علم آخر وراء ما علم ضرورة بطلان تحصيل الحاصل فيلزم التحصيل والعجز وهو باطل.

وأما النقل فكثير كقوله تعالى : ﴿**ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء**﴾ أي لا يعلمون من المعلومات الا ما شاء أن يعلموه، وهذا عام، ومن ادعى التخصيص فعليه الدليل وقوله تعالى : ﴿**فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين**﴾ فهذا القدر من النعيم حكمت الآية أنه لم تطلع عليه نفس من النفوس على العموم. وقوله تعالى : ﴿**وقل رب زدني علما**﴾ فالزيادة ممكنة أبدا، وما يزاد لم يعلم قبل. وقال ﷺ في نفسه يوم الناقة (لا أعلم إلا ما علمني ربي) وهو إن احتمل العموم نظرا إلى العبارة مع التعامي عن الفحوى والسياق فمع الاحتمال يصار إلى

الأصل وهو عدم الحصول وذلك ما قلناه وفي حديث آخر (كل يوم لا أزداد فيه علما لا بورك لي في شمس ذلك اليوم)... إلى غير ذلك من الأدلة.

وان أراد الثاني فيقول : ما تريد بهذا البعض الذي عممته ؟ فان أردت بعضا مبهما فقد قلبت الجزئية كلية وناهيك بذلك غلطا، وان أردت بعضا مخصوصا، بينه ليستفاد الحكم على الكلية بحسبه وقل مثلا : يعلم كل شيء من الشرعيات أو من العقليات أو من العاديات أو من الحكميات ليعلم الحكم ويحصل له فائدة، والا فكلام مجهول[56].

هذا ملخص المناقشة والذي نطمئن إليه في قضية علم النبي هو ما ذهب إليه اليوسي رحمه الله ومن ذهبوا إلى عكسه فليس لجهل أو قصور وإنما لفرط المحبة في الرسول الكريم، وهيمنة روحه الشريفة على عقولهم ونفوسهم الشيء الذي أوهمهم أن القول بأنه لم يعلم كل شيء، فيه سوء أدب معه عليه الصلاة والسلام فكاد يورطهم ذلك فيما فيه سوء أدب مع الخالق عز وجل.

وهذه الخصومة حول قضية علم النبي لا تعنينا هنا إلا من حيث بيان طريقة اليوسي في فهم الحديث وشرحه ولعلها أصبحت واضحة فلننتقل إلى دراسة جانب آخر من جوانب شخصيته.

☆ ☆ ☆

اليوسي الصوفي : استعرضنا فيما مضى جوانب من شخصية اليوسي العلمية، ويظهر اليوسي من خلالها خلقا أصيلا للسلف الصالح من العلماء الذين حملوا لواء العلم والفكر في دولة الإسلام.

---

56) المجموع المخطوط رقم 1418 ك ورقة 191. خ.ع.

وهناك وجه آخر لشخصية اليوسي يبدو فيه طيفا لطيفا من عالم آخر : إنها شخصية الصوفي شخصية تمتاز بالبساطة والإيمان التام بالكرامات والثقة بأصحاب الأحوال والتسليم الكامل لأولياء الله الصالحين، مع التزام الأدب في الحديث معهم والتحدث عنهم. ومع الرجاء والخوف والتقرب والتحبب. ونحن ذاكرون أمثلة على ذلك.

أ - من ذلك مثلا أننا لو سألناه أن يرشدنا إلى ما يعيننا على الحفظ والفهم لأجاب في يسر وبساطة ويقين : (إن مما يعين بإذن الله على الحفظ والفهم وكل فلاح زيارة الصالحين ولا سيما من ظهر النفع على يده، كالشيخ أبي يعزى والشيخ أبي العباس السبتي والشيخ عبد السلام بن مشيش والشيخ أبي مدين في بلاد المغرب، والشيخ يوسف بن عمرو والفقيه أبي جيدة في مدينة فاس)[57].

ب : ومن ذلك أيضا أن زوجته تراخت عنها الولادة : (فدخلها من ذلك غم عظيم ورأت فيما يرى النائم أنها ذهبت إلى مقام سيدي علي الفجاتي فوجدته جالسا وحوله عين يرشح منها ماء قليل، فقالت له : يا سيدي جئت إليك عطشى رجاء أن أشرب أفأرجع كما جئت ؟ فقال الشيخ : «لا انبشي يخرج الماء» فنبشت بيدها فخرج الماء وشربت حتى رويت وفي الصباح حكت ذلك لزوجها وطلبت منه زيارة الشيخ وأن يطعما عنده طعاما. قال اليوسي (ففعلنا فولدنا ولدنا محمد الكبير)[58].

جـ : وكانت لليوسي بنية عجزت عن النهوض وهي في سن من يمشي : فأرسلها إلى سيدي علي الفجاتي قال : (فقامت بالفور على رجليها تمشي)[59].

---

57) القانون لليوسي ص 310 خ.ع 2382.

58) المحاضرات ص 61.

59) المحاضرات ص 61.

د : ومن ذلك أن اليوسي كان متوجها صحبة سيدي علي المراكشي إلى درعة لزيارة شيخه سيدي محمد بن ناصر. فأخذ سيدي علي المراكشي يطلب من أبي علي اليوسي أن يرافقه في زياره الشيخ سيدي علي بن عبد الرحمن، لكن اليوسي أشفق على نفسه وعلى رفيقه وامتنع، ذاكرا أن للشيخ قوة لا طاقة لهما بها، وأخيرا لم يسعه إلا إسعاف رفيقه مشيرا عليه بأن يمسك لسانه في حضرة الشيخ. فلما وصلا إليه وجليسا بين يديه تكلم سيدي علي المراكشي مع الشيخ في مسائل فأجابه الشيخ عنها، وسيدي الحسن اليوسي يشير لصاحبه أن اسكت فأبى وقال للشيخ الولي : يا سيدي إنا لنرى بعض الناس يقولون بهم حال وما أدركنا ذلك فأردت أن تكشف لي عن ذلك حتى أراه، فقال له الشيخ : يا سيدي علي، لا تطيق ذلك فقال : لا بد يا سيدي من ذلك. فقال له الشيخ : ادن مني. فدنا منه. فكلم في أذنه شيئا خفيفا فمازال فمه من أذنه حتى أخذه حال لم يملك معها نفسه حتى رمى بثيابه وعمامته، أما أبو علي اليوسي فقد ارتمى على الشيخ سيدي علي بن عبد الرحمن يتشفع ويطلب منه أن يرد على رفيقه حاله الأولى فقبل وتكلم له في أذنه كالأول فسكن حاله[60].

هـ : ومما وقع له بسجلماسة، أنه سمع برجل قد ظهر في المدينة، وأن الناس يقولون إنه من الأولياء أو أنه صاحب الوقت فخرج لرؤيته فيمن خرج فوجده قد اجتمع عليه خلق كثيرمن كل ناحية ولما اشتد عليه الزحام وتعذرت رؤيته، دخل قبة هناك في المقابر فأخرج كفه من طاق القبة فجعل الناس يقبلون الكف وينصرفون، وكان كل من قبل اكتفى ورأى أنه قضى الحاجة. قال اليوسي (فقبلناه وانصرفنا)[61].

---

60) دوحة البستان ص 185.

61) المحاضرات ص 38.

هذا جانب مهم من شخصية اليوسي يحتاج إلى دراسة خاصة تنبني على تحليل كامل لحياته وعصره ونفسيته وثقافته وعلى قراءة فاحصة تشمل كل آثاره وأهم مرجع في هذا الباب هو كتابه (المحاضرات) الذي أودع اليوسي فيه أفكاره الصوفية وعقد فيه فصولا طريفة ضمنها رأيه في أصحاب الطرق الصادقين منهم والمدعين، وحدد موقفه تجاه ما كان يسود عصره من كرامات وتيارات اجتماعية وفكرية وروحية.

ويبدو لي أن أهم العوامل في تكوين هذه الشخصية الصوفية هي :

أولا : البيئة الأولى التي نشأ اليوسي فيها، كانت تسبح في بحر من الروحانيات : فأبوه كان يعبر الرؤيا فتاتي كفلق الصبح، وأمه من نساء البادية اللائي يفسرن واقعهن بأحلامهن، والقرية حالها حال سائر القرى المغربية في ذلك الوقت قد تأثرت بما انتشر في الحواضر من الطرق وأصبحت من (زريبة) هذا الشيخ أو ذاك تتشيع لهذا الولي أو ذلك القطب... لا سيما وأن نشاط أرباب الطرق كان قويا في هذا العصر وكانت البوادي تمثل بالنسبة إليهم موردا أساسيا للأموال أو ما يسمى (بالزيارات) ولذلك كانوا لا يدخرون وسعا في نشر نفوذهم عليها.

ثانيا : قراءته في الصغر لكتابي (المورد العذب، وبحر الدموع) للجوزي فكان أثرهما بعيدا في نفسية اليوسي لما فيهما من حكايات الصالحين، كأويس القرني وابراهيم بن أدهم، وابراهيم الخواص وغيرهم. واليوسي نفسه يعترف لما لهذين الكتابين من إسهام في تحبيب الطرقية إليه ويقول : «فكان ذلك بذرا لما أنعم الله تعالى به من الإيمان بالطريقة ومحبة أهلها والتسليم لهم»[62].

62) فهرسة اليوسي ص 130 ـ 131.

ثالثا : اتصاله بشيخ من كبار شيوخ الطرق، وعلم من أعلام الصوفية، وولي من أولياء الله الصالحين، وإمام من أئمة الدين وهو الشيخ (سيدي محمد بن ناصر الدرعي) الذي يعد الأستاذ الأول لليوسي في علوم الظاهر والباطن. وقد ذكر اليوسي في مواضع كثيرة من كتبه أنه إلى هذا الشيخ ينتسب في الطريقة وعليه يعول في علوم الحقيقة، فإذا علمنا أن اتصاله بهذا الشيخ كان منذ بلوغه السادسة عشرة من عمره، وأن الروابط استمرت بعد ذلك سنين طويلة أدركنا ماكان لسيدي محمد بن ناصر الدرعي من هيمنة على روح اليوسي وقلبه.

رابعا : التحاقه بالزاوية الدلائية وقضاؤه زهاء عشرين سنة في رحابها، يتنفس ذلك الهواء الصوفي المفعم بالعلم والإيمان والكرامات.

خامسا : أن العصر كان من العصور التي ازدهرت فيها الصوفية بالمغرب ازدهارا لم تعرفه من قبل كما أن الطرق تعددت وأصبح لبعضها شوكة فهناك الزاوية الدلائية والناصرية والحمزوية والفاسية والقادرية وغيرها... بالإضافة إلى عدد لا يحصى من الطرق الزائفة التي أنشأها أصحابها لخداع العوام واستغلال ثقتهم وكسب الأموال الطائلة عن طريق ادعاء الولاية وافتعال الخوارق. قال اليوسي : (وأما ما نحن فيه من ادعاء الاطلاع على الغيب والتظاهر بالكشف والتصرف في الوجود فهو الكثير في زماننا وهؤلاء عنده من جملة الشاطحين المترقصين المتلاعبين الذين لا يرجعون إلى أصل صحيح ولا ظاهر مستقيم يرفضون المعاملات الشرعية ويدعون الخصوصية)[63].

ومن الأمثلة على الثقة التي كانت للناس في أشياخ الطرق ما حكي عن بعضهم أنه سمع من سيدي عبد الله بن حسون دفين سلا أن من مس

---

63) وصية اليوسي المجموع المخطوط رقم 612 جـ خ.ع ص 987.

لحمه لا تمسه النار، وكان سيدي عبد الله يكتب (الحروز) فكان إذا مد إليه أحد كاغدا تلقاه أحد أتباعه وناوله الشيخ وقبل يده، فإذا كتبه أخذه منه وقبل يده، فيحصل له في كل حرز تقبيلتان[64].

سادسا : ثقافة اليوسي نفسه : فقد كان شديد الاهتمام بعلم التصوف وسيرة الأولياء وأحوالهم ومزاراتهم حتى إنه اكتشف مدافن لبعض الصالحين لم تكن معروفة من قبل[65] هذه أهم العوامل التي نراها أسهمت في خلق شخصيته الصوفية، وقد تطور تفكيره الصوفي وبلغ ذروته في السنين الأخيرة من عمره فاتخذ لنفسه زاوية وأخذ يعلم الناس الأوراد وقبل تأسيسها لم يخرج عن الطريقة الناصرية بل بقي متمسكا بها معدودا من رجالها معلما لأورادها وفيا لشيخها ومؤسسها سيدي محمد بن ناصر الدرعي.

وليس بين أيدينا نصوص تصف لنا الزاوية اليوسية إلا ما كان من هذه الفقرة الواردة في إحدى رسائله إلى المولى إسماعيل : (ونزلت في الشعب الذي كنت فيه، وبنيت دويرات بغير مؤنة واتسعت وجعلت لنفسي موضعا وبابا لا أرى فيه قط امرأة من غير عيالي وبنيت بيتا ملتصقا بالمسجد فإن رأيت في الخارج خلطة لا تعجبني نفرت لهم فأقاموا الصلاة وصليت معهم وأنا أسمع قراءة الإمام وأبقى على ذلك إن شئت الشهر والشهرين لا أرى أحدا ولا يراني أحد، أنظر في كتبي حتى تقام الصلاة ولا يضيع علي شيء من أوقاتي (...) وجاءت الطلبة وكنا ندرس العلم لله لا يتشوق أحد منا لمراتب ولا يرائي أحدنا أحدا[66].

---

64) المحاضرات ص 64.

65) رسالته إلى المولى إسماعيل خ.ع 849 جـ مخطوطة.

66) طبقات الحضيكي خ.ع 2328 ك.

وكانت للزاوية اليوسية موارد، منها الصدقات أو (الفتوح) التي كان الأتباع يقدمونها، ومنها ما تغله البساتين والأملاك التي اشتريت بمال الزاوية.

ونلاحظ أن اليوسي كان له أسلوب عجيب في ترغيب الناس في العطاء وحملهم على تمويل الزاوية. من ذلك ما جاء في إحدى رسائله : (من لم يعط فإنما حرم نفسه من الخير وما ضرنا) والزاوية بالله قامت من حيث شاء لا بعطاء فلان مخصوص وإنما علينا حقه أن ننبهه لئلا يفوته الخير) ومن ذلك قوله أيضا : (فكل من أتى بصدقة لشيخه أو إلى أخ من إخوانه فلابد أن يكون عنده أفضل ممن لم يأت بذلك من وجوه.

الأول أنه أفضل شرعا.

الثاني أنه وافق على الخير.

الثالث أنه فعل طاعة.

الرابع أنه تشبه بأهل الخير.

الخامس أنه أعان على الخير.

السادس أنه تطهر من بعض النجاسة فان الدنيا كلها نجاسة.

السابع أنه حصل له بعض الزهد في الدنيا ولو بالقدر الذي أعطى، فانه لو لم يزهد فيه لم يعطه.

الثامن أنه في دفعه للدنيا دليل على أن ما يطلب من الدنيا أحب إليه منها بخلاف المسيك.

التاسع أن ذلك أيضا دليل على أنه يحب شيخه وأخاه وما جزاء المحب إلا أن يحب.

العاشر أنه أتى البيوت من أبوابها، فإن هذا باب الفتح والنجح إلى غير ذلك من الوجوه...

ثم المبذول له يقوم بحق الباذل في الدعاء وغيره، أكثر ممن لم يبذل ولا إنكار عليه في ذلك بل هو حق عليه).[67]

على أنه ينبغي أن لا يذهب بنا سوء الظن إلى أن الوكد من تأسيس اليوسي لزاويته هو جمع هذه الصدقات أو الطمع في تلك الأموال فإن علم اليوسي ومروءته يربآن به أن ينحدر إلى هذا الدون.

إنما هذه الأموال رصيد يستعان به على الخير المقصود من إنشاء الزاوية ولا شيء يظهر الدور الديني والخلقي والاجتماعي الذي كانت الزاوية تقوم به، أكثر من تلك الشروط التي كانت تشترط على كل من يريد الالتحاق بها والانتظام في سلك مريديها.

وأول شرط هو أن يصحح المبتدئ عقيدته باعتقاد الحق على طريقة الشيخ أبي الحسن على بن إسماعيل الأشعري إمام أهل السنة.

ثانيا : أن يشتغل بالتوبة فيصححها بأركانها وهي أربعة : الأول الإقلاع، الثاني : الندم، الثالث : العزم على عدم العود إلى المخالفة، الرابع : رد المظالم.

ثالثا : الاجتهاد في طاعة الله مع التزام التقوى.

رابعا : فإن كانت همته إنما هي في العبادة وطلب الجنة فله فيما يسمع من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وفتاوي أهل الدين ومواعظهم الكفاية فيما يفعل ويترك وإن نزعت به الهمة إلى طلب معرفة الله والوصول إليه فهو محتاج غالبا إلى التربية عل يد الشيخ.

خامسا : الرجوع إلى الله بالافتقار والاضطرار، والاحتكام إليه والوقوف ببابه.

---

67) الورقة 53 من المجموع 612 جـ خ.ع.

سادسا : الحذر من صحبة الشاطحين المترقصين المتلاعبين الذين لا يرجعون إلى أصل صحيح ولا ظاهر مستقيم، يرفضون المعاملات الشرعية ويدعون منازل الخصوصية.

سابعا : الطريق كله مبني على العلم ثم العمل ثم الفتوحات والمواهب من الله تعالى.

ثامنا : الشيخ ليست في يده جنة ولا نار، ولا دنيا ولا آخرة. بل هو عبد مملوك كسائر العباد وإنما في يده الإرشاد إلى الله بالتربية والهمة وهو بمنزلة الدليل للرفقة والخفير لها.[68] أما الأوراد التي كان اليوسي يلقنها للمريدين فليس بين أيدينا منها شيء[69] ولكننا نظن أنها لا تختلف عن الأوراد التي تلقاها من شيخه سيدي محمد بن ناصر الدرعي وإن كان الأستاذ محمد حجي يجزم في رسالته أن الشيخ الدرعي لم تكن له أوراد معينة يلقنها لجميع مريديه وأنه إنما كان يراعي حالة المريدين ويسلك بهم سبيل التدرج في الأذكار.

ومع أن اليوسي قضى بالزاوية الدلائية زهاء عشرين سنة من عمره إلا أنه استمر على طريقة شيخه ابن ناصر الدرعي إلى أن أنشأ زاويته اليوسية كما أنه بقي مدة طويلة بعد تخرجه من الزاوية الدلائية يلقن أوراد الشيخ ابن ناصر.

---

68) هذه الشروط مأخوذة من وصية اليوسي الموجودة بالمجموع رقم 612 جـ ص 7 ـ 8 ـ 9 خ.ع.

69) اللهم ما جاء في رحلة الهشتوكي : وجدت في ظهر الكتاب لشيخنا الإمام أبي علي سيدي الحسن اليوسي ما صورته اللهم صل صلاة كاملة وسلم سلاما تاما على نبي تحل به العقد وتنفرج به الكرب وتقضى به الحوائج وتنال به الرغائب وحسن الخواتم ويستسقى الغمام بوجهه وعلى آله وصحبه تقرأ أربعة آلاف بعد ركعتين في أي وقت كان والله الموفق.
اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاة تحل بها عقدتي وتفرج بها كربتي وتقضي بها حاجتي تقرأ ألفا في جوف الليل بعد صلاة ركعتين الرحلة ص 181 ق 147.

على أن نشاط الزاوية اليوسية لم يقف عند تلقين الأوراد وتربية المريدين وإنما امتد إلى تدريس العلوم فبين أيدينا نصوص تشير إلى أن طلبة العلم كانوا يقصدون الزاوية للدراسة كما أن وصية اليوسي تشير إلى وجود خزانة للكتب جعلهااليوسي من أوقاف الزاوية لمساعدة من يطلب العلم بها بل إننا نرجح أن تدريس العلوم كان مقدما على التربية لما نعلمه من طبع اليوسي وميوله.

ويمكننا القول بأن البساطة وموافقة السنة هما الطابعان اللذان كانا يطبعان نشاط هذه الزاوية فلم يكن بها رقص ولا تسميع ولا شيء من هذه البدع التي تتخبط فيها زوايا غيرها. وهذا راجع إلى شخصية اليوسي من جهة وإلى الوسط البدوي البسيط الذي أنشئت فيه الزاوية من جهة أخرى.

ولا نختم هذا الفصل قبل أن ننوه بميزة من أهم المزايا التي طبعت شخصية اليوسي ومن أول شروط العلم وأنبل صفات العلماء وهي الجهر بالحق والتزام الصراحة والصدق وإخلاص النصيحة لعامة المسلمين وخاصتهم دون خوف إلا من الخالق ومن شاء فليقرأ رسائله إلى المولى إسماعيل وإلى غيره وليقرأ فتاويه وسائر آثاره فسيرى من الصراحة وشجاعة القلب وثبات العقيدة ما يثبت فؤاده.

ومن ذلك مثلا أن «اليوسي» كان يعتقد أن على السلطان أن يضمن حقوق الأمة إذا أراد أن يقضي على الثورات أو العصيان، وأن القضاء علىالفساد وقطع الطرق رهين بالسياسة الاجتماعية والاقتصادية التي تمارسها الدولة. وقد وجه «اليوسي» رسالة في هذا المعنى إلى المولى إسماعيل قرر فيها أن للأمة على السلطان حقوقا كثيرة وأن من واجب العلماء تنبيهه إليها ليلا يعتذر بعدم الاطلاع والغفلة، وحصر اليوسي أهم هذه الحقوق في ثلاثة فقال في رسالته :

«إن على السلطان حقوقا كثيرة لا تفي بها البطاقة ولنقتصر منها على ثلاثة هي أمهاتها :

الأول : جمع المال من حق وتفريقه في حق.

الثاني : إقامة الجهاد لإعلاء كلمة الله، وفي معناه تعمير الثغور بما تحتاج إليه من عدد وعدة.

الثالث : الانتصاف من الظالم للمظلوم، وفي معناه كف اليد العادية عليهم منهم ومن غيرهم.

وبصراحة نادرة وجرأة كبيرة وحرص صادق على النصح لأمير المومنين يقول اليوسي للسلطان : «وهذه الثلاثة كلها قد اختلت في دولة سيدنا فوجب علينا تنبيهه ليلا يعتذر بعدم الاطلاع والغفلة فإن تنبه وفعل فقد فاز، وذلك صلاح الوقت وصلاح أهله وسبوغ النعمة وشمول الرحمة وإلا فقد أدينا الذي علينا».

ثم يفصل اليوسي ما أجمله تفصيلا دقيقا يجعل الرسالة من الوثائق التاريخية النفيسة التي تعرض بصدق وأمانة ما كان الشعب المغربي يعاني منه من مشكلات اقتصادية واجتماعية في ذلك العصر.

يقول أبو علي اليوسي : «أما الأمر الأول فليعلم سيدنا أن المال الذي يجبى من الرعية قد أعد للمصالح التي ينتظم بها الدين وتصلح الدنيا من أهل البيت والعلماء والقضاء والأئمة والمجاهدين والأجناد والمساجد والقناطر وغير ذلك ومثل هؤلاء كأيتام لهم ديون قد عجزوا عن قبضها إلا بوكيل ومثال الرعية مثل المديان والسلطان هو الوكيل فإن استوفى الوكيل الدين بلا زيادة ولا نقصان وأداه إلى اليتامى بحسب ما يجب لكل فقد برئ من اللوم ولم تبق عليه تباعة للمديان ولا لليتيم وحصل له أجران : أجر القبض وأجر الدفع وإن هو زاد على الدين الواجب بغير

رضى المديان فهو ظالم له أو نقص اليتيم من حقه الواجب له فهو ظالم له، وكذا إن استوفى الديون وأمسكها، ولم يدفعها لأربابها فهو ظالم، فلينظر سيدنا فإن جباة مملكته قد جروا ذيول الظلم على الرعية فأكلوا اللحم وشربوا الدم وامتشوا العظم وامتصوا المخ، ولم يتركوا للناس دينا ولا دنيا، أما الدنيا فقد أخذوها، وأما الدين فقد فتنوهم عنه، وهذا شيء شهدناه لا شيء ظنناه ثم إن أرباب الحقوق قد ضاعوا ولم تصل إليهم حقوقهم فعلى السلطان أن يتفقد الجباة ويكف أيديهم عن الظلم ولا يغتر بكل ما يزين له الوقت. فإن كثيرا من الدائرين به طلاب الدنيا لا يتقون الله تعالى ولا يتحفظون من المداهنة والنفاق والكذب وفي أفضل منهم قال جده أمير المومنين مولانا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه «المغرور من غررتموه» وأن يتفقد المصالح ويبسط يد الفضل على خواص الناس من أهل الفضل والدين والخير ليكتسب محبتهم وثناءهم ونصرهم كما قيل :

أفادتكم النعماء مني ثلاثة   يدي ولساني والضمير المحجبا

وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها ولا يهملهم فيمنوا غيره ويتطلبوا دولة أخرى كما قيل :

إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ   نصيب ولاحظ تمنى زوالها
وما ذاك عن بغض لها غير أنه   يريد سواها فهو يهوى انتقالها

وأما الأمر الثاني فقد ضاع أيضا وذلك أنه لم يتأت في الوقت إلا عمارة الثغور، وسيدنا قد غفل عنها فقد ضعفت اليوم غاية، وقد حضرت بمدينة تطاوين أيام مولانا الرشيد رحمه الله فكانوا إذا سمعوا الصريخ تهتز الأرض خيلا ورماة، وقد بلغني اليوم أنهم سمعوا صريخا من جانب البحر ذات يوم فخرجوا يسعون على أرجلهم بأيديهم العصي والمقاليع، وهذا وهن

في الدين، وغرر على المسلمين وإنما جاءهم الضعف من المغارم الثقيلة، وتكليفهم الحركات وإعطاء العدة كسائر الناس، فعلى سيدنا أن يتفقد السواحل كلها من قليعة إلى ماسة، ويحرضهم على الجهاد بعد أن يحسن إليهم ويعفيهم مما يكلف به غيرهم، ويترك لهم خيلهم وعدتهم ويزيدهم ما يحتاجون إليه، فهم حماة بيضة الإسلام، ويتحرى فيمن يوليه تلك النواحي أن يكون أشد الناس رغبة في الجهاد ونجدة في المضايق وغيرة على الإسلام، ولا يولي فيها من همته ملء بطنه والاتكاء على أريكته والله الموفق.

وأما الأمر الثالث فقد اختل أيضا لأن المنتصبين للانتصاف بين الناس في البلدان، وهم العمال وخدامهم هم المشتغلون بظلم الناس، فكيف يزيل الظلم من يفعله ؟ ومن ذهب يشتكي سبقوه إلى الباب فزادوا عليه فلا يقدر أحد أن يشتكي فليتق الله سيدنا، وليتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب وليجهد في العدل فإنه قوام الملك وصلاح الدين والدنيا.(70)

---

70) توجد الرسالة في الجزء السابع من الاستقصا ص 84، وينقل الناصري اعتذار اكنسوس على المولى إسماعيل ورده على اليوسي فيقول : «قال أبو عبد الله الكنسوس : «وكان المولى إسماعيل رحمه الله ارتكب أخف الضررين وأدنى المفسدتين في إضعاف قبائل المسلمين بسلب الخيل والسلاح مع أن المطلوب هو تقويتهم بذلك لمقابلة العدو الكافر... ورأى المولى إسماعيل أنه لما أعد ذلك العسكر القوي الشديد (يشير إلى جيش العبيد) قام عن المسلمين بواجب وكفاهم كل مؤنة وأراحهم من كلفة القيام بالخيل والسلاح، مع أن الفساد الذي ظهر منهم عند ملك الخيل والسلاح أعظم، وذلك بقطع الطرقات ونهب الأموال وخلع اليد من الطاعة. قال وهذا القدر الذي اعتذرنا به عن السلطان ظاهر غاية الظهور، ولعله خفي على الشيخ اليوسي حتى كتب إليه برسالته المشهورة «الاستقصا ج 7 ص 81.

وهذه الرسالة كما نرى ذات أهمية كبيرة من وجوه :

الأول : من حيث تصويرها للسياسة الداخلية والأوضاع الاجتماعية بالمغرب في عصر اليوسي.

الثاني : دلالتها الواضحة على ما يتمتع به اليوسي من غيرة وطنية وضمير اجتماعي حي وعلى تتبعه لأحداث عصره وإسهامه في حل مشكلات وطنه وجرأته النادرة في تبليغ صوت الأمة إلى المسؤولين.

الثالث : علو همة المولى إسماعيل وسمو أخلاقه الملوكية وحرصه على سماع النصيحة الصادقة وهذا دأبه مع سائر العلماء.

نعم إن صراحة اليوسي سببت له في شيء غير قليل من الإزعاج والتغريب وكان من وراء ذلك حاشية السلطان بوشاياتها وسعايتها ولكن اليوسي بقي محفوظ المكانة عند السلطان، وبقي هو وفيا مخلصا له

= ويعلق الناصري على اعتذار أكنسوس بما يلي : «قلت ما فعله السلطان المولى إسماعيل رحمه الله من ذلك ظاهر المصلحة لا يخفى على أحد وجه استحسانه، ولا يتوهم عاقل أن أهل فازاز ومن في معناهم يتخذون الخيل والسلاح للجهاد يوما ما فلا يحتاج السلطان رحمه الله في مثل ذلك إلى الاعتذار، وقوله إن ذلك الاعتذار خفي على اليوسي ليس على ما ينبغي لأن الشيخ اليوسي رحمه الله ما تكلم مع السلطان في أمر أولئك القبائل ومن في معناهم وإنما كلامه معه في أمور ثلاثة : الأول في جباية المال من وجهه وصرفه في وجهه، الثاني في إقامة رسم الجهاد وشحن الثغور كلها بالمقاتلة والسلاح، الثالث في الانتصاف من الظالم للمظلوم وكف اليد العادية عن الرعية» الاستقصا ج 7 ص 81 ـ 82.

والذي يظهر مما نقلناه من رسالة اليوسي أنه تكلم مع السلطان في أمر إضعاف قبائل المسلمين بسلب الخيل والسلاح خلافا لما ذهب إليه الناصري. ومما يسند وجهة نظر اليوسي أن القضاء على الفساد وقطع الطرق رهين بالسياسة الاجتماعية والاقتصادية التي تمارسها الدولة فما دام الظلم قائما والأموال تجبى من غير وجهها وتصرف في غير وجهها والمغارم تفرض لتجهيز حروب داخلية مع الغفلة عن جهاد الكفار إلا ويبقى الفساد وقطع الطرق.

صامدا في مواقفه القائمة على ما يجب للسلطان شرعا من النصيحة والصدق والطاعة والإخلاص. وفي نفس الوقت لا يخفي استياءه مما كان يتعرض له من مضايقة.

ونسوق كمثال على ذلك هذه الفقرة من إحدى رسائله الغاضبة إلى السلطان :

يقول اليوسي : وأما قول الكتاب :

يعني كتاب المولى إسماعيل إليه ـ نحن بالله وبشريعة الله معك، أقول: أنا الذي أقول هذا وأطلبه لو أجده وأما السلطان ففي يده اليوم الشريعة وغيرها فما شاء فعل في وفي غيري شرعا كان أو غيره إن سبق به القضاء، وأما لو وجدت شريعة لم احتج إلى شيء من هذا الكلام فوالله ما أعلم أمرا أتيته ثابتا عند السلطان مثلا فيطالبني بإقامته علي ولا جناية على أحد في مال ولا في نفس ولا أنا عبد آبق ولارام ولا فارس هربت براتب السلطان ولا عامل فبقي علي حساب الجناية ففي أي شيء يطالبني السلطان بشريعة الله ؟ أما كون علمي حجة لي أو علي عند الله تعالى فالأمر إلى الله تعالى، والتعليم اشتغلت به جهد طاقتي ولو لم أشتغل به أصلا لم أقبض فيه لأنه كفاية لا فرض عين فأي شيء ثبت علي شرعا معشر المسلمين حتى أطالب فيه، وقد اعترفت على نفسي بطاعة السلطان وجعلت يدي مع أمير المسلمين لم أنازع ولم أخالف ولم أحارب ولم أخلط وهذا القدر المطلوب من الطاعة أما ما خرج عن ذلك كخروج أحد عن داره أو بلده أو نزوله بلدا أو لزومه جهة أو انتقاله من موضع إلى موضع فلا مدخل له في الطاعة لأن السلطان خليفة الله في الأرض فليس له أن يكلف العباد إلا بما كلفهم الله تعالى.[71]

---

71) جوابه على رسالة للمولى إسماعيل 849 ج خ.ع.

كان اليوسي صريحا صادقا ولم تكن الدنيا بزينتها ومتاعها لتشغل فكره أو تملأ قلبه لأنه كان منصرفا بكليته إلى طلب العلم وخدمته ونشره وكانت سعادته لا تكمل إلا حين يكون بين كتبه وكانت غبطته لا تتم إلا عند ما لا يضيع عليه وقت من أوقات صلاته، ولم يكن يحب من طلبته إلا من كان يطلب العلم مخلصا ويعبد الله صادقا لا يتشوف إلى العطايا ولا إلى المراتب والمناصب حتى إذا امتحن هؤلاء الطلبة بالمال أو بالمناصب فانخدع بعضهم وغادر مجلس العلم، فرح اليوسي بذهابه وعد ذلك تطهيرا لمجلسه من أهل الدنيا وغرورها فلا نعجب إذا رأينا اليوسي جهورا بالحق آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر لا تأخذه في الله لومة لائم وتلك هي أخلاق العلماء وأوصاف الأئمة الفضلاء.

المبحث الثالث

آثار اليوسي

لم ينقطع تدوين العلم في عصر من عصور الإسلام، بل استمرت الكتابة والتصنيف من عهد رسول الله ﷺ إلى اليوم، فقد كان عبد الله بن عمر يكتب كل شيء يسمعه من رسول الله ﷺ يريد حفظه. وقال هشام بن عروة بن الزبير : أحرق أبي يوم الحرة كتب فقه كانت له فكان يقول بعد ذلك : لأن تكون عندي أحب إلي من أن يكون لي مثل أهلي ومالي.[1] ويذكر ابن سعد أيضا أن عبد الرزاق قال : سمعت معمرا قال : كنا نرى أنا قد أكثرنا عن الزهري حتى قتل الوليد، فإذا الدفاتر قد حملت على الدواب من خزائنه. يقول ـ من علم الزهري.[2] ويذكر ابن خلكان أن ابن شهاب الزهري كان إذا جلس في بيته وضع كتبه حوله فيشتغل بها عن كل شيء من أمور الدنيا، فقالت له امرأته يوما : (والله لهذه الكتب أشد علي من ثلاث ضرائر)، مما يدل على كثرة المؤلفات في ذلك العهد. ويذكرون أن أبا عمرو بن العلاء كانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتا إلى قريب من السقف، وأن زياد بن أبيه ألف كتابا في علم الأنساب... فإذا كان التدوين قد بلغ هذه الكثرة منذ العهود الأولى لدولة الإسلام فما بالنا به فيما تلا ذلك من العهود، لا سيما بعد اتساع رقعة البلاد الإسلامية

1) طبقات ابن سعد ج 5 ص 132.
2) طبقات ابن سعد ج 2 ص 136.

وكثرة الداخلين في دين الإسلام من مختلف الأمم وتمازج الثقافات وتوافر دواعي التأليف ووسائله. وأن ما كتبه المغاربة وحدهم أمثال القاضي عياض وابن العربي وأبي العباس المقري وابن عبد البر وابن عطية وابن حزم وغيرهم فضلا عما كتبه المشارقة يدل على إقبال كبير على الكتابة وتوسع عظيم في التدوين.

إلا أن هذا الاتجاه لم يسلم من اعتراض بعض الصلحاء من علماء السلف منذ العهود الأولى. ذلك أن منهم من كان يكره تدوين العلم حتى لا يتلقاه الناس من الصحف ويتركوا الشيوخ، ولذلك وقفت طائفة منهم في وجه التدوين ودعت إلى أخذ الناس بحفظ العلم في الصدور والرحلة في طلبه من المشايخ وتداوله سماعا ورواية بشروطه المعتبرة وأصوله وقواعده المحددة. ولوجهة نظرهم هذه اعتبار ووزن، لا سيا أنهم شاهدوا من واقع معاصريهم ما ينذر بضياع العلم وتحريفه على أيدي الدخلاء الطارئين الذين لا نسب لهم في العلم ولا نصيب لهم منه.

وهذا إن كان يصون العلم ويحفظه من التدليس والكذب فإنه من جهة أخرى يقلل من قيمة التدوين ويفوت علينا كثيرا من فوائده.

على أن السلف من علمائنا رضوان الله عليهم اطمأنوا أخيرا إلى ضرورة التدوين خشية أن يضيع العلم، وبه أخذت أجيال من علماء المغرب فجمعوا بين الحسنيين وحصلوا شرف المرتبتين، سواء من حيث تكوينهم أو من حيث عطاؤهم : درسوا المدونات وحفظوا الكتب الأمهات سماعا وقراءة، وعكفوا على القراطيس تدوينا وتأليفا، ولازموا الشيوخ رواية وحفظا، ورحلوا إليهم وتحملوا المشاق في سبيل اتصال السند بهم وأخذ العلم من أفواههم. وكان من نتائج ذلك أن ظهرت طبقة عالية من العلماء اضطلعت بمهمة التأليف والتدريس اضطلاع المقتدر الأمين، وملأت خزانتنا بالعطاء الخصب الأصيل

يقول أبو علي اليوسي : «كان الحفظ في الصدور شأن الأيمة الصدور ثم ذهب ذلك، على أن الحفظ إن كان أهمَّ فالكَتْب من الحزم، ولعمري لولا تقييد علوم الأولين في الدفاتر لذهبت بذهاب أهلها. على أن السخافة إن كانت في التعويل على الدفاتر فإن ذلك في حق العلوم المهمات المقررة والفنون الأصيلة المحررة، أما هذه الملح والنوادر فخلو الإنسان منها ليس فيه كبير شين، وعلى هذا فتقييدها زين». واستمر الحال على ذلك في المغرب إلى أن ضعفت همم علماء العصور المتأخرة فقلت تآليفهم ونضب معينهم واقتصروا على وضع المختصرات والشروح والحواشي، بل إن منهم من لا يعرف له تأليف ولا يذكر له بحث مع علو منزلته العلمية وتوفر الدلائل على مشاركته القوية في مختلف الفنون.

ولعل السبب في هذه الظاهرة هو تحرج هؤلاء العلماء من أمانة التأليف الصعبة، وخوف الزلل، وهو في المدوَّن أفدح مسؤولية وأبقى على الزمن من خطأ اللسان في التدريس، مما جعلهم يؤثرون النجاة ويقرون بالعجز والقصور. ومنهم من كان يؤثر الجهاد في مجال التعليم ويجد نفسه أقدر عليه منه على التأليف فمال إلى التدريس بطبيعة الحال. ومنهم من رأى فيما كتب الأقدمون ما لا مجال معه لمزيد. ومع الزمن ضعفت فيهم موهبة التأليف وخَبَتْ روح الأصالة، فكان أن اقتصر المشتغلون منهم بالتأليف على اجترار كتب سلفهم تلخيصا أو اقتباسا أو نظما وترجمة للعلماء.

وأصابت المنهج العلمي آفة الاعتبار فيه بالحفظ والاستظهار وترديد أقوال الأقدمين ترديدا آليا أصم واصبحت الحجة تقوم بالرجال لا بالحقائق. فإذا قلنا : قال السعد، أو قال السيد، أو قال الإمام لم يبق إلا التسليم. فإن لم يكن وجه التسليم ظاهرا كان تأويل الحقائق وتحريفها ليتلائم مع الأقوال. ولا مراء في أن العقل لا يتفتح في هذا الجو، ولا يمكن للبصائر أن تنظر إلى ما

وراء هذا الجدار الصلب الذي أقامه المنهج المختل أمامها، فكان أن ركن بعض المتأخرين إلى الخمول وإيثار النجاة والاكتفاء بكتب الأقدمين، وعطلوا قدرتهم على الرؤية الواضحة وعلى المقارنة والمقابلة والترجيح، فلم يستطيعوا بعد طول العناء أن يقدموا لنا عطاء أصيلاً باقياً، ومنهم من وفقه الله إلى شيء من التأليف فلم يزيد على نقل أقوال السابقين وأفكار المتقدمين.

وكما يفتك المرض ببلد وتنجو جماعة لزيادة مناعة فيها وتوفرها على قوة خاصة فشت العلة في البيئة العلمية ونجا من علمائنا نفر حملوا مشعل العلم وزينوا الخزائن بهذه الكتب التي نعتز بها ونفخر وننكب على دراستها ونسهر. ولا يعترض علينا معترض بأن علماء المغرب خضعوا لمنهج موحد وتخرجوا من نفس المدرسة، سواء من ألف منهم ومن لم يؤلف. كما لا يقال إن الحرب ليست قاتلة للإنسان، بدليل أن هناك جماعة خاضت الحرب ولم تمت، وهو فاسد طبعا.

ومن هؤلاء الذين تصدوا للتأليف واجتهدوا في التصنيف، أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي. فقد كان رحمه الله من العلماء الذين امتازوا بأصالة الفكر، وغزارة الإنتاج، وإتقان صنعة التأليف. وقبل أن نقدم آثاره لا بأس في أن نتعرف على رأيه فيما كان عليه العلماء من اختلاف الحال بين التأليف والتدريس.

قال رحمه الله : (اعلم أن العلماء قد اختلفت أحوالهم في هذا، فمنهم من استغرق زمانه في التدريس فقل تصنيفه ومنهم من بخلافه، والكل منفعة للناس. أما التدريس فنفع حاضر ينتشر به العلم في الآفاق، وأما التصنيف فنفع مدخر يوجد عند الحاجة إليه. وينبغي للعالم أن يراعي حال الوقت، فإن اتفق وجود طلبة العلم النجباء فليشتغل بهم ويودع الحكمة صدورهم، وإلا فليودع علمه بطون الأوراق ولا يبق بطالا، وإن كان التوسط فالتوسط

وهو الأخذ من كل قسم بطرف. وقد يكون شيء من العلم إن لم يجمع ضاع، فلا غنى فيه عن التصنيف. كما أنه قد يكون شيء مفروغ منه بما صنف فيه فالتصنيف فيه تكلف. وألسنة العلماء أيضا قد تختلف : فقد يكون منهم من لسانه في الكتب مثله في التدريس، وقد يكون من لسانه في الكتب أفصح، وقد يكون من هو بالعكس. فقد كان الشيخ سعد الدين التفتزاني إذا اجتمع به السيد الجرجاني في المجالس ارتفع عليه السيد فصاحة وبيانا، فلما صنفا خرج لسان السعد أفصح وأنصع. فالعلم أيضا في هذا يراعي الوقت وحال نفسه قياما بالنصح واتساما بالإنصاف).[3]

ومما يلفت النظر فيما نقلناه من كلام اليوسي قوله : (وقد يكون شيء من العلم إن لم يجمع ضاع فلا غنى فيه عن التصنيف كما أنه قال : قد يكون شيء مفروغ منه بما صنف فيه فالتصنيف فيه تكلف)، وهذا ينسجم مع ما سجلناه في الفصل السابق من كون اليوسي داعية من دعاة التجديد، بالإضافة إلى أنه ينص على فائدة عظيمة من فوائد التأليف، ويشير إلى الهدف الذي قلنا إن منهج المتأخرين عجز عن تحقيقه وهو الإبداع والابتكار والإضافة الجديدة إلى جهود السلف.

ثم إن اليوسي يذكر سببا آخر من أسباب إحجام بعض العلماء عن التأليف وهو تفضيلهم التدريس عليه، ويقف موقفا وسطا، وهو أن العالم ينبغي له أن يراعي حال الوقت وحال نفسه.

أما آثار اليوسي فكثيرة متنوعة، وقد عقدنا هذا الفصل للحديث عنها ودراستها فيما عدا آثاره الأدبية إذ لا يتعلق بحثنا باليوسي الأديب، إلا أن يكون من هذه الآثار الأدبية ما يتعلق بالفقه أو غيره من العلوم الإسلامية

3) القانون لليوسي ص 206.

أو ما يضيء لنا جانبا من جوانب شخصيته العلمية أو الإنسانية فنشير إليه أو ندرسه.

ونقدم بين يدي حديثنا ثبت مؤلفات اليوسي حسب ما وصل إليه علمنا والله يتولانا بهدايته.

	عنوان الكتاب	مكانه ورقمه
1	الفهرسة	مخطوطة بالخزانة الحسنية تحت رقم 1183، و5470 و5995. وبالخزانة العامة تحت رقم 1234 ك ضمن مجموع من (103 ـ 147) مبتورة.
2	البدور اللوامع في شرح جمع الجوامع	نسخة مبتورة الآخر في الخزانة الخاصة للأستاذ الحسن الزهراوي. عدد صفحاتها 188.
3	شرح قول خليل : وخصصت نية الحالف وقيدت.	الخزانة الحسنية. تحت رقم 6726
4	منظومة فقهية مجموع أبياتها ثمانية وأربعون ومائتا بيت	وجدنا نسختين مخطوطتين منها. الأولى تحت رقم 1164 والثانية تحت رقم 157 جـ بالخزانة العامة. وبين النسختين اختلاف في تقديم بعض الأبواب والأجزاء على بعض وكذلك في زيادة بعض الأبيات ونقصها.
5	نوازل سيدي الحسن اليوسي	مخطوطة بالخزانة العامة ضمن المجموع رقم 302 ق من (190 إلى 387).
6	فتوى اليوسي في العكاكزة	مخطوطة بالخزانة العامة ضمن المجموع رقم 1224 ك (من 167 إلى 187).

	عنوان الكتاب	مكانه ورقمه
7	فتوى اليوسي في نصارى العرائش	مخطوطة بالخزانة العامة ضمن المجموع رقم 1224 ك من (188 إلى 194).
8	فتوى اليوسي في وصل الشعر	مخطوطة بالخزانة العامة ضمن المجموع رقم 1418 ي الورقة 185.
9	أجوبة متفرقة لليوسي	ضمن المجموع رقم 612 جـ. من (44 إلى 55 والمجموع رقم 1418 ك. من (168 إلى 191) والمجموع رقم 1241 د (ص 8 ـ 9) وضمن كتاب المنزع اللطيف لابن زيدان وهو مخطوط تحت رقم 595 جـ. من (83 إلى 90) وضمن المجموع رقم 1072 د (ص 266). وكلها في الخزانة العامة.
10	رسالة في العلم النبوي	ضمن المجموع رقم 1418 ك. ووجدت نسخة منها ضمن مجموع مخطوط في ملك الأستاذ.
11	قواعد الإسلام من مضمون حديث النبي عليه السلام. وقد شرحه تلميذه الهشتوكي في كتاب فتح العلام في شرح قواعد الإسلام.	مخطوطة ضمن المجموع رقم 1164 د بالخزانة العامة.
12	حاشية على شرح كبرى السنوسي	الخزانة العامة تحت رقم 2645 ك وتقع في 402 صفحة. وبخزانة القرويين بفاس 40 ـ 837 و40. 732. وبالخزانة الحسنية 263 و1006 كما توجد بدار الكتب المصرية بالقاهرة 222 ـ 266 ـ 473 562. 1117.

	عنوان الكتاب	مكانه ورقمه
13	مشرب العام والخاص من كلمة الاخلاص أو منهج الخلاص من كلمة الاخلاص	مطبوع على الحجر بفاس عام 1327 هـ. خزانة دار الحديث الحسنية. 2730. ويقع. في 420 صفحة. وتوجد بالخزانة الحسنية نسخة مخطوطة تحت رقم 293 يرجع تاريخ نسخها إلى سنة 1118 هـ كما توجد بالخزانة العامة نسخة منها تحت رقم 35 ك.
14	شرح صغرى السنوسي	الخزانة الحسنية تحت رقم 6654.
15	الرد على القرافي في التفريق بين القديم والحديث في كلام الله	لم نعثر عليه
16	نفائس الدرر في حواشي المختصر للسنوسي في حوالي 300 صفحة.	مخطوط ضمن المجموع رقم 1072 د من الورقة 52 إلى 195. كما يوجد تحت رقم 2289 د بالخزانة العامة ويوجد في الخزانة الحسنية تحت الأرقام التالية : 1999 ـ 2758 ـ 2931 ـ 5110. وفي المكتبة الوطنية بالجزائر تحت رقم 2 و1382 وفي الوطنية بباريز 2400 وأما المختصر نفسه فيوجد في الخزانة العامة تحت رقم 2231 د.
17	القول الفصل في تمييز الخاصة عن الفصل، أو القول الفصل في الفرق بين الخاصة والفصل، أو الفرق ما بين الذاتي والعرضي ويقع في نحو ستين صفحة من الحجم الكبير	الخزانة العامة رقم 1072 د. والخزانة

	عنوان الكتاب	مكانه ورقمه
		الحسنية تحت رقم 1314.
18	شرح السلم المرونق للأخضري	لم نعثر عليه
19	القانون	خزانة القصر الملكي. 6643 جـ. و1610 و4251 وفي الخزانة العامة 2382 د و2359 د وكلها خطية وقد طبع على الحجر بفاس عام 1310 هـ
20	المحاضرات	مطبوع على الحجر بفاس عام 1317 هـ. وهناك نسخة مطبوعة في خزانة دار الحديث الحسنية تحت رقم 4736 بتحقيق سيدي أحمد بن العباس وسيدي محمد بن الطالب وسيدي عبد السلام اللجائي وتوجد نسخ خطية بالخزانة الحسنية بالرباط تحت الأرقام التالية 7404 ـ 6786 ـ 6902 ـ 6028 ـ 1697 ـ 735 ـ 1604 ـ 2031 ـ 5220 ـ 5224. كما توجد نسخ خطية أخرى بالخزانة العامة تحت رقم 1010 د و386 د و32 جـ وبالمكتبة الوطنية بالجزائر 1896
21	كناشة اليوسي. جمع فيها فوائد في التفسير	توجد نسخة خطية تقع في حوالي مائة صفحة حجم ورقها متوسط وخطها ردئ الخزانة الحسنية 5995
22	أخذ الجنة عن أشكال نعيم الجنة	اعتمدنا على نسخة خطية في ملك الأستاذ المنوني وتوجد نسخة خطية أخرى بالخزانة الحسنية رقمها 6602
23	شرح تلخيص المفتاح للقزويني	توجد نسخة خطية بالخزانة العامة لا يوجد فيها اسم المؤلف وعنوانها مواهب المفتاح

	عنوان الكتاب	مكانه ورقمه
		في شرح تلخيص المفتاح ولعلها لليوسي ورقمها 938 د
24	زهر الأكم في الأمثال والحكم يقع في إحدى وستين وستمائة صفحة.	الخزانة الحسنية 680 ـ 788 ـ 798 ـ 937 ـ 1861 ـ 2377... والخزانة 11159 د ـ 1001 د. 191 د 71 د ...والمكتبة الوطنية بالجزائر 184280 والمكتبة الوطنية بباريز 52304 وفي دار الكتب بالقاهرة 14097 14842 أدب. وكلها خطية
25	يتامى الدرر. وهو ديوان شعر لليوسي جمعه ولده محمد ورتبه على حروف المعجم. يقع في ست وستين ومائتي صفحة وبلغ فيه إلى حرف الشين	نسخة خطية بالخزانة العامة 157 جـ
26	ديوان اليوسي	نسخ خطية بالخزانة الحسنية. 6549 ـ 312 ـ 2339 وبالخزانة العامة 79 د. وقد طبع على الحجر بفاس
27	القصيدة الدالية : وهي في مدح شيخه سيدي محمد بن ناصر الدرعي عارض بها دالية البوصيري في مدح الشاذلي والمرسي :	طبعت مع شرحها في مصر عام 1291 هـ. و1309 هـ وتوجد نسخ خطية منها في الخزانة الحسنية 7393 ـ 7618 ـ 6008 ـ 968 ـ 1304 ـ 1523 ـ 897.
28	نيل الأماني في شرح التهاني... شرح فيه الدالية.	مطبوع بالاسكندرية عام 1291 والقاهرة 1329 هـ وتوجد نسخ خطية منه بالخزانة العامة 712 د ـ 345 د 1604 د. وبالخزانة الحسنية 7513 ـ 6550 ـ 5125 ـ 1102 ـ 5121 ـ 874.

	عنوان الكتاب	مكانه ورقمه
29	القصيدة الرائية في رثاء الزاوية الدلائية.	الخزانة الحسنية 5357. والخزانة العامة 163 د.
30	قصائد متفرقة لليوسي	الخزانة العامة 27755 د. و774 د. والخزانة الحسنية 916 ـ 7705
31	ندب الملوك إلى العدل والوقوف مع السنة والشرع.	رسالة مخطوطة ضمن المجموع 364 د من (212 إلى 228) الخزانة العامة
32	رسالة في واجبات المكلف	نسخة خطية بالخزانة العامة رقم 612 جـ من (21 إلى 27).
33	رسالة إلى جماعة من الإخوان	كتبها بسبب ما سمعه من التشاجر الواقع بينهم وأنهم يغضبون إذا أخذ المقدم شيئا ممن فعل ذلك، مع أن هذا الأخذ كفارة لهم ويوصيهم بالتناصح والابتعاد عن السقوط في القبيح. الخزانة العامة 612 جـ. مخطوطة الورقة 15.
34	الدلالة الواقية في الرسالة الأسفية تحدث في أولها عن (المطلوب من العبد عبادة الله تعالى وهي مجموعة من علم وعمل) ويتحدث عن علم التوحيد وعلم ما يعبد الله به ثم عن العمل ثم يوجه بعض النصائح وينظم بعضها.	مخطوطة من المجموع 612 جـ من الورقة 55 إلى 57. الخزانة العامة. وهي رسالة موجهة إلى جملة من بثغر أسفى وما حوله من الإخوان والمحبين

	عنوان الكتاب	مكانه ورقمه
35	رسالة تتضمن وصايا عامة. وجهها إلى (كافة من يقف عليها من الإخوان والمحبين وسائر المومنين)	مخطوطة ضمن المجموع 612 جـ من الورقة 1 إلى 15 بالخزانة العامة
36	وصية اليوسي لأولاده خصوصا وجميع الإخوان عموما	مخطوطة بخزانة القصر الملكي 1468 ـ 3555 ـ 1577. وبالخزانة العامة ضمن المجموع 612 جـ من الورقة 57 إلى 64
37	رسالة إلى الصوفيين الحاج علي وأبي القاسم بن معمر	مخطوطة ضمن المجموع 1138 ك من ص (32 إلى 39)
38	رسالة إلى بعض الإخوان تشتمل على نصائح دينية.	مخطوطة ضمن المجموع 612 جـ (من الورقة 42 إلى 44)
39	رسالة إلى المولى إسماعيل ينصحه ويعظه	نشرها الناصري في الاستقصا ج 7 ص 82 ـ 86 وتوجدُ مخطوطةً بالخزانة العامة 1611 د من (1 ـ 4) و1348 د من (13 إلى 36) وبالخزانة الحسنية 2998
40	رسالة جوابية إلى المولى إسماعيل	مخطوطة ضمن المجموع 849 جـ بالخزانة العامة (1 إلى 146) والمجموع 1348 د (من ص 20 إلى 66) خط مغربي جيد وورق متوسط الحجم
41	رسائل أخرى لليوسي	الخزانة الحسنية 886. 7154. 7150. 7704. 5356. 2973

وفي ما يلي تحليل ودراسة لبعض آثاره :

كتاب المحاضرات

هذا الكتاب ـ كما يدل عليه عنوانه ـ ليس له موضوع معين يعالجه، وإنما هو شتات من الأفكار والخواطر والنكات العلمية والملح واللطائف الأدبية، وما إلى ذلك مما يجتمع تارة ويتناسب فيكون فصلا أو ما يشبه الفصل في باب العلم والأدب والدين، وينتثر تارة أخرى ويتنافر فيرد في الكتاب كما يتوارد على ذهن المؤلف دون ترابط ولا تناسق.

وقد تعمد المؤلف أن ينحو في الكتاب هذا النحو فقال : (وإنما أذكر فيه فوائد وطرفا وقصائد ونتفا، وذلك مما اتفق لي في أيام الدهر من ملح، أو لغيري مما ينتقى ويستملح)[4] واختار أن يسميه (المحاضرات) : (ليوافق اسمه مسماه ويتضح عند ذكره معناه، وفي المثل خير العلم ما حوضر به).[5]

ألفه أثناء سفرة طويلة اتفقت له سنة خمس وتسعين وألف[6] وهو بعيد عن الأهل ينتقل بين الحواضر والبوادي، في زمن قد يكون باردا[7] فيحبسه في زاوية شيخ أو ضريح ولي، وقد يكون ملائما فينطلق في زياراته ورحلته وهو في ذلك كله محتاج إلى شغل لفكره وأنس لنفسه،[8] وليس هناك شغل لعالم ولا أنس لعارف أفضل وأحب من القراءة أو الكتابة.

---

4) المحاضرات ص 3.

5) المحاضرات ص 3

6) المحاضرات ص 37.

7) المحاضرات ص 86.

8) المحاضرات ص 1.

واليوسي يود أن يشرك قراءه في هذه المتعة النافعة، فيقدم إليهم في المحاضرات : (بعض ما حضر في الوطاب، مما أحال فيه أو حان له أو طاب).[9]

على أن القراءة المتأنية للكتاب، لا يفوتها ما فيه من أفكار كبرى عليها مدار التأليف، كما لا يفوتها أن تستبين وسط هذه الأفكار المنوعة وما يحيط بها من شتى الحكايات والملح، خيطا لطيفا من سيرة الكاتب وحياته يمتد من الصفحات الأولى إلى الأخيرة[10] دون أن يختلط بغيره، وكأن الكتاب نوع من السيرة الذاتية بأسلوب يترجم فيه الكاتب لذاته في ثنايا ما يعرض من محاضراته مع الاحتفاظ بهذا الخيط الرابط الذي يعطي صورة عن بعض المعالم الخارجية لشخصيته، كحالته المدنية وبعض نشاطه في المجتمع.

أما عن سبب تأليف الكتاب فالظاهر أن خصومته مع أهل فاس هي التي دفعته إلى ذلك كما يظن القادري حيث قال في كتابه نشر المثاني : (وهذه القضية أظنها من أسباب تأليف كتابه المحاضرات الذي لم يسبق لمثله، وقد ضمنه التعريف بنفسه، وأفصح عن معان كثيرة، وتخلص لوجوب عدم الإذعان لأهل المناصب ومنه الحسد، ونقل محفوظات كثيرة نظما ونثرا، وتنزل في العزلة والصبر على الأذى والإعراض عن السفهاء والتأسف على ذهاب ذوي الفضل وخلو الدنيا من أهل العلم والجود والكرم[11].

وإلى مثل هذا يشير الشيخ عبد الحي الكتاني بقوله : (وكتابه المحاضرات عجيب في بابه، غريب في ترتيبه وأسلوبه، وكأنه في ترجمة نفسه. ألفه بسبب ما كان وقع بينه وبين أبي زيد عبد الرحمان بن عبد القادر

---

9) المحاضرات ص 1.

10) راجع الصفحات : 10. 11. 28. 29. 30. 31. 33. 36. 38. 39. 47. 48. 68. 69. 72. 73. 86. 125. 139. 142. 235.

11) نشر المثاني للقادري ص 17.

الفاسي رحمهم الله لما افتتح التفسير بالقرويين، والكتاب المذكور كاف في معرفة مقدار تصرفه وسيلان قلمه الزاخر[12].

وأحاول في هذه الدراسة، أن أميز الأفكار الكبيرة التي يدور عليها الكتاب، والأفكار الجزئية التي تنضوي تحتها مبينا بذلك مضمون الكتاب ونظامه.

في كتاب المحاضرات خمسة أفكار رئيسية :

أولا : أهمية الاسم والنسب بالنسبة لشخصية الفرد (من الصفحة الأولى إلى الثانية والثلاين) وتندرج فيه المباحث الآتية :

1 ـ فائدة ذكر المؤلف اسمه في مؤلفه.
2 ـ التفاؤل والتطير بالأسماء، والأحاديث والآثار الواردة في ذلك.
3 ـ اليوسي : اسمه وكنيته ولقبه.
4 ـ سبب انتساب الناس إلى أوطانهم، بدل الانتساب إلى أجدادهم.
5 ـ أهل البادية يحفظون أنسابهم، وأسباب ذلك.
6 ـ من العجم من يحفظون أنسابهم كالعرب.
7 ـ نسب الإنسان الأصلي هو الطين.
8 ـ المزايا التي يشرف بها الإنسان حتى يشرف بشرفه من انتسب إليه.
9 ـ الأجرام الترابية بالنمو والنفاسة والانتفاع وما توالد منها، متشابهة في الأصل.
10 ـ فضل بني آدم.
11 ـ فضل من لهم نسب إلى نبي من الأنبياء.
12 ـ الإنسان قد يفتخر بنسبه، وقد يفتخر بنفسه.

12) فهرس الفهارس للكتاني ج 2 ص 469.

13 ـ كثير من الناس لا يقيمون للمفتخر بالنسب وزنا، والحق أن كرم النسب فضيلة.

14 ـ لم يزل الشرف يتجدد ويحدث بالعلم والولاية والجود.

15 ـ النسب الطويل بين المدح والذم.

ثانيا : كرامة الأولياء، منها الصادق ومنها الكاذب (من صفحة 36 ـ 65) وفيه المباحث التالية :

1 ـ رأيه في الشجرة الخضراء التي كان الناس يزورونها بسجلماسة.

2 ـ قصص بعض الأولياء الكاذبين.

3 ـ لا بد مع الحذر من حسن الظن بعباد الله.

4 ـ لم تخل بقعة من بقاع الأرض من فضل.

5 ـ الحكم حكمان : حكم تكليفي وحكم تصريفي.

6 ـ نفس الإنسان سبب هلاكه، فلو كان كل زائغ إنما يزيغ بشيطان لكان إبليس حين زاغ إنما زاغ بإبليس آخر والتالي باطل للزوم والتسلسل.

7 ـ تفريق أيمة الصوفية بين الخاطر النفساني والخاطر الشيطاني.

8 ـ حكايات حول بعض الأولياء.

9 ـ ما قاله بعضهم من انقطاع تصرف الولي بالموت.

ثالثا : الدنيا مشوب خيرها بشرها، ومن الجهل إنكار الحكمة المودعة في قوالب الكائنات (من ص 69 : 86) وفيه المباحث التالية :

1 ـ حكايات حول هذا المعنى.

2 ـ ليقل ما تفرح به، يقل ما تحزن عليه.

3 ـ إن أردت أن لا تعزل فلا تتول ولاية لا تدوم لك.

4 ـ وجود الحساد دليل على وجود الفضل.

5 ـ محبة وجود الحاسد ليست لذاته، بل لما يقارنه من الخير.

6 ـ السواد والسود، وكيف أن الأمور العادية يضل بها العامة والقاصرون من الخاصة.

7 ـ معنى قوله ﷺ «لا عدوى ولا طيرة» ونحوه وقوله «اطلبوا الخير عند حسان الوجوه».

8 ـ كان الإمام الشافعي يجتنب أهل العاهات.

9 ـ الأسباب الحكمية قسمان : ظاهر وخفي.

10 ـ سبحان من يرحم بما يعذب ويعذب بما يرحم.

رابعا : الملك لا يستقر على الجور، وكون السلف يهربون من الولاية، ووجود دعوى فرعون الألوهية في ضمير كل أحد (من ص 87 : 117) وفيه المباحث التالية :

1 ـ الملك يستقر مع الكفر، ولا يستقر مع الجور.

2 ـ حديث : (صنفان من أمتي إذا صلحا صلح الناس : الأمراء والعلماء).

3 ـ هروب السلف الصالح من الولاية.

4 ـ قصص بعض من طلبوا الرئاسة، وأن في كل من الرياسة والشهرة وعدمها شهوة للنفس.

5 ـ أن الجور قد مضى مع الملوك بعدما مضى العدل مع الخلفاء، ولم يبق إلا الفساد.

6 ـ يقال : دعوى فرعون الألوهية في ضمير كل أحد، مع تعشق ما يتوهم من ثمرات ذلك من التنعم والترفه والاحتواء على الدنيا وأهلها.

7 ـ أساليب بعض المدعين للطرقية زورا وبهتانا وحيلهم في ذلك : احتيال من المتبوع وجهل من التابع.

8 ـ شيوع إقامة الصوفية للزوايا بإطعام الطعام.

خامسا : أحوال الإنسان بين وجود الملائم وغير الملائم، وأحوال العلماء في مداراتهم مع الخلق (من ص 124 : 155) ويحتوي على المباحث

التالية :

1 ـ ما قيل في العزلة.

2 ـ سبب انتقاص الناس أهل وقتهم ومدحهم لمن تقدم، والأكمل للإنسان الرضى بوقته.

3 ـ حكم ما وقع في استنقاص الزمان وأهله وسبهما، بحسب النظر الشرعي.

4 ـ أحوال العلماء في مداراتهم مع الخلق.

5 ـ سد الذرائع وفتحها.

6 ـ ارتكاب أخف الضررين مطلوب.

7 ـ دواعي النفس صعبة الانفصال عن الإنسان، والتجرد العام والصفاء التام عزيز الوجود.

8 ـ الناس من أمر الطلب والدعاء صنفان : صنف يسلم ويفوض ولا يطلب، وصنف ليس له إلا الدعاء والطلب.

ويتضمن الكتاب أبحاثا أخرى متفرقة، وكثيرا من الحكايات الصوفية والنوادر الأدبية، كما أن الكتاب يقدم في مجموعة دراسة اجتماعية قيمة، يصور الأوساط التي تقلب المؤلف فيها، والطبقات الاجتماعية على مختلف أصنافها، والنشاط العلمي الذي كانت تعرفه بعض المراكز سواء في الحاضرة أو في البادية. وأسلوب الكتاب أسلوب بسيط ينساب رقيقا ويحافظ على قوته وطابعه وكأنه من نسيج واحد. وللكتاب دلالة واضحة على شخصية اليوسي العلمية، لما فيه من فوائد جمة، ومعلومات سخية، إلا أن الجانب الصوفي يكاد يطغى على الجوانب الأُخرى، وذلك ظاهر مما عرضناه من مباحث[13].

13) اعتمدنا على النسخة الموجودة بخزانة دار الحديث الحسنية تحت رقم 4736. وهي مطبوعة على الحجر.

الفهرسة

يعرف اليوسي بموضوع كتابه والغرض من تأليفه، فيقول في مقدمة فهرسته : (إني أريد بعون الله وتوفيقه أن أسطر في هذه الفهرسة شيئا مما حضرني من الحكم والفوائد والملح، وغير ذلك من الأمور التي ينبغي تخليدها في بطون الأوراق، وتذكرة لنفسي ولمن يطرق ساحتها من الطراق)[14] ثم يقول في (ص 128) من الفهرسة : (قصدنا في هذه الفهرسة أن نذكر إن شاء الله كل من حصل لنا منه علم للأغراض المذكورة، لا خصوص القدوة، ونذكرهم على ترتيب الوجود لا المنزلة، والصالح للقدوة منهم يستبين بنحوى الكلام عند تحليته والتنصيص على ما سمع منه من الفنون، أو وقع من إجازة. ثم المراد ذكر من ظهر بخصوصية وفضيلة، لاكل من استفدنا منه شيئاً، إذ لا نحصيه، بل كثير ممن حصل لنا منه ضبط القرآن أو تجويده في زمن الصغر، لم نذكرهم لكثرتهم، ومنهم من لم نثبت عليه وعلى اسمه، جزى الله جميعهم خيرا)[15].

ورتب الفهرسة على مقدمة وخمسة فصول :

الفصل الأول : في أشياخه في التعلم مع الإلمام بشيء من الفوائد الواقعة معهم.

الفصل الثاني : في ذكر الأشياخ في الدين ولو بطريق التبرك.

الفصل الثالث : في ذكر شيء مما ألهم الله تعالى في آية أو حديث أو شعر أو كلام، من فهم على طريق الإشارات.

الفصل الرابع : في ذكر شيء مما خاطب أو خوطب به من نثر أو نظم.

---

14) الصفحة الأولى الفهرسة وهي الصفحة 103 من المجموع 1234 ك بالخزانة العامة.

15) ص 129.

الفصل الخامس : في (جميع الفوائد الملقوطة) من أي نوع كان.

ولم يصلنا من الفهرسة إلا مقدمتها والفصل الأول. ونظن أن اليوسي أكمل فهرسته إلا أن البقية ضاعت، ومما يؤيد هذا الظن أنه يحيل عليها في بعض الإجازات كما وقع في إجازته للأخوين العكاريين سيدي علي وسيد محمد[16]، والعادة أن الاحالة على كتاب أو الاجازة فيه لا تكون إلا إذا كان مكتملا.

أما المقدمة فقد ذكر فيها جملة من الفوائد بلغت اثنتي عشرة فائدة :

الفائدة الأولى : في تفسير الألفاظ التي وردت عند الكلام على الغرض المقصود من هذه الفهرسة، ومنها الحكم والفوائد والملح...

الفائدة الثانية : أن العقل مناط التكليف إجماعا، وأنهم اختلفوا في ماهيته ويختار اليوسي من تعريفه أنه غريزة تكون عنها الادراكات بإذن الله تعالى.

الفائدة الثالثة : في مراتب العقل.

الفائدة الرابعة : في كون العقل عرضا أو جوهرا أو مجردا.

الفائدة الخامسة : في أن العلم هو حصول صورة الشيء في النفس.

الفائدة السادسة : في أن العلم يطلق أيضا بمعنى المعلوم، وهو بهذا الاعتبار قد يطلق على مجموع قواعد مقررة يجمعها موضوع واحد غايته واحدة، كالفقه والحساب والنحو.

الفائدة السابعة : في أن العلم بالمعنى المذكور سالفا صناعة.

---

16) مناقب سيدي علي العكاري خ ع 88 د. 2 ـ 5.

الفائدة الثامنة : في مناقشة قول الأيمة : (العلوم ثلاثة : علم الفقه للأديان، وعلم الطب للأبدان، وعلم التصوف للجنان، وما سواه فضول وهذيان) وتوسع اليوسي هنا في بيان أقسام العلوم. وكثير مما ذكره موجود في كتابه (القانون). ونجد لليوسي هنا لطائف تستحق التنويه بها والإشارة إليها، منها قوله : (وليكن في علمك أن علم العربية مع كونه بالذات لإصلاح اللسان، لم يخل من المعاني التي ترتاض بها الأذهان حتى تناول علم المنطق، فكان له فيه النصيب الوافر يعرفه من له خبرة بالعلمين وفطانه عند موقع النظرين، فانظر مثلا في الاستعارة التصريحية كقولك : رأيت أسدا يرمي، تجدها قياسا من الشكل الأول حذفت كبراه والنتيجة لوضوحهما.

وبيانه : أن المشبه المطوي كزيد مثلا هو المتحدث عنه بأنه أسد، وكل أسد شجاع، فزيد شجاع بهذا الدليل، وبهذا تفهم قول البيانيين : إن المجاز أبلغ لأنه كدعوى الشيء ببينة (....) فإذا قلت : فلان كثير الرماد فهو استدلال، أي وكل كثير الرماد مضياف، وهذا واضح، ولهذا قالوا : الكناية أبلغ من التصريح، فالمنطق مودع في كلام العرب)[17].

الفائدة التاسعة : في أن من عوارض العلم المناظرة فيه.

الفائدة العاشرة : في بيان شروط المناظرة وآدابها وفوائدها.

الفائدة الحادية عشرة : في أن المذاكرة هي التفاوض في العلم لمثل ما تنصب له المناظرة، ولكن على غير وجه النزاع.

---

17) الفهرسة ص 117.

الفائدة الثانية عشرة: في بيان ما قيل من أن حد الإقراء تصحيح المتن وحل المشكل، وأن الزيادة على هذا ضررها بالمتعلم أكثر من نفعها.

وهكذا نرى غنى هذه المقدمة واحتواءها على قدر مهم من كليات العلم، ولعلها لو طالت لجاءت كمقدمة ابن خلدون.

وأما الفصل الأول فقد سبق أن ذكرنا أنه خصصه للحديث عن أشياخه، وقد قسمه إلى قسمين أو بابين :

الأول في ذكر شيوخ التعلم، وقد ذكر منهم عشرين شيخا، وأثنى عليهم جميعا وذكر مقامهم في العلم وبعض مؤلفاتهم وما أخذه عنهم من العلوم والفنون، وإجازات من أجازه منهم.

والثاني في ذكر الأشياخ في الدين أخذا أو انتفاعا أو تبركا. وقد اقتصر في هذا الباب على ذكر شيخه الكبير (سيدي محمد بن ناصر الدرعي)، وذكر أنه ينوي إفراد ترجمته بتأليف خاص، واستغرق حديثه عنه في هذا الفصل أطول مما استغرقه الحديث عن أي شيخ من شيوخه، بالإضافة إلى ما ذكره عنه قبل هذا في شيوخ التعلم، وذكر ما استفاده منه وما قرأه عليه.

هذه فهرسة اليوسي كما وصلتنا، وهي غاية في الاتقان والتنظيم، وأسلوبها يجمع بين عمق الفكرة وفنية الأداء واشراقة التعبير، وهي من الكتب التي لا غنى عنها لمن أراد أن يدرس شخصية اليوسي العلمية، ويقف على وفرة ما اتقن من علوم وفنون، وعلى مستوى الشيوخ الذين أخذ عنهم[18].

---

18) النسخة التي اعتمدنا عليها هي المخطوطة الموجودة بالخزانة العامة تحت رقم 1234 ك وهي مبتورة الآخر وخطها مغربي جميل وحجمها متوسط.

وردت في هذا الكتاب فقرات تتضمن التعريف به، من ذلك ما جاء في مطلعه : «أما بعد فهذا بحول الله قانون يشتمل على أحكام العلم، وأحكام العالم وأحكام المتعلم، وما يتعلق بشيء من ذلك، على وجه الإشارة والاختصار في العبارة».

وجاء في الصفحة السبعين : «هذا الكتاب إنما وضع لضبط القانون في الجملة، ليكون الطالب على بصيرة منها علما وأخذا وتركا».

ويقول في الصفحة الخامسة والعشرين بعد المائة : «لم نقصد في هذا الكتاب استيفاء كل فن من الفنون، فإن ذلك لا يسعه موضوعٌ عادةً، بل ضبطها والإشارة إلى جملة منها، تنبه على ما وراءها، ونوثر في ذلك القوانين على الجزئيات، هذا ما يتصل بموضوع الكتاب أما أبوابه فثلاثة :

الباب الأول : في أحكام العلم.

الباب الثاني : في أحكام العالم.

الباب الثالث : في أحكام التعلم.

وكل باب منها يندرج فيه عدد من الفصول. وينتهي الباب بخاتمة تشتمل على فوائد وقواعد.

الباب الأول ـ فيه خمسة عشر فصلا :

الفصل الأول : في شرح ماهية العلم لغة وعرفا.

الفصل الثاني : في أن العلم بمعنى الإدراك يسمى أيضا تصورا، ثم اشتهر تقسيمه إلى تصور وتصديق.

الفصل الثالث : العلم إما قديم وإما حادث، والحادث ينقسم إلى ضروري ونظري.

الفصل الرابع : في إثبات الضروريات الأولى، والرد على منكريها.

الفصل الخامس : في مدارك العلم وأنها ثلاثة : الإحساس، والخبر، والنظر.

الفصل السادس : النظر إما صحيح وإما فاسد.

الفصل السابع : في أنه اختلف في إفادة النظر للعلم، وظاهر أكثر المتكلمين أن المراد في هذا البحث النظر التصديقي.

الفصل الثامن : يشترط لوجود مطلق النظر، العقل وانتفاء أضداد العلم من موت وجنون ونوم وغفلة.

الفصل التاسع : في الدليل، وأنه يكون عقليا ونقليا. وقال المتكلمون : إنه إما عقلي أي بجميع مقدماته أو نقلي أي بجميعها، أو مركب. والثاني باطل إذ لا بد من ثبوت صدق المخبِر ولا يكون إلا بالعقل.

الفصل العاشر : في أن تعريف العلم بحصول الصورة جارٍ عليه بحسب الأصول.

الفصل الحادي عشر : وفيه ينتقل اليوسي إلى ذكر أقسام العلوم. وسنورد في نهاية هذا الباب جدولا يبين هذه الأقسام كما استخرجناها من كلامه، والرسم أوضح وأكثر اختصارا من سرد الأقسام وتعريف كل قسم. وإنما نذكر فيه أهم التقسيمات. وهناك تقسيم آخر للعلوم من حيث كونها قديمة أو حادثة، فلسفية أو مِلِّية لم نحتج إلى رسمه. كما أن اليوسي ذكر

اعتراضات كثيرة ومهمة على تقسيمات «ابن جزي» في قوانينه الفقهية وعلى «السيوطي» عند جزمه بحرمة الفلسفة وعلومها وتمثيله بالمنطق منها وهي موضوع الفصل الثاني عشر.

الفصل الثالث عشر : فقد خصصه لبيان فضل العلم ومنزلته من الشرف وجعل الفصل الرابع عشر متمما له فذكر فيه جهات الشرف.

وآخر فصل في هذا الباب قبل الخاتمة هو الفصل الخامس عشر وهو في بيان العلم النافع، والمراد هنا بالعلم النافع عند أيمة الدين ما ترتب عليه الثمرة الدينية بأن تصلح عنده حالة العبد اعتقادا وعملا ظاهرا وباطنا.

الخاتمة : وتشتمل على فوائد :

الأولى : في ذكر الفرق بين العلم والمعرفة في اصطلاح الصوفية.

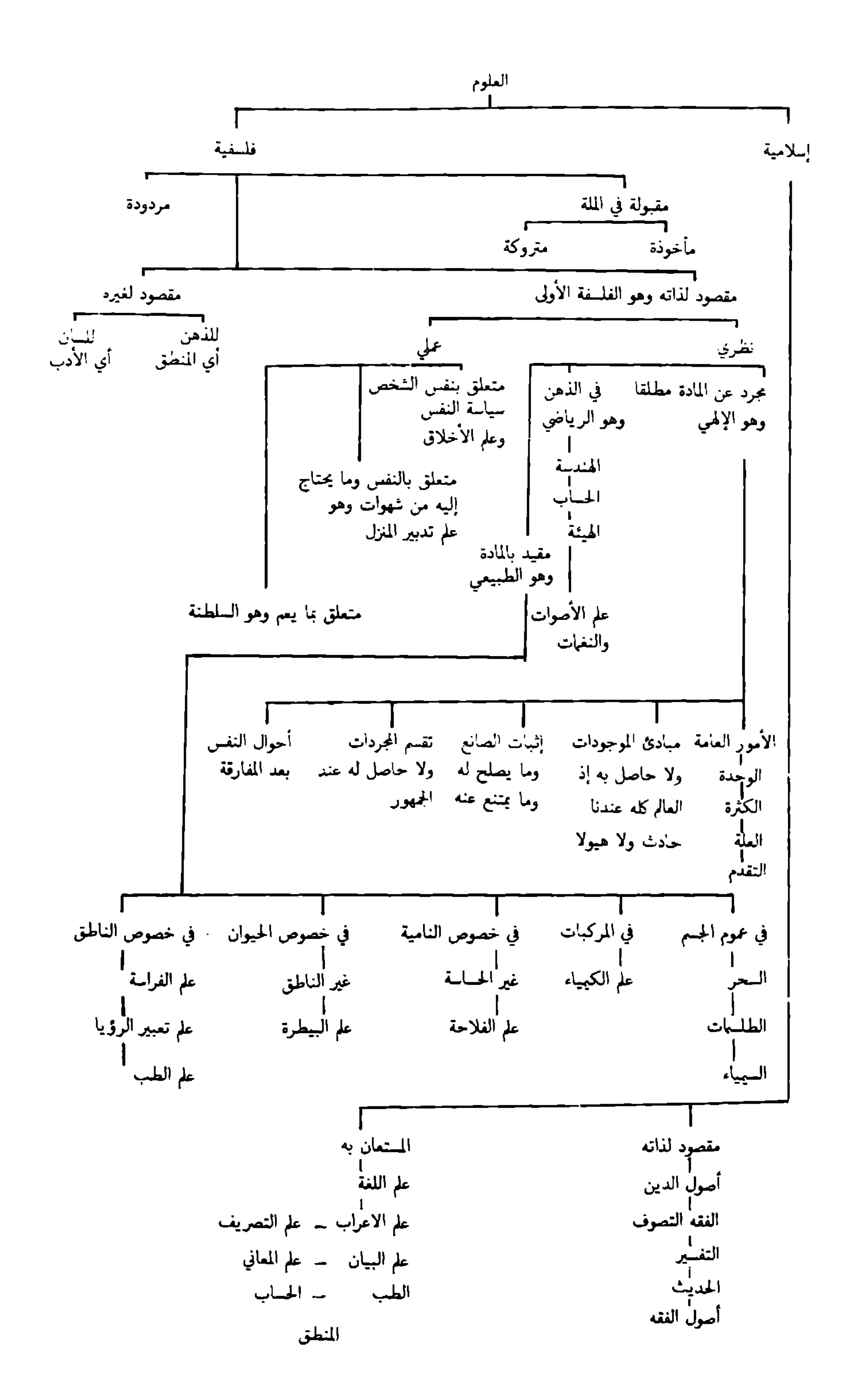
الثانية : في ذكر بعض ما قيل من الشعر في العلم جملة.

الثالثة : العقل هو سبب العلم.

الرابعة : يقال إنه قد يقوى العقل وتقل الملكة لعدم الاشتغال وقلة الممارسة، وقد تقوى الملكة مع ضعف العقل لشدة الممارسة وطولها، ومآل هذا إلى ضعف.

الخامسة : في الفرق بين حافظ العصر والحافظ.

السادسة : في ذكر العلوم التي شرحها اليوسي في كتابه، والعلوم التي لم يشرحها، وذكر المهم من ذلك وعكسه. وفي الجدول التالي تلخيص لذلك وتقريب لكلام اليوسي فيه.


العلوم
إسلامية
فلسفية
مقبولة في الملة
مردودة
مأخوذة
متروكة
مقصود لذاته وهو الفلسفة الأولى
مقصود لغيره
للذهن
أي المنطق
للسان
أي الأدب
نظري
عملي
مجرد عن المادة مطلقا
وهو الإلهي
في الذهن
وهو الرياضي
الهندسة
الحساب
الهيئة
علم الأصوات
والنغمات
مقيد بالمادة
وهو الطبيعي
متعلق بنفس الشخص
سياسة النفس
وعلم الأخلاق
متعلق بالنفس وما يحتاج
إليه من شهوات وهو
علم تدبير المنزل
متعلق بما يعم وهو السلطنة
الأمور العامة
الوحدة
الكثرة
العلة
التقدم
مبادئ الموجودات
ولا حاصل به إذ
العالم كله عندنا
حادث ولا هيولا
إثبات الصانع
وما يصلح له
وما يمتنع عنه
تقسم المجردات
ولا حاصل له عند
الجمهور
أحوال النفس
بعد المفارقة
في عموم الجسم
السحر
الطلسمات
السيمياء
في المركبات
علم الكيمياء
في خصوص النامية
غير الحساسة
علم الفلاحة
في خصوص الحيوان
غير الناطق
علم البيطرة
في خصوص الناطق
علم الفراسة
علم تعبير الرؤيا
علم الطب
مقصود لذاته
أصول الدين
الفقه التصوف
التفسير
الحديث
أصول الفقه
المستعان به
علم اللغة
علم الاعراب – علم التصريف
علم البيان – علم المعاني
الطب – الحساب
المنطق

الباب الثاني : في أحكام العالم، وفيه فصول ستة عشر وخاتمة :

الفصل الأول : في لفظه : فالمراد بالعالم في هذا المحل هو من له العلم بمعنى الفن (...)، وجرى اصطلاح المتأخرين فيمن جمع الفنون المختلفة أن يقال علامة، مبالغة في الوصف.

الفصل الثاني : في آداب العالم في نفسه، وهو فصل من أبدع فصول الكتاب.

الفصل الثالث : في آداب العالم في التدريس، ويتحدث فيه عن آداب العالم في سعيه إلى درسه وجلوسه في مجلسه، وعن طرق التدريس واختلافها باختلاف المدرسين والتلاميذ. وختم الفصل بقوله : «والمدرس ان لم يكن طبيبا كان ما يفسده أكثر مما يصلحه» وهو صحيح. وهذا الفصل من أهم الفصول الدالة على شخصيته مدرسا ومربيا ومعلما.

الفصل الرابع : في آداب العالم في الافتاء، ويبين في هذا الفصل طبقات المجتهدين.

الفصل الخامس : في آداب العالم في التصنيف. ويذكر فيه الفرق بين التأليف والتصنيف، وأقسام الكتب من مختصرة ومبسوطة، وأنواعها من شروح وأمهات وغيرها.

الفصل السادس : في ذكر بقية طرق نشر العلم، كالرسائل والوعظ والعمل والإجازة والقضاء...

الفصل السابع : في بيان أصول هذه الطرق من السنة، وأنها كلها مأثورة قديمة.

الفصل الثامن : في حكم نشر العلم بشيء من الطرق المذكورة.

الفصل التاسع : في أن التعليم أفضل من الاشتغال ببعض العبادات. والأحاديث الدالة على ذلك.

الفصل العاشر : في أن التصنيف أفضل من التدريس، والكل منفعة للناس.

الفصل الحادي عشر : في ذكر شيء من آفات العلم، ومن أعظمها أن يبقى العالم لا يؤخذ عنه حتى يموت بعلمه. ومنها النسيان...

الفصل الثاني عشر : في قول العالم سلوني، وحرصه أن يؤخذ عنه العلم، والضابط أنه لابد من مراعاة نصح العباد وتبليغهم ما ينفعهم، ومراعاة ديباجة العلم أن تبقى.

الفصل الثالث عشر : في طرح العالم المسألة على أصحابه.

الفصل الرابع عشر : في حال العلم إذا كان عند الأرذال والأشرار.

الفصل الخامس عشر : في ذم العالم على مداخلة الأمراء الظلمة.

الفصل السادس عشر : في مدح العالم العامل، وذم الفاجر، وطالب الدنيا بعلمه.

أما خاتمة هذا الباب فقد وردت فيها مباحث وفوائد طريفة، منها : إنزال الكتب منازلها عند وضعها في الخزانة، فلا بد أن يرفع الأشرف فوق غيره، ومنها وجوب احترام الكتب وتجويد كتبها وعدم قرمطتها.

الباب الثالث : في التعلم وفيه فصول سبعة عشر وخاتمة.

الفصل الأول : في لفظ التعلم.

الفصل الثاني : في آداب المتعلم، ومنها أن يجتهد في تطهير باطنه، وأن يحسن نيته، وأن يبادر شبابه وأوقات عمره بالتحصيل، ولا يغتر بالتسويف. وأن يبالغ في الاجتهاد جهد الطاقة، وأن يقطع العلائق عنه ليتفرغ قلبه. وقال بعضهم : لا ينال هذا العلم إلا من عطل دكانه وحزب بستانه وهجر إخوانه ومات أقرب أهله فلم يشهد جنازته، وأن يكون رأس ماله القناعة، وأن يتحرى الحلال فيما يستعين به على شأنه، وأن يتحرى من الأطعمة ما يخف ويعين على الفهم والحفظ وقوة الحاسة، ويتجنب كل ما يكون بإذن

الله سببا للبلادة أو الضعف أو كثرة البلغم، وأن يراعي أوقاته ويشتغل في كل وقت بما يناسب، وأن يقلل خلطة الناس.

الفصل الثالث : في ذكر آدابه مع شيخه : وأولها أن يتحرى الصالح للمشيخة بأن لا يأخذ العلم والآدب إلا ممن هو أهل ليؤخذ عنه، وليحذر ممن فيه نزغة بدعة أو سوء اعتقاد. ولا يأخذ عن صحفي. الثاني : أن يعظم شيخه. الثالث : أن ينقاد إليه في أموره كلها. الرابع : أن يعرف له حقه ويشكر صنيعه. الخامس : أن يصبر على جفوة شيخه وشراسته إن كانت في خلقه. السادس : أن يشكر الله على ما أسدى إليه من السعي في مصالحه حين لا تكون ملائمة لطبعه. السابع : أن يستعمل الأدب في الدخول على الشيخ. الثامن : أن يجلس بين يدي الشيخ بالأدب جلوس الصبي أمام المؤدب إن أمكنه، وهو أولى به. التاسع : أن يحسن الأدب في مخاطبته للشيخ. العاشر : أن يحذر من أن يسبق الشيخ إلى شرح معنى أو جواب سائل. الحادي عشر : أن يستعمل الأدب في المناولة فإن تناول من الشيخ شيئا أو ناوله إياه فباليمين، فإن كان ورقة فتيا أو رسالة فليناولها منشورة، وان ناوله كتابا هيأه له...الخ.

الفصل الرابع : في آدابه في الدرس والأخذ.

الفصل الخامس : في ذكر حكم طلب العلم : فما هو فرض عين فطلبه فرض عين، إذ لا علم إلا بالتعلم. وما هو فرض كفاية فطلبه كذلك، ومالا فلا.

الفصل السادس : في ذكر الأسباب والأحوال التي ينال معها العلم بإذن الله تعالى.

الفصل السابع : في ذكر الرحلة في طلب العلم.

أما الفصول إلى الثالث عشر فكلها في طلب العلم وفضيلته وآفاته، والفصول إلى السادس عشر، في كتب العلم وتخليده وآداب الكتب وآداب

المدارس، والفصل الأخير وهو الفصل السابع عشر، ففي ذكر جمل وجيزة في مدح العلم والعالم والمتعلم.

وللباب خاتمة تناول فيها تفصيل الناس بحسب الانتفاع بهدي الله، وانفراد المعلم والمتعلم بالشرف وأنهما شريكان في الأجر.

☆ ☆ ☆

هذا بيان شامل لمواضيع الكتاب وأبحاثه، لم يرد في فهرس مستقل، ولا وضع بحيث يستطيع أن يقف عليه من لم يقرأ الكتاب قراءة فاحصة، وقد قصدنا من فهرسته هنا على هذا الشكل أن نبسط الكتاب في صفحات وجيزة، ونبين نظامه وترتيبه ونجلو المباحث التي تناولها بحيث يسهل الرجوع إليها.

والكتاب يبرز جملة من الخصائص التي يمتاز بها فكر اليوسي، مثل شموليته وموسوعيته وتنظيمه. كما أنه يجلو معالم المدرسة الإسلامية ويكشف أصولها، فهو يذكر آداب العالم وآداب المتعلم وآداب المدارس والكتب وطرق التدريس، وغير ذلك مما يوضح أن هذه المدرسة إن كانت بسيطة من حيث الشكل وكانت عبارة عن حلقات دراسية تعقد في المساجد فإنها من حيث الجوهر مؤسسة ذات أصول وآداب ونظام مكتمل وقواعد ثابتة.

وقبل هذا كله فإن الكتاب جهد خاص وعمل قيم أضافه اليوسي إلى جهود السلف الصالح من العلماء، الذين بحثوا في موضوع مبادئ العلوم وأقسامها، مثل الإمام ابن عبد البر في (جامع بيان العلم وفضله) وابن خلدون في (المقدمة) وأبي زيد عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي في (الاقنوم) وغيرهم[19].

☆ ☆ ☆

19) اعتمدنا على النسخة المخطوطة الموجودة بالخزانة العامة تحت رقم 2382 وهي في 319 صفحة من الحجم المتوسط.

مشرب العام والخاص من كلمة الإخلاص

يشهد هذا الكتاب بما كان لليوسي من تبريز في الأصول والمنطق واللغة، وموضوعه تفسير الكلمة المجيدة، وهي كلمة الإخلاص التي جعلت ترجمة على الإيمان في حق العام والخاص. وكانت هذه الكلمة المشرفة نشأ فيها نزاع بين المتأخرين من بعض طلبة المغرب وعلمائه، وذلك في المنفي المستثنى منه في قولنا «لا إله إلا الله» أهو المعبود بالحق أم غيره. فلما كثر الخلاف وتضاربت الأقوال وصارت فتنة، نهض أبو علي اليوسي لإظهار وجه الحق في المسألة وحسم مادة النزاع، وألف كتابه (مشرب العام والخاص). جاء في كتاب (المحاضرات) : (مررت ببلد سجلماسة في أعوام السبعين وألف، فوجدت فتنة ثارت بين الطلبة فيها في معنى كلمة الإخلاص، فكان بعض الطلبة قرر فيها ما وقع في كلام الشيخ السنوسي من أن المنفي هو المثل المقدر، فأنكر عليه بعض من لهم الرياسة في النوازل الفقهية وفصل الأحكام الشرعية وليس لهم نفاذ في العلوم النظرية، وأخذوه بنحو ما أخذوا به الشيخ الهبطي في مشاجرته المشهورة مع أهل عصره[20]، حتى امتحنوه بالسياط. فجعلت

---

20) جاء في مجموع مخطوط يحتوي على رسالة اليوسي المسماة (أخذ الجنة عن أشكال نعيم الجنة) بالخزانة الخاصة للأستاذ محمد المنوني :

(رأيت كتابا كتبه سيدي عبد الله الهبطي لبعض معاصريه يشكو إليه ما لقي من بعض العلماء من المشاتمة والوقاحة والتنازع في كلمة لا إله إلا الله، وأن الشيخ الخروبي هو الذي ابتدأ الكلام إليه في ذلك مكاتبة وأن يشرح للناس المنفِيَّ بلا، ويبين المثبت بإلا، وأنه استيقظ لذلك وكأنه قبل في غفلة عنه فحسر عن ساعد جدّه وألف في ذلك عقائد نظما ونثرا، واشتهر بذلك وحمل الناس على عقائده وشد حيازمه في ذلك رحمه الله لبيان ما نزل إليهم من فرائض الله وسننه وخصوصا العقائد الإيمانية التي لا نجاة من النار إلا بمعرفتها، فقطع في شأن هذا الأمر دهره مع مصاحبة الأقوام القاصرة عن فهم المعقول والمنقول. وكان رحمه الله يتمذهب بمذهب من يرى أن النفي في لا إله إلا الله لم يتسلط على ذوات المعبودات بالباطل وإنما تسلط على معنى الألوهية المدعى فيها، فشنع عليه=

أقرر لأولئك المنكرين الكلمة بوجه يقرب من المأخذين ويصلح بين الخصمين، فلم يفهموا ذلك وصمموا على ما طرق أسماعهم من أن الهبطي أخطأ في هذه المسألة وضل ضلالا مبينا. ثم وقعت هذه الفتنة بمدينة مراكش عن قريب من هذه بين طلبتها حتى ضلل بعضهم بعضا، فمن أجل ذلك ألفت كتاب منهاج الخلاص من كلمة الإخلاص»[21].

وكلام اليوسي يبين مدى تأثره بما يجري حوله من أحداث، وحرصه على القيام بواجبه في نصرة الحق وإرشاد الناس إلى أقوم السبل في معرفة ربهم وعبادته وتصحيح توحيده. كما أنه يشير إلى أن الناس في ذلك العصر لم يكونوا غافلين عن القضايا الفكرية التي من هذا النوع، وأن النشاط الفكري كان عاما حتى إن القضية تقع في سجلماسة فلا يفتأ صداها أن يصل إلى مراكش وغيرها من الأقاليم، وبالإضافة إلى النزاع الذي أشرنا إليه حول كلمة الإخلاص هناك أسباب أخرى حركت همة اليوسي وحفزت نشاطه إلى تأليف هذا الكتاب :

أولها وأعلاها، أن هذه الكلمة المشرفة هي عنوان الإيمان وسبب الفلاح والأمان وهي عصمة من الكفران والمنجاة من الهلاك والخسران، فوجب الاعتناء بفهمها والمحافظة على رسمها.

ثانيها : أنها أجل الاذكار، وقدرها أعظم الأقدار.

ثالثها : إسعاف الراغبين.

= منازعه المذكور وأغلظ عليه بالقول حتى أدى ذلك إلى أن جمع سلطان الوقت بينهما وتناظرا، وكان السلطان يكره أن يغلب منازعه لأنه من خاصته فلما تحقق الشيخ الهبطي خائنة الأعين فيه انفصل بلا إذن ولحق ببلده فرموه حينئذ بمنجنيقات البهتان وقولوه في توحيد الله، وأنه يزعم أن لا إله إلا الله لا ينتفي بها ألوهية الاصنام ونحوها، وتداولت الألسن ذلك...).

21) المحاضرات ص 76.

رابعها : رجاء أن يقع الإنصاف وتنحسم مادة الاختلاف.

خامسها : التبرك.

سادسها : إعانة مسلم وكفاية مهم».

وكتاب منهاج الخلاص في الفقرة السابقة من كلام اليوسي هو نفسه مشرب العام والخاص، ذكر ذلك عند حديثه عن موضوع الكتاب فقال : «وأشرت فيها ـ أي في الجملة المفيدة التي تشرح كلمة الإخلاص ـ إلى غرضين : أحدهما مالا بد منه للمكلف فيها من الاعتقاد، بحيث إذا خرج عنه ولج بحبوحة الكفر أو كاد، والثاني ما ينبغي له أن يعتقده منها من الوجه الكامل بحيث إذا سقط عنه زل شرف الخصوصية إلى الحضيض السافل. وبحسب الاعتبار الأول نسمي هذه النبذة إن شئنا : مناهج الخلاص من كلمة الإخلاص، وبالاعتبارين جميعا نسميها إن شئنا : مشرب العام والخاص من كلمة الإخلاص».

وقد رتب اليوسي كلامه في مقصدين :

الأول : في تفسير معنى كلمة الإخلاص وتبيين فحواها على ما يجب اعتقاده على جميع المومنين وهو مرجع مباحث المتكلمين.

الثاني : في الإشارة إلى ما يتلمح فيها بعد ما ذكر من اللطائف، وهو منظر أهل الحقائق والمعارف.

هذه لمحة عن موضوع الكتاب وأسباب تأليفه ونظام ترتيبه، وكان بودنا أن نفصل القول في مباحثه وفصوله إلا أن خشية القصور دون ذلك، مع ضيق المجال حالت بيننا وبين هذا التفصيل، فالكتاب ضخم يقع في أربعمائة صفحة، وفصوله كثيرة. وهو من العمق والغنى بحيث لا يقوم حديثنا وإن طال مقام قراءته ودراسته.

وخير ما نختم به حديثنا عنه هو هذا التقريظ الذي نظمه فيه الشيخ عبد الرحمان بن جعفر الكتاني :

سفر علم أبان ما قد حوته[22] من معان فما به من خصاص
لإمام له المعارف تنمى إذ أطاعته وهي ذات اعتياص
يكشف اللبس عن عويص إذا ما وقع الناس منه في حاص باص
ذاك ذو الفضل سيدي الحسن اليـ ـوسي من خص بالسنا الوباص

كتاب البدور اللوامع في شرح جمع الجوامع

يتناول اليوسي في هذا الكتاب شرح (جمع الجوامع لأبي نصر عبد الوهاب بن الشيخ تقي الدين أبي الحسن السبكي)، إلا أن النسخة التي بين أيدينا مبتورة الآخر لا تزيد في الشرح على قول الإمام السبكي (والأصَحُّ أن المباح ليس بجنس للواجب)، وعدد صفحاتها (188).

والكتاب نادر لا نعرف له إلا نسخة واحدة وجدناها في بعض الخزائن الخاصة. ويبدو أن اليوسي لم يكمل شرحه، ولعله لو أتمه أو لو وصل إلينا كاملا لعظمت به الفائدة نظرا لاستيعابه وتوسعه في الشرح وتناوله أقوال من سبقوه بالنقد القائم على إظهار المحاسن والعيوب.

واليوسي لم يكتف بالشرح، وإنما حاول أن يتدارك ما فات المصنف، وأن يبسط ما أجمله، ويتجاوز ما قصرت عبارة السبكي وراءه. كما أنه عكف على شروح الكتاب يبحث عن اختلاف المذاهب فيما ورد من المسائل

22) الضمير يرجع إلى كلمة الاخلاص.

والمطالب ويحتج لمذهبه المالكي، بالإضافة إلى أنه اجتهد في وضع هذا الشرح بحيث يكون منقحا سالما من العيوب التي تشوب الشروح الأخرى. ويتضح ذلك بالنظر إلى الأسباب التي دفعت اليوسي إلى كتابة شرحه وهي كما يلي :

أولا : أن السبكي من فرط الشغف بالإكثار مع حسن الاختصار، لم يلم بالدلائل ولا بين وجوه المسائل.

ثانيا : الكثير من كتاب (جمع الجوامع) صعب المدرك وعر المسلك.

ثالثا : هناك بعض الشروح بالغة في الإيضاح والبيان والافصاح، ولكنها أغفلت كثيرا من الدقائق.

رابعا : وهناك شروح أخرى بالغة في الإيجاز إلى درجة الإعجاز فلا يكاد تتخلص منه الحقائق.

خامسا : أنه لا يوجد من المالكية من شرحه شرحا يعتد به في هذه المطالب، حاميا للحقائق إذا اختلقت المذاهب. ويقول اليوسي عن شرحه : (أرجو من الله أن يكون متجافيا عن الإخلال، وافيا إن شاء الله تعالى لقسمي التصوير والاستدلال، مع ذكر فوائد أخرى قد احتوى عليها الوطاب والتنبيه عن بعض ما يقع في الشروح بما هو فصل الخطاب)[23].

وأسلوب الكتاب علمي، مع سهولة عبارته، وهو يذكر فيه قول المصنف أولا ثم يشرحه. وقد التزم في مقدمة الكتاب أنه إذا ذكر ما لغيره نسبه له تصريحا واحدا أو جماعة، أو تلويحا، وكذلك الأمر إذا ذكر ما لنفسه قال : (وربما يقع لي بحث فأنسبه لنفسي ثم أجده بعد ذلك لغيري فلا أزيل تلك النسبة، وربما أجمل عدة أبحاث بعضها إلي وبعضها لغيري اتكالا على تعرف ذلك في الخارج).

---

23) مقدمة الكتاب.

والكتاب يدل دلالة واضحة على شخصية اليوسي الفقهية والأصولية، وعلى وفرة مادته من علوم الشريعة، وقوة عارضته في الاحتجاج والاستدلال والمناقشة، كما يدل على اجتهاده وبعده عن التقليد، وأن في حديثه السابق عن نسبة الأبحاث إلى نفسه أو إلى غيره إشارة إلى اجتهاده، كما أن وضعه لهذا الشرح ليتدارك به ما فات الشروح الأخرى داخل في هذا المعنى كذلك.

وبما أن الكتاب نادر وعظيم الفائدة في آن واحد فإننا ننقل هنا نموذجين منه ونموذجا يعم بها النفع وتتضح طريقة اليوسي وعمله.

النموذج الأول

الحمد لله الذي أحكم أصول الشريعة بكتابه المبين، وشيد معالمها بسنة نبيه الأمين، وأيد قواعدها بإجماع المومنين، وبسط أكنافها بقياس علماء الدين، واستنباط الأئمة الراسخين، واستدلال الأذكياء الناظرين، وترجيح المهرة المحققين، وشرع بفضله للمقلدين القاصرين، استفتاء الفحول المجتهدين. والصلاة والسلام على محمد المخصوص بجوامع الكَلِمِ، المبعوث إلى أشرف الأمم، وعلى آله وصحبه الذين هم النجوم الثواقب، الحائزين بصحبته ومتابعته أسنى المناقب.

أما بعد فإنه مما لا يقع فيه اضطراب ولا يخطر ارتياب أن العلم أعلى المطالب، وأسنى المناقب، وأنه مفتاح السعادة، وعنوان المجادة، وأن أعلاها بعد معرفة الله تعالى علم الشريعة الغراء، والتفقه في الحنفية البيضاء، وذلك الفقه الأبه، المتكفل بفضل الله تعالى بالنجاة الأبدية، والسعادة السرمدية. ولما كانت الأحكام الشرعية متعددة وعلى مرور الأزمان متجددة نيطت فضلا من الله تعالى بعلل يتأتى بها الانضباط ويتسنى بها الاستنباط، فقيض الله لها زمرة من فضلاء الأئمة وعصابة من أعلام الأمة. فاستثمروا من استقرائها

فوائد جامعة، وكليات نافعة فسموها أصول الفقه فشدها (كذا) (لله) بالتحرير والتبيين والتصنيف والتدوين جزاهم الله عنا أفضل الجزاء، وقسم لهم في مستقر رحمته أوفر الأجزاء.

هذا وإن من أحسن الكتب المؤلفة في علم الأصول وأكثرها جمعا وتحريرا للنقول كتاب الإمام المحقق الماهر المدقق أبي نصر عبد الوهاب ابن الشيخ تقي الدين أبي الحسن السبكي - سقى الله ثراهما - المسمى بجمع الجوامع، فلقد واللهِ أجاد فيه غاية الاجادة، وأمْتَعَ ذوي الألباب بالحسنى وزيادة، وأحسن ما شاء تنميقا وتحبيرا وتحقيقا وتحريرا، غير أنه من فرط الشغف بالإكثار مع حسن الاختصار لم يلم بالدلائل ولا بين وجوه المسائل، مع أن كثيرا منه صعب المدرك وعْر المسلك، فافتقر إلى شرح يوضح مشكلاته ويوجه مقفلاته. وقد انتهض الله جماعة من الفضلاء وعصابة من الأجلاء فشرحوه بشروح، منها البالغ في الإيضاح والبيان والإفصاح، وقد أغفل كثيراً من الدقائق، ومنها البالغ في الإيجاز إلى درجة الإعجاز فلا يكاد تتخلص منه الحقائق. غير أن كلا منهم قد أبلى في النصح والنفع بلاء حسنا، وانتهج من مناهج العلم والدين سننا، جزاهم الله من النعيم المقيم ما يليق بجوده الفائض وفضله العميم، فحداني الشوق إلى مسايرتهم واستحلاء معاشرتهم رجاء الالتحاق بالعلماء الأبرار والانخراط في سلك الخيار إلى وضع هذا التقييد، وأنا أرجو من الله أن يكون متجافيا عن الإخلال، وافيا إن شاء الله تعالى لقسمي التصوير والاستدلال، مع ذكر فوائد أخرى قد احتوى عليها الوطاب، والتنبيه عن بعض ما يقع في الشروح بما هو فصل الخطاب، ولم أر لأصحابنا المالكية من شرحه شرحا يعتد به في هذه المطالب حاميا للحقائق إذا اختلفت المذاهب، فكان ذلك مما حرك عزمي إليه وأوجب التزامي عليه. على أني لاَ أُعَد في العير ولا في النفير وإنما أنا كالحادي وليس

له بعير، رائم للإنباض بلا توتير والإفضال على تقتير، ولكن المرجو فضل الله تعالى الذي لا يتوقف على علة، ومراده الذي لا يكسبه كثرة الانفاق قلة، إنه ذو الإحسان القديم وذو الفضل العظيم، وسميته البدور اللوامع في شرح جمع الجوامع. والله أسأل أن يجعله سببا يقرِّبني إليه ويزلفني لديه وينفع به المسترشدين آمين.

فائدة : اعلم أن فائدة معظم فوائد التأليف شيآن، وهُما : تحرير ما نُقل، والتنبيه على ما أُغفِلَ، وأن حقا على كل مؤلف أن لا يدع قولا ولا بحثا ولا فائدةً مِّا صدرت عن غيره إلا نسب ذلك إلى مبتكره وأضافه إلى أبي عُذْرِهِ، فبذلك يتحرى الصدق وينصف من نفسه لغيره، ويعطي كل ذي حق حقه، اللهم إلا أن يكون (هنا بياض في النسخة) والظن بالناس مذموم. وإني في هذا الشرح إذا ذكرت ما لغيري نسبته له تصريحا، واحدا أو جماعة، أو تلويحا بنحو قيل كذا، واعترض أو أجيب أو نحو ذلك، وإذا ذكرت مالنفسي نسبته إلى نفسي تصريحا بنحو قلت أو أقول أو تلويحا بنحو قولي. والجواب كذا أو الاعتراض كذا أو نحو ذلك، وربما يقع لي بحث فأنسبه لنفسي ثم أجده بعد ذلك لغيري فلا أزيل تلك النسبة إذ لا يضرني كما قدمت، وربما أجمل عدة أبحاث بعضها لي وبعضها لغيري اتكالا على تعرف ذلك في الخارج.

قال رحمه الله : نحمدك، أي نثني عليك، والحمد قيل هو المدح فهو الوصف بالجميل وليس مقلوبا عنه لكمال التصاريف فيهما، وقيل هو أخص فهو الوصف بالجميل على الجميل الاختياري، وقيل أخص من هذا فهو الوصف بالجميل على الجميل الاختياري على وجه التعظيم، فخرج بقيد الجميل الوصفُ بالقبيح كالجبن والبخلِ فهو ذم، وبالاختياري الوصفُ بالجميل غير الاختياري، كوصف اللؤلؤة بالبياض الصافي والجارية برشاقة القَدِّ مثلا فهو

مدح[24] لاحمدٌ، وخرج بالقيد الأخير الوصفُ بذلك لا على وجه التعظيم بل على وجه التهكم، كا في قوله تعالى : ﴿**ذُقْ إنك أنت العزيز الكريم**﴾. هكذا يتداولون، وفيه نظر، إذلا ينحصر الوصف بذلك في القسمين يعني التعظيم والتهكم بل قد يكون لغير ذلك كمجرد الإخبار وكالتخصيص وتقليل الاشتراك ونحو ذلك، مثلا لو قال قائل : الله تعالى عالم أو قادر تلْقيناً للجاهل وإعلاما بما يجب أن يعتقد لم يكن واحدا من القِسْمين، وكذا لو قال : أفلاطون من الأطباء لا من المنجمين وأبو حنيفة من الفقهاء لا من المنجمين، وظاهر أن ذلك كله ونحوه ليس بحمد إذ لم يقصد فيه الثناء فوجه أن يقال : قيد التعظيم لإخراج التهكم[25] وغيره. والجميل شامل للفضائل الذاتية كالعلم والقدرة والفواضل المتعدية كالإعطاء والإفضال. **واعترض** بأن الاختياري ينافي الذاتي فيلزم أن يكون الوصف به ليس حمدا، وأجيب بأن الاختياري أعم من الحقيقي والحكمي، فالذاتي اختياري بحسب ثمرته كالقدرة ثمرتها الإعطاء والإحياء مثلا، والعلم ثمرته التعليم، والشجاعة ثمرتها الإقدام والحفاظ، فالحمد عليها حمد على هذه الثمرة.

قلت : ويلزم التجوز في التعريف مع أن ادعاء[26] لزوم ملاحظة هذه الثمرات عند إطلاق الثناء مما لا يسلم أصلا. وأنت خبير بأن مراعاة[27]

---

24) أي مدح لغوي أما المدح عرفا فهو فعل يدل على مزية في الشيء.

25) في هامش النسخة بل التهكم خارج بقولنا بالجميل نظرا للمعنى المقصود باللفظ.

26) في الهامش :

ادعاء لزوم ملاحظة الثمرات هنا لا يسلم.

27) في الهامش :

مراعاة الوصف الاختياري في تعريف الحمد إنما يحسن إن جُعِلَ مرادفا للشكْر، والمشهور العموم والخصوص من وجه بينهما اهـ.

الوصف الاختياري إنما يحسن إذا جعل الحمد مرادفا للشكر أو أخص منه مطلقا، والمشهور أنه أعم من وجه كما سنبينه لوقوعه على الكمالات كلها : فضائلها وفواضلها، فلا فرق حينئذ بين الاختياري وغيره، وإن أريد الاحتراز عن الجماد لكونه يمدح ولا يحمد كما وقع في عبارة بعضهم[28] فالواجب الإتيان بعبارة أخرى تفهم المراد كأن يقال : هو الوصف بالجميل القائم بالمختار ونحو ذلك، لأنه معلوم أن المختار يقوم به غير الاختياري. **واعترض** أيضا بأن الجميل إذا وصف به كأن يوصف الجواد مثلا بكونه جوادا على وجه الحمد فقد صار المحمود به هو المحمود عليه، فكيف يتّحِدان والغرض أنهما غيْرَانِ. وأجيبَ بأن المغايَرَةَ الاعتبارية كافية، **قلت** بمعنى أن الجود مثلا من حيث إنه وقع الوصف به فهو محمود به، ومن حيث إن الحمد كان لأجله وفي مقابلته فهو محمود عليه. والأظهر أن الحمد بكذا مشعر بالثناء عليه فلا يكون إلا كمالا كالعلم والجود مثلا، والحمد على كذا مشعر بالشكر والجزاء عليه فلا يكون إلا إحسانا وإنعاما، والأول أعم من الثاني، كما علم من كون الحمد أعم من الشكر متعلقا.

---

28) قد قال غير واحد : المحمود به لا يشترط كونه اختياريا والمحمود عليه يشترط فيه ذلك وعليه اقتصر العلامة عبد السلام في شرح القادرية والمختصر، واقتصر عليه غير واحد من المحققين وعليه العلامة اليازغي قائلا : الحق مع الإمام أي الفخر الرازي أن المحمود عليه يشترط فيه كونه اختياريا وأن الحمد والمدح متغايران، ولذا يقال : مدحت اللؤلؤة على صفاتها ولا يقال حمدتها، ومن زعم أن الحمد والمدح أخوان يلزمه أن يصح : حمدت اللؤلؤة وهو خلاف الاستعمال اهـ. قلت : قد يجاب بأن هذا الاستعمال عرفي حادث مُوَلّد كما قيل، والكلام في أصل الوضع اللغوي، وقد صرح أئمة اللغة بالترادف فكيف يتعب الوضع الأصلي بالاستعمال اهـ لكن رد هذا بأن المراد هنا الاستعمال اللغوي العرفي وفيه نظر اهـ خط ابن الخياط.

ثم إن المصنف رحمه الله تعالى أتى بالجملة الفعلية لإشعارها بالتجدد بخلاف الإسمية، **واعترض المصنف** أن هذا الكتاب نعمة جديدة فناسبها ذكر ما يفيد تجديد الحمد وهذا عذره في أن لم يأت بنحو الجملة القرآنية لأن كلام الله تعالى قديم فناسبه الإسم الدال على الثبوت، ولكون الفعلية أصرح في الدلالة على صدور الحمد من المتكلم[29] وأتى بالمضارع لما فيه من الدلالة على التجدد مع الاستمرار كقوله :

أوَ كلَّما وردتْ عكاظَ قبيلة بعثوا إلى عريفهم يتوسم

وليس المراد منه الإخبار بل الإنشاء، وأن اللفظ إخباري وهذا معنى قول المحلّي إيجاد الحمد، والاعتراض عليه بأن الإيجاد فعل الله تعالى، ساقط، إذ لا مانع من أن يضاف إلى العبد كسبا كما يضاف الفعل إليه. وقوله : لا الإخبار بأنه سيوجد، رعاية لكون الغالب في المضارع الاستقبال عنده أو لكون الاستقبال أوفى بالإخبار، إذ لا يتأتى الإنشاء إلا في الحال. والاعتراض عليه بأنا إن قلنا : إن المضارع حقيقةٌ في الحال، مَجاز في الاستقبال فلا إشكال، إذ لم يذهب أحد إلى العكس، أو هو مشترك، فلا يشك أحد في أن العاقل إذا قال في مقام الحمد : نحمدك لم يُرِدْ الآن لا أشتغل بحمدك ولكن سأفعله مندفع. أما أوَّلاً، فلأنَّ دعوى أنه لم يذهب أحد إلى العكس باطلة، إذ ذهب إليه ابن طاهر وهو لازم قول الزجاج أنه لا يكون إلا مستقبلا

---

29) قال الفتح:الذي يقتضيه جانب البلاغة رعاية المحمود عليه فإن كان صفة ثابتة كصفة الرؤية في الفاتحة جيئ بالجملة الإسمية وإن كان أمرا متجددا حادثا جيئ بها فعلية كما في قول المصنف نحمدك اللهم إلخ اهـ وأورد عليه قوله تعالى : ﴿**الحمد لله الذي وهب لي على الكِبَرِ**﴾ ونحوه وأجيب بأنه قصد في ذلك تعليق الحمد بالذات فإنه تعالى يستحق الحمد لذاته ولنعمه فإن قبل الحمد لله الرزاق مثلا تارة يغلب جانب الأول فالمناسب الأسمية وتارة الثاني فالمناسب الفعلية اهـ من خط ابن الخياط.

بالطريق الأحرى. وأما ثانيا فلأنه إنما نفى الاستقبال ولم ينف الاشتغال في الحال، على أنه لايسلم أن الاستقبال بالثناء لايتوهم أو لايراد كيف وذلك قد يقع صريحا في كلام العرب كما قال جرير :

سأشكر إن رددت علي ريشي   وأثبت القوادم في الجناح

ونحوه كثير، وأتى بالنون إما إرادة لنون العظمة لإظهار ملزومها من تعظيم الله تعالى بتأهيله للعلم لأنه نعمة يُتحدَّث بها كما قال تعالى : ﴿**وأما بنعمة ربك فحدث**﴾، على ما وقع عند المحلي ومعناه أن العظمة لازم من لوازم التعظيم وتابع من توابعه، فينتقل منه إليه على طريق الكناية كما ينتقل من طول النجاد إلى طول القامة، فلا يردُ عليه أن اللازم لا يقتضي الملزوم بل العكس.[30] نعم لو قال : لإظهار لازمها كان أبين، إذ اللازم ما لم يكن ملزوما لا ينتقل إليه. ولا يردُ أيضا على هذا أن العظمة لا تصلح في هذا المقام بل التذلل والخشوع الأنسب بحال العبد بين يديْ سيده، لأن أحوال العبد تختلف باختلاف الواردات عليه والمقامات التي يقام فيها، فقد يشاهده الله تعالى حال نفسه الضعيفة العاجزة والسيئة المذنبة فيذل ويخضع أو يخاف ويخشع، وقد يشاهده حال انتسابه إلى السلطان العظيم وسبوغ فضله العميم فينتعش ويتقوى ويفخر ويطرب. وإما إرادة نون المشاركة كأنه يرى لعظمة جلال الله تعالى وكثرة نعمه أنه لا يقوى على حمده وحده حتى يدخل في جملة الحامدين من الإنس والملائكة والجن وكل من يتأتى منه الحمد، ﴿**وإنْ من شيء إلا يسبح بحمده**﴾، أو لكونه في جماعة أولى لما يرجى منه بركة الجمع، ولأن عملهم أكثر ثوابا ودعاءهم أرجى للقبول إلى غير هذا مما يقال في هذا.

30) تورد على المحلي

ويحتمل أن يكون قصد مجرد الاستحقاق ليشعر به، بمعنى أن حمد الله تعالى والثناء عليه من شأنه أن يتواطأ عليه عباده ولا يتخلف منهم أحد، إذ هو تعالى المستحق لذلك، ويحتمل أن يريد التعريض تهييجا للسامعين ولغيا على الغافلين، وأتى بكاف الخطاب تلذذا بمناجاة الله تعالى، وإيماء إلى أن الحمد واقع منه على الوجه الأكمل وهو الإحسان كما في الحديث أن تعبد الله كأنك تراه، أو لأنه لما توجه إلى الثناء على الله تعالى فاستشعر النعم العظيمة العميمة العاجلة والآجلة الحسية والمعنوية، ورأى نفسه غارقا في بحار المنة رافلا في حلل الفضل لم يتمالك أن أقبل بيسره وتوجه بكليته إلى من هذه المنة منه وهذا الصنيع الجميل صنيعه فقال مخاطبا له : نحمدك **اللهم** أي يالله.

واختلف النحويون فيه فقيل الميم المشددة عوض من حرف النداء فلا يجمع بينهما إلا شذوذا كما في قول الراجز :

إني إذا ما حدَثٌ ألَمّا أقول ياللهم ياللهما

وهذا مذهب البصريين. وذهب الكوفيون إلى أن الميم بقية جملة أصلها أمنا بخير مثلا، أي اقصدنا، فحذفت الفاء وأنه لا يجوز الجمع بينهما وبين حرف النداء في الاختيار. ويُردُّ هذا بأنه لو كانت هناك جملة للوحظت فيقع العطف عليها ويستغنى بها عن جواب الشرط مثلا، وكلٌّ ذلك اللهم، إلا أن يقال : كان ذلك في الأصل وتنوسي. وهذا الاسم الشريف هو الاسم الأعظم. ولذا اعتبره دون غيره كما اعتبر في جملة الحمد لله. وقد ذهب بعضهم إلى أن الميم للصفات والله للذات، فمن ذكره فقد ذكر الذات وجميع الصفات، وحكَوْا عن الحسن البصري أنه قال اللهم، يجمع الدعاء وعن النضر بن شميل أنه

قال : من قال اللهم فقد دعا الله بجميع أسمائه، وعلى هذا يحسن ذكره في الابتداء، غير أن هذا الكلام ضعيف. وقال آخرون : الميم للمبالغة كهي في زرقم لِشَديدِ الزرقة، وهذا أقرب وإن كان لا يتساويان، ولكن المبالغة في الاسم الأعظم ترجع إلى معنى التعظيم فافهم. والاسم الأعظم جامع للذات والصفات من غير اعتبار الميم **على نعم** جمع نعمة. والتنكير للتكثير والتعظيم كما في قوله تعالى : ﴿**وإن يكذبوك فقد كذّبتْ رسل من قبلك**﴾، أي كثيرون عظماء. والنعمة إما أن يراد بها المنعم به كالعلم والدين والتوفيق ونحو ذلك، ومنه تأليف الكتاب والإلهام إليه والإقدار عليه وإزالة العوائق عنه فيكون الحمد عليها من حيث صدورها منه تعالى، وإما أن يراد بها الإنعام وهو الصفة الفعلية، فإن الإنعام راجع إلى القدرة الأزلية بإيجاد النعمة أو توصيلها تعلقا تنجيزيا، فيكون الحمد عليها حمدا على الصفة من حيث متعلقها والأول هو أقرب للفظ وأنسب لموقع الشكر والثاني هو الأصل وأنسب بموقع الحمد. وبين الأمر تلازم وتضايق كما قررنا، فإن جميع الصفات الفعلية هي نسب بين الذات العلية وبين القدرة الأزلية وبين الآثار الكونية كما تقرر في محله فلا إشكال، إذ في كلا الجانبين يلاحَظُ الآخَر.

واعلم، لما قَرَنَ هنا بالنعمة صار شكرا، فالشكر هو فعل ينبئ عن تعظيم المنعم لكونه منعما سواء كان بالفعل ثناء باللسان أو محبة وتعظيما بالجنان، أو عملا من خدمة ونحوها بسائر الأركان، فالشكر أعم من الحمد من وجه لأن متعلق الشكر خاص وهو النعمة ومورده عامٌّ هو اللسان وغيره، والحمد بالعكس متعلقه عامٌّ وهو الكمال مطلقا ومورده خاص وهو اللسان، إذ لا يطلق الثناء إلا به، وهذا إما بحسب الصراحة ولسان المقال، وإما بحسب لسان الحال فالأعضاء كلها تثني كما قال تعالى : ﴿**وإنْ من شيء إلا يسبح بحمده**﴾، فكل شاكر حامدٌ، وقيل : الحمد أعم مطلقا، نظرا إلى المتعلّق وقيل مترادفان وهو تفسير كثير من أهل اللغة.

فإن قيل : أما الحمد في جانب الله تعالى فيجب أن يكون أبدا شكرا لأن النعم منه تعالى واصلة سابغة لا ينفك عبد من عبيده عنها، وحسْبُك منها نعمتا الإيجاد والإمداد، وهذا سواء جعلنا متعلّق الشكر وهو النعمة الواصلة إلى الشاكر نفسه أو مطلقا، قلنا : هي وإن كانت عامة موجودة لا يجب أن تلاحظ أبدا عند الثناء، فإن الحامدين لله تعالى يفترقون فرقتين منهم من يحمده تعالى لأجل ما أسدى إليه من النِعم، وفي ذلك شرفه وعليه محبته كما قال ﷺ : أحِبّوا الله لما يغذوكم به من النعم، ومنهم من يحمده تعالى لأجل ما هو عليه من عظيم الجلال وما اتصف به من نعوت الكمال وهذا أرفع، فإن حمد هذا لا يتبدل ومحبته لا تنتقص بانتقاص الآلآء، وهو مرجع قوله ﷺ : الحمد لله على كل حال. فإن قلت : وكيف يكون هذا أرفع وقد قالوا : إن الحمد في مقابلة النعمة واجب، وقالوا : الحمد المقيد أبلغ، قلت : في هذا اختلاف ولا إشكال على كل وجه، فإن طلبنا شرعا أن نقابل نعم الله تعالى بالشكر عبودية وامتثالا ثم قد يقف العبد هاهنا وقد يرتقي إلا الاشتغال بالمنعم عن النعمة والشريعة لا ترفع الحقيقة، والحقيقةُ لا تبطل الشريعة، وما كان واجبا في باب الشريعة فهو أبلغ مما كان ندبا بحسب الثواب، وهذا نظر، وذلك نظر يُوذِنُ أي يُعْلِم الحمدُ عليها بازديادها أي ازدياد تلك النعم المذكورة. والجملةُ صفة لنعم، والازدياد بمعنى الزيادة، وأبلغ منها يقال : زاد زيادة وازداد ازديادا، أو الدال الأولى مقلوبة عن التاء وهذا الكلام محتمل لمعنيين : أحدها أن يكون الحمد مشعرا بازدياد النعم أي بكونها ستزداد، لأن الشكر يتضمن الزيد قال تعالى : **﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾**. الثاني أن يكون الحمد مشعرا بازديادها أي بكونها قد ازدادت لأن الحمد عليها نعمة جليلة تستحق الحمد أيضا وهلم جرا. قال تعالى : **﴿وإن تُعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾**، وقال النبي ﷺ : لا أحصي ثناءً عليك، وقال الشاعر :

إذا كان شكري نعمة الله نعمة ... علي له في مثلها يجب الشكر

فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله وإن طالت الأيام واتسع العمر
إذا مس بالسراء عمّ سرورها وإن مس بالضراء عاقبها الأجر

وعلى الأول، فاقتضاء الحمد المزيد شرعي، وعلى الثاني عقلي، لأن حصول نعمة ثانية هي الحمد ازديادا والنعمة قطعا، وعلى كلا التقريرين الألف واللام في الحمد إما للعهد أي حمدنا السابق يؤذن بازديادها علينا وإما للجنس أي على نعم من شأنها أن الحمد عليها يؤذن بازديادها على الحامد أيا كان، فافهم.

تنبيه. يقال أذن بالشيء بكسر الذال إذنا وإذانا إذانة إذ علم به قال تعالى: ﴿**فَأْذَنُوا بحرب من الله**﴾ أي إِعْلَمُوا، وآذنتُه به أُعلمتُه. وزعم بعض اللغويين أن الإيذان إنما هو في العلم الذي يتوصل إليه بالسماع لا مطلق العلم. قلت : وكأنه اعتبره من الأذن بمعنى الجارحة، لأنه يقال أذن له وأذن إليه استمع. وفي الخبر : ﴿**ما أذِن الله لشيءٍ كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن**﴾، وكأنهم اعتبروا في قولهم أذن إليه استعمل أذنه فجائز أن يكون معنى آذنته القيت ذلك في أذنه، فيختص بما يسمع. فإن كان هذا مراده فيقال له : من الجائز أن يكون ذلك أصله ثم توسع فيه فأطلق في كل علم من أي طريق حصل، وهذا هو المعروف في تفاسير أهل اللغة والله أعلم.

ونصلي على نبيك محمد أي ننشئ الصلاة عليه من عندنا، أو ندعوك ونطلبك يارب أن تصلي عليه فيتولى ذلك. وفي الصحيح عن كعب بن عجرة رضي الله عنه قلنا : يارسول الله قد علِمْنَا كيف نسلم عليك فكيف نصلي عليك فقال : «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد» هـ. ومعنى صلاة الله على نبيه تعظيمه وإكرامه ومعنى الصلاة منا طلب ذلك. والتعبير بنصلي هو كالتعبير بنحمد

والنبي إنسان أوحي إليه، مشتق من النبأ وهو الخبر فخففت الهمزة لأنه يخبر عن الله تعالى أو يخبره الله تعالى، فهو فاعل أو مفعول، أو من النبوة وهي الارتفاع، لأنه رفيع المنزلة عليّ المكانة، أو من النبي بمعنى الطريق، لأنه طريق إلى الله تعالى. فحقيقة النبوة اختصاص سماع من الله تعالى بواسطة مَلَكٍ أو دونه، فإن أُمِرَ بالتبليغ بما أوحي إليه مع ذلك فهو رسول نبيء ولا عكس، وقيل : الرسول من كان له كتاب أو نسخ لبعض شرع من قبله، وغيرُه نبي. وقيل : هما مترادفان، وفيه كلام آخر مشهور لا حاجة إلى الإطالة به. وإنما عبر بالنبي دون الرسول لأن النبي أكثر استعمالا أو لأن الرسالة تفهم من الاسم العَلَم، أو من الوصف بعده، فيكون قد وصف بالوصفين، أو لملاحظة أفضلية النبوة على الرسالة على ما هو رأي الشيخ عز الدين، والراجح خلافه. نعَمْ لفظ النبوة يشعر بالرفعة أو حصول العلم من الله تعالى دون لفظ الرسالة.وقد أخل المصنف بذكر التسليم مع الصلاة وقد كره إفرادها عنه، ولو قال : ونصلي ونسلم الخ لوفى. **ومحمد** اسم علَمٌ عليه ﷺ، ذكره ليذهب اللبس، وهو منقول من اسم مفعول المضعف الدّالّ على المعنى بطريق المبالغة، وهو أبلغ من محمود، فالمحمد هو الذي يحمد كثيراً، وفي الصحاح أيضا المحمد هو الذي كثرت خصاله المحمودة قال الشاعر :

إلى الماجد القرم الجواد المحمد

ولا شك أنه ﷺ قد صح فيه الاعتبارات معا فإنه محمود كثيرا وخصاله المحمودة كثيرة. وقد روي أن جده عبد المطلب لما سماه بهذا الاسم قيل له : لم سميت ابنك محمداً وليس من أسماء آبائك ؟ فقال : رجوتُ أن يحمد في السماء والأرض. وقد حقق الله رجاءه فإنه محمود على ألسنة الملائكة ومومن الإنس والجن، ومحمودٌ بلسان الحال من الجميع ومن جميع الأكوان. وقد حمده الله تعالى أيضاً قال تعالى : ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾، وقال

تعالى : ﴿**بالمومنين رؤوف رحيم**﴾ إلى غير ذلك، **هادي الأمة** أي دالها **لرشادها** أي لما فيه رشادها من الدين القويم والصراط المستقيم.

واعلم أن الهدي يراد به معنيان : أحدهما الدلالة والإرشاد كما قررنا ويتعدى بنفسه وبحرف الجر، تقول هديته الطريق وهديته إلى الطريق أي أرشدته. الثاني التوفيق بخلق الهدى في القلب وهذا لا يكون إلا لله تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

وأما الأول فبه يوصف ﷺ، قال تعالى : ﴿**وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم**﴾، والأمة قد يراد بها أمةُ الإجابة وهم المومنون، وقد يراد أمة الدعوة وهم جميع الناس، ويصحان معا هنا، لأنه ﷺ دال الجميع على الطريق فأقبل الموفق فاهتدى وأدبر المخذول فضلَّ. ولابأس أن يلاحظ في الوصف معنى القوة والفعل. وألْ في الأمة للعهد الذهني والحضوري، أو نائبة مناب الضمير. والرشادُ الاهتداءُ، يقال رشد بفتح العين وكسرها رشْدا ورشَدا ورشاداً ويراد به هنا إما معناه ولا مانع منه وإما ما يكون به أو فيه من الدين كما قررنا أوَّلاً، ويجوز أن يراعى رشاد كل قوم بحسبهم على اختلاف طبقاتهم من عوام المسلمين إلى خواص العارفين. والنبي ﷺ هو المتكفل بإرشاد الكل وترقيهم ظاهرا وباطنا، كلٌّ إلى ما قسم له. وقد فعل ﷺ فبلغ وأوضح وأرشد ونصح، فالوصف ثابت له ﷺ، ولذا وقع نعتا للمعرفة قبله. **وعلى آله** أي آل نبيك ﷺ، والمشهور أنهم من آمن من بني هاشم، والاختلاف في ذلك معلوم، وأصله أهل لأن أهل الرجل عشيرته، قُلِبَتْ الهاء همزة ثم قلبت الهمزة ألفاً، وقيل : أصله أول ثم قلبت الواو ألفاً من آل يؤول بمعنى رجع لأنهم يرجعون إليه، وفي إضافته للضمير اختلاف، ولا يضاف إلا لذي شرف من أهل العلم ولو دنيويا، كآل فرعون، وما سوى هذا نادر. **وصحبه** أي صحب نبيك ﷺ وهو اسم جمع بمعنى الأصحاب، وأصحاب

النبي ﷺ كل من اجتمع به مؤمنا على ما سيأتي تحقيقه في أثناء الكتاب. وبين الصحابة والآل عموم وخصوص من وجه، فلذا لم يكتف بواحد منهما عن الآخر. وفي نسخة الشارح أصحاب وهو جمع صاحب، ويقال الصحابي نسبة إلى الصحابة وهي في الأصل مصدر بمعنى الصحبة ثم تطلق على ذي الصحبة وينسب إليها على المعنيين. ظرفية مصدرية. **قامت الطروس** جمع طرس بكسر الطاء ويقال باللام بدل الراء والطرس الصحيفة أو التي محيت ثم كتبت، والجمع أطراس وطروس. **والسطور** جمع سَطر بفتح السين وهو في الأصل مصدر ويطلق على المسطور، قال الراجز. إني وأسطار سطرن سطرا. والجمع أسطار وسطور وجمع الجمع أساطير. وعطفه على الطروس عطف جزءٍ على كلٍ نظرا إلى محل النقش أو عطف حالٍ على مَحَل، نظرا إلى النقوش بأنفسها **لعيون الألفاظ** أي للألفاظ التي هي كالعيون في كونها يهتدى بها **مقام بياضها** أي بياض العيون **وسوادها** أي سواد العيون. والمعنى أنه جعل الألفاظ كالعيون الباصرة. وكما أن العيون مشتملة على سواد محفوف ببياض كذلك الألفاظ باعتبار وجودها في نقوش الكتابة الموجودة في الصحائف وهي الأوراق المكتوبة مشتملة على سواد محفوف ببياض، وكما تدوم العيون الباصرة بدوام بياضها وسوادها كذلك تدوم الألفاظ بدوام بياض الصحائف وسوادها وكما يهتدى بالثانية إلى المرئيات مادامت باقية كذلك يهتدى بالأولى إلى المعاني مادامت باقية هذا أسهل التقريرات والتنبيه فيه واضح كما قال الشاعر :

ولما أن نأت عنكم ديار   وحال البعد بينكم وبيني
كتبت لكم سوادا في بياض   لأبصركم بشيء مثل عيني

ووجه الشبه متعدد، بعضه حسي وهو السواد وبعضه معنوي وهوالا... ويصح أن تكون الألفاظ استعارة بالكناية عن ذوي العيون ووجه تشبيه

الألفـاظ بهـا أنهـا ذوات أجـزاء بعضهـا أشرف من بعض كالألفـاظ، وإثبـات العيون تَخَيُّلٌ لأنـه من خـواص المشبـه بـه، وذكر البيـاض والسـواد ترشيـح، وذكر الطروس والسطـور تجريـد. ويصـح أن يكـون شبـه معـاني الألفـاظ بالعيون إما في الاهتداء بها إلى ما وراءها من النسب والأحكام أو في الشرف، فـاستعـار لهـا العيون وذكر الألفـاظ تجريـد، وذكر البيـاض والسواد ترشيح، ويصح أن يراد بعيون الألفاظ خيارها. وعين الشيء لغة يطلق على خيـاره. والمراد بخيارها ما يبتغى منها فصاحـة وجزالـة وسلامـة للتـأليف والتحرير. وضمير بيـاضهـا وسـوادهـا للعيـون بـالمعنى الآخر، وهـو البـاصرة على طريـق الاستخدام. ويصح أن يريد بعيون الألفـاظ نقوش الكتـابـة وضمير بيـاضهـا وسوادها للألفاظ بحسب تلك النقوش. ويعتبر قيـام المحل بقيـام الحـالّ وفيـه تعسف مَّـا، وجعْل الضميرين للطروس والسطـور أشـد تعسفـا، وفي الطروس والسطور جِناس القلب. وعلى كل تقدير، فالمراد تـأييـد الحمـد والصلاة ببقـاء الصحائف، والمراد بقاء الكتب وبقـاؤهـا ببقـاء أهل العلم الآخـذين لـه منهـا والحـافظين لهـا وقيـامهم بـاق والحمـد للـه إلى قيـام السـاعـة، لقـول الصـادق المصدوق ﷺ : «لاتزال طـائفـة من أمتي ظـاهرين على الحق حتى يـأتي أمر الله» قال البخـاري : وهُم أهل العلم، يعني لأن أول الحـديث : من يرد اللـه به خيرا يفقهه في الدين، فدل السياق على أهل الفقه والعلم.

قلت : وفي التقييد بذلك عند المصنف فائدة أخرى وهي الإشـارة إلى براعـة الاستهـلال وهي الإشعـار بمقصـوده من الاشتغـال بعلم الأصـول، وقـد وقعت في كلامـه ثلاثـة محـال نشير إليهـا بطرف خفي : أحـدهـا قولـه أولا يؤذن الحمد بازديادها فإن النعم من أعظمها الاشتغال بهذا العلم والتأهيل لـه، وهذه النعمـة هي القريبـة لأن تراد، لأنهـا الحـاضرة، و لاشـك أن الازديـاد مناسب لهـذا العلم خصوصـا إذ هو علم الاجتهـاد والاستنبـاط، وبـذلـك تزاد

الأحكام وتتولد على الدوام. ولا شك أنها نعم متوالية، فالتعبير بالازدياد في نعم العلم يشعر بعلم الاجتهاد خصوصا وهو علم الأصول فافهم. الثاني قوله هادي الأمة لرشادها فإن الهداية الدلالة كما مر وهي في هذا العلم وفي علم أصول الدين وهما مجموعان معا في هذا الكتاب. الثالث ما ذكره هنا من التأييد بالكَتْبِ المشعِر بالعلماء، وهم القائمون بالدين المستنبطون له وذلك يشعر بهذا العلم لأنه آلة الاستنباط. **ونضرع** أي نخضع ونذل يقال ضرع بفتح الراء وقد يضم أو يكسر ضرعا بالتحريك وضراعة إذا خضع وذل، وأضرعه الغير. وفي المَثَلِ، الحُمَّى أضرعتني إليك وتضرع إلى الله ابتهل، **إليك يالله في منع الموانع** أي نخضع لك ونتذلل في سؤالنا لك يا ربنا أن تمنع عنا كل ما يمنع **عن إكمال** هذا الكتاب **جمع الجوامع** تأليفا وتحريرا. وجملةَ نضرع عطف على جملة نحمد ونصلي، والكُلّ إنشاء على الراجح، ويجوز ضبط الضاد بالتشديد. وأصله نتضرع فأدغمت التاء ولكن النسخة الأولى هي التي بخط المؤلف على ما قال المحلي،وَعِدَّاهُ بفي لأن المعنى أن الضراعة واقعة في هذا الأمر أو في شأنه،وأل في الموانع للجنس أو للعهد الذهني، لأن العوائق على الاشتغال ولا سيما ما هو خير كتأليف هذا الكتاب كثيرة في الوجود ظاهرة لا تخفى.

فإن قلتَ : إن الشيء إنما يوجد بوجود سببه وشرطه فلا يتوقع المانع حتى يتوقع السبب والشرط،فهلا اشتغل المصنف بطلب الأسباب من التوفيق والإقدار وتسيير الآلات والزمان وغير ذلك، وبعْدَ هذا يستعيذ من الموانع، فالجواب من أوجه : أحدها أنه كان يرى أن هذه الأسباب قد حصلت إذ لو لم تحصل لما توجه إلى الكتاب أولا ولا افتتحه فلم يبق إلا التحرر عن العوائق. الثاني أن الاشتغال باستدفاع الموانع أهم لكونها أكثر، إذ شر الدنيا أكثر من خيرها وأعوان الشر أكثر من أعوان الخير. الثالث أن يرى أن ذلك

كله حاصل بهذا السؤال، فإن الموانع إذا صرفت على العموم لزم من ذلك حصول الأسباب والشرائط إذ عدمها من جملة الموانع فافهم، والموانع داخل فيها الحسي والمعنوي، فإن وجد فيها ذكر عاقل فالجمع على فواعل صحيح بحسب التغليب حينئذ، والمجرور بعده متعلق به لا بمنع، وإنما عداه بِفِي لأنه ضمنه معنى عاق أو أبعد. والجوامع جمع جامع وهو وصف الكتاب فالجمع قياس وما وقع في بعض الشروح غلط. وأشار المصنف إلى تسمية كتابه هذا بجمع الجوامع، لأنه قد جمع الكتب الجامعة في هذا الفَنِّ، واحتوى على ما فيها، لأنه لم يتعرض لكثير من الاستدلالات وتسمية أرباب الأقوال إلا شيئا من ذلك ذكره لأمر اقتضاه كما سينبه عليه. والإكمال الذي طلبه المصنف إمَّا بحسب التأليف ليئلا ينبتر، وإما بحسب التحرير ليئلا يقع فيه خطأ أو حشو، وإما من الله تعالى بقبوله وإقبال الخلق عليه والانتفاع به علما وأجرا وغير ذلك، والظاهر أنه مضاف إلى المصنف في المعنى بدليل احترازه عن الموانع إذ لا تعتبر في جانب الله تعالى.

فإن قلت وهل يصح أن يضاف إلى الله تعالى ويكون له وجه ؟ قلت لولا بشاعة إطلاق لفظ الممنوعية في جانب الله تعالى لكان صحيحا من ثلاثة أوجه :

أحدها أن يراد أن المانع من إكماله تعالى هو سابق مشيئته فيرجع إلى معنى عدم إرادة الإكمال ولا نقص فيه أصلا والمصنف يستعيذ من ذلك كما يستعيذ من غضبه تعالى وسخطه. فإن قلت : وكيف يطلب منع هذا المانع وهو محال فإن المشيئة لا تُرَدُّ ؟ قلت : ذلك بحسب الباطن والحقيقة، وأما بحسب الظاهر والشريعة فالدعاء مشروع. ألاَ ترى أنا نطلب السعادة ونستعيذ من الشقاوة وذلك كله مفروغ منه. فإن قلتَ : هذا ظاهر ولكن تسلط المنع على المشيئة محال فإن القديم لا يتأثر، قلت : ذلك بحسب الآثار والتعلقات التنجيزية لا بحسب الصفات.

الثاني أن المانع هو المانع السابق بعينه حسيا أو معنويا، لأنـه من اللـه تعالى، إذ قدر في الأزل أن يكون وجوده مقتضيـا لعـدم فعل اللـه ذلـك فهو صحيح، لأن ذلك بحسب مشيئته ولا نقص فيه أصلا، فـإن الكل منـه وهـذا قريب من الأول.

الثالث أن يراد أن المانع هو ما يقوم من موجبات الحرمـان أو السلب عياذا بالله وهو الذي قبله أيضا فطلب المصنف من الله تعالى أن يعصمـه ممـا يسد عنه باب الفضل ويقطع عنه المدد.

ثم وصف كتابه بالوصف الحـاصل لـه أو المرجو أن يحصل فقـال **الآتي** أي الجـاني **من فن الأصول** بـإفراد فنٍ، إرادةً للجنس الشـامل لنـوعين من الأصول، وفي بعض النسخ بتثنيته تصريحا بالمراد أي من فن أصول الفقه وفن أصول الدين. والفن لغةً، الحال والضرب من الشيء جمعـه فنون وأفنـان وجمع الجمع أفانين قال امْرؤ القيس :

على هيكل يعطيك قبل سؤاله　　　أفانين جَرْيٍ غير كَزٍّ ولا وأيْ

أي ضروبا من الجري، فأطلق الفن على كل قسم من أقسام العلوم، لأنه ضرب منهـا، فيقـال للفقـه فن، وللنحو فن، وللأصـول فن، والمصَنِّف ذكر في هذا الكتـاب فنين : أصول الفقـه وهو المقصود بـالـذات، ولـذا قـدمـه وأشبعَ القول فيه، وأصول الـدين مع مـا ينـاسبـه من التصوف فهي ثلاثـة فنون في المعنى ولكنْ الآخران كأنهما مستطردان على ما سيأتي بيانه، ولـذا تصح نسخـة فن بـالإفراد إراداة لـلأول فقـط، وكل منهما سيـأتي تعريفـه وتحقيقـه، ومن مدخولها بيان لقوله **بالقواعد القواطع** أي الآتي بالقواعـد من فن الأصول، والقواعد جمع قاعدة وهي في اللغة اسم لمـا يثبت عليـه الشيء فقواعـد البيت أساسه وقواعـد الهودج خشبـات أربـع تحتـه يركب عليهـا، **والقـاعـدة في اصطلاح** النظار، كلية تنطبق على جزئيـات تعرف أحكامهـا منهـا، وسميت

بذلك على التشبيه لأنها صارت بجزئياتها كالأساس. وكيفيةُ استفادةِ أحكام الجزئيات من القواعد أن يُنْظَمَ قِياس على كل جزئية تطلب تكون تلك الجزئية صغراه والكلية المُسلمة كبراه، ومحمول الصغرى وهو الوسط هو موضوع الكلية فينتج المطلوب من حمل محمول الكلية على موضوع الجزئية هذا إذا اتخِذَ اقترانيا فإن اتخِذا استثنائيا اتخذ من شرطية متّصلة موضوع الكلية نفسها في مقدمتِها وهو الموضع في الاستثنائية ومحمولها في تاليها فينتج المطلوب. ومثاله في هذا الفن أن تقول : الأمر للوجوب حقيقة أي كل أمر للوجوب فهذه قاعدة، فإذا حاولنا إثبات الحكم في جزئية كأن نقول مثلا : الأمر في قوله تعالى وأقيموا الصلاة هل هو للوجوب فتكون الصلاة واجبة أم لا، فنقول على الأول :أقيموا الصلاة أمر بِالصلاة لغة والأمر للوجوب، فينتُج أقيموا الصلاة للوجوب وهو المطلوب، وعلى الثاني إن كان أقيموا الصلاة أمراً فهو للوجوب لكنه أمر فينتج أنه للوجوب، وبيانُ الصغرى في الدليلين اللغة وشهادة أهل العربية بأن صيغة افعل أمر، وبيان الكبرى ما يتقرر في هذا الفن من أن الأمر للوجوب فإن الفَنَّ إنما وضع لبيان هذه القاعدة ونحوها فافهم. ومثال ذلك في أصول الدين أن نقول مثلا إن صفات الله تعالى لا تكون إلا قديمة أعني القائمة بذاته تعالى وجل، لاستحالة اتصافه تعالى بالحوادث، فكلٌّ صفة من صفاته قديمة، فهذه قاعدة، فإذا حاولنا إثبات هذا الحكم في جزئية كقدرته تعالى و علمه فإنا نقول : القدرة صفة من صفاته تعالى، وكل صفة من صفاته قديمة، فالقدرة قديمة وهو المطلوب، أو نقول : إن كانت القدرة صفة له تعالى فهي قديمة لكنها صفة فهي قديمة.

فائدتان :

الأولى : القاعدة لابد أن تؤخذَ مُسَلَّمةً في الدليل لكونها قد ثبتت قبل ذلك إذ لا يستدل بما ليس بمُسلم.

الثانية : القاعدة قد توصف بالكلية فيقال قاعدة كلية، فتارة يراد به مجرد الوصف الكاشف إذ لا تكون القاعدة إلا كلية، وتارة يراد به الوصف المخصص فإن القاعدة قد تكون صريحة وقد تكون منطبقة على جزئيات هي أيضا قواعد باعتبار ما تحتها في الجنس السافل والعالي. وهذه الثانية تُوصف بالكلية لمزيد الشمول فيها فافهم. ووصف المصنف القواعد بالقواطع. وهو جمع قاطعة، إما بمعنى فاعل على لفظها لأنها تقطع الخصم أو الخصام أو الشك، وإما بمعنى مفعول كعيشة راضية بمعنى مرضية لأنها مقطوع بها بالنظر إلى المتن كآيات الكتاب والسنة المتواترة والاجماع المنقول تواترا، والدلالة كالمنصوص أو إليهما معا ولا إشكال، أو بحسب الدليل أو بحسب العمل فالقواعد كلها قطعية[31] بشيء من هذه الأوجه وإن كان في بعضها تجوز ولا تغليب. نعم في إطلاق القواعد تغليب، إذ في الكتاب ما ليس بقاعدة وهذا على ما مر من جَعْل من للبيان، وأما إن جعلت للابتداء أو للتبعيض فلا حاجة إلى هذا كما لا يخفى. **(البالغ من الإحاطة بالأصلين)** أي بأصول الفقه وأصول الدين، ولم يقل الأصولين للاختصار وهذا وصف الكتاب، يريد أنه بلغ من الاشتمال على هذين العلمين على وجه الإحاطة وهي أبلغ **مبلغ** أي بلوغ **ذوي الجد** بكسر الجيم أي الاجتهاد وذوي التشمير أي الخفة في العمل والحرص عليه، يقال شمر ثيابه إذا رفعها وشمر في الأمر إذا جد فيه. وقوله من الإحاطة بيان لمبلغ، قدّم عليه، أي بلوغهم من الإحاطة أو محل بلوغهم منها **الوارد من زهاء** أيْ قدر **مائة مصنف** أي كتاب مؤلف **منهَلاً** وهو مفعول وارد، والمنهل موضع الشرب والنَهَل الشرب الأول وبعده العَلَل، يقال نهلت الإبل بكسر الهاء نهلا ومنهلا والمنهل موردها، ويقال ورد الماء وورد المنهل إذا شرب منه أو أشرف عليه، فشبه المصنف كتابه بالشخص

31) المسئلة فيها قولان انظر الكمال.

او النعم الوارد، وشبه الكتب التي استمد منها في الفن بالمنهل المورود. ويجوز أن يجعل التشبيه في ذلك لنفسه وإن أضافه إلى الكتاب كما قال عقيل بن علقة.

قضتا وطرا من دير سعد وطالما ... على عدم بطحنه بالجماجم

فأسند قضاء الوطر إلى الرواحل، وكذلك العرب تفعل في مثل هذا. وزهاء بالمد وأَلِفُه منقلبة عن واو لأنه من زهوت وهو بيان لمنهل أي منهلا من زهاء مائة مصنف أي هو ذلك، ويجوز أن تكون للابتداء ويريد التجريد أي منهلا حاملا من ذلك، ويجوز أن يكون المجرور متعلقا بالوارد كما تقول وردت من الماء أو من الحوض أي رويت منه أو تضلعت أوجيئت، ويكون منهلا على هذا إما حالا من زهاء مائة مصنف أي حالة كون ذلك المورد منهلا، وإما من ضمير الوارد أي حالة كون الوارد منهلا. ثم وصف المنهل بقوله **يروي** بضم الياء وكسر الواو أي كل عطشان، وهو من قولك روي من الماء بكسر الواو ويروى وأرويته أنا **ويمير** بفتح الياء وضمها أي كل جَوعان، وهو من قولك مارَ أهله وأمارهم إذا أتاهم بالطعام، وحذف المفعولين لقصد التعميم كقولهم : فلان يعطي ويمنع. فعلى المعنى الأول يكون المصنف قد وصف كتابه بأنه ورد المنهل الذي من ورده روي وشبع، فيلزم من ذلك أن يكون كتابه قد روي وشبع، وذلك كناية عن امتلائِهِ بالعلم وإحاطته بالأصلين كما قال أولا. وعلى المعنى الثاني يكون قد وصفه بأنه قد ورد من نحو مائة مصنف فصار منهلا يروي ويشبع، وذلك كناية عن كونه من الإحاطة والتحرير بصدد أن يكتفى بالمشتغل به. وفي وصف المنهل بما ذكر مبالغة ولطافة، إذ المناهل إنما تعرف بالأول فقط وهو الإرواء.

فإن قلتَ : الانتفاع بالعلم شيء واحد فلِمَ أثبت شيئين فقال يروي ويمير ؟ **قلت :** ذلك كناية عن الاكتفاء التام وانتفاء الحاجة على العموم.

فإن الجائع وإن روي من الماء محتاج إلى الطعام والعطشان، وإن شبع محتاج إلى الماء فمن شبع وروي فقد اكتفى. **فإن قلت :** الطعامُ في العادة هو السابق تناولا ثم الماء بعده فهلا قدَّم يمير على يروي ؟ **قلت :** ليس مع الواو ترتيب، فالمراد الجمع بين الوصفين، وإنما قدم يروي في اللفظ لأنه أنسب بالمنهل فكأنه قال : يفعل ما تفعله المناهل ويزيد. **فإن قلت :** الامتياز إنما هو جلب الطعام ولا يستلزم الإشباع المقصود للمصنف، **قلتُ :** لاشك أن الميار في العادة قائم بأهله فهو في مظنة أن يكفيهم وذلك المراء (**المحيط بِزُبْدةِ**) أي خلاصة **ما في شرحَيّ** بفتح الحاء وتشديد الياء على التثنية أي ما في شرحي **على المختصر** لابن الحاجب وشرحي على **المنهاج** للبيضاوي **مع مزيد** عليهما كثير أي مع فوائد مزيدة كثيرة أو مع زيادة كثيرة. وذكر الزبدة كأنه لم يأت بكل ما في الشرحين من التوجيهات والتفريعات ونحو ذلك. وما ذكر من كون الشرحين لهِ هو على التغليب وإلا فصدر شرح المنهاج لوالده على ما قيل، وكمله المصَنف. ثم ما ذكر من زبدة ما في الشرحين إما أن يريد أنها زيادة على ما تقدم من مضمون زهاء مائة مصنف، وإما أن يريد أنها هو ذلك بعينه فكأنه ضَمَّنَ ذلك شرحيه، ثم نقل ذلك إلى هذا الكتاب، والأول أبلغ وأنسب بتعداد الأوصاف والواقع في كلامه، والثاني أقرب إلى الصحة إذ يبعد كون ما في شرحي هذين الكتابين الجامعين الجليلين زيادة على مائة مصنف كيف ولا يفوتها من الأصول إلا قليل، اللهم إلا أن يريد المصنف أنَّه لم يأت بما في المائة بل يلتقط فوائد وفرائد ويريد مثل ذلك في الشرحين. وعلى الاعتبار الثاني ففائدة ذكر هذا الوصف التنبيه على مظان المراجعة. ويحتمل أن يكون المزيد الذي ذكر هُو ما من مائة مصنف، ويحتمل ما جاء به من غير ذلك كله أو من عندياته. ثم المائة يحتمل أن تكون من كتب الأصول كلها أو مطلقا، إذ صاحب هذا الفن يستمد من فنون كثيرة أخرى.

(وينحصر) أي الكتاب وهو جمع الجوامع أو ما فيه من العلم استقراء **(في مقدمات)** بكسر الدال ويجوز فتحا وسنفسرها **(وسبعة كتب)** لأن المذكور فيه إما مقصود بالذات لنفسه أولا بل مقصود لغيره، إذ ما لا يقصد أصلا لا يذكر لأنه عبث، فإن كان الثاني فهو المقدمة، وأما الأول فما كان القصد فيه إلى استنباط الأحكام،فالبحث إما عن نفس الاستنباط وهو الاجتهاد وما يتبعه من الاستفتاء والتقليد.وإما عن ما تستنبط منه، وذلك إما بحسب أخذ الحكم منه وهو الكتب الخمسة أعني الكتاب والسنة والإجماع والقياس والاستدلال، وإما بحسب التعديل فيه عند التعارض وهو الكتاب السادس. وإنما قلنا إن الحصر استقراء لأن الحصر القطعي إنما هو ما يدور بين النفي والإثبات وليس هذا منه. ومعنى الاستقراء هاهنا أنه تتبع ما في الكتاب أو العلم فوجد لا يتعدى ما ذكر.

واعلم أن انحصار الشيء في الشيء ينقسم إلى قسمين،لأنه إما في أمر داخل فيه بوجه أو في أمر خارج،الثاني كقولنا انحصر زيد في السجن وانحصر أمر الأمير في إقليم كذا أي لا يَعْدُوه إلى غيره، والأول ينقسم إلى قسمين، لأنه إما في أجزائه أو في جزئياته،الأول كانحصار السرير في الخشب والمسمار مثلا والبيت في الجدار والسقف مثلا والثاني كانحصار الكلمة في الاسم والفعل والحرف. والفرق بينهما أن الأول لا يصدق اسمه إلاَّ على المجموع ويقال له كُل، والثاني يصدق على كل واحد ويقال له كُلِّي، فالأول اسم للجملة والثاني اسم لمفهوم واحد يوجد في كل فرد من تلك الأقسام كما سيأتي بيانه.

إذا علمت فاعلم أن انحصار الكتاب فيما ذكر من المقدمة وسبعة كتب هو من انحصار الكل في أجزائه إذ هو صادق بالمجموع ولا يسمى كتاب منهما وحده جمع الجوامع ولا علم الأصول، بل جزءا من ذلك، ثم الانحصار فيما ذكر أن الضمير للكتاب ظاهر لأن ما ذكر من أصول الدين، وخاتمة التصوف داخلة في ضم الكتاب السابع. ألا ترى أنه لم يفرد لها كتابا ولا فصلا. فقد

صدق أنه ليس في الكتاب إلا مقدمة وسبعة كتب، وإن كان الضمير لما في الكتاب من حيث هو هو فكذلك أيضا، وإن كان لما فيه من حيث إنه أصول الفقه خصوصا، وهذا إنما يتأتى على إفراد فن فهو صحيح أيضا كان المذكور من أصول الدين وخاتمة التصوف، وإنما ذكر تذييلا واستطرادا وذلك أنه لما ذكر التقليد في الفقه مع الاجتهاد استطرد التقليد في الاعتقاد فذكر ما يعتقد وختم بالتصوف المناسب وفيه ذكر الكسب المذكور مع التوكل، وأما ما وقع في المقدمة على هذا من تعريف الفقه وتعريف الحد والدليل ونحو ذلك فهو من جملة ما يتعلق بالأصول على ما سيأتي إن شاء الله تعالى فلا إشكال.

الكلام في المقدمات جمع مقدمة بكسر الدال المشددة بمعنى متقدمة من قدم اللازم بمعنى تقدم قال الله تعالى: ﴿**لا تُقَدِّموا بين يَدَيْ الله ورسوله**﴾؛ ومن ذلك مقدمة الجيش لطائفة تُقَدّمُ أمامه، ويجوز أن يكون من قدم المتعدي بمعناه، يقال قدم القوم يقدمهم كنصر ينصر وقدمهم وتقدمهم بمعنى، أو المعنَى أنها تقدِّم للطالب أمورا يحتاج إليها قبل المقصود أو أنها تقدمه بتحصيل ما فيها أو ما بعده على أقرانه أو نحو هذا. ويصح فتح الدال كمقدمة الرجل. وروي أيضا في مقدمة الجيش بمعنى أنها قدمت أمام المقصود. وحقيقتها في اصطلاح الحكماء القضية المجعولة جزءا من الدليل أيا كانت،وأما في اصطلاح غيرهم[32] فهي الطائفة من الكلام تتقدم أو تقدم بين يدي المقصود للانتفاع بها فيه، وهو المراد هنا هكذا يعبرون، وكأن المسألة

---

32) انظر مع عزوه لاصطلاحهم ولا مشاحة في الاصطلاح مع أخذه في الجملة من مقدمة الجيش الطائفة المتقدمة وأيضا لا تكاد توجد مسئلة واحدة في المقدمة والنادر لا حكم له، على أن الطائفة تصدق بالقضية الواحدة كما قيل في قوله تعالى: ﴿**فلولا نفر من كل فرقة..**﴾.

الواحدة لا تكون مقدمة ولا يصح ذلك. والصوابُ أن يقال:شيء من الكلام يقدم الخ أو ما يقدم بين يدي المقصود أو نحو هذا من العبارات. وإنما قلنا للاندفاع ليكون التعريف شاملا لقسمي المقدمة، فإنهم يقسمونها إلى قسمين : الأول الضروري، وهو ما يتوقف عليه الشروع عقلا وذلك شيئان :أحدهما تصور العلم المشروع فيه بوجهٍ مَّا، الثاني التصديق بفائدةٍ مَّا، الثاني غير الضروري وهو ما سوى ذينك من كل ما ينتفع به في المقصود وللمقصود ارتباط به ولا ينحصر في حد معلوم. وإنما قيل في الأول إنه يتوقف الشروع عليه عقلا لأن الشيء إذا لم يتصور بوجه أصلا كان مجهولا على الاطلاق ولا يمكن طلبه لاستحالة توجه النفس إلى ما لا شعور به أصلا وهذا ظاهر وليس المراد من هذا التصور بالحد أو الرسم على الخصوص حتى يلزم أن يكون تقديم تعريف الشيء عليه من هذا القبيل،هذا باطل، إذ لا يتوقف الشعور المسوغ للتوجه على ذلك، وأما التصديق بفائدة ما فلا يسلم كونه من ذلك إذ لا يتوقف عليه التوجه. نَعَمْ التوجه بلا اعتقاد أصلا لا إجمالية ولا عينية عبث،[33] ولا يمنع وقوعه. وقد وقع في كلام الشيخ سعد الدين التفريق بين مقدمة العلم ومقدمة الكتاب بأن مقدمة العلم هي ما يتوقف الشروع عليه في مسائله، ومقدمة الكتاب طائفة من كلام قدمت بين يدي المقصود لارتباط له بها وانتفاع بها فيه، فيكون بينهما عموم وخصوص من وجه، إذ قد يقدم بين يدي المقصود في الكتاب ما يتوقف الشروع في ذلك العلم عليه، فيكون ذلك مقدمة للكتاب وللعلم، وقد يقدم ما ليس كذلك مما ينتفع به فيكون مقدمة للكتاب لا للعلم، وقد يؤخر ما يتوقف الشروع في العلم عليه أولا يكتب أصلا فهو مقدمة للعلم دون الكتاب. وقد مثَّلَ السعد

---

33) إن لم يكن بتكليف ونحوه.

في مطوله على التلخيص للقسم الأول بمعرفة حد العلم وغايته وموضوعه، فإن أراد التوقف عقلا وأنه لا يمكن التوجه إلى العلم ولا استحصاله إلا بمعرفة هذه الثلاثة فلا يسلم أصلا لبطلانه بالمشاهدة، وقد اعترف هو أيضا بذلك في كتبه كشرح الشمسية وقال : إن كثيرا من الطالبين يحصل كثيرا من العلوم الآلية كالنحو وغيره مع الذهول عن رسومها وغاياتها وإن أراد التوقف استحسانا بمعنى أن ذلك ينبغي لكونه يُعِينُ فصحيح، وقد نبه عليه السيد في شرح المواقف حيث قال العَضُد : المرصد الأول فيما يجب تقديمه في كل عِلْمٍ، يريد ما ذكرنا من التعريف والموضوع ونحوهما، فقال السيد : لم يُرِد بوجوب التقديم أنه لا بد منه عقلا بل أريد الوجوب العرفي الذي مرجعه اعتبار الأول والأخلق في التعليم انتهى. وحينئذ يرد على السعد فيما ذكر من الفرق بين مقدمة العلم ومقدمة الكتاب أن الأولى إذا أريد بها مجرد الانتفاع أيضا مع الارتباط فمقدمة الكتاب كذلك فلا فرق. ويُجَابُ بأن الملاحظ في الأولى كون مسائل العلم في نفسها مرتبطة بها متوقفة عليها نوعا من التوقف، سواء قدمت عليها أو أخرت أو كتبت ذلك أو لم يكتب، والملاحظ في الثانية كوْنُ الكتاب مرتبطا بها متوقفا عليه نوعا من التوقف سواء كان ذلك بحسب ما فيه من العلم أو بحسب صنعة التأليف أو ذكر دليل عليه أو أصل له أو سبب لم نقل بالتوقف العقلي في شيء من القسمين، نعم التصور بوجهٍ مَّا لا بد منه كما مر.

واعلم أن الذي جرت العادة بذكره في المقدمات ومبادئ العلوم عشرةٌ. وهي : اسم العلم ورسْمُه وموضوعه وواضعه وغايته ومسائله ونِسْبتُه وفضيلته وحكمه ومواده. ولا شك أن معرفة الاسم إنما هو لغرض التعبير عنه وذلك أمر سهل، والتحصيل بدونه ممكن، وكذا معرفة الواضع إنما هو لمزيد تبصر أو استفادة شرفٍ مَّا أو وثاقةٍ مَّا بسببه أو نحو ذلك، وكم من علم حصل ولم يُعْرَف واضعه الأول أو لم يتحقق كما في الموضوعات اللغوية. وذكر شمس

الدين ابن خلكان أن الإمام الشافعي رحمه الله هو أول من تكلم في علم الأصول والله أعلم، وكذا نسبته من العلوم في أنه كلي أو جزئي لا يتوقف عليه الأمر وهو راجع إلى الموضوع، لأن كلية العلم إنما هي بحسب موضوعه، فأي علم كان موضوعه أعم أو أخص فهو كذلك، وإلاَّ فالعلوم في نفسها متباينة، وكذا حكمه وإن كان متأكدا إذ لا يحل لامرئ مسلم أن يُقْدِمَ على أمر حتى يعلم حكم الله فيه. غير أنه في الجملة معلوم، إذ العلوم الإسلامية كلها مشروعة أي مطلوبة وإن تفاوتت في التأكيد. وذكر الإمام في المحصول أن تحصيل هذا العلم فرض كفاية وهو ظاهر، وكذا فضيلته فإنها تابعة لغايته، فإن شرف العلم بشرف غايته المقصودة منه. وقد يكون له بحسب الموضوع أيضا شرفٌ مًّا، فالمتأكِد حينئذ معرفة اسم العلم وموضوعه وغايته ومسائله ومواده وأوكدها الثلاثُ الأُوَل، وإنما احتيج إلى اسم العلم أي حَدِّه وإلى موضوعه وغايته لأن العلم هو عبارة عن مسائل كثيرة تجمعها جهة واحدة باعتبار ما يعد علما واحدا، وجهة الوحدَةِ التي تكون لها هي اشتراك جميعها في كونها باحثة عن أحوال شيء واحد. وقد تشترك في أمور أخرى تابعةٍ لهذا ككون غايتها كذا أو كونها آلة لكذا ونحوه، فاحتاج الطالب أن يتصور ذلك العلم من هذا الوجه المشترك بين مسائله ليكون فيه على بصيرة بحصوله إجماعا، ليعلم أن مسئلة تكون من ذلك العلم إذا وردت عليه وذلك فائدة التعريف. غير أن تعريفه من الجهة الأولى يسمى حدا بأن يقال مثلا هو العلم الباحث عن كذا وتعريفه من الجهة الأخرى يسمى رسما بأن يقال مثلا : هو علم يتوصل به إلى كذا ويتوقف عليه كذا ونحو ذلك. واحتاج أن يعرف ذلك الشيء الذي تشترك المسائل فيه في البحث عن أحواله وهو المعبر عنه بالموضوع إذ به يتميز العلم فإن العلوم لا تتمايز إلا بحسب موضوعاتها، إذ لا معنى لكون هذا علما وذلك علما آخر إلا أن هذَا، البحثُ فيه عن أحوال شيء، وذلك يبحث فيه عن أحوال شيء آخر، سواء كان التغاير حقيقيا

كموضوع الحساب وهو العدد، وموضوع الهندسة وهو المقدار، وموضوع الطب وهو بدن الإنسان، واعتباريا كموضوع علم التفسير وعلم الأداء وهو القرآن، ولكن الأول من حيث المعنى والثاني من حيث اللفظ، واحتاج إلى أن يعرف غايته أي الغرض المقصود منه لئلاً يكون سعيه عبثا وضلالا، وبمعرفة الغاية يعرف شرفه وفضله فيزداد جدا ونشاطا. فعُلِمَ أن تعريف العلم هو ما يفيد تصوره بحقيقته أو الشعور به وتميزه عن غيره «والأول حَدٌّ والثاني رسْمٌ كما أشرنا إليه قَبْلُ، وقد يسمى الجميع حدا في هذا العلم، وسيأتي في كلام المصنف : وأمَّا موضوع العلم فهو كما أشرنا إليه فالبحث فيه عن أحواله وعوارضه ولا بد أن تكون ذاتية، ويعْنُونَ بالذاتيات ثلاثة أشياء وهي : ما يلحق الشيء لذاته كإدراك الأمور القريبة للإنسان لكونه إنسانا أو لأمر مُسَاوٍ كالتعجب اللاحق للإنسان بواسطة إدراكه للأمور الغريبة، أو لأمر داخلٍ فيه كالحركة للإنسان بواسطة كونه حيوانا. وسميتْ هذه ذاتية لأن منشأها الذات إما بنفسها أو بجزئها أو مساويها، واحترزوا بالذاتيات عن غيرها من العَرَضيات وهي أيضا ثلاثة تسمى الأعراض الغريبة وهي : ما يلحق الشيء لأمر خارج عنه أعم كالحركة للناطق بواسطة الحيوانية أو أخص كالنطق للحيوان بواسطة الإنسانية أو مباين كالحرارة للماء بواسطة النار المجاورة.

إذا علمت هذا فاعلم أن موضوع هذا العلم هو الدليل الشرعي الكلي كالكتاب والسنة مثلا، لأنه فيه يقع بحث الأصول. فإن قلت : إن الكتاب موضوع لعلم التفسير وغيره من العلوم فكيف يكون الامتياز ؟ قلت : لما مر من الاعتبار فهو لعلم التفسير من حيث فهم معانيه فقط وللأصول من حيث النظر في استنباط الأحكام. فإن قلتَ : وحينئذ يختلط بعلم الفقه، قلت : نظَرُ الفقه استنباط الأحكام بالفعل وعلى وجه التفصيل، ونظر الاصول

معرفة كيفية الاستنباط. وعلى وجه الاجمال فهو للاصول من حيث الكلية، ولذا كان قواعد، وللفقه من حيث الجزئية فافترقا.

وأما غاية هذا العلم فالعلمُ بأحكام الله تعالى، وناهيك بشرف ذلك، وتسمَّى الغاية فائدة من حيث إنها حاصلة عن الشيء وتسمى أيضا غرضا من حيث إنها مطلوبة منه فهما شيء واحد، وتعدد الأسماء بالاعتبار.

وأما مسائل هذا العلم فهي القضايا النظرية التي تذكر فيه وهي راجعةٌ إلى حوار الموضوع المذكور. وإنما قلنا النظرية لأن المسئلة ما يسئل عنه ليعلم، فالبديهي لا يكون من المسائل، ولذا يقال أيضا هي القضايا المبرهن عليها في ذلك العلم، وقد يذكر البديهي لبيان بديهته فهو نظري من تلك الحيثية هذا هو الواقع لهم. قلت : وهذا إنما يستقيم إذا اعتبرت موضوعات المسائل مبينة في علم آخر جزء ما لكونها جزءيات الموضوع المبين في علم بآخر ومجموعاتها كذلك معينات في علم آخر لكونها هي المبادئ. وأما إذا جوز أن تبين في ذلك العلم نفسه وهو الجاري اليوم فالصناعة تكون مشحونة بالتصورات وهي من جملة المسائل فلا تختص المسائل بالقضايا، اللّهم إلا أن يقال : يذكر توطيداً للتصديق المقصود وذلك كل حاجة إليه.

إذا علمت ذلك فمسائل هذا العلم هي كذلك الأمور المبينة فيه كقولنا : الأمر من حيث هو للوجوب، والنهي للتحريم، وقول الصحابي ليس بحجة، ونحو ذلك. وأما مواد العلم ويقال لها المبادئ والاستمدادات أمورٌ يجب أن تُعرَف لتوقف مسائله عليها وهي : إما تصورات وإما تصديقات إما حسية في نفسها وتسمى القضايا المتعارفة وإما المسلمة فيه مبينة في علم آخر. ولا بد في أن يعرف ذلك ليرجع إليه عند إرادة تحقيقها.

إذا علمت هذا فهذا العلم يستمد من العربية من الكلام ومن الأحكام. قال سيف الدين الآمدي في أول كتاب الأحكام : قد عرف أن استمداد أصول الفقه إنما هو من الكلام والعربية والأحكام الشرعية بمبادئ غير خارجة عن

هذه الأقسام الثلاثة وعليه ابن الحاجب، أما استمداده من الكلام فإن المراد منه ذكر الأدلة الشرعية وثبوتها موقوف على النبي الموقوف على دلالته المعجزة الموقوفة على معرفة وجود الباري تعالى بِمالَه من الصفات المصححة للفعل، إنما يبين هذا كله في علم الكلام.

وفي هذا المقام بحث وهو أن يقال : إن أريد بالموقوف على الصدق ثبوت الأدلة في نفسها فليس ذلك من مباحث الأصول ولا من وظيفة الأصول. وإن أريد ثبوت إفادتها الأحكام كما يعبر به كثيراً فاستمداده من اللغة. ألا ترى أن كون الأمر مثلا مفيدا للوجوب يعرف من اللغة على الأصح سواء ثبت الشرع أولا. فأي فائدة للكلام هاهنا ؟ نَعَم، الفقيه محتاج عند استنباط الأحكام بالفعل إلى ثبوت الدليل بثبوت الشرع. والظاهر أن الاستمداد المذكور إنما هو في كون الدليل الكلي حجة لا غير، لأن هذه القضية يثبتها الأصولي، ومنه يأخذ الفقيه جزئياتها إما من العربية فلأن الكتاب والسنة عربيان فلا بد من معرفة ما فيهما من الألفاظ اللغوية كالأمر والنهي والعام والخاص،وإنما يعرف ذلك من فنون العربية وإما من الأحكام الشرعية كالوجوب والندب مثلا فإن المراد من الفن إثباتها كقولنا، الأمر للوجوب أو للندب، والنهيُ للتحريم أو الكراهة، فلا بد من تصورها أولا، لأن الحكم بالشيء فرع تصوره. فقد بان لك من هذا أن مسائل العلم إنما هي أجزاء المبادئ أو جزئياتها تحمل على أجزاء الموضوع أو جزئياته كقولنا هنا، الأمر للوجوب فإن الوجوب من المبادئ التي هي الأحكام والأمر من الموضوع الذي هو الكتاب والسنة،فلهذا احتيج إلى معرفة الموضوع والمبادئ أولا، لأن النسبة إنما تقع بعد حصول الطرفين وما خرج عن هذا المعنى من المسائل فهو داخل في العلم.وأما حد هذا العلم فعلى أن أصول الفقه مركب من مفردين أحدهما الأصول والآخر الفقه، ثم نقل إلى العلمية فلا بد

من معرفة مفرداته أولا ثم معرفة المركب ثم معرفة العلم، وعلى ماذا وضع. أما المفردات فهي الأصول والفقه كما ذكرنا وجزء ثالث صوري به حصل التركيب، فأما الفقه فسيأتي في كلام المؤلف، وأما الأصول فجمع أصل، والأصل في اللغة أسفل الشيء كأصل الجدار مثلا، وللناس فيه عبارات ذكرها الأسناوي في شرح المنهاج، فقيل : الأصل ما يبنى عليه غيره، وقيل : المحتاج إليه، وهي عبارة الإمام في المحصول، وقيل : ما يستند تحقق الشيء إليه وهو لفظ الآمدي، وقيل : ما منه الشيء وهو لفظ الأرموي، وقيل منشأ الشيء، وقال بعضهم : الأصل ما يتفرع عنه غيره. وعلى هذه العبارات مناقشات لا حاجة إلى التطويل بها مع وضوح المقصد. وأما في الاصطلاح فقالوا : يطلق على الراجح : تقول الأصل الحقيقة وللمستصحب تقول : تعارض الأصل والظاهر، وللقاعدة الكلية، يقال : لهذه المسئلة أصل أي قاعدة كذا، وللدليل يقال : أصل هذه المسئلة الكتاب والسنة مثلا، وللصورة المقيس عليها كما سيأتي مع ما فيه من الخلاف، فإن أرادوا ذكر ما يقع من الإطلاق في الفن كأننا ما كان نضاهي وإن أرادوا أنه مشترك بين تلك المعاني اصطلاح فلا يسلم، ولا دليل عليه لصحة أن يراد معناه اللغوي فيها حقيقة أو مجازا. ثم المراد منه إذا أضيف إلى الفقه هو الدليل وأما الجزء الصوري فهو الإضافة أي نسبة الأصول إلى الفقه المفيدة للاختصاص. قال الإمام في المحصول : وأما أصول الفقه فاعلم أن إضافة اسم لمعنى تفيد اختصاص المضاف بالمضاف إليه في المعنى الذي عينت له لفظ المضاف تقول هذا مكتوب زيد، والمفهوم ما ذكرنا هـ. أي فالأصول بسبب هذه الإضافة مختصة بكونها للفقه لا بغيره كالنحو ونحوه ثم نقل عن هذا الاعتبار فجعل علما على هذا الفن وهو مشعر بالنظر إلى ملاحظة أصله بابتناء الفقه عليه. وناهيك بهذه الخصلة الموجبة لغاية الفضيلة والمدح. والفرق بين الاعتبارين ظاهر، فإنه في الأول مركّب لأنه يدل جزؤه على جزء معناه بخلاف الثاني

فإنه مفرد. واقتصر المؤلف على تعريفه بالاعتبار الثاني لأنه هو المقصود فقال : أصول الفقه من حيث مدلوله هو : دلائل الفقه الإجماليةُ بالرفع نعت لدلائل، والقياس أدلة وإنما لم يقل دلائله لأن الفقه في الأول خلافه في الثاني، فإن الأول إنما هو جزء من العلم والثاني هو العلم المعروف، والمراد بالإجمالية غير المفصلة كقولنا الأمر للوجوب، فإنه كلي يتناول الأمر بالصلاة والأمر بالزكاة وهكذا. وقولنا النهي للتحريم فإنه يتناول النهي عن السرقة والنهي عن الزنا وهكذا، وكذا قولنا : الإجماعُ حجة والقياس حجة والاستصحاب حجة ونحو ذلك فإنها إجمالية، فالدلائل جنس في التعريف والإضافة إلى الفقه يخرج دلائل غيره من النحو والكلام وغيرهما، والاجمالية مخرج للدلائل التفصيلية للفقه نحو أقيموا الصلاة فإنها أمر بالصلاة على وجه التفصيل، ولا تقربوا الزنا فإنه نهي عن الزنا على وجه التعيين، وغير هذا من الأدلة التفصيلية للأحكام.

واعلمْ أن هذه الأدلة ينظر فيها الأصولي أيضا إلا أنه من حيثية أخرى وهي الاجمال المذكور مثلا أقيموا الصلاة ينظر فيها الأصولي من حيث إنه أمر ويدل على الوجوب وينظر فيه الفقيه من حيث إنه أمر بالصلاة ويدل على وجوبها مستمدا ذلك من الأصولي. فإن قلت حينئذ : يجب أن يقول المصَ : دلائل الفقه من حيث الاجمال إذ ليس ثمَّ دليلان بل دليل له حيثيتان، قلت : إن شئنا اعتبرناه وإن شئنا اعتبرنا دليلين، فإن الأصولي ينظر في الأمر مثلاً من حيث هو غير مقيد بالصلاة ولا غيرها، وهو معنى القاعدة، نعم، القاعدة إنما استثبتت له من الجزئيات التي يستقرئها كما مر. غير أنه يأخذ معانيها الكلية، والفقيه يلوذ بصوره الجزئية، ويجوز أن يعتبر الدليل دليلين باعتبارين، لأنهُ مفصّلاً غيْره مجملاً فافهم. وقيل : أصول الفقه معرفتها أي معرفة دلائل الفقه الإجمالية، فالمعرفة جنس والإضافة إلى الدلائل مخرج لمعرفة غيرها، لمعرفة الأحكام الفقهية بنفسها أو نحو ذلك

وباقي التعريف قد مضى. وتصدير المصنف بالأول كأنه لكونه أولى عنده من حيث إن تصدير الحد بالأول مناسب للمعنى المذكور قبل من أن الأصل هو الدليل، كما عرف الفقه بالعلم بالأحكام لكون الفقه لغة الفهم والعلم، فناسبه. والتحقيق أن التعريفين ناشئان عن اعتبارين وهما : إطلاق العلم على القواعد والمسائل أو على الملكة. وإن أردت تحصيل ذلك فاستمع لما أقول وهو : أنا إذا قلنا مثلا : علم كذا كعلم النحو فإنا نطلقه على الأصول المقررة والقواعد المحررة، ثم إن الإنسان إذا اشتغل بتلك القواعد والأصول وتتبع جزئياتها تعلما وتفهما حتى أحاط بمعظمها وعلم منها المتشارك والمتفارق، واطَّلع على مالَهَا من الخصوص والعموم وغير ذلك فإنه تنكشف له تلك القواعد، وتحصل من طول الممارسة ملكة في نفسه يقتدر بها على استحضارها عند الالتفات إليها، وإدراكِ ما عرض له منها ومعرفةِ ما لم يعرف مما عرف، ونسمي هذه الملكة علما أيضا، حتى إنا إذا قلنا : فلان نحوي أو عالم بالنحو، فلسنا نريد أن جميع مسائله حاضرة عنده، بل نريد أن له هذه الملكة في النحو، بحيث يقتدر بها على الاستحضار والاستحصال على حسب الطاقة البشرية. ثم إذا أطلقنا علم النحو صح أن نريد به نفس القواعد المقررة فنقول : هو علم باحث عن كذا، به كذا، وصح أن نريد به الملكة فنقول : هو العلم بكذا. ولا غنى لأحد هذين المعنيين عن الآخر في استخراج المطالب، الذي هو فائدة العلم، فإنه لولا القواعد ما حصلت الفوائد، ولولا المد لم تستقل القواعد بالانتهاض إلى ذلك، وهذا كما تفهم في السيف القاطع واليد التي تضرب فافْهَمْ. نعم السيف سيف سواء ضرب أولا ولكن فائدته التي هي القطع لا تحصل إلا بالضرب، وكذلك هو علم سواء نظر فيه أو لم ينظر ولكن الفائدة إنما تصح عند النظر فصح حينئذ أن نقول : العلم هو الدلائل، وأن نقول هو المعرفة بها أي الملكة كما ذكرنا. ولئن شرف الأول بالذات فقد شرف الثاني بمناسبته للمعرفة من حيث إنها علم.

وهاهنا أبحاث أوردها الأصوليون على مثل هذا التعريف : منها أنه كيف يصح أن يكون أصول الفقه هو معرفة ما ذكر وهو شيء ثابت في نفسه سواء وجد العارف به أولا ؟ وجوابه ما مرِ آنِفا وهو من المصادرات، لأن الخصم لا يُسلِّم أن ذلك الحاصل في نفسه هو العلم بل المعرفة، ومنها أن العلم بأصول الفقه ثابت لله تعالى إذ هو تعالى عالم بكل شيء، ومنه هذا العلم الخاص فوجب إدخاله في الحد لكنه خارج عنه حيث صدر بالمعرفة إذ لا تطلق في حقه تعالى، فكان الحدُّ فاسد العكس. وجوابه بعد تسليم امتناع المعرفة في حقه تعالى انه تحديد للعلم بحسب العرف، وهو العلم الموجب للعارف به أن يقال : إنه أصولي وليس ذلك في حق الله تعالى، ولذلك أخرجوه في حد الفقه فقيده بالمكتسب، ليخرج علم الله تعالى كما سيأتي، إذ لا يطلق في علمه تعالى الفقه ولا عليه فقيه. وأيضا المراد بالمعرفة الْمَلَكَةُ لا نفْسُ الإدراك، والْملكَة كيفيةٌ راسخة في النفس، ولا تكون الكيفية في حق الله تعالى بل العلم المحيط القديم، فمنشأ هذا السؤال أيضا الغلَطُ في تفسير المعرفة والعلم المصدر بهما تعاريف الفنون. ومنها أن الحد فاسد الطَّرْدِ لدخول تصور الأدلة، فإن المعرفة والعلم يشمل التصديق والتصور. وجوابه أن تقيد ذلك بالإجمال يفيد أن المرادَ الكُلِّياتُ وهي القضايا كما مر لا التصوراتُ، على أنا لو سلمنا دخولها لم يضر كما مر من أن العلوم مشحونة بالتصورات. ومنها أن قوله : أصول الفقه دلائل الفقه، إنما يليق أن يكون تعريفا للإضافي لا اللَّقَبي، فإن اللقبي قصد فيه إلى فعل اللفظ علَماً على العلم من حيث هو ولم تقصد فيه الأدلة، فكيف يقال هو الأدلة. وجوابه أنه نقل إلى علم هو أدلة كذا، فتلك الأدلة بنفسها هي العلم المنقول إليه، ولم يقصد ما كان أولا من الإضافة ولا التركيب كما عرف في سائر المتضايفات والأجناس إذا صارت أعلاما بالوضع وبالغلبة.

نعم ها هنا بحث أورده شراح المنهاج وهو أن الأدلة الكلية هي موضوع هذا العلم فكيف يعرف بها فإن موضوع العلم خارج عنه وهو سؤال قوي، ويمكن أن يجاب عنه بأن الأدلة لها اعتباران : أحدهما ما ذكر من الإضافة وهي أنها أدلة الفقه، والثاني التجريد عنها، وإن كانت بالذات مضافة، وبالاعتبار الثاني كانت موضوعا. والْحَقُّ أن الأصول هو العلم الباحث عن الأدلة، أو معرفة ذلك، وأما البحث لأنه لو كان العلم هو المعرفة لزم إذا قيل : فلان يعلم الأصول لزم أنه يعلم المعرفة، ولا معنى له فغلط فاحش إن العلم كما مر يطلق على الملكة وعلى المسائل. فإذا قيل يعلم الأصول أو النحو أو الفقه فالمراد الثاني كالأول ولا إشكال.

وها هنا بحث لم أر من تعرض له بحال وهو عندي من المعوصات، غير أنه لا يختص بهذا الكتاب ولا بهذا العلم، وهو أنه مما تقرر في الحكم أن الجزئيات لا تُحَدُّ ولا يبرهن عليها، ومعلوم أن الأصول وغيره من الفنون جزئيات لأنها أعلام على فنون بعينها، فكيف استقام تحديدها ؟ فإن قيل إن الفنون أنواع من مطلق العلم كالإنسان والفرس من الحيوان وقد حدث، قلنا : الإنسان ونحوه اسم جنس موضوع لمفهوم كلي، فهو صادق على الأشخاص الداخلة فيه صدق الكلي على جزئياته، ولو كان الفن كذا لصدَقَ على كل مسئلة من الأصول مثلها أنها أصول الفقه وذلك باطل. فإن قلت : إن لم يَصْدُقْ صِدْق الكلي فليصْدُق صدق الكل على أجزائه كالبدن على أعضائه، والبدن مثلا يحد، قلت : نعم لو كان اسم جنس لكنه عَلَم والعَلَم لا يُحَد، لأن التعريف يؤخذ فيه اعم كالجنس وأخص كالفصل، وذلك إنما يتأتى في المفهومات الكلية، والأعلام إنما وقعت على صور شخصية خارجا أو ذهنا لا يتصور فيها من حيث هي عموم فلا يتأتى تعريفها، إذ لو عرفت لكان مصنوع التعريف غيرها، إذ الجزئي خلاف الكلي والخارجي خلاف الذهني. والشيء لا يعرف ما يباينه. فإن قلت إن الجزئي قد يعرف برسم تذكر فيه

خواصه كما إذا قيل : جبريل هو ملك ينزل بالوحي، وحاتم رجل جواد من طَيِّء قلت : لو لم يقولوا إن تعريف العلم يكون حدا حقيقيا إذا أخذت فيه أحوال الموضوع، على أن تعريف الجزئي لا معنى له مطلقا ولو كان رسما، ولكن قد يسمع لفظ الجزئي فلا يدرَى مدلوله أصلا وهو بهذا الاعتبار ليس جزئيا عند السامع ولا كليا، فسئل عنه طلبا لمفهوم اللفظ، كما إذا سمع لفظ جبريل ولم يُدْرَ ما هو فيقال : هو ملك أي المسمَّى بهذا اللفظ هو من هذا الجنس، وهذا كلام في الكلي لو عرف كونه شخصا كان ما يذكر من قبيل الأوصاف لا التعريفات. وقد علم أنا إذا قلنا الإنسان هو الحيوان الناطق فليس الثاني وصفا للأول إذا كان تعريفا فإن قلت نلتزم كون الفن جنسا ونمنع كونه جزئيا، وسَنَدُ المنع أنه لو كان جزئيا مرادا به شيء بعينه لما صدق على ما عسى أن يتولد من المسائل على الدوام، إذ الجزئي لا يقبل التعدد وهذا يتعدد ؟ قلت : هذه شبهة تتخيل لك، وجوابها ان اسم العلوم موضوع لمسائل وقواعد فصلت أولا وعينت فوضع الاسم بإزائها، وما تجدد غيرُ خارج عنها فلا يقدم في التعيين، كما يتجدد على ذات الطفل المسمى بزيد من شعر وظفر وكلام ولحم وعظم وغير ذلك وقد جعل والدُ المصنف أصول الفقه اسم جنس لا عَلَما، غير أنه علَّل ذلك بأنه لو كان علما لما دخلت عليه أل وليس بشيء لأن أل تكون معرفة وزائدة في الأَعلام ولو سلمنا أنها غير زائدة في هذا لقلنا إن العلم هو أصول الفقه بالإضافة ولم تدخل عليه أل، (والأصولي) أي الشخص المنسوب إلى الأصول أي المتصف بذلك (العارفُ بها) أي بدلائل الفقه الاجمالية (وبطرق استفادتها) أي الطرق التي تستفاد بها الدلائل المذكورة أي تعرف معرفة يتأتى بسببها أخذ الأحكام منها. وهذه الطرق هي طرق التعديل والترجيح بين الأدلة عند تعارضها المذكورة في الكتاب السادس، (وبِطُرُق مستفيدها) أي مستفيد تلك الأدلة الذي هو المجتهد. وطرقه هي صفات المجتهد التي تذكر في الكتاب السابع. وحاصله أن

الأصولي هو العارفُ بأدلة الفقه مع المعرفة بتعديلها وترجيح ما يرجح منها وإسقاط ما يسقط عند تعارضها ومعرفة صفات المجتهد الذي يستفيد منها الأحكام. ويجوز أن يكون لفظ مستفيد عطفا على طرق أي العارف بمستفيدها، فالمصنف جعل أصول الفقه هو الأدلة الخمسة المذكورة في الأبواب الخمسة، وجعل ما يذكر في الكتاب السادس من التعاديل والتراجيح وما يذكر في الكتاب السابع من صفات المجتهد والمفتي ليس من الأصول، وإنما يذكر ذلك في كتبه لتوقف معرفة الأصول عليه، وجعَل الأصولي هو العارف بالأصول مع ما يتوقف عليه الأصول مما ذكر في الكتابين الأخيرين وقال : إنه لا مضرة في أن يزاد في تعريف الأصولي قيد زائد على ما هو الأصول كما زادوه في الفقه، فإن الفقه هو العلم بالأحكام الشرعية. ثم قالوا : الفقيه هو المجتهد وهو ذو الدرجة الوسطى لغة وعربية وأصولا، ولم يقولوا : الفقيه هو العالم بالأحكام بل اعتبروا له الاجتهاد وشرائطه إذ لا يمكن بدونها العلم بالأحكام الذي هو الفقه، فقد اشترطوا في الفقيه ما ليس معتبرا في الفقه فكذا نشترط في الأصولي ما ليس معتبرا في الأصول. واعترض على المص بأن ما وقع في الكتابين الأخيرين من طرق الاستفادة وطرق المستفيد لم يتوقف عليه الأصول فإن معرفة الأدلة الإجمالية لا يتوقف على ذلك وإنما يتوقف عليه استفادة الأحكام منها من حيث انها مفصلة وذلك راجع إلى الفقه. على أن صفات المجتهد إنما توقفت الاستفادة على الاتصاف بها لا على معرفتها فإن المتصف بها هو المجتهد لا العارف فقط وبين الحصول الاتصافي والحصول التصوري عموم وخصوص من وجه كما تقرر في محله، وبأن ما انفصل على السؤال من اشتراطهم في الفقيه ما ليس فقها باطل، لأنهم حيث قالوا : الفقه هو العلم بالأحكام الشرعية، المكتسَبُ من أدلتها التفصيلية، فذلك صريح في اعتبار الاجتهاد في الفقه لأن العلم المكتسب لا يكون إلا بالاستنباط وذلك موافقٌ لقولهم : الفقيه هو المجتهد وإنما هو بيان الصادق، أي وأن ما يصدق

عليه هذا هو ما يصدق عليه هذا لا بيان المفهوم بأن هذا هو هذا، وبأن ما ذكر من أنهم ما قالوا الفقيه هو العالم بالأحكام ممنوع، فقد قال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في كتابه (الحدود والحقائق) : الفقيه من له الفقه، فكل من له الفقه فهو فقيه ومن لا فقه له ليس بفقيه. وقيل : الفقيه هو العالم بأحكام أفعال المكلفين التي يسوغ فيها الاجتهاد هـ.

قلت وحاصل الاعتراض على المص شيئان : إسقاط ما ذكر من طرق الاستفادة والمستفيد من تعريف الأصول، والثاني زيادة ذلك في تعريف الأصولي. أما الأول فمبني على ما اشتهر من إدخال الأمرين في تعريف الأصول. قال الإمام في المحصول : أصول الفقه مجموع طرق الفقه على سبيل الإجمال، وكيفية الاستدلال بها، وكيفية حال المستدل بها هـ. وقال في المنهاج : أصول الفقه معرفة دلائل الفقه إجمالا، وكيفية الاستفادةِ منها، وحال المستفيد هـ. وهو تعريف القاضي الأربوي ؟ ووجه هذه الصفة كون هذه الجملة أصولا أن أصول الفقه إنما هو ما يبنى عليه الفقه وهو استخراج الأحكام الشرعية. ولا شك أنه ينبني على الأدلة نفسها ولا يمكن الاستخراج بها إلا بتعديلها وتقديم ما يقدم منها، ولا يكون ذلك إلا للمتصف بصفات الاجتهاد فاحتيج في الأصول إلى ذكر الأدلة وذكر ما يعتريها من التعادل وذكر أوصاف المجتهد وأوصاف المفتي، وهذا هو مجموع ما وقع في الأبواب السبعة. وذهب جماعة من أهل الأصول إلى أن الأصول إنما هو الأدلة وكيفية الاستدلال بها، وأما صفات المجتهد بها فليست من مسماه حتى قال بعض العلماء : إنه لو اقتصر على ما ذكر ما سوى صفات المستدل وجعلت هي من باب التوابع والتتمات كان أحسن. لكن جرت العادة بذكرها فيها وضعا فأُدْخلتْ فيه حداً، قلتُ : وهذا أقرب إلى التحقيق. وقد اختلفوا في الأدلة أيضا ما هي ؟ فالمشهور أنها الكتاب والسنة والاجماع والقياس والاستدلال. ونُقِل عن إمام الحرمَيْن والغزالي أنهما قالا : هي الثلاثة الأولى، غير أن الإمام

بناه على أن الدليل إنما هو القطْعي فخرج القياس، غير أنه اعتذر عن إدخاله فيه بقيام القاطع على وجوب العمل بالظن فهو قطْعي بهذا الاعتبار. والغزالي بناه على أن الدليل إنما هو المقتضي للحكم، والقياسُ إنما هو طريق إلى استخراج الحكم، وأما الثاني فمبني على أن الأصول عند المصنف ما ذكر من دلائل الفقه فكيف يمكن أن يكون الأصولي هو العارف بالأصول وشيء آخر، ولا شك أن هذا بحسب العقل لا يمتنع، إذ ليس بوصف مشتق من معنى حتى يدل عليه وإنما هو نسبةٌ، والشيء يُنسب إلى الشيء بأدنى ملابَسَة، ولكن العرف جرى في نحو هذا الخلاف على ما أراد المصنف، فإنه إذا قيل : نحوي أو فلسفي أو لغوي فالمراد أنه العارف بالنحو أو بالفلسفة أو باللغة بلا زيادة، وكذا الأصولي يجب أن يكون هو صاحب الأصول بلا زيادة، وهذه مواخذة للمصنف على رأي، وإلا فلو كان الأصول هو مجموع ما ذكر الناس حتى تكون الأدلة جزءا من الأصول لصح أن تقول : الأصولي هو العارف بالدلائل الاجمالية وبطرق استفادتها ومستفيدها. فإن هذا هو معنى قولنا : الأصولي هو العارف بالأصول وإن كنا نستغنى عن تعريف الأصولي بتعريف الأصول، كما إذا عرفنا النحو استغنينا عن تعريف النحوي. لكن قصد المؤلف بتعريفه التنبيه على النكتة التي زعم أنه لم يسبقه أحد إليها من مخالفة الأصوليين والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. ولما عرف الأصول بدلائل الفقه الإجمالية اشتمل هذا التعريف على لفظ الدلائل وهو جمع دليل وقد مر لنا بيانه وسيلم به المصنف بعد هذا وعلى لفظ الفقه، ولا بد من بيانه، إذْ معرفة المحدود موقوفة على معرفة الحد فيبينه المص بقوله : (والفقه) بكسر الفاء وهو لغةَ العِلْمُ بالشيء والفهْمُ له. تقول فقِه بكسر القاف أي فهمه وفَقَه فلانا بفتحها أي غلبه في الفهم وفُقِه بالضم والكسر صار فقيها. وقولُ الآمدي : الفهمُ مغايِر للعلم فإن الفهم جودة الذهن، وهْمٌ، إذ الفهم الذي هو رديف العلم هو الفهم بالفعل أي الإدراك، والجودةُ إنما هي الفهم بالقوة وليس

بمراد. وفي الاصطلاح هو (العلم بالأحكام) أي النسب التامة الشرعية أي المنسوبة إلى الشرع المبعوث به النبي ﷺ (العملية) أي المتعلقة بكيفية عمل إما بدني كالصلاة أو قلبي كالنية في الوضوء ونحوه (المكتسَبُ) بالرفع نعتا للعلم أي المكتسب ذلك العلم (من أدلتها) أي الأحكام الشرعية المذكورة (التفصيلية) بالجر وصف للأدلة. فالعلم جنس وقَيْدُ الأحكام يُخرِج العلم بغيرها من الذوات كالعلم بالجوهر والعرض والصفات غير النسب كتصور البياض والسواد مثلا، وقيْدُ الشرعيةِ يُخرج العلم بغيرها من الأحكام العقلية والعادية، وقيد العملية يخرج الاعتقادية المحضة كالعلم بوجود الله تعالى وبقدرته، وقَيْدُ المكتسب يخرج علم الله تعالى وما يقذفه في قلوب ملائكته وأنبيائه من الأحكام الشرعية. وقوله من أدلتها يخرج علم جبريل وعلم النبي ﷺ بذلك الحاصل بالسماع بلا اجتهاد. وقيْدُ التفصيليةِ يخرج علم المقلِّد بذلك المكتسب من دليل إجمالي، وهو أن يقول : هذا ما أفتاني به المفتي، وكل ما أفتاني به المفتي فهو حكم الله في حقي.

ويَرِدُ على التعريف أبحاث : أحدها أن تصويره بالعلم يقتضي أن أصول الفقه هي أدلة العلم بالأحكام، والفرض أنها أدلة الأحكام. ويجاب بما مر من إطلاق العلم على الْمَلَكَةِ وعلى المسائل، فحيث قلنا : أدلة الفقه أردنا الثاني، والتعريف هنا وقع باعتبار الأول، على أن الملَكَة أيضا مبنية على الأدلة فلا مانع من إرادتها. ثانيها أن الفقه مظنون كله أو جلُّه وهذا سؤال مشهور أورده في المحصول، وأجاب بأن المجتهد إذا ظن أن الحكم قطع بوجوب العمل بما أدى إليه ظنه فالحكم مقطوع والظن وقع في طريقه. وتبعه البيضاوي في منهجه وغيرُه. وتقديره أن المجتهد يقول في الحكم الذي ظنه انتقاضاً بالنوم مثلاً : انتقاض الوضوء بالنوم مظنون، وكلّ مظنون يجب العمل به، فينتج : العمل بالظن من الإجماع أو العقل الدال على اتباع الراجح، فتبين أن الحكم مقطوع بهذا الاعتبار، والظن إنما كان في الدليل لا

في النتيجة، وليس هو أيضا في المقدمتين من حيث النسبة لأن النسبة في الأولى ـ وهي وجود الظن ـ قطعية، وكذا في الثانية وهي وجوب العمل بالمظنون ـ قطعية. وإنما وقع الظن في الأطراف وهو الحد الوسط وذلك لا يقدم في قطعية النتيجة وهو المطلوب. واعترض بأن ذلك إنما يستقيم عند المصوبة، وبأنه ليس كل قطع علماً، وبأن القطع هنا إنما هو من العمل. والمطلوب إنما هو القطع بالحكم ولا يلزم من القطع بالعمل بالحكم القطع بالحكم الذي هو العلم به الواقع في التعريف. وأجاب غيره بأن الظن القوي القريب من العلم كالعلم فعبر عنه ويرد عليه أنه مجاز لا قرينة عليه. وقد يجاب عن السؤال بأن المراد هو العلم اللغوي الذي هو وصول النفس إلى الشيء مطلقا لليقين وغيره فهو شامل. ويَرِدُ عليه أنا لا نسلم كون العلم في اللغة كذلك فإن الله تعالى يقول: ﴿**مالَهُمْ به من عِلْمٍ إلا اتِّبَاعَ الظن**﴾. والاستثناء منقطع، سلَّمنا ذلك، ولكن التعريف إنما يجوز أن يكون بما هو المصطلح عليه هو المفهوم وإلا كان تعريفا بمجهول بالنسبة إلى أهل الاصطلاح هذا. والتحقيق عندي أن هذا السؤال أصله إنما ورد عن الذهول عن التحقيق فإنا قررنا قبْلُ أن العلم كالفقه مثلا إنما يراد به قواعده ومسائله المدونة، والمَلَكَةُ الحاصلة للشخص في ذلك، التي هي مبدأ الإدراكات الجزئية. وليس العلم نفس الإدراك. فإن تقرر هذا فالفقه هو إما أصول وقواعد مقررة وقع فيها البحث عن فعل المكلف من حيث تعلّقُ الخطاب، وإما مَلَكَةٌ حاصلة للنفس تكون مبدأ لإدراكات تلك الأصول والقواعد، وهذه المَلَكَة هي كيفية راسخةٌ في النفس ليست هي نفس العلم بالشيء بالفعل حتى يعتبر فيها يقين أو ظن وإنما هو مبدأ للإدراكات التي يعتبر فيها ذلك. وهذه الملكة هي المعني بقولنا: العلم بالأحكام إذ لا يسمى فيها فقيها إلا من حصلت له هذه المَلَكة، وليس الفقيه هو من يُدْرك مسئلةً أو ألف مسئلة، وإذا اعتبرنا الملكة لم يكن عندنا علم ولا ظن وإنما هو قوة يكون

معهـا إدراك الشيء عنـد التـوجـه إليـه، أعم من أن يكـون بيقين أو ظن فليتأمل.

فـإن قلت : على هـذا يكـون قيـد المكتسب ومـا بعـده مستـدركاً، إذ يكفي أن يقـال : العلم بـالأحكام الشرعيـة أي الملكـة بها قلنـا : لا بـد من ذكره، إذْ المراد الْمَلَكَة في الأحكام الشرعيـة على هـذا الوجـه وهو أن نـدرك بالاستدلال لا أن ندرك إلهاما أو ضرورة أو تقليدا أو غير ذلك، إلا أن لفـظ التعريف كأنـه مبني على إطـلاق العلم على الإدراك، إذ هـو المعتبر كـونـه مكتسبـا من الأدلـة التفصيليـة لا الملكـة، وفي ذلـك مـالا يخفى على اللبيب المتأمل. وقد يكون الوصف بذلك لوحظ فيه ما ينشأ من العلم بـالفعل، لأن الملكة منشأ لذلك قطعا. ثالثها أن البـاء الواقعـةَ فيـه الـداخلـةَ على الأحكام مشترك بلا قرينة، وجميع معانيه لا تصلح هنا إذ منها السببية، ولو أريـدت لكان المعنى العلم بسبب الأحكام، فيلزم أن يختص الحد بشيء قليل من الفقـه وهو الأسبـاب. وجوابـه أن المعنى المراد هنـا بين وهو مجرد التقويـة، إذ المراد علم الأحكام وهذا سؤال ركيك جدا ينشأ عمن يولع بالمناقشات الواهية، ومـا ذكر في السببيـة غلـط فـاحش، إذ لو كانت للسببيـة لم يكن اللازم هـو العلم بسبب الأحكام، بمعْنَى أن يكون السبب معلوما بل اللازم أن تكون الأحكام سببا للعلم لم يذكر ولم يعرف فيكون الكلام لا معنى لـه. رابعهـا أن الأحكام إن أريد جمعها لم يسم من فاتهُ شيء منها فقيهـا وهو بـاطل لثبوت لا أدري عمن هو فقيه بالإجماع، وإن أريـد بعضهـا لزم أن يكون كل من عرف شيئـا منها فقيهـا وهو بـاطل، إذْ أكثرُ العوام لم يخلُ عن ذلـك. وأجيب بـأن المراد الكل، ولا يَقدح لا أدري، لأن المراد التهيئ وهو حاصل، فاعترض ثانيا بـأن الشيء البعيد حاصل لكل أحد والقريب لا ضابط له. والبعض كـذلـك إمـا أن يراد بـه بعض معلوم كالنصف مثلا ولا ينضبـط، وإمـا أن يصـدق عليـه البعض، فمن عرف شيئا ما فهو فقيه وذلك باطل. وأجيب بـأن نختـار الكل،

والمرادُ التهيؤ القريب.قولكم لا ينضبط، قلْنا ممنوع، إذ المراد به المَلَكَة كما مر، وإطلاق العلم على الملكة شائع مشهور، أو نختار البعض من غير تعيين. قولكم فمن عرف شيئا منها فهو فقيه، قلنا : نعم إذا كانت له تلك الملكة وإلاَّ فَلاَ. خامسها أن الحد فاسد الطرد لدخول العلم بأحكام الشرائع الماضية المنسوخة بشرعنا فإنها أحكام شرعية عند أربابها. وجوابه أنا نلتزم ذلك ونقول : هي فقه أيضا عند أربابها وإن لم ندرك ذلك قلنا : الألف واللام للعهد الحضوري أي هذه الأحكام الشرعية في شريعتنا. سادسها أن الأحكام الشرعية جمع الحكم الشرعي الآتي المعرف : بخطاب الله المتعلق بفعل المكلف، فيكون قيْدُ العملية مستغنىً عنه. وجوابه أنا نمنع ذلك ونقول : المراد الأحكام الشرعية أي المنسوبة إلى الشرع كما قررنا أولا من أنها النسب التامة. سابعها أن العملية إما أن يراد بها عمل الجوارح فتخرج النية أو ما هو أعم فيدخل الاعتقادات كلها. وأُجيبَ بأن المراد ما يرجع إلى كيفية عمل فتخرج الاعتقادات المحضة كما مر في التقرير وتدخل النيات لأنها منوطة بالعمل، وهذا يصح إن كان الاحتراز عن أصول الدين وأما إن كان الاحتراز عن العلم بكون الاجماع أو القياس حجة ونحو ذلك مما يذكر في الأصول فإنها أحكام شرعية وليست فقها، وبه قرر الإمام في المحصول، فيرِدُ عليه أن ذلك كله ثمرة العمل فهو يرجع إلى العمل بوجه من الوجوه فلا يخرج كما أشار إليه تقي الدين ابن دقيق العيد رحمه الله، فكان التعبير بالفرعية أولى كتعبير الآمدي وظاهر كلام الاسنوي في شرح المنهاج أن العلم بكون الاجماع حجة مثلا يعد من الفقه كالعلم بأن الزنا يوجب الحد وهو ضعيف، إذ الاجمالي خلاف التفصيل. وأما الاعتراض بأن أصول الدين لا معنى لإخراجها من قيد العملية لأن منها ما يثبت بالعقل المحض كوجود الباري تعالى ونحوه فهو خارج من قيد الشرعية، إذ الشرعي ما يتوقف على الشرع، فَيُردُّ بأنه مع كونه قاصرا عن البعض من أصول الدين لا يُسَلَّمُ أنه خارج من قيد الشرعية إذ لا نسلم

أن الشرعي ما توقف على الشرع بل ما تلقي من الشرع واستفيد منه ولا يلزم منه ألا يعلم من غيره أيضا كالعقل والعقائد كلها معلومة من الشرع وان علم بعضها من العقل أيضا، أو نقول : الشرعي في باب الأحكام ما نُصِبَ دِينا يُدَانُ به، إذ الشرع هو ذلك. ولا شك أن أصول الدين كلها شرعية تتبع ويدان بها الله تعالى كما يدان بالفروع. ثامنها أن قيد العملية يقصد به عكس التعريف بخروج شيئين : أحدهما التروك إذ هي قسيم الأعمال، يقال : عمِلَ وترَكَ، الثاني ما هو فعل كله فإن الفعل خلاف العمل، إذ العمل ما فيه شرف وتعظيم. قال الله تعالى : ﴿**مما عملت أيدينا**﴾ وقال : ﴿**جزاء بما كنتم تعملون**﴾ ﴿**ونعْم أجر العاملين**﴾، والفعل ما فيه عقاب واهتضام. ﴿**أَلَمْ تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل**﴾، ﴿**ألم تر كيف فعل ربك بعاد**﴾ ولم يقل عَمِل، لأنه عقاب. فعلى هذا يخرج فيخرج جميع الأحكام المتعلقة بالحدود والتعزيرات وما فيه ذم وعتاب وذلك كثير. وجوابه أوّلاً أن الترك فِعْلٌ، إذ هو الكف على ما سيجيئ عند المص. وثانيها أنا لا نسلم التغاير المذكور، وقد قال تعالى : ﴿**وما تفعلوا من خير يَعْلَمه الله**﴾، وقال تعالى : ﴿**والذين هم للزكاة فاعلون**﴾ وقال الشاعر : من يفعل الحسناتِ اللهُ يَشكرها. ولو سلم ذلك في اللغة فلا يسْلَم في العرف أصلا وهو مناط التعريف. تاسعها أن التعريف فاسد العكس أيضا بدخول تصورات الأحكام المذكورة لصدق العلم على التصور والتصديق. لكن الفقه إنما هو التصديقات لا التصورات. وأُجِيبَ بأن العلم في اصطلاح هؤلاء الاعتقاد الجازم المطابق لموجب فلا يدخل التصور. وأقول : هذا كله ساقط مع تقرير العلم بالملكة كما مر.

واعلم أن الاكتساب على ما قررنا أول التعريف أردنا به مطلق حصول العلم بسببٍ مَّا، بأن لا يكون ضروريا، ومن أراد به الاكتساب النظري بالاستدلال فإنه يخرج به علم جبريل عليه الصلاة والسلام وعلم

النبي ﷺ، ولكن ما كان منه وحياً، وأما ما كان منه اجتهاديا إن جوزناه في حقه ﷺ فيحتمل أن يدخل في الفقه كما نبه عليه الأسنوي. وعلى هذا فالأدلة التفصيلية قيد واحد يخرج به علم المقلد كما مر. وقد اعترض بأن ما يحصل للمقلد لا يسمى علما وهو مبني على ما مر من أن العلم في الاصطلاح ما يكون لموجب هو البرهان، وكذا قيل : إنه يخرج به علم الخلاف لأن صاحب الخلاف قد يقول مثلا : قد ثبت المقتضي فيثبت الحكم أو وجد المانع فينتفي، الحكم. وهذا دليل إجمالي لا تفصيلي. واعترض بأنه مالم يتعين المقتضي والثاني فإذا عيق أو أريد به مقتض أو نافٍ معهودٌ خرج عن الاجمالي وصار تفصيليا فإن كان أهلا للاستفادة فهو فقيه ولذلك قيل إن قيد التفصيلية ليس لإخراج شيء وإنما هو بيان. إذ لا يكون الاكتساب إلا وفيه نظر، إذ لا معنى لزيادة ما لا حاجة إليه في التعريف فإن الحشو فيها محذور.

والظاهر أنه لايخرج علم الأصول وما فيه من الأدلة الكلية فإن العلم بالأحكام الشرعية يحصل منها ولكن بحسب الاجمال لا التفصيل وزاد في المحصول قيدا آخر في التعريف وهو أن لا تكون معلومة من الدين ضرورة واحترز به كما قال عن نحو العلم بوجوب الصلاة والصوم مثلا فإنه ليس فقها إذ معلوم بالضرورة كونه من دين محمد ﷺ فيكون ضروريا وعليه فلا يسمى فقها فيجب أن لا يسموا فقهاء. وهذا باطل. فانظر إلى هذا الخبط هل حصل إلا من اعتبار العلم بالفعل ولو فهم ما ذكرنا من الملكة لم يبق إشكال.

فائدة جليلة.

الفقه هو الفهم مطلقا كما مر، واختص بعلم الدين وإن كان كل علم كذلك لشرف علم الدين. ويظهر من كلام القاموس أنه عَلَمٌ عليه بالغلبة، ويحتمل أن يراد أنه سمي به لأن فهم الشريعة هو الذي ينبغي أن يسمى فهما كما قيل

بذلك في علم الكلام إنه سمي به لأنه هو الذي ينبغي أن يسمى كلاما. واعْلَم أن اسم الفقه كان أولا اسما واقعا على الشريعة من حيث هي، والفقهاء هم الذين قاموا بالشريعة وفهموا عن الله أمره ونهيه. وذكر الشيخ سعد الدين في أول شرح المقاصد أن الأحكام المنسوبة إلى الشرع، منها ما يتعلق بالعمل وتسمى فرعية وعملية، ومنها ما يتعلق بالاعتقاد وتسمى أصلية واعتقادية. قال : وكان الأوائل من العلماء ببركة طلعة المصطفى ﷺ وقُرْب العهد منهم وسهولة المراجعة قد استغنوا عن تدوين الأحكام وتبويبها، فلما ظهرت الآراء وكثرت الشيعة أخذ أرباب النظر والاستدلال في استنباط الأحكام وتحقيق عقائد الإسلام، وأقبلوا على تدوينها وتمهيد أصولها، وسَمَّوْا العلم بها فقها، وخصُّوا الاعتقاد بعلم التوحيد والصفات، ثم نقل عن بعض العلماء أنه قال : الفقه معرفة النفس مالها وما عليها، وأن ما يتعلق منها بالاعتقاديات هو الفقه الأكبر هـ.

ولما ذكر المصنف حد الأصول أخذ في مبادئه فبدأ بالمبادئ الفقهية وهي الأحكام وجعلها في خمسة مباحث : بحث الحكم، وبحث الحاكم، وبحث المحكوم عليه، وبحث المحكوم به وبحث المحكوم فيه، ورتَّبها على هذا الترتيب وإن كان في خلالها مباحث أخرى وقد بدأ ابن الحاجب بالحاكم كما فعل الآمدي في كتاب الإحكام لأنه منه استمداد الأحكام ووجودها. وبدأ المصنف بالحكم كما فعل الإمام في المحصول لأنه الأصل بحسب الاشتقاق اللفظي، فقال : و(الحكم) المعروف في هذا الفن وهو الشرعي (خطاب الله) أي كلامُه (المتعلق) بالرفع وصفا لخطاب أي الخطاب المتعلق بفعل المكلف أي البالغ العاقل ذكرا أو أنثى تعلقا معنويا قبل وجوده وتنجيزيا بعد وجوده ووجود البعثة والخطاب كما سيأتي، كل ذلك (من حيث إنه مكلف) أي ملزَمٌ ما فيه كُلْفَةٌ، فالخطاب جنس وهو ما وجه من الكلام نحو الغير لإفادته، هكذا عرفه بعضهم، ويظهر من التوجيه أن الخطاب لا يكون في حق الحاضر

وليس كذلك بل هو أولى بـذلـك. ويصح أن يراد بـالتوجيـه مطلق الالغـاء فيعم. وقال الآمدي : والحقُّ أنه (أي الخِطاب) اللفـظ المتواضَعُ عليـه، المقصودُ به إفهامُ من هو متهيئ لفهمه. واحترز ـ كما قـال ـ بـاللفـظ عن نحو الإشـارة المفهِمة، وبالمتواضع عليه عن الألفاظ المهملة، وبالقصد عن كلام النائم ونحوه، وبالتهيُّئ عن خطاب من لا يَفْهم كالمغمى عليه.

واعْترِض بأن هذا التعريف لا يصلح هنـا، إذ المراد هنـا خطـاب اللـه وهو كلامـه وليس بلفـظ، ولو عبّر بـالكلام المقصـود بـه الـخ لكان أولى، إذْ المقصود الحد الشامل للحكم كلـه سواء دل عليـه بلفـظ أولا. وقـال الأسنوي : يقال خاطبـه إذا وجـه اللفـظ المفيـد إليـه وهو بحيث يسمع، فـالخطـاب هو التوجيـه وخطـاب اللـه تـوجيـه مـا أفـاد إلى المستمـع أو من في حكمـه. لكن مُرادهُم هنـا بخطـاب اللـه تعـالى مـا أفـاد وهو الكـلام النفسـاني لأنـه الحكم الشرعي لا توجيه ما أفاد، لأن التوجيه ليس بحكم، فأطلق المصدر وأريد مـا خوطب به على سبيل المجاز،[34] من باب إطلاق المصـدر على اسم المفعول هـ. وهو موافق لما مر أولا من أنـه مـا وجـه، وبـالإضـافـة إلى اللـه تعـالى يخرج خطاب غيره : وبالمتعلق بفعل المكلف يخرج أربعة أشيـاء : مـا تعلق بـذاتـه نحو الله لا إله إلا هو، وبفعله نحو خـالق كل شيء، وبـذوات الجمـادات نحو : «ويوم نُسَيِّرَا الجبـال»، وبـذوات المكلفين نحـو «ولقـد خلقنـاكم ثم صـورنـاكم»، وبقيـد الحيثية يخرج ما تعلق بفعل المكلف لا من حيث التكليف نحو ما تعملون في نحو قوله تعالى : ﴿**والله خلقكم وما تعملون**﴾، فإنه إخبار بـأن أعمـالنـا مخلوقة له تعالى وليس فيه تكليف بأمرٍ ولا حكمٍ شرعي.

---

(34) لكن صار حقيقة فيه قاله التفتزاني وغيره اهـ.

ويتعلق بالتعريف أبحاث :

أحدها أنه لم يقيد الحكم المحدود بكونه شرعيا لا عقليا ولا غيره، ولا بد من ذلك. وأجاب الشارح بأن الإشارة وقعت إلى الحكم الواقع في تعريف الفقه، فالألف واللام للعهد فاستغنى بذلك عن القيد، وهذا على ما مرَّ من أن المراد بالأحكام الشرعية جمع الحكم الشرعي، وعلى هذا التقدير : فالمصنف لما وقع لفظ الفقه في تعريف الأصول عرفه، ولما وقع لفظ الحكم في تعريف الفقه عرفه. ثم ذكر الحاكم به وهكذا. وأحسنُ من هذا ما قدمناه من أنه ذكر مبحث الحكم لا من المبادئ. وأما الأحكام الشرعية في حد الفقه فالظاهر كما مر أنه أراد بها جمع الحكم الذي هو إثبات أمر أو نفيُه على الإطلاق. ولذلك قيدها بالشرعية ليخرج غيرها كما مر، وبهذَا القيد يراد بها ما ثبت بالخطاب من وجوب وحرمة ونحوهما لا نفس الخطاب المعرف به الحكم آخراً، وفي هذا الأخير مزيد بحث سنقرره قريباً إن شاء الله تعالى.

ثانيها أن المطلوب هو تعريف الحكم المتعارف وهو ليس نفس الخطاب بل مدلوله. ألا ترى أن نحو(أقم الصلاة)ليس هو وجوب الصلاة بل دليله، ولذا نقول : الأمر دال على الوجوب، والدال خلاف المدلول. وأجيب بأجوبة : أحدها أن المراد بالحكم ما حكم به وكذا المراد بالخطاب به. الثاني أن الحكم هو الخطاب وإطلاق ذلك على الوجوب مثلا تسامُحٌ. الثالث أن الحكم إيجاب وتحريم مثلا والْوُجُوبُ والحرمة أثره، فالحكم الذي هو الخطاب إذا نسب إلى الكلام سمي إيجاباً، وإذا نسب إلى فعل المكلف سمي وجوباً مثلا، فالإيجاب والوجوب متَّحِدان بالذات متغايران بالإعتبار. وعلى هذا فمتى عبر بالحكم فالمراد به الإيجاب والتحريم، ومتى عبر بالمحكوم به فالمراد الوجوب والحرمة ثالثها أَن الحكم خطاب الله تعالى وخطابه كلامه القديم، فيلزم أن يكون الحكم قديما ضرورة وذلك باطل لأَنا نقول : الوجوب

والحرمة والحِلِيَّة ونحو ذلك صفات من صفات فعل العبد، وفعل العبد حادث، فصفته حادثة، ولأنا نقول : حلَّت فلاَنة بعد ما كانت حرمت، وهذا شأن الحادث. ونقول حلَّت بالعقد والعقدُ حادث، فما توقف عليه حادث، وهذا بحث الإمام في المحصول. والجواب عنه من معنى ما قبله. فالحادث هو أثر الحكم لاالحكم نفسه، فالإيجاب مثلا أزلي والوجوب حادث وهو غير الحكم. وأما توقُّف الحِلِّيَّة مثلا على العقد فلا يوجب حدوثا، لأن العقد ونحوه مُعَرِّف لا مُؤثر كما سنبين ذلك في العلة إن شاء الله تعالى. رابعها أَن الكلام صفة حقيقية من صفات الله تعالى عند مثبته والحكم ليس من الصفات الحقيقية بل من الإضافيات، فأشعرَ أن يكون الحكم عبارةً عن الكلام القديم فبطل قولهم الحكم خطاب الله تعالى، وهذا بحث الأصبهاني على المحصول، وأورده الاسنوي وهو قوي، والانفصال عنه يجعل المعاني نسبا لا سبيل إليه، لأنه مذهب الحكماء والصفات عندنا معان ذواتٌ نسب لا نسب. وقد وقع نحو ذلك في كلام العضد في المعالم فأنكر عليه ابن التلمساني غاية.

النموذج الثاني

جاء في تنبيهاته عند قول المصنف الإمام السبكي رحمه الله : (والحكم الشرعي إن تغير إلى سهولة لعذر مع قيام السبب للحكم الأصلي فرخصةٌ، كأكل الميتة والقَصْر وفِطْر المسافر لا يجهده الصوم، واجبا ومندوبا ومباحا وخلاف الأولى وإلا فعزيمة...).

(الأول (أي التنبيه الأول) الرخصة بضم الراء وسكون الخاء المعجمة، وتضم أيضا وهي لغة التسهيل. وهذه المادة راجعة إلى هذا المعنى، ومنه الرخص بضم الراء لضد الغلاء، وبفتحها للشيء الناعم. والرخصة أيضا ترخيص الله للعبد فيما يخففه عليه كما في (القاموس) وهو المراد هنا، وهو

بـالمعنى الأول الـذي هو التسهيـل. وفي الصحـاح : الرخصـة في الأمر خـلاف التشديد فيه اهـ، وهو ما ذكرنا أولا، وأما بفتح الخاء على مـا يقع في ألسنـة النـاس، فلم يقع فيما رأينـا من كتب اللغـة، فـإن ورد أو استعمل قيـاسـا فلا يصلح إلا وصفـا للشخص المترخص في الأمـور، كهُمـزَة ولُمـزة. والعـزيمـة في اللغة : إرادة فعل الشيء على القطع، وهي مصـدر، تقول : عزمت على الأمر عزما وعزما وعزيما وعزيمة.

الثـاني جعـل المصنف الرخصـة والعـزيمـة من أقسـام الحكم كما وقـع في (المنهاج) وغيره، وجعلهما الإمام من أقسـام الفعل، ووجههما أن الفعل المرخص فيه كبيع العرايا مثلا، وقعت فيـه السهولـة والخفـة بتسهيل اللـه تعـالى فيـه وتخفيفه. وهذه السهولة أيضا وصف أيضا لحكمه وهو الإبـاحـة، لأن الإبـاحـة سهلة بخلاف الحِرْمة. فإذا قلنا مثلا : البيع رخصة، فمعناه أنه مرخص فيه أي مسهل ومخفف، فهو في الأصل مجـاز من إطلاق المصـدر على المفعول، ويصـح أن يكون حقيقة عرفية، وهذا هو صنيع الإمام وابن الحـاجب، على أن لفـظ ابن الحاجب محتمل. وإذا قلنا : إبـاحـة البيع رخصـة، فعلى الأصل الـذي هو الترخيص وهو صنيع المصنف. غير أن الإباحة مثلا يراد بها تـارةً الحكم نفسـه وهو إذن الشرع في الفعل، وتارةً المحكوم بـه وهو أثر الحكم الـذي هو الوصف العارض لفعل المكلف، أي كونـه مـأذونـا فيـه، على مـا تقـدم من الفرق بين الإيجاب والوجوب وهي بالاعتبار الأول تناسب التسهيل، وبـالثـاني تنـاسب السهولـة التي هي أثر التسهيـل. ثم الرخصـة إن كانت بمعنى التسهيـل على مـا ذكرنا في اللغة، طابقها الأول دون الثاني فإنه مجـاز ولكنـه أقرب من الفعل، وإن كانت بمعنى السهولة في اللغـة على مـا وقع في الشروح، فـالعكس. ولم نَرَ في اللغويين من فسرها بالسهولة، وإن كان المعنى صحيحا، وكـذا العزيمـة إن أطلقناها على نفس الفعل فالمعنى أنـه معزوم عليـه، وان أطلقنـاهـا على الحكم فقـد اعتبرنـا نفس العزم، لكن إطلاق العزم على الحكم الـذي هو الاقتضـاء أو

التخيير أو أثر ذلك، إنما يكون على المجاز من إطلاق السبب على المسبب، لأن العزم على الشيء يقتضي فعله وطلبه عادة، والأول لا يتصور من جهة الشارع، فبقي الثاني، فقد دارت العزيمة بين مجازين كما ترى (...).

الثالث : ظهر أيضا من تقسيم المصنف الرخصة إلى الواجب والمندوب مثلا أن التقسيم في الحكم التكليفي وهو المشهور بالحكم الشرعي كما عبر به. وقد جعلها (الآمدي) من أقسام الوضعي، وصنيع المصنف أقرب، ولعله لأجل هذا وصف الحكم بالشرعي ليخرج الوضعي، فلا يرد عليه أن الوصف حشو لأن الكلام إنما هو في الحكم الشرعي، وقد تقدم أن لا حكم إلا لله. فإن قلت : ولعله احترز بالشرعي من البراءة الأصلية فإنها تتغير بمجيء الحكم ولا يسمى ذلك رخصة، قلت : لا يستقيم لوجهين :

أحدهما أن البراءة الأصلية إن لم تكن حكما شرعيا فلا دخل لها أصلا من أول الأمر، وإن كانت حكما شرعيا فلا تخرج بقيد الشرعي فيكون حشوا. الثاني أن تغيرها إنما يكون إلى صعوبة فإن عدم الحكم أسهل، لا يقال : الأشياء قبل ورود الشرع تحتمل أن تكون على الاباحة أو الحظر فالتغير إلى الاباحة بعد ذلك أسهل لأن فيه الخروج عن الحظر بالاحتمال، لأنا نقول : إنما تكلمنا على البراءة الأصلية بملاحظة الشرع، وأما قبل ذلك فلا يعتبر فيه عندنا حظر ولا إباحة، إذ لا حكم قبل الشرع، وغاية ما فيه باعتبار قسم الإباحة أنه انتقال إلى المساوي لا إلى الأسهل، هذا إن لم تلاحظ وجوب اعتقاد الإباحة ومعرفة المبيح والمبلغ وغير ذلك، والا فهو إلى الأشد قطعا.

الرابع : التغيير المنسوب إلى الحكم يتقرر بحسب ما مر : فإن أردنا بالحكم تعلقه، فالتغير ظاهر فيه، وإن أردنا نفس الحكم فالتغيير منسوب إليه بحسب تعلقه كما سيتقرر في النسخ إن شاء الله تعالى. وعلى إرادة الثاني

قررنـاه أولا، ولا يتعين كما رأيت. وعلى كـلا التقريرين فـالتغيير مرجعـه التعلق، وقولـه : (إلى سهولـة) هو على حـذف موصوف وصفـة، أي إلى تعلـق ذي سهولـة وكـذا قولهم : من صعوبـة، أي من تعلق ذي صعـوبـة. وفي هـذا بحث : وهـو أن الرخصـة قـد يتقـدمهـا حكم يتغير عنــه كالقَصْر والجمع بين الصلاتين مثَلا، وقد لا يتقدمها كالسَّلَمِ والقراض على القول بأنه رخصـة ونحو ذلك، فإن ذلك لم يكن قط ممنوعا فأين التغيير المذكور ؟ ويجاب بأن ذلـك منظـور فيـه إلى القـاعـدة المستثنى منهـا، كبيـع مـا ليس عنــدك في الأول، والإجارةالمجهولـةفيالثـانيوهـذه ممنوعـة،أو بـأن التغيير تقـديري،أي أن السَّلَم مثـلا كان يكـون ممنـوعـا بمقتضى تلـك القـاعـدة لـولا العـذر، فقـد تغير من الامتنـاع المقرر إلى الجـواز وهمـا راجعـان إلى قصـد واحـد. لأن الحكم الكلي مُنْصَب على كل جزئي من جزئياته. وقد علم من هذا تقسيم آخر في الرخصـة وهو أن ما استبيح للعذر إمـا أن يستمر حكمـه دائمـا من غير ملاحظـة تحقق العذر في كل صورة أو لابد من الملاحظة، الأولُ كالسَّلَم، فإنـه لو استعمل مع عدم الاحتياج إلى ثَمَن الغلَّـة مثلا كان جـائزا، والثـاني كأكل الميتـة فـإنـه لو استعمل بغير اضطرار لم يَجز أصلا فهو جائز في حالةدون حالة.وشبه هذا ما نُراعي في العلة أنها إمـا أن يلاحـظ فيهـا المشروعيـة الأولى فيثبت الحكم ولو انتفى في بعض الصور كالرّمَل في الطواف أو يلاحظ فيها تحقق الحكم فيـدور معهـا وجودا وعـدمـا وهـو الكثير. والفرق بين قسمي الرخصـة أن السبب في الأول عـامٌّ الوُجُودِ في الأزمـان والأشخـاص بحسب الْمَظِنـة، فثبت الحكم من غير توقف على المهنة، فكُلّ دافع للقراض محتاج إلى تنمية ماله في الجملـة، وكل مسافر تناله المشقة في الجملة، وهكذا بخلاف الثاني إذ لا عموم ولا مظنة، فـإن قيل : أكل الميتـة أيضـا بـالنسبـة إلى المضطر مبـاح دائمـا وفي كل مضطر فهو كالسلم وغيره فلا معنى للتقسيم. قلنا : نحن لا ننظر إلى أكل الميتـة من حيث هو كما ننظرّ إلى السَّلَم من حيث هو وقد شرط في الأول للإبـاحـة الإضـافـة

دون الثاني وهذا مراد التقسيم، وذكر المسافر إنما هو لاستطراد ما يعتبر فيه مظنة العلة وإلا فالقصر والفطر ونحوهما من قبيل أكل الميتة مما يثبت في حال دون أخرى.

الخامس : عرف ابن الحاجب الرخصة بأنها المشروع لعذر مع قيام المحرم لولا العذر. والمراد بالمحرم دليل التحريم أي إن دليل التحريم إذا كان قائما أي بقي العمل به ولم يرفع بنسخ أو تخصيص مثلا ثم تخلف عنه الحكم لعذر فالحكم المشروع عند هذا التخلف لعذر هو الرخصة. واحترز ببقاء الدليل أي بقاء العمل به مما إذا نسخ حكمه. فصور النّسْخ كلها ليست من الرخص أو خصص بإخراج بعض الصور، فكل ما خرج بالتخصيص عن حكم العام كترك مثل المشركات ليس برخصة، لأن الحكم لم يقع عليه أصلا. ولما رأى المصنف أن الحكم الأصلي لا يجوز أن لايكون حرمة ترك التعبير بالمحرم فعبر بالسبب للحكم الأصلي ليدخل ما كان حراما ثم أبيح، وما كان غير محرم كالمكروه إذا أبيح وفيه نظر، لأن السبب إن أراد به العلة كما قرر شراحه فيقال : لا يلزم من بقاء السبب بقاء الدليل، فإن من الجائز أن ينسخ حكم الأصلي أو يخصص مع بقاء السبب، فإنه أمارة فقط وليس برخصة أصلا، وإن أراد المصنف الخروج عن المحرم فكان يكفيه أن يعبر بالدليل فإنه عام كما عبر به البيضاوي.وقد يقال بأن ابن الحاجب أراد بالمحرم السبب الذي يقتضي التحريم لا الدليل، ويستظهر على ذلك بأنه ينسج على منوال الآمدي وقد عبر الآمدي بذلك حيث قال أصحابنا : الرخصة ما جاز فعله لعذر مع قيام السبب المحرم فيكون ابن الحاجب حذف لفظ السبب اختصارا وهو مراد، وحينئذ يكون المصنف تابعا لذلك بحذف لفظ المحرم ليعم. والجواب أن البحث يرد لو كان تابعا للغير كما يرد على الغير. والحق أن الآمدي عبر إثر هذا الكلام بالدليل عند استشكاله للرخصة وهو ظاهر تعبير الإمام الفخر في المحصول، والمقتضي، فالظاهر أن ابن الحاجب إنما أراد الدليل

وبه شرحه شراحه وقال بعض شروحه : لو قال مع قيام السبب لولا العذر لكان أصوب ليتناول صورة النفي كإسقاط وجوب صوم رمضان وركعتين من الرباعية في السفر. قلت : والظاهر أن هذا التصويب وهم أو تصحيف ويصح أن يريد المصنف بالسبب الدليل لأنه سبب لثبوت الحكم ويمكن العكس وهو أن يريد بالدليل السبب الذي ذكر المصنف وهو الذي وقع في بعض شروح المختصر غير أن ذكرهم للنسخ والتخصيص يأبى ذلك والخطب سهل إن ادعى التلازم بين الدليل والسبب إثباتا ونفيا ولو بدعوى كون السبب لا يبقى بعد دليله معمولا به، وإن بقيت ذاته في مسألة القياس على منسوخ شعبة من هذا التأمل.

السادس : (وقد تركناه اختصارا).

السابع : قد علم من كلام المصنف حد الرخصة والعزيمة (   )، وقد أورد على التعريفين طردا وعكسا، ترك الحائض للصوم أو الصلاة فإنه عزيمة. وقد صرف عليه حد الرخصة، لأن الحكم قد تغير من وجوب الصوم والصلاة إلى عدم وجوبها بسبب العذر وهو الحيض، مع قيام سبب دخول الوقت فيدخل في حد الرخصة فيفسد طَرْدُه ويخرج عن حد الرخصة فيفسد طرده ويخرج عن حد العزيمة فيفسد عكسه. وأُجِيبَ بجوابين : أحدهما أنه لم يتغير فيه الحكم من صعوبة إلى سهولة بل إلى صعوبة، لأنه من وجوب الصوم مثلا إلى تحريمه، والتحريم صعب، قلت : ويرد بأنه موافق للطبع كأكل الميتة فهو سهل الترك، والثاني أن العذر فيه وهو الحيض مانع من الفعل فلم يتغير الحكم بسبب العذر بل بسبب مانع. قلت : وفيه نظر، إذ لا إشكال أن الحيض عذر، به ارتفع إثمُ التَّرْك، وكونه مانعا لا ينافيه، وغاية الأمر أن العذر لما كان هنا مانعا لم يعتبر في رسم الرخصة، وإنما يصح ذلك بأن يشترط في العذر المذكور في التعريف أن لا يكون مانعا، لكن هذا الشرط

غير مذكور ولا دليل عليه، فبقي البحث بحاله، فإن قيل : هذه حيثية تراعى في التعريف بالمراد لعذر من حيث إنه عذر لا مانع، قلت : مراعاة الحيثيات لا تستقيم في كل موطن، ألا ترى أنا لو قلنا هاهنا مع قيام السبب من حيث إنه سبب لم يصح، لأن سبب الحكم الأول لا تبقى سببيته مع الثاني، لا يقال : قد بقيت لولا العذر، لأنا نقول : هذا قيد أيضا غير مذكور في التعريف. ويَردُ عليهما أيضا الإطعام مثلا في الكفارة عند العجز عن الرقبة، وكذا الصيام في كفارة اليمين عند العجز عن الثلاثة، فإنه تغير فيه الحكم إلى سهولة لعذر هو العجز فيكون رخصة لكنه عزيمة، وما وقع في كلام جماعة من إخراج هذا ونحوه بالتغير، لأن الإطعام هو الواجب عليه ابتداء عند العجز وكذا الصيام، لا يسلَّم، إذ يقال أيضا : حل أكلِ الميتة هو الحكم ابتداء عند الاضطرار، وكذا جميع الرخص في الفرق، كيف والمفهوم من تعريف الرخصة إنما هو أن يتغير الحكم إلى سهولة مع وجود العذر وبقاء السبب الأول وقد صدق ذلك فيما مثلنا.

فإن قيل : المراد تغير الحكم الأول إلى الثاني، فيكون الثاني من الأول، فإذا كان ثبت ابتداء بالاستقلال خرج عما نحن فيه. قلنا : إن أريد بذلك أن الأول هو الثاني بالشخص فباطل لو كانا مثلين فكيف وهما ضدان ؟ وان أريد أن الأول يستحيل إلى الثاني فباطل لاستحالة انقلاب الحقائق، وان أريد أن الأول مشارك للثاني في الجنس فتغير الجنس من الأول إلى الثاني فصحيح، وغايتُه أن الجنس يتحقق عندنا في شخص واحد فيتحقق في شخص آخر بعد الأول في الوجود أو معه أو أقدم منه. وقد صدق أن الكفارة مثلا تتحقق في الإعتاق، فإذا عدم تحققت في الإطعام والصيام. وتحقيق هذا الكلام أن التغير إما أن يكون منسوبا إلى الحكم الأول أو إلى الثاني أو إلى الأعم، والأول تغير إلى العدم والثاني تغير إلى الوجود، ولا

محذور فيها، لأن المراد التعلق كا مر لا الحكم القديم. والثاني تغير تحول من شيء إلى شيء كا قررنا الآن ولا مانع منه، وإن كان في الحكم نفسه لأنه أمر إضافي بالنسبة إلى أفهامنا، وإلا فلا معنى لتحول المعاني فافهم وحاصل الجميع إنما هو ثبوت حكم بدل حكم آخر...

ونقتصر على هذا القدر من هذا البحث القيم وهو طويل، وإنما أتينا به نصا، لأن تلخيصنا إياه لا يقوم مقامه في إبراز قيمته العلمية كنموذج حي على أسلوب اليوسي ومنهجه في التأليف والبحث ومستواه في الأصول والفقه على الخصوص وفي علوم الشريعة على العموم.

كتاب القول الفصل
في تمييز الخاصة عن الفصل

كتاب في المنطق، يشتمل على مباحث جليلة ويحتل رغم صغر حجمه مكانة رفيعة بين كتبه، وقد ألفه جوابا عن سؤال من أحد طلبة الوقت ونصه :

(سيدي رضي الله عنكم (   ) جوابكم عن مسئلة وهي قول المناطقة : إن الناطق جزء داخل في الماهية، والضاحك لازم خارج عنها، إن كان اصطلاحا فلا بحث، وان أرادوا أن مستنده العقل بحيث يمتنع غيره فلا نسلمه إذ العقل لا يسلم إلا بكونهما صفتين لازمتين له، وأما دخول واحدة دون أخرى ما أدركناه. ومما يزيد استشكالنا كلام الشيخ المنجور حيث جعل الحقائق كلها واحدة، والاختلاف بمجرد العرضيات فحسب، ومن جملتها الناطقية. ورَدُّ الشيخ القصار، ان سلم وضحه لنا سيدي، إذ فهِمْنا في كلامه تدافعا، وذلك لقصورنا وغاية ما أدركت عقولنا : كلها واحدة داخلة أو

خارجة بالاعتبار. واستدل بعض على دخول الأول : أنا نتعقل الإنسان بدون الضاحك فعلمنا أنه أمر زائـد، وهو بـاطل، إذ لا فرق من جهـة لزومهما لـه، وكذلك نقول : إنه لو ركبت ماهية الإنسـان من الحيوان والضـاحـك لتعقل بدون الناطق وكان ما عداها أمراً زائداً.

وأيضـا سيـدي، هـل النـاطـق حيث جعلوه جـزء المـاهيـة بـاق على عَرَضيتـه ؟ أو لم يلاحـظ فيـه ذلـك المعنى أو أطلق على شيء خـاص ؟ ومما يؤيد الأول إطلاقه على القوة المتفكرة ليـدخل الأخرس فيتقوى الإشكال، إذ لا مانع من أن يراد بالضاحك القوة المدركـة للغرائب فيكونـان داخلين معـا أو خارجين، وتخصيص أحـدهمـا دون الآخر تحكم. وقـد أجبنـا سيـدي بكلام القرافي : إن العرب وضعت الحيوان النـاطق للإنسـان وفهم عنهم ذلـك وقـد علمنا أن الفتوى للحكماء وليس موقوفا على الوضع العربي في شيء).

ومع أن اليـوسي لم يكن مهيـأ لتـأليف هـذا الكتـاب، ولا كان لـه من الوقت ما يبذله في ترتيبه وتنظيمـه ولا من المراجع مـا يسـاعـده على ضبط مسائله والتوسع في مباحثـه، فـإن الكتـاب جـاء على نظـام متقن، وجـاءت عبارته جزلة متينة وفصوله ومباحثـه مرتبـة مقنعـة. وهـذا ملخص لـه يرسم أجزاءه ويجلو بعض مناحيه.

ينقسم الكتاب إلى مطلبين وخاتمة.

المطلب الأول : في بيان مفهوم الـذاتي من الكليـات، وتصوير حقيقتـه بالحد.

المطلب الثاني : في بيان خواصه وأماراته التي يمتاز بها ذهنا وخارجـا، ليتضح باعتبار مصدوقاته ويتبين في كل كلي أنه ذاتي أو عرضي.

أما الخاتمة فتشتمل على مباحث نذكرها هنـا على الترتيب، مشيرين إلى موضوعاتها باختصار :

المبحث الأول : في أن مـا ذكر من تركيب الجسم من هيـولى وصـورة، صحيح من حيث الاطلاق الاشتراكي.

المبحث الثـاني : في أن من تمـام تقسيم المـاهيـة إلى البسيطـة والمركبـة، وتقسيم المركبة إلى الحقيقية والاعتبارية، وأن كلا من البساطة والتركيب إمـا أن يكون بحسب العقل أو بحسب الخارج فهي أربعة أقسام.

المبحث الثالث : في أن النطق يطلق على التفكر وعلى القوة المتفكرة.

المبحث الرابع : في أن الماهية العقلية متمايزة ذهنا لا خارجا، وما جاء في ذلك من أقوال.

المبحث الخـامس : في أن ظـاهر كـلام الأئمـة في تقسيم المـاهيـات إلى الحقيقية والاعتبارية وأن من الحقيقية ما تألف من جنس وفعل، أن الماهيـة الإنسانية المعبر عنها بالحيوان الناطق حقيقيـة، إذ كونهـا من جنس وفعل هو الشائع المطروق.

المبحث السادس : في أن القوة العقلية بها امتاز الإنسان.

المبحث السـابع : إذا تقررت مـاهيـة الإنسـان وعرفت حقيقتـه بمـا مر فـاعلم أنـه نـوع من الحيـوان ويبقى البحث في هـل غيره من الفرس والحمـار والطائر ونحوها أنواع أم نوع واحد.

المبحث الثامن : فيما توقف فيه السيد من أن العوارض إذا أقيمت مقـام الفصول، هل يكون ذلك التعريف حدا حقيقيا أم لا ؟

المبحث التـاسع : هل انتفـاء الحس والحركـة عن النبـات والمعـدن على سبيل القطع أم لا ؟

المبحث العـاشر : فيما تقـدم من أن الـذاتي لا يعرف أنـه ذاتي ببرهـان، وأن ذلك مستند إلى كون الحد لا يثبت بالبرهان.

المبحث الحادي عشر: هل الذاتيات من الجنس والفصل معتبرة في المفهومات العدمية، أو هي مخصوصة بالوجوديات ؟

المبحث الثاني عشر: في أن أجزاء الحقيقة المسماة بالذاتيات لا تعقل الحقيقة إلا عند تعقلها، وهو الفرق بين الذاتي والعرضي.

المبحث الرابع عشر: تلخيص ما تقدم مما يستعين به العاقل على الاطلاع على ذاتيات الشيء ويكتسب به قدرة على تعريف الأشياء بالحدود الحقيقية، وليدرك به شيئا مما وقع من كلام الأقدمين(*)

المبحث الخامس عشر: إذا أدركت حقيقة الشيء بالحد التام المشتمل على كل من الجنس والفصل فهل يصح أن يقال إنَّ ثَمَّ ذاتيات أخرى ؟ أو كون هذا الحد حدا تاما يقضي بانحصارها والإحاطة بها. والثاني هو الحق.

المبحث السادس عشر: وقد سبق أن نقلنا منه جملة في الفصل السابق وفيه يتحدث اليوسي عن منزلته العلمية وأنه بعيد عن التقليد وكفء لغيره من أعلام الأصول والمنطق.

☆ ☆ ☆

هذه لمحة سريعة عن كتاب (القول الفصل) يظهر من خلالها على جانب كبير من الأهمية في الموضوع الذي يدرسه، ونعلم أن اليوسي من العلماء الذين كانوا يقولون بجواز تعلم جميع العلوم بما في ذلك المنطق والسحر وغيرهما، خلافا لبعض ممن حملته اعتبارات واهية على تحريمها وتحريم علوم أخرى كالفلسفة ونحوها. واليوسي هنا يتجاوز القول بجواز تعلم المنطق إلى العمل فيؤلف فيه كتابه هذا، مما يدل على تحرره واتساع أفقه والتزامه الجادة في ميدان العلوم.

---

*) لعل المبحث الثالث عشر وقع إغفاله سهواً.

كتاب نفائس الدرر في حواشي المختصر

وضع العلامة أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي[35] مختصرا في علم المنطق ثم وضع عليه شرحا، فجاء أبو علي اليوسي ووضع حاشية على هذا الشرح تقع في حوالي ثلاثمائة صفحة وسماها : نفائس الدرر في حواشي المختصر.

يقول اليوسي في خطبة كتابه : (أما بعد، فهذه نفائس الدرر في حواشي المختصر، جعلته بعون الله تعالى للشرح تذييلا ولدقائق نكته تبيانا وتكميلا. وربما ذكرت أشياء بينة المسالك لافتقار المبتدئ مثلي إلى ذلك، وما أجترأت عليه مع نزارة البضاعة وغاية جهلي بهذه البضاعة، إلا ليكون ذخرا عندما يتعسر الاطلاع، وتبصرة لمن هو مثلي قصير الباع).

(نموذج من هذا الكتاب، وفيه رد على من قال بتحريم علم المنطق).

(قوله : صرح بتحريمه الخ) كأنه يشير إلى ما حكي عن بعض المحَدِّثين كحجة الإسلام النووي والإمام ابن الصلاح من تحريم الاشتغال بهذا العلم. ويقال : إن ابن الصلاح اشتغل به عشرين سنة فلم يحصل منه على طائل، قلت : وتحريم هؤلاء له إن كان بجهلهم به كما أشار إليه المصنف، فلا يُستبعَد

35) هو الإمام أبو عبد الله محمد بن الولي الصالح أبي يعقوب يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي نسبة إلى بني سنوس القبيلة المعروفة بالمغرب. كان رحمه الله إماما عالما عاملا من أيمة السنة وممن أظهر الله به الدين. تخرج بمشايخ جلّة منهم أبو عبد الله محمد بن العباس وأبو الحسن علي بن محمد القلصاد وأبو الحجاج يوسف بن أحمد الحسني وأبو عبد الله ابن الحباك، ومنهم الإمام أبو زيد عبد الرحمان بن محمد التعالبي... ألف تلميذه أبو عبد الله محمد بن عمر الملالي مجلدا في مناقبه وذكر أشياخه وما ظهر من كراماته وقال : توفي يوم الأحد الثامن عشر من جمادى الأخيرة عام 895.

أن يعاديَ الشيءَ مَن جَهِله، وإلا فلعلهم يريدون ما زاد على القدْر المحتاج من ذلك، صونا للنفوس عن الاشتغال بما لا يعني، وإفْناء الأعمار فيما لا طائل تحته، وترك الفضول التي يشتغل بها البعض من التمشدق بعبارات يوهمون أن تحتها دقائق الاعتبارات. وفي مثلهم قال بعض السلف : إن علماء الكلام زنادقة، فيحسن أن يُحَرَم لما ذكرنا، وسدا للذريعة أيضا مخافةَ أن يخوض البليد في تلك الأمور فلا يستطيع إدراك حقائقها، ولا يزداد إلا تحيرا فربما تؤديه إلى التشكك في صحة تلك القواعد، بل ربما أدى إلى التشكك فيما بني على ذلك من قواعد أصول الدين، فيخشى على هذا أن يزلق في مهاوي شنيعة كما زلقت الفلاسفة ونحوهم. وهذا كان أصل كفر كثير منهم والعياذ بالله تعالى.

وقد فرق بين الذكي والغبي في إباحة الاشتغال بهذا العلم، على أن أكثر المحدثين يكتفون بالتقليد في أصول الدين، فلا يحتاجون إلى كثير من القواعد المنطقية لأن معظم فائدتها في أصول الدين على طريقة أهل الكلام وإن كانت تنفع في كل علم.

هذا وأما القدر الضروري من هذا العلم فلا ينبغي أن يصد عنه إلا من لا معقول له. وقد اشتغل به الجماهير من الفضلاء تدريسا وتأليفا، وحثوا كثيرا على تعليمه لكونه لا ينفك عنه علم من العلوم ولا يستغنى عنه، وبذلك تكون العلوم طوع اليد لمن حقق المهم من هذا العلم كما قال المصنف، وكذلك لأن كل علم تصور أو تصديق وذلك هو نظر المنطقي. ولهذا قال (أثير الدين الأبهري) في أول رسالته : (أوردنا فيها ما يجب استحضاره لمن يبتدئ في شيء من العلوم، وقال أبو على الماكَري : وهذا الفن يعني المنطق لا يعطيه الله بكماله إلا لمن أحب من أوليائه، لأن معرفة الله تعالى تدرك به) وقال الغزالي : (من لا معرفة له بالمنطق، لا وثوق بعلمه) نقله عنه الشيخ زكرياء في شرح ايساغوجي، وقال : إنه سماه : معيار العلوم.

ومما يتعلل به بعض من حرم هذا العلم ويعتذر أن يقول : إنـه من علم اليهود، فإن كان يعني أن اليهود يشتغلون به فقـد اشتغلوا بكثير من علومنـا كالنحـو وغيره. وإن كان يعني أن واضعيــه ليسـوا مسلمين فليس شرف العلم بحسب الواضع بل بحسب الموضوع والغاية، وإلا فكثير من العلوم قد وضعهـا النصارى والمجوس والجاهلية كالطب والتنجيم وغيرهما ولم يُجْتَنَبْ، وما أجـدَرَ هؤلاء أن يقـال لهم : عليكم أن تجتنبوا آلات صنـائعكم الحسيـة لأن واضعيهـا اليهود أو النصارى وهم المشتغلون بها كثيرا فإن لم يجتنبوهـا فـاعلم أنمـا يتبعون أهواءهم.[36]

وفي الكتاب مباحث فلسفية عالية نذكر كمثـال عليهـا : بحثـه في العلم والعقل، وبحثه في السفسطائية. والكتـاب ليس لـه نظـام خـاص مثل سـائر كتب اليوسي وإنما هو شرح كبـاقي الشروح، يتبع فيـه كلام المصنف فيـذكر لفظه ثم يشرحه، وهكذا فإننا لا نجـد هنـاك أبوابـا أو فصولا كما اعتـدنـا أن نجدها في مؤلفاته الأخرى.

حاشية اليوسي على كبرى السنوسي

من أكبر كتبه وأكثرها غَزارَة وغَنَاءً. يقع في أكثر من أربعمائة صفحـة، ويحتوي على بحوثٍ غـايـةٍ في العمق والاختصـاص، ويتطرق إلى مسـائـل في منتهى العلو في علم الكلام. ولم يكتف فيـه بـالشرح والتعليق، وإنمـا فتح في ثنايا الكلام آفاقا للبحث، وتوسَّع في كثير من النقط فظفرنـا منـه بعلم غزير وفقهٍ كثير.

---

36) اعتمدنا على النسخة المخطوطة الموجودة بالخزانة العامة تحت رقم 1072.

جاء في خطبة الكتاب : (هذا وإنه لما امتن الله علينا بقراءة عقيدة أهل التوحيد وشرحها عمدة أهل التوفيق والتسديد، مررت بها بمواضع متعاصية على بعض الأذهان، متواصية لا تدخل بيتها إلا بشفاعة الذكاء أو البيان، فعزمت على أن أنبه عليها وأقطع إن شاء الله إضافة الابهام إليها. ثم بدا لي أن أضيف إلى ذلك من الفوائد ما يحتاج إليه من الألفاظ اللغوية، غير تارك إن شاء الله تعالى إلا بعض ما يكون من الأوضاع العربية).

وقد ألف اليوسي كتابه هذا في فترة من أصعب فترات حياته تتابعت فيها العوائق والمحن، وما أكثر العوائق والمحن في حياته : وكما قلنا في الفصل السابق : فإن ما تعرض له اليوسي من تغريب وما عرفته حياته من رحيل دائم جنى على تآليفه فجاء بعضها غير تام النظام ولا كامل البنيان.[37]

ندب الملوك إلى العدل والوقوف مع السنة والشرع

كتب اليوسي هذه الرسالة لتذكير الخليفة بما كانت عليه سيرة الخلفاء الراشدين ومن سار سيرتهم في المحافظة على أموال المسلمين، وترك الأكل منها إلا بالحق، وعدم التضييع والتبذير بالإضافة إلى العدل والإحسان.

وحديثه فيها صريح، ونزاهته ظاهرة، وذكاؤه في الإشارة والتنبيه بلباقة يتجلى في الرسالة كلها.

وتَلْقَانا صراحته من مطلع رسالته في مثل قوله بعد أن ذكر سيرة الخلفاء الراشدين وما كانوا عليه من التمسك بكتاب الله وسنة رسوله والزهد في الدنيا والتزام الحق والعدل : (فلما ذهب هؤلاء الأيمة المقتدَى بهم، دخل

37) اعتمدنا على النسخة المخطوطة الموجودة بالخزانة العامة تحت رقم 2645.

الناس هذا الأمرَ بالعنف والشهوة، وانقطعت الخلافة، وجاء الْمُلْكُ العَضُود كما أخبر بـه ﷺ، وذهبت السيرة المحمـديـة إلا قليـلا، وجـاءت الكسرويـة والقيصرية، وتصرفوا في هذا المال بالشهوة، وعاملهم الناس بالرغبة والرهبة).

ثم يتطرق اليوسي إلى خـلافـة عمر بن عبـد العـزيـز فيـذكر لُمَعاً من سيرتـه رضي اللـه عنـه ويقول : (ولم يـزَلْ مُلْـكُ بني أميـة على ذلـك إلى أن أحيي الله الأرض بعد موتها وانارها بعد ظلمتهـا، بـالإمـام العـادل أبي حفص عمر بن عبد العزيز).

ويشير اليـوسي إلى المـوانـع التي تمنـع من يريم الكتب عن التصرفـات الشرعية للملوك في أموال الرعية فيقول : (وأما التعرض لما يستحقـه صـاحب الأمر من بيوت المال، وما يكون لـه أن يـأخـذه من النـاس ومـا يكون بـه استحقاق المرتبـة من الأوصـاف والشروط، والفرق بين الخلافـة المعتبرة شرعـا والتغلب، ونحو ذلك فهذا أمر متعذر لا يستطـاع ذكره ولا الْحَوْمُ بسـاحتـه) ويقول إن ذلك كان مستطـاعـا في عهـد الخلفـاء الراشـدين الـذين لم يكونوا يـأنفون من الحق، وإن العلمـاء كانوا يعلمون منهم ذلـك فكانوا ينصحونهم (ثم دارت جولة الدنيا عليهم (يعني العلمـاء)، وداخلهم الطمع، فطلبوا التقرب إلى الملوك، واشتغلـوا بـالمـداراة بـل بـالمـداهنـة معهم والتحبب إليهم بكل محـال، فعاقبهم الله تعالى بزهدهم فيهم والتعزز عليهم، فهان العلم وهان أهله كما قـال القائل :

يقـولـون لي فيـك انقبـاض وإنمـا	رأوا رجـلا عن مـوقف الـذل أحجما
أأغرســـه عـــزا وأجنيـــه ذلـــة	إذا فـاتبـاع الجهـل قـد كان أحـزم
ولـو أن أهـل العلم صـانـوه صـانهم	ولـــو عظمــــوه في النفـــوس لعظما
ولكن أهـــانـوه فهـــان ودنسـوا	محيـــــاه بـــــالأطماع حتى تجهما

ثم يعقب على هذه الأبيات قائلا : (هـذا كلام على الغـالب، وإلا ففي كل زمان والحمـد للـه سـادة، وفي كل قطر قـادة) والملوك بـدورهم (ليسوا على وصف واحد ولا في درجة واحدة، بل هم متفـاوتون في الفضل متفـاضلون في النبل).

ويختم رسالته بقوله : (وقد حمدنا اللـه تعـالى إذ كنـا في دولـة سلطـان هـاشمي علوي فـاطمي يستمـع الحـق ويطلبـه ولا يـأنف عنـه، ولا يستفـزه كبرياء ولا أشر ولا بطر، فهذا من فضل الله علينا ومنته لـدينـا) ولم يـذكر اليوسي في أول رسـالتـه أو في آخرهـا أنـه يوجههـا إلى المولى إسماعيل أو غيره ولعلها عامة ينصح فيها من يقف عليها من الملوك والرؤساء قياما بواجبه في النصح والإرشاد.

منظومة فقهية[38]

أرجوزة فقـه، مجموع أبيـاتهـا ثمـانيـة وأربعون ومـائتـا بيت، تشتمل على الأبواب التالية :

1 ـ مقدمة في التوحيد.

2 ـ باب الطهارة ويشتمل على :

1) فرائض الوضوء.
2) سنن الوضوء.
3) فضائل الوضوء.
4) مكروهات الوضوء.
5) قضاء حاجة الإنسان.

38) اعتمدنا على النسخة المخطوطة رقم 364 بالخزانة العامة.

6) نواقض الوضوء.
7) سنن الغسل وفضائله.
8) موجبات الغسل.
9) المسح علىالجبائر ونحوها.
10) المسح على الخفين.

3 ـ باب الحيض ....

4 ـ باب التيم، ويشتمل المقاطع التالية :

1) ممن يصح التيم.
2) فرائض التيم.
3) سنن التيم.
4) مندوبات التيم.
5) نواقض التيم.

5 ـ باب الصلاة ويشتمل على المقاطع التالية :

1) أوقات الصلاة.
2) شروط الصلاة.
3) فرائض الصلاة
4) سنن الصلاة.
5) ذكر السنن الخارجة عن الصلاة.
6) فضائل الصلاة.
7) الفضائل الخارجة عن الصلاة.
8) مكروهات الصلاة.

6 ـ باب السهو والعمد في ترك الفرائض كلا أو بعضا ويشتمل على مقطعين : الأول في حكم السهو والعمد والثاني في ذكر الفرائض والنوافل :

7 ـ باب الزكاة.

8 ـ باب الصيام.

9 ـ باب الحج والعمرة.

الحمد لله الوَلي الأَحَد　　　الحكَم العدل العلي الصمد

وبعد الصلاة والتسليم على النبي وآله وصحبه والتابعين وتابعيهم وجميع المرسلين، يبين اليوسي المقصود من المنظومة فيقول :

وبعد فالمقصود ذكر ما طُلِبْ　　　من المكلف وجوبا أو نُدِب

ثم يمضي في نظم أبوابها نظما سهلا واضحا، مع اختصار وتركيز. ولا ينسى اليوسي أن يذيل منظومته بأبيات عن مبدأ طريق الصوفية ويختمها بهذين البيتين :

فأحكم الحقُوقَ والآدابا　　　تستفتحْ السبلَ والأبوابا

وتَنْجُ من مشتبِهات الفتن　　　وتحْظَ مِن رب العلى بالمنن[39]

39) اعتمدنا على نسختين بالخزانة العامة : الأولى ضمن مجموع رقم 1164 د والثانية تحت رقم 157 جـ ويوجد اختلاف بين النسختين في تقديم بعض الأبواب على بعض وكذلك في زيادة بعض الأبيات أو نقصها، ففي (جـ) نواقض الوضوء مقدمة على قضاء حاجة الإنسان. وفي (د) سقطت ثلاثة أبيات تحت عنوان باب ممنوعات الحدث وتقع في (ج) وبين المسح على الخفين وبين الحيض والنفاس كما سقطت أربعة أبيات من (جـ) متممة للمسح على الخفين وموجودة : «في (د) هذا بالإضافة إلى اختلاف بعض الكلمات في النسختين.

ونظن أن الأرجوزة أطول مما بين أيدينا منها، نظرا لأننا لا نجدها مختومة بالدعاء كما هي العادة في مثيلاتها، وكما هي عادة اليوسي في كل آثاره. وقد أشرنا إلى زيادة بعض الأبيات في بعض النسخ منها، فعسى أن يهدي البحث إلى نسخة كاملة منها أو نسخ متعددة يكمل بعضها بعضا.

ونختم هذا الفصل بالملاحظات التالية :

1) يمكن تقسيم آثار اليوسي بحسب الفنون التي تندرج تحتها وبحسب الأهمية إلى أربعة أقسام :

أ ـ أصوليات بما في ذلك أصول الدين وأصول الفقه والعلوم المرتبطة بها كالمنطق.

ب ـ فقهيات.
ج ـ صوفيات.
د ـ أدبيات.

2) بين آثار اليوسي كتب وشروح مبتورة. ويرجع ذلك في غالب الأمر إلى الاضطراب الذي طبع حياة اليوسي، وكثرة تنقلاته التي فرضتها عليه بعض الظروف السياسية.

3) إن النظام والترتيب وحسن العرض والحرص على استيفاء المعاني، واختيار العبارات اختيارا يكفل تبليغ الأفكار بلا نقص ولا إطناب وتكلف ولا استرسال مع الخطابيات، هي الخصائص الثابتة في أسلوب اليوسي. هذا بالإضافة إلى خلو آثاره من العواطف الحماسية أو الأسلوب الجهادي : فهو موضوعي لا يظهر عليه الإنفعال، ومدار الأمر عنده على الحجة والبرهان، ولذلك لا نجد في كتبه أثرا للتحامل على الناس أو التعريض بهم أوالخصومة العنيفة معهم.

ولأسلوب اليوسي خصائص أخرى عامة تميز آثاره وتساعدنا على التعرف عليها وسط خليط من آثار غيره،ولعل منها أن اليوسي لا يميل إلا الإطلاق فهو لا يرفض شيئا ولا يقبل شيئا على إطلاقه، وإنما يقرر باستمرار أن هذا الأمر صحيح في كذا أو على هذا الاعتبار أو ذاك، وغيرُه ليس صحيحا في كذا أو على هذا الاعتبار أو ذاك.

ولعل منها أيضا أن اليوسي لا يتجه في معرض النقد إلى الأشخاص وإنما يسلط نقده على الأفكار ويجتهد في إحاطة خصمه بما يليق به من الاحترام وحسن الظن.

وهكذا توجد خصائص عامة يصعب تحديدها على سبيل الحصر والضبط ولكن يسهل التعرف عليها أثناء قراءة آثاره.

4) تدل آثار اليوسي علىأنه لم يكن منعزلا ولا انطوائيا ولا نظريا، وإنما كان متفتحا على بيئته مهتما بقضايا عصره. عالج مشاكل مجتمعه من جهة الشرع والعقل في كثير من أبحاثه، وكان في تلك المعالجة صريحا وحريصا على المصلحة العامة. من ذلك رسالته التي بعثها إلى المولى إسماعيل يبين فيها حقوق الأمة على السلطان، ومنه قصائده في حث المسلمين على جهاد الكفار وتحرير الشواطئ. وكذلك موقفه من قضية تمليك الحراطين، وأبحاثه في قضية علم النبي وآراؤه في شيخ الطريقة وفي الزوايا الزائفة وغير ذلك.

فآثارُهُ مرتبطة ببيئته ارتباطا وثيقا، ولعل هذا من أسباب ازدحام الناس على دروسه وتداولهم لكتبه ورسائله.

5) ثم إن اليوسي يَظهَر من خلال آثاره عالما مهيمنا على علوم وقته متمكنا منها، ضاربا بسهم وافر في المنقول والمعقول، متحررا من ربقة التقليد، ساعيا بجد وإخلاص وثبات نحو الابتكار والتجديد، معتزا بعلمه منافسا

لأعلام عصره ومن له الشهرة العالية والمرتبة السامية من أعلام السلف الصالح. هذا مع ديانة متينة، وأخلاق سلفية طاهرة، وسلامة النية، والتسليم والاذعان لأرباب الطريقة، مع عدم التورط في منافستهم أو في انتحال شيء من كراماتهم.

6) واليوسي رجل بدوي يميل إلى البساطة في كل شيء، ويميل إلى الصراحة والصدق وهو شجاع القلب غيور على دينه وعلىالعلم. لا تأخذه في الذود عنهما لومة لائم، ولا ترهبه سلطة، ولا يلجلج لسانه طمع أو رياء.

وقد حاولنا أن نعرض نماذج من كتبه نظرا إلى أن أكثرها مخطوط غير متداول بين أيدي القراء في هذا الوقت.

البــاب الـثـالــث

مدرسة اليوسي

المبحث الأول

شيوخ اليوسي وتلاميذه

في الحديث عن شيوخ اليوسي وتلاميذه، نذكر أول ما نذكر أن العلم في المدرسة الإسلامية مشيخة، وقد كان علماء السلف رحمهم الله يأخذون الطلاب بهذه المشيخة في مثل قولهم المأثور «لا تأخذ القرآن عن مصحفي ولا العلم عن صحفي» (ذكره اليوسي أو قريبا منه في القانون) يعنون بالصحفي - وهو عندهم من ألقاب التجريح من يأخذ العلم قراءة من الصحف، أي الكتب وإنما يؤخذ تلقيا من أفواه الشيوخ. ومن هنا أخذت الرحلة إلى العلماء موضعها الجليل في حياتهم.

وفي تاريخ علمائنا ظاهرة فريدة تسترعي الاهتمام : إذ يحرص المترجمون لهم علي التنصيص على من «كانت إليه الرحلة» فتكون شهادة له بالإمامة والرسوخ في العلم الذي اشتهر به، كما يحرصون على ذكر الرحلات التي قام بها العالم في طلب العلم ومن لقي من الشيوخ ومن أجازه منهم، فتدخل هذه الرحلات في تقديره وترفع منزلته، وتشهد له بسعة الأفق وأصالة المشيخة. (لليوسي فصل في الرحلة في كتابه القانون)، ولكن العصور المتأخرة، شهدت تزييفا لهذه الإجازة العلمية، يستغل فيها الأدعياء الدخلاء على العلم طيبة الشيوخ فينالون منهم الإجازة فيما لم يقرأوه عليهم. فنجد فهرسات مزينة بعدد من الإجازات التي يشهد فيها عدد من كبار الشيوخ لصاحب الفهرسة بأنهم يجيزونه في كل ما يصح لهم وعنهم روايتُه إجازةً عامة

شاملة، مع أنه إنما التقى بهم في جلسة واحدة واستجازهم فأجازوه دون أن يصح له سماع كاف أو قراءة معتبرة، بل إنهم يجيزون من لم يروه إطلاقا. وأذكر هنا مثالا من حياة اليوسي نفسه، وما أكثر الأمثلة في حياة غيره من العلماء :

وصل اليوسي إلى طرابلس في طريقه إلى بيت الله الحرام ونزل بدار المحب الفقيه السيد محمد بن أحمد بن محمد الملقب بالمكني[1] وما مضت بضعة أيام حتى تقدم الفقيه يطلب الإجازة من اليوسي له و«لرفاقه» ويقول :

أعالم أهل الأرض في كل ما قطر	وعلامة الدنيا جميعا بلا نكر
وقدوة أرباب الهداية والتقى	مجدد دين الله حقا بذا العصر
أيا شيخنا اليوسي يا شيخ وقته	وعمدة أقطاب الوجود بذا العصر
مقيد هذا المكني محمد محبكم	سرا وفي ظاهر الأمر
يؤمل منكم أن تجيزوه بالذي	رويتم ورويتم من العلم والذكر
وإن لم يكن أهلا لما رام منكم	فإنكم أهل المودة والخير
ومهما تفضلتم بذاك فعمموا	لإخواننا في الله من أهل ذا العصر
كمثل ابن عفان المعظم قدركم	وذكركم عبد السلام أخي البر
كذلك إبراهيم وهو ابن مصطفى	كذلك سحبان أخي سالم الصدر
كذاك علي وابن منصور الرضى	وسائر أعواني على الخير والبر
كذاك علي عين أهل سفاقس	وفاضل من فيها الملقب بالنور
فبالله خذ يا شيخ بخواطري	على ما ترى نظما وإن شئت بالنثر

1) أحمد المكني الطرابلسي المغربي ولد سنة 1042. فقيه مالكي تولى افتاء طرابلس الغرب ومن تآليفه : شكر المنة في نصر السنة. توفي سنة 1100 هـ. ترجم له كحالة في معجمه ج 2 ص 160 والبغدادي في هدية العارفين 1 : 165.

وكأن اليوسي قد أحس بحرج كبير، فدفع الأبيات إلى ولده محمد الكبير، وأمره أن يجيزهم عن إذنه، فكتب ابنه بلسان أبيه ما يلي :

أجزت لكم في كل ما قد رويته	وما قلته قبل من نظام ومن نثر
كذا الرفقاء الماجدون تعمهم	إجازتنا من قاطنين بذا المصر
كذا الماجد النحرير عين سفاقس	أبو الحسن النوري ذو المجد والفخر
ومن شاء يستحصي ففهرسة لنا	تضيء بهم كالأنجم الطلع الزهر[2]

فانظر إلى قوله «أجزت لكم في كل ما قد رويته» وانظر قوله «كذا الرفقاء الماجدون تعمهم إجازتنا»، وابن الصلاح يقول في مثل هذه الإجازة العامة لغير معين وفي غير معين «ولم نر ولم نسمع عن أحد ممن يقتدى به، أنه استعمل هذه الإجازة العامة فروى بها. والإجازة في أصلها ضعف، وتزداد بهذا التوسع والاسترسال ضعفا كثيرا لا ينبغي احتماله، والله أعلم»[3].

والملحظ الذي نريد تسجيله هنا هو أن العبرة ليست بكثرة الشيوخ وتعدد الإجازات لا سيا في الأزمنة المتأخرة التي عرفت توسعا كبيرا في الإجازة وتساهلا خطيرا في المشيخة، وإنما العبرة عند تقديرنا للعلماء وتحديدنا لمنزلتهم بما صح لهؤلاء من علم، وبرحلاتهم في طلبه، وبالمُدَد التي انقطعوا فيها للدرس والكتب التي قرأوها على الشيوخ.

وبخصوص أبي علي اليوسي نجد الرحلة في طلب العلم قد بدأت منذ عهد مبكر من حياته، وكان رحمه الله لا يسمع بعالم جليل يجمل به الأخذ عنه إلا قصد إليه، وهكذا استغرقت الرحلة في طلب العلم جزءا كبيرا من عمره، وطاف على حواضر المغرب وبواديه فاس ومراكش وبلاد سوس والغ

---

2) رحلة اليوسي ص 77.

3) المقدمة ص 74 طبعة الهند.

وتارودانت ودرعة وجبل دمنات وسجلماسة وتادلة وغيرها. وكان في كل تلك المدة متجها بعقله وقلبه وروحه للعلم لا يشغله شاغل، حتى كانت تأتي عليه أوقات لا يأكل فيها طعاما من الصباح إلى المغرب لتنقُّلِه بين المجالس العلمية. وقد بسطنا شيئا من ذلك في الفصل الخاص بحياته. ثم إن شيوخه الذين أجازوه ما منهم إلا من صح عنده استحقاق اليوسي للإجازة.

☆ ☆ ☆

وملاحظة أخرى نقدمها بين يدي حديثنا عن شيوخ اليوسي وتلاميذه، وهي أن المجتمع المغربي في عصر اليوسي كان يميل ميلا واضحا إلى تغليب الجانب الديني والروحي في تقديره للعلماء، وكان العالم كلما تقدمت به السن دخل في حيز روحاني من وجدان الأمة، وأخذَ يلتحق تلقائيا بالأولياء الصالحين، والتمست لديه بركة وكرامات. فإذا مات أصبح من أولياء الله الذين تطلب الأمة بركتهم وترجو شفاعتهم.

وقد جارت هذه الظاهرة على النقد العلمي وجنت عليه جناية كبيرة، إذ حالت دون التعرض لهؤلاء العلماء بالنقد الصريح الأمين العادل. وتحول النقد إلى ثناء مبتذل وتَحْليات باذخة. وما زلنا اليوم نشعر بحرج شديد وبالحاجة إلى الجرأة والشجاعة كلما فكرنا في الكتابة عن علماء الوقت، مع أننا في عصر تخلى فيه العلماء عن أكثر نفوذهم أو سلب منهم نفوذهم، فما أدراك بعصر كان العلماء فيه هم كل شيء ؟

شخصية المشايخ كانت إذاً مغلَّفة بغلاف روحاني ديني، ومحاطة بهالة من التقديس تحجب عن الرؤية مالا يدخل في المناقب والكرامات. ويتملق فيها الكتاب شعور العامة تجاه أوليائهم فيكتمون مالا يرضيهم.

ولست أقـول هـذا لأغض من قـدر علمـائنـا الأوليـاء رضي اللـه عنهم وأرضاهم، بل ألتمس وجه العذر فيما يعوزنا من أسبـاب النقـد العلمي النزيـه، ومـا أجـد من الحرج فيما أنـا بسبيلـه من الحـديث عن شيوخ فقيهنـا اليوسي وتلاميذه.

وبما أن رحلة اليوسي في طلب العلم كانت طويلـة، فـإن من الطبيعي أن يكثر شيـوخـه. وسنـذكر هنـا من نصت المصـادر على أستـاذيتـه لليـوسي ونقتصر على ترجمة أعلامهم وأظهرهم أثرا في شخصيته :

وأول أسـاتـذتـه (أبو إسحـاق ابراهيم بن يوسف الحـداد اليوسفي) قـال اليـوسي في فهرستـه : «وعلى يـديـه دخلت المكتب، وكنت قبلـه نفـورا عن التعليم، وكان رحمه الله تاليا لكتاب الله، متعففا عن محـارمـه، محـافظـا على دينه، حسن العشرة، ومن أحسن ما اسْتفـدت على يـده أن كان عنـده مجموع فيه المورد العذب للجوزي وبحر الدموع له) فكنت آخذه أنظر فيـه فـأطـالع حكايـات من فيــه من الصــالحين كأويس القرني وابراهيم بن أدهم وابراهيم الخواص وغيرهم رضي اللـه عن جميعهم ونفعنـا بهم، فـانتقشت تلـك المـآثر في عقلي ووقعت حلاوتها في قلبي، فكان ذلـك بـذرا لمـا أنعم اللـه تعـالى بـه من الإيمان بالطريقة ومحبة أهلها والتسليم لهم»[4].

و«أبو زيـان محمـد» دخل اليـوسي عنـده المكتب بعـد الأول وقرأ عليـه جملة كثيرة من القرآن[5].

و«أبو محمد الحسين التعلاليني» سمع عليه شيئا من الـديـانـة وصـدرا من رسـالـة الشيخ أبي محمـد عبـد اللـه بن أبي زيـد القيرواني، وصـدرا من مـورد

---

4) الفهرسة 130.

5) الفهرسة 131.

الظمآن للخراز في علم القراءات، قال اليوسي : «وهو أول من أخذت عنده شيئا من العلم بعد كتاب الله تعالى»[6].

و«أبو محمد الحسين بن أحمد المدوري، وأبو عبد الله محمد بن الحسين المدوري» قرأ عليهما القرآن العظيم.

و«أبو العباس أحمد الدراوي» قرأ عليه ختمة من القرآن «كان إمام الفريضة في القصبة السجلماسية معتكفا على تجويد القرآن، في غاية الاجتهاد، ظاهر الصلاح قد شوهدت له كرامات ولم يزل على ذلك إلى أن توفي»[7].

و«أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن السيد الحسني» حضر عنده جملة من رسالة ابن أبي زيد القيرواني ومن صغرى الإمام السنوسي، ومن القلصادي في الحساب، وقال عنه : «كان مشاركا في فنون مع نزاهة وعفة وحسب ونسب استُقْضيَ في بلدته فحُمِدتْ سيرتُه[8].

و«أبو فارس عبد العزيز الفلالي» كان له تحصيل في مهمات العربية، وله طريقة في التدريس وتدريج المبتدئين سهلة حسنة[9] قرأ عليه ألفية ابن مالك ولامية الأفعال والخزرجية.

و«أبو عبد الله محمد المزوار المراكشي» كان من مشاهير وقته في فنون العلم مع ديانة وحسن العشرة ونزاهة وهمة[10]. قرأ عليه جملة مختصر السنوسي في المنطق.

---

6) الفهرسة 141.

7) الفهرسة 133.

8) الفهرسة 133.

9) الفهرسة 133.

10) الفهرسة 134.

و«أبو فارس عبد العزيز بن أحمد الرسموكي»، كان مشاركا في فنون من العلوم، وألّف عدة تآليف، وكانت له نجدة وقوة وحزم في أموره[11]. قرأ عليه جملة من مختصر خليل قراءة تحقيق، وحضر عنده اليوسي في تصريف الفعل.

وأخذ أيضا عن أبي بكر الصغير، وأبي السلطان عبد العزيز الرسموكي، وأبي مهدي السكتاني، وأبي عبد الله محمد بن ابراهيم الهشتوكي، وعن الشيخ محمد بن عبد القادر اتينزرت، والشيخ محمد بن سعيد السملالي، والشيخ محمد ابن عبد الله السملالي، والشيخ أبي الحسن علي بن العباس الدمناتي، وعن أبي بكر بن الحسن التصافي،وأبي عبدالله محمد بن محمد التجمعتي،وأبي العباس أحمد بن محمد التجمعتي، وأبي عبد الله محمد بن ناصر الدرعي، وأبي العباس سيدي أحمد بن علي بن عمران الفاسي، وأبي العباس أحمد بن سعيد المجيلدي، وأبي عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر الدلائي، وأبي محمد عبد القادر بن علي الفاسي وأبي عبد الله محمد بن سعيد السوسي المرغيتي.

وسنحاول هنا أن نترجم لأفراد من شيوخه كان لهم في تكوينه أثر بعيد، كما كان لهم في حياته تأثير ظاهر، وسنعرف بهم بالقدر الذي يلقي ضوءا جديدا على شخصيته العلمية وعلى زاده من العلوم الإسلامية.

أبو عبد الله محمد بن ناصر الدرعي

أبو عبد الله سيدي محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن الحسين بن ناصر ابن عمر. اشتهر (بابن ناصر) نسبة إلى جده، الدرعي ثم الاغلاني المِقدادي نسبا (نسبة إلى الصحابي الجليل المقداد بن عمرو الكندي)، وقيل إنه جعفري (نسبة إلى سيدنا جعفر بن أبي طالب القرشي الهاشمي)، وهو أحد ثلاثة قيل فيهم :

11) الفهرسة 134.

«إن العلم إنما أحياه بالمغرب ثلاثة من الشيوخ : سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي، وسيدي محمد بن ناصر في درعة، وسيدي عبد القادر الفاسي[12].

كان رحمه الله مشاركا في فنون من العلم كالفقه والعربية والكلام والتفسير والحديث والتصوف، عابداً ناسكا ورِعا، زاهدا عارفا، قائما بالطريقة شاربا من عين الحقيقة. وكان مع عكوفه على علوم القوم وانتهاجه منهج الطريقة لا يخلو من العلم الظاهر تدريسا وتأليفا، وتقييدا وضبطا، كما كان قائما بالتعليم والتربية للمريدين بقوله وفعله[13]. وقال عنه تلميذه أبو سالم العياشي : «حضرت مجالسه في كثير من العلوم فقها وتفسيرا ونحوا وحديثا وتصوفا، عديم النظير في العربية يحفظ التسهيل عن ظهر قلب»[14].

أما أشياخه فمنهم سيدي علي بن يوسف الدرعي، وسيدي محمد بن سعيد المراكشي، وأبو بكر السجستاني، لقيه في رحلته إلى المشرق واستفاد منه وأما شيخه في طريق القوم فهو سيدي عبد الله بن حسين التمجروتي الدرعي الرقي[15]. اتصل به اليوسي منذ وقت مبكر من حياته[16] وأخذ عنه علما

---

12) ترجمة سيدي عبد السلام القادري تأليف محمد بن محمد بن عبد القادر الفاسي ص 229.

13) الفهرسة 142.

14) اقتفاء الاثر للعياشي.

15) ويتصل سنده في الطريقة بالشيخ المذكور عن الشيخ أبي العباس أحمد بن علي الحاحي عن شيخ المشايخ أبي القاسم الغازي عن الشيخ أبي الحسن علي بن عبد الله السجلماسي عن الشيخ أبي العباس بن يوسف الراشدي الملياني، عن الشيخ أبي العباس أحمد زروق الونسي الفاسي، عن الشيخ أبي العباس أحمد بن عقبة اليماني الحضرمي، عن الشيخ أبي زكرياء يحي ابن أحمد الشريف القادري عن الشيخ أبي الحسن علي بن الوفا، عن والده الشيخ أبي عبد الله محمد بن الوفا، عن شرف الدين الشيخ سليم داود الباخلي، عن تاج الدين الشيخ أبي العباس بن عطاء الله الإسكندراني، عن القطب الشيخ أبي العباس أحمد بن عمر الأنصاري المرسي، عن القطب الشيخ أبي الحسن علي بن عبد الجبار الشاذلي، عن القطب الشيخ أبي=

كثيرا، وقرأ عليه كتبا مختلفة، منها : التسهيل لابن مالك، ومختصَرُ الشيخ خليل، والمدْخَل لابن الحاج، والإحياء للغزالي، وصحيح البخاري، والشفا للقاضي عياض وطبقات الشيخ عبد الوهاب الشعراني. كما سمع مواعظه ووصاياه وأخذ عليه عهد الشاذلية.

ونحن نطمئن إلى أن تأثيره في اليوسي من الناحية الروحية أكبر من تأثيره فيه من الناحية العلمية، رغم كثرة الفنون والكتب التي قرأها عليه. وكان لهذا التأثير الروحي عوامل متعددة، منها بداوة الشيخ الدرعي وسهولة طريقته، ومطابقتها للسنة، وخلوها من التعقيد، وبُعْدُها عن البدعة. ومنها ما خلقه الله بين اليوسي وبين شيخه من محبة صادقة، الشيء الذي جعل الشيخ يهتم اهتماما خاصا بتربية اليوسي ويقوم اعوجاجه كلما دلته فراسته على وجود اعوجاج في الباطن أو في الظاهر. ومنها أن شخصية الإمام الدرعي كانت قوية، سواءً من حيث تكوينها العلمي أو من حيث سلطانها الأدبي أو من حيث السلوك المثالي.

فلا عجب إذا كان اليوسي يتعبر أبا عبد الله محمد بن ناصر الدرعي أعظم شيوخه ويصرح بأنه إليه ينتسب وعلى نهجه يسير.

ومما نعرفه من مؤلفات هذا الشيخ : (الأجوبة الناصرية عن بعض مسائل البادية)، (والرحلة الناصرية) : دون في الأولى فتاويه، وفي الثانية رحلته إلى الحج. ولعل قلة مؤلفاته راجعة إلى اشتغاله بالتدريس وملء أوقاته به، فقد كان يعمر ما بين الظهرين دائما في أيام السنة بقراءة الكتب

= محمد بن عبد السلام بن مشيش ويقال بشيش الشريف الإدريسي وهو بسنده المتصل إلى باب مدينة العلم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه (من شاء أن يقف على السند كاملا وبطرق مختلفة فلينظر فهرسة اليوسي ص 144 ـ 147).

16) يذكر اليوسي في المحاضرات أن اتصاله به يرجع إلى سنة 1060 هـ. (المحاضرات ص 28).

الستة دِراية. وفي رمضان يعود لسرد البخاري على عادة ابن غازي بفاس[17]. أما الأوقات الأخرى فيدرس فيها كتب العلوم المختلفة مثل المفصل للزمخشري، وكتاب سيبويه، والجُمَل للزَّجّاج، والإيضاح لأبي علي الفارسي والترغيب والترهيب لأبي عمر بن عبد البر، والأجرومية في النحو وشرح المَكُودي عليها، والكافي في علم القوافي وألفية ابن مالك[18].

ولد الشيخ الدرعي سنة 1011 وتوفي سنة 1085 هـ. ورثاه تلميذه اليوسي بقصيدته[19] نقتطف منها هذه الأبيات الدالة على صدق محبته ووفائه :

ذهبت عيونُ الأرض أين الماء	والقوم فيها مُهَجَّرُون ظِماء
متبرضون صبابة مشفوهة	ما واردوها الحائمون رواء[20]
متعللون على حياض ثمدها	رنق وأين من الثماد صفاء[21]
واغبرت الآفاق لما أقلعت	سحب السماء واخلق الأنواء[22]
وغدا هشيما كل روض ناضر	أنق فكل مسامة عجفاء[23]
وخبت نجوم السعد فاستعلى بها	مِن بعدِها الدَّبَرَانُ والعواء[24]

17) مقال للأستاذ المنوني عنوانه حضارة وادي درعة من خلال النصوص والآثار. دعوة الحق ع 2 س 10. أكتوبر 1973.

18) الدرر المرصعة ص 5.

19) يتامى الدرر ص 3 ـ 4. ج. ع 157 جـ.

20) البرض : شرب الماء القليل. والصبابة البقية من الماء. مشفوهة : أصابتها شفاه الناس.

21) الثمد : الماء القليل ـ رنق متغير.

22) الأنواء : ج نوء : النجم الذي يسقى به.

23) أنق : معجب ـ مسامة مرعية / من سام المرعى. عجفاء : هزيلة.

24) الدبران : نجم. العواء : نجم.

فالعيش ضنك والحياة مريرة | والورد رنق والديار عفاء
وهوت منيرات الكواكب فاكتسى الجـ | ـو الظلام ولم يلح لألاء
ذهب ابن ناصر الإمام المرتضى | فتراكمت لذهابه الظلماء[25]

أبو عبد الله محمد المرابط

أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر الدلائي. كان يعرف بالمرابط لتقشفه في الملبس وزهده في الدنيا. كما كان يُدْعى أيضا بالصغير والغريب. وهذا اللقب الأخير حلاه به الشيخ الصوفي الشهير سيدي محمد بن عبد الله السوسي. وكان سيدي محمد المرابط يفتخر به،[26] قال عنه اليوسي في الفهرسة : «كان رحمه الله إماما في علم النحو، مشارِكا في غيره من الفنون، له القلم البارع في الإنشاء نظما ونثرا مع سمت وهمة ومروءة[27]».

ولد بالزاوية الدلائية سنة إحدى وعشرين وألف، وأَخَذ العلم بها عن والده وجماعة من الأيمة من أعمامه وإخوته وغيرهم كسيدي العربي الفاسي وأبي العباس بن علي بن عمران السلاسي،[28] وانتقل إلى فاس وأخذ عن بعض علمائها، وله رواية عن سيدي عبد القادر الفاسي وأخيه أبي العباس أحمد بن علي. كما رحل إلى المشرق عام تسعة وسبعين وألف وأخذ عن جملة من العلماء كأبي الحسن علي الشبراملسي والشيخ إبراهيم الكردي، وحصل منهم على إجازات.

---

25) للتوسع في ترجمة الشيخ ابن ناصر الدرعي انظر صفوة من انتشر لليفرني ص 86 خ.ع 671.

26) مباحث الأنوار 96.

27) فهرسة اليوسي 135.

28) سلوة الأنفاس للكتاني ج 2 ص 90 ـ 91.

وتولى الإمامة والخطابة والتدريس في المسجد الأعظم بالزاوية الدلائية، وتخرج على يده عدد من كبار العلماء، منهم أبو علي اليوسي الذي قرأ عليه تلخيص المفتاح للقزويني في البلاغة بمختصر السعد، ومواضع من الخلاصة لمحمد بن مالك في النحو، وصدْراً من تفسير القرآن بتفسير الجلاَلَيْنِ[29].

ولأبي عبد الله محمد المرابط مؤلفات قيمة ذاعت شهرتها في المغرب والمشرق، ووجدت إقبالا كبيرا من القُرَّاء حتى دفعوا فيها المبالغ العالية. ذكر اليوسي جملة منها في فهرسته ومن بينها : شرح حافل على التسهيل لابن مالك، وشرح على البسط والتعريف في علم التصريف سماه فتح اللطيف، وشرح على الورقات لإمام الحرمين الجُوَيْني في الأصول. وله أجوبة ومباحثات وتقاييد في العربية، وخُطَب وعظية بنى فيها على منزع ابن نباتة.

ونختم هذه الترجمة بالإجازة التي كتبها لتلميذه اليوسي في فنون العلم كلها والتي تمثل نموذجا من أسلوب الشيخ وأدبه وشهادته العالية لتلميذه.

يقول أبو عبد الله محمد الرابط «أما بعد، حمْداً لله مُؤهِل أهل اصطفائيته للاقتداء بسيد البشر، ومنهل خاصة أوليائه مناهل السنن والأثر، الميسر لهم من طرق الإجازة مدارجها، ومن أعالي الأسانيد معراجها، حتى اجتلوا من سماء معرافها أقمارها، ومن أدواح عوارفها أثمارها، ووقفوا بعرفات العِرفان فتدفقت لهم جداول الإحسان. والصلاة والسلام على سيدنا محمد واسطة عقد النبيين، وصفوة خلصائه الصِّدّيقين، وعلى أهل بيته الأطهار وحُماة دينه الأنصار. وبعد، فإن اتصال الأسانيد غاية يتجارى لاحتيازها

29) جلال الدين بن محمد بن أحمد المحلي ت 864 وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت 911 هـ.

ذوو النباهة من فضلاء الأمصار، ويتبارى في الامتياز بشرفها الكبراء في عامة الأعصار، حتى لقد ركبوا في طِلاَبِها النتائف واقتحموا في ابتغائها المخاوف، ورفضوا الأوطار والأوطان، وهجروا المعاهد والإخوان. وكيف وهي العروة التي مدار العُرَى عليها، والمأثرة التي مرْجع المآثر إليها. وقد سلك ذلك السَّنَن الصدرُ الرئيس فارس الإملاء والتدريس، شيخ الجماعة بالديار البكرية والحضرة الدلائية، ذو التدقيق المعهود، أبو الحسن بن مسعود صاحب النباهة الشامخة والنزاهة الباذخة والجلالة العليا والهمة التي نيطت بالثريا، المتمسك من الرواية بأسبابها، ومن الدراية بأهذابها، وألقت إليه المعارف زمامها، وجمعت السيادة ما وراءها من المجد وأمامَها، يرغب إلَيَّ أن أجيزه وأشايع تبريزه، فأجبت مراده وبادرت إسعاده، فأجزته إجازة تامة مطلقة عامة في كل ما يصح لي وعني روايته، ويرفع في أندية الإجازة بنده ورايته، من كل مقروء ومسموع، ومفرد ومجموع، ومنثور ومنظوم، ومأثور ومفهوم على الخصوص والعموم، على نهج الرواية المعلوم، مما أحاطت به فهرسة الإمام ابن غازي، بروايتنا إياه عن شيخ الإسلام أبي عبد الله محمد العربي بن أبي المحاسن يوسف الفاسي، عن أبي عبد الله القَصَّار، عن أبي النعيم رضوان بن عبد الله عن أبي محمد عبد الرحمن بن علي الشهير بسقين، عن مؤلفها أبي عبد الله بن غازي وفهرسة أبي العباس المنجور وابن الزبير، وحدثته بذلك عن مولانا المحدث الزاهد العارف بالله عبد الهادي بن عبد الله الحسني عن والده الإمام، وعن القصار وأبي العباس المعروف بابا السوداني، وأبي العباس أحمد بن محمد الشهير بابن القاضي وغيرهم من مشايخه، وإجازة الشيخين أبي محمد عبد الهادي وأبي عبد الله العربي إياي، وهما عامتان في كل ما يحملانه أو يقولانه أو ينقلانه، وأجزت له أن يروي جميع ذلك عني وأذنت له فيه إذنا تاما تلقاه لفظا وكتابة مني بشرطه المعتبر عند أيمة الأثر. قال ذلك وكتبه بيده متلفظا بالإجازة أواخر شهر الله الحرام

مفتَتَح عام تسعة وسبعين بموحدة قبل العين وألف : محمد بن محمد بن أبي بكر الدلائي عفا الله عنه بمنه آمين»[30].

ومما ينبغي لفت النظر إليه في هذه الإجازة أن اليوسي أجيز وهو في مرتبة المشيخة كما يدل عليه قول أستاذه «الصدر الرئيس فارس الإملاء والتدريس شيخ الجماعة بالديار البكرية...».

كما أنها تدل على أن اليوسي كان من رجال الرواية والدراية معا يجمع بينهما ويتحلى بالشفوف فيهما وذلك واضح من وصف شيخه له بأنه «المتمسك من الرواية بأسبابها ومن الدراية بأهدابها».

وإن من الدلائل على نبوغ اليوسي أن يصل إلى هذه المرتبة العليا وهو في التاسعة والثلاثين من عمره وأن يحصل على مثل هذه الإجازة التامة المطلقة العامة في جميع تلك الفنون الكثيرة المتنوعة المذكورة، ثم إن هذه الإجازة بما توفر لها من أسلوب جمع بين دقة الأسلوب العلمي ورونق الأسلوب الأدبي، وبما أشارت إليه من علوم واسعة وأسانيد عالية وفهارس متعددة لتدل دلالة واضحة على المستوى العلمي الرفيع الذي بلغه المغاربة في عصر اليوسي وهذا يعطيها قيمة تاريخية خاصة.

ومن جهة أخرى نجد في الإجازة ما يلقي ضوءا على المستوى الرفيع الذي بلغته الزاوية الدلائية في ميدان الثقافة بصفة عامة والعلوم الإسلامية بصفة خاصة، وعلى العلوم التي كانت تدخل في تكوين أساتذتها وطلابها مما يدل على أنها كانت من المراكز الفكرية الإسلامية النادرة في ذلك العصر.

وقد كانت وفاة الشيخ أبي عبد الله محمد المرابط سنة 1089 هـ.

---

30) فهرسة اليوسي ص 136.

أبو عبد الله محمد بن سعيد المرغثي

هو أبو عبد الله محمد بن سعيد السوسي المرغثي[31] نسبة إلى مرغيثة إحدى فروع قبيلة (الأخصاص) المشهورة بناحية تيزنيت.

قال عنه صاحب خلاصة الأثر ما نصه : «بحر لا ساحل له»، وقال عنه صاحب الدر النفيس : «واسطة عقد الأكابر، سيد الديار المراكشية في وقته». وقال صاحب صفوة من انتشر : «شيخ الإسلام خاتمة المحدثين وسراج المريدين، كان إماما في علوم الحديث والسير، له اليد الطولى في ذلك وإليه المرجع فيما هنالك». وتروي كتب التراجم أنه كانت له مشاركة في علم الطب، وكان متبعا للسنة، متجنبا للبدعة منفرا عنها غاية التنفير، كثير المحبة للنبي ﷺ. حتى إنه ليغلبه الوجد من ذكره فيرتعد ويتغير لونه... وكان سخي النفس كريم الطبع مليح الملاقاة حافظا لسانه عن الخوض فيما لا يعنيه، وكان له صيام وقيام ومجاهدات، وكان له بيت بمدرسة جامع الكتبيين بمراكش ضيق جدا، مكث فيه خمس عشرة سنة يعبد الله تعالى. وكان الناس يرون أن له نجاحا في الجدول وبركة في الأمور، وحدثوا عنه أنه كان إذا لم تقبل شفاعته عند الأمراء في بعض الأمور المهمة يكتب جدولا يضعه تحت عمامته فإذا رآه الأمير هش له وقضى مآربه.

ولد سنة 1007 وقرأ ببلاده على كثيرين، ثم انتقل إلى (تافلالت) وأخذ بها على الشريف مولاي عبد الله ابن طاهر، ثم انتقل إلى مراكش وأخذ على مفتيها أبي بكر بن يوسف السكتاني. ويروي المرغثي بالإضافة إلى من تقدم عن أبي محمد عبد الواحد بن عاشر وسيدي محمد الجنان صاحب

---

31) من غير ياء. قال صاحب فهرس الفهارس : ووجد عند بعض من يعتمد بالياء قبل الراء.

حاشية خليل، وسيدي الحاج محمد بن القاضي وسيدي أحمد بن محمد الولتي وغيرهم.

وفي مراكش تصدر للتدريس واستمر على ذلك مدة طويلة، ثم انتقل إلى الزاوية الدلائية وحط فيها رحاله معتكفا على القراءة والتأليف. وبعد خراب الزاوية رحل إلى مدينة فاس.

ويحكى عنه أنه كان في ابتداء أمره يقرض الشعر ويمارس صنعة الإنشاء، فاستكتبه بعض أمراء الدولة السعدية، لكن ميله إلى الزهد في الدنيا، وتعلق قلبه بالله وانشغاله بالعلم والعبادة عن التملق والرياء كل ذلك صرف الأمير عنه وأفقده منصبه.

وللمرغثي تآليف كثيرة نذكر منها (المقنع في التوقيت)، وشرحه الكبير والصغير، ورسالة سماها (الإشارة الناصحة لمن طلب الولاية بالنية الصالحة)، وكتاب (المستعان في أحكام الأذان) واختصار سيرة اليعمري (نظمه ولده نظما حسنا)، والفهرسة في مجلد. وهي لا تسير على نسق الفهارس، بل هي مجموعة طب وفقه وحكم وأشعار. وله آثار أخرى متفرقة نظما ونثرا أشهرها : قصيدته في أكل الدجاج، وقصيدة في علم الجدول، وجواب طويل عن تصريف أسماء الله في الأمور الدنيوية. وله شعر حسن.

ويعد اليوسي من أشهر تلاميذه. حضر دروسه قبل التحاقه بالزاوية الدلائية، وقرأ عليه ألفية ابن مالك في أيام الحداثة، ثم لما التحق بالزاوية جالسه مرارا وأخذ عنه علما كثيرا، وصافحه المرغثي عن شيخه أبي محمد عبد الله بن علي بن طاهر الحسني وأجازه بالسند الذي لا يوجد في الدنيا أعلى منه.

ونورد هنا نص الإجازة التي كتبها المرغثي لتلميذه اليوسي :

الحمد لله ولي الحمد ومليكه، المنبت لسابق العلم ومعينه وشريكه، المجيز لهم على الصراط السوي بتوفيقه وتسليكه، المرسل بدين الحق رسوله فبلغ

بقوله وفعله وتسكينه وتحريكه، وقال : ليبلغ الشاهد منكم الغائب، فرب مبلغ أوعى. ﷺ صلاة تعم منه أصلا وفرعا وسلم تسليما. وبعد فيقول عبد ربه وأسير ذنبه محمد بن سعيد المرغثي السوسي : إن أخي وحبيبي السيد الحسن بن مسعود اليوسي قد استجازني في كل شرعي من العلوم، مع أن مقامه الذي سما سماءها مشهور ومعلوم، وفي مثله قيل : (قد استسمن ذا ورم ونفخ في غير ضرم).

وليس يصح في الأذهان شيء　　　إذا احتاج النهار إلى دليل

وفي مثلي قيل (تسمع بالمعيدي خير من أن تراه :

لعمرُ أبيك ما نسب المعالي　　　إلى كرم وفي الدنيا كريم

ولكن الأمور إذا اقشعرت　　　وصوح نبتها رعي الهشيم

ولكني لم يسعني لفرط مودته إلا الاذعان والاستسلام، وهي شنشنة الألباء الكرام. فقلت والسلام والله المستعان على التمام : قد أجزت لأخي وحبيبي أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي جميع مروياتي من مقروء ومسموع ومتناول وموجود، وكل ما صح عنده أنه من ذلك. وأجزت له أيضا كل مجازلي بأي نوع من الإجازات حصل لي، وأجزت له أيضا كل ما وقع لي من مقتطعات في العلوم من منثور ومنظوم، هذا على الجملة، وأما على التفصيل فأذكر بعضه خوف التطويل، فمن ذلك :

كف الإسلام ومعصمه الموطأ، والصحيحان، والترمذي والنسائي وأبو داود. أما صحيح البخاري فبالسند الذي لا يوجد في الدنيا أعلى منه : عن الشيخ الحافظ الحسني أبي محمد مولاي وسمط محياي سيدي عبد الله بن علي ابن طاهر الحسني السجلماسي رحمه الله، سماعا عليه لنحو نصفه بقراءة ولده العلامة أبي عبد الله مولاي عبد الهادي، وباقيه بالإجازة عن عدة من شيوخه منهم الشيخ أبو عبد الله السيد محمد بن قاسم القصار القيسي، عن

الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي الفضل خروف التونسي، عن قاضي القضاة الطويل القادري عن شهاب الدين عن ابن أبي المجد الدمشقي، عن الحجار، عن الزبيري، عن أبي الوقت عبد الأول بن عيسى السجزي، عن الداودي عن ابن حمويه السخرسي، عن ابن مطر الفربري، عن أبي عبد الله الإمام محمد بن اسماعيل البخاري رحمه الله. قال : بسم الله الرحمن الرحيم، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ الخ.

ومن ذلك : علم الحديث على العموم، ومن ذلك : علم الفقه المالكي على العموم، ومنه المدونة السحنونية، ومختصراتها، ومنه رسالة ابن أبي زيد القيرواني وفرعا الإمام ابن الحاجب وأصلاه، ومختصر أبي المودة خليل بن أبي إسحاق. ومنه كتب علم الأصول، وكتب التفسير، وكتب علم البيان، وكتب القراءات رسما وتلاوة، وكتب السيرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام. منها كتاب ابن إسحاق، ومختصره لابن هشام، والكلاعي وغيرهم، وكتاب ابن سيد الناس اليعمري، والروض الأنف للسهيلي، والزهر الباسم في سيرة أبي القاسم ﷺ، وغير ذلك من المختصرات فيه. ومن ذلك كتب الحديث المساند والسنن. كمسند أحمد ومسند الشافعي، ومسند الدارمي، وسنن ابن ماجه، وابن حبان والحاكم والبيهقي، وابن خزيمة، والمصابيح للبغوي وغير ذلك ككتاب الأنوار السنية لابن جزي.

ومنها في علم العربية : ككتب ابن مالك كلها المنثور منها والمنظوم، وكتب ابن الحاجب كذلك وكتب ابن هشام كذلك ومنظومة ابن معطي، ومقدمة ابن آجروم والجزولية.

ومنها كتب الفرائض منظومها ومنثورها : كالإرشاد، وكتب الإمام ابن زكري، وعقائد الإمام السنوسي الخمسة وماله من غير ذلك، ومنه مناسك خليل، والحطاب. ومن ذلك كتب علم التصوف، كالرسالة لأبي القاسم

القشيري، والحكم العطائية، وما للشيخ زروق عليها. ومن ذلك كتاب إحياء علوم الدين للغزالي، وقوت القلوب لأبي طالب المكي، وغير ذلك مما لم نذكره خوف الطول : ككتب التنجيم والتوقيت، وكتب السيمياء كالجداول باختلاف أنواعها، وما وضع عليها كالجزنائي ومنظومة الحامدي ومنظومة شيخنا السيد أبي القاسم الغول الفشتالي (فشتالة غمارة) ومنظومة في الجمع بين الأحاديث النبوية، وكلام الأطباء والحكماء في الطواعين والأوباء، نظم بها كتاب الشيخ الحطاب في ذلك، وكتب خواص الأسماء الحسنى، وخواص الآي القرآنية، ككتب البوني والإدريسية وما لابن عباد رحمه الله، وكتاب الوادياشي، وغير ذلك، ومنظومتنا في الخالي الوسط المخمس التي اختصرت بها كتاب المرجاني رحمه الله وغير ذلك.

وأجزت له أصلحه الله أيضا كل ما اشتملت عليه فهرسة شيخ الجماعة الإمام أبو عبد الله ابن غازي، وفهرسة تلميذه الإمام المحدث أبي زيد عبد الرحمن بن علي سقين السفياني وفهرسة الإمام شيخ الإسلام أبي جعفر بن الزبير، وفهرسة شيخ شيوخنا الأستاذ المشهور أبي العباس المنجور، وفهرسة الإمام المنثور، وفهرسة ابن النديم، وفهرسة ابن يعيش، وفهرسة الإمام الحافظ أبي زيد الأسيوطي، وفهرسة شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، وفهرسة أبي عبد الله القصار، وفهرسة شيخنا المعمر أبي عبد الله الجنان الأندلسي، كل ذلك مما حدثني وأجاز لي مولاي أبو محمد الحسني المذكور والعلم المشهور سيدي عبد الله بن علي بن طاهر الحسني رحمه الله إلا أبا عبد الله الجنان فعنه بلا واسطة. وليسمح لنا في إيراد الأسانيد لما ذكر أو بعضه إذ لا قدرة لأخيكم على ذلك، لما علمتم من كبر السن والمرض الملازم للشأن وقلة الوقت التي أوجبت كل مقت. نسأل الله لنا ولكم العافية والمعافاة الكاملة في الدين والدنيا والآخرة (....) وكتب في منسلخ ربيع

الثاني عام ثلاثة وثمانين وألف رزقنا الله خيره ووقانا ضيره مصرحا بالإجازة المذكورة لمن ذكر متلفظا بها عبيد ربه وأسير ذنبه محمد بن سعيد المرغثي ثم السوسي لطف الله به آمين[32].

وإن القراءة المتأنية لهذه الإجازة لتهدينا إلى الملاحظات التالية :

1) أن اليوسي زمن كتابتها كانت شخصيته العلمية قد برزت ومكانته في معارج المعارف قد ارتفعت، فصار عالما شهيرا وعلما كبيرا وليس أدل على ذلك من قول شيخه : «استجازني في كل شرعي من العلوم مع أن مقامه الذي سما سماءها مشهور ومعلوم».

2) أن ما ورد في الإجازة من كتب حديثية يدل على أصالة اليوسي في علم الحديث واختصاصه فيه، كما أن روايته للبخاري بالسند الذي لا يوجد في الدنيا أعلى منه يؤكد لنا أنه كان من العلماء الذين تطلب عندهم الأسانيد العالية.

3) إجازته في علم الفقه المالكي على العموم وفي أمهات كتب الفقه تشير إلى تخصصه في هذا الفن.

4) وبصفة عامة يمكننا أن نعتبر هذه الإجازة جدولا للمواد والمؤلفات التي تدخل في ثقافة اليوسي وتصور لنا جانبا مهما من جوانب تكوينه العلمي، كما أنها وجه من وجوه ثقافة طلاب المدرسة المغربية في ذلك العصر يمكننا أن نصحح به ما يظن من خمولها ونؤكد مرابطة كتائب العلماء المغاربة في الموقع العلمي حيث كانوا ساهرين على رفع منار علوم الإسلام والعربية في مهب تيارات الغزو الصليبي.

وتوفي أبو عبد الله المرغثي سنة 1089.

---

32) فهرسة اليوسي ص : 138.

أبو محمد عبد القادر بن علي الفاسي

أبو محمد وأبو السعود سيدي عبد القادر الفاسي ابن الشيخ الفقيه أبي الحسن سيدي علي بن القطب الرباني أبي المحاسن سيدي يوسف القصري أصلا ومولدا، الفاسي دارا.

ولد بالقصر الكبير يوم الإثنين ثاني رمضان سنة سبع وألف، وتعلم على أبيه شيئا من العلم، ثم رحل إلى فاس لطلب العلم، وعمره لا يتجاوز، العشرين، فأخذ عن عم أبيه العارف أبي زيد عبد الرحمن الفاسي علوما كثيرة، كما أخذ عن عمه سيدي العربي الفاسي، وعن شيوخ جلة، منهم القاضي أبو القاسم بن أبي النعيم الغساني، والشيخ أبو مالك عبد الواحد بن عاشر، وأبو الحسن بن الزبير، وأبو العباس المقري وأبو عبد الله الجنان.

وكانت له حظوة كبيرة عند المولى إسماعيل ومحبة وتقدير واحترام.

قال الأستاذ محمد الفاسي في مجلة تطوان : «وكان السلطان مولاي إسماعيل يحبه كثيرا. ويقدره حتى إنه لما قبل أخيرا الدعوة التي كان قدمها له الملك مرارا للقدوم إلى مكناس أمر السلطان بحمله من فاس إلى هذه المدينة في محفة، وعند وصوله إلى العاصمة الإسماعيلية أمر بتحرير جميع الأسرى المعتقلين بمكناس كما ذكر ذلك المؤرخ الرباطي الضعيف[33].

إلا أنه لم يكن يلتفت إلى حطام الدنيا ولا كان له أدنى سعي في سبيل إحراز الغنى بل كان لا يتقوت إلا من نسخ الكتب، ينسخ البخاري وغيره فيبيعه ويأكل ثمنه، وكان الناس يرغبون في النسخ التي تكون بخط يده للبركة والإتقان. وقد حاول السلطان الرشيد بن الشريف أن يساعده بالمال

33) مجلة تطوان العدد الخاص بالمولى اسماعيل. ص : 31.

فأبي، وكان رحمه الله عاكفا على تدريس العلم وتربية المريدين بزاويته بفاس قال صاحب سلوة الأنفاس : «ولم يتصدر رضي الله عنه لتأليف كتاب مخصوص ولا لشرح متن من المتون، وإنما كانت تصدر منه أجوبة جمعها بعض أصحابه فجاءت في مجلد، وهي من الفتاوى المعتمدة. نعم له العقيدة المشهورة التي وضعها للنساء والصبيان، والفقهية المشهورة أيضا، وضعها للعامة»[34]

ذكره اليوسي في جملة شيوخه، ولكنه لم ينص على كتاب قرأه عليه أو فن استفاده منه، وإنما قال : «لقيته بزاويته وجالسته مرارا عديدة وذاكرته في مسائل مهمة، وعقدت معه عقد المحبة والأخوة في الله تعالى»[35]. وكأن اليوسي إنما ذكره ليعلم اتصاله به وتصح له الرواية بأسانيده، وهي أسانيد عالية ومتنوعة.

ولعل هذا هو السبب أيضا في طلب اليوسي الإجازة منه، وإلا فاليوسي كان في ذلك الوقت الذي كتبت فيه الإجازة عالما كبيرا وأستاذا من أساتذة القرويين المبرزين الذين تشد إليهم الرحال ولم يكن في حاجة إلى القراءة على الشيوخ من جديد.

وهذا نص الإجازة التي كتبها لليوسي :

الحمد لله الذي شيد بالعلماء أركان الإسلام، وجعل ذكرهم تاجا على مفرق الأيام، والصلاة والسلاة على سيد الرسل الكرام وعلى آله وأصحابه، وبعد، فقد طلب منا الأخ في الله الفقيه العلامة المحقق الفهامة الصدر الأوحد والعلم المفرد رئيس الاقراء والمتهيء للمناصب العلمية السنية الشماء، الباذل في إيصال النفع لطالبيه غاية المجهود، أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي يسر الله مرغوبه وأجزل من سعادة الدارين حظه ومطلوبه، أن

34) سلوة الأنفاس للكتاني ص 309 ـ 313.

35) فهرسة اليوسي ص : 138.

نجيزه فيما لنـا من مقروء ومسمـوع ومجـاز من مفرد ومجمـوع فـأجبت دعـواه وساعفته فيما تمناه، فقلت : أجزت الفقيه المـذكور الحبر المشهور، فيما يصح لي وعني روايته على الخصوص والعموم من كل منثور ومنظوم، مما اشتملت عليـه فهرسة شيخ شيوخنا الإمام النظار أبي عبد اللـه محمـد القصـار، وفهرسـة شيخ شيوخنـا أبي العبـاس بن علي المنجـور، وفهرسـة ابن غـازي، والمنثـوري وابن الزبير بـإجـازة عمي الشيـخ الإمـام العـارف أبي زيـد عبـد الرحمن بن محمـد الفاسي، والشيخ الإمام المحقق أبي عبد الله محمد العربي الفاسي، وهمـا عـامتـان عن شيخهما الإمام القصار، ومن غيره من أشياخهما بإجازة شيخنا القـاضي أبي القاسم بن أبي النعيم، وهي عامـة أيضـا عن شيخـه أبي العبـاس المنجوري عن غيره من أشياخه وبحق سماعي على غيرهم من أشياخنـا كشيخنـا أبي العبـاس المقري وشيخنا أبي عبد الله الجنان، وشيخنا أبي محمـد عبـد الواحـد بن عـاشر وغيرهم ممن هو مذكور في غير هذا من إجازتنـا. واللـه ينفع الجميع بمـا خول، ويبلغ من محبته ومعرفته غاية الأمل. قال ذلك وكتب بيـده : عبـد القـادر ابن علي بن يوسف الفاسي غفر الله ذنبه وأصلح قلبه وستر عيبـه. آمين، أول جمـادى الأول عـام واحـد وثمـانين وألـف، وصلى اللـه على سيـدنـا محمـد وآلــه وصحبه»[36].

وهـذه الإجـازة تـدل على علـو قـدر أبي محمـد الفـاسي في العلم وتشعب طرقه في الرواية، وهي خلاصة الخلاصة في علوم الإسلام، وذلك أنا لو شئنـا عرض ما تضمنته الفهارس المذكورة فيها لاحتجنـا إلى مجلـد ضخم. وقـد توفي سيدي عبد القادر الفاسي بعد زوال يوم الأربعاء ثـامن شهر رمضـان الأبرك سنـة إحـدى وتسعين وألف. ورثـاه تلميــذه اليـوسي بقصيــدة منهـا هــذان البيتان :

---

36) فهرسة اليوسي ص : 137.

مصاب لو ان الأرض حل أديمها لما أنبعت نهرا ولا أنبتت زهرا

ولو أن آفاق السماء أصابها لما أشرقت شمسا ولا أنزلت قَطْرا[37]

أبو العباس أحمد بن سعيد المجيلدي

أبو العباس أحمد بن سعيد المجيلدي، نسبة إلى (بني مجيلد)، بالجيم المعقودة من قبائل البربر. قال عنه صاحب الإتحاف : «هو شيخ الجماعة في إقراء المختصر الخليلي، محصل لمنطوقه ومفهومه كثير الممارسة له، يختمه كل سنة، مستحضر للنوازل، عارف بإدراج الجزئيات تحت الكليات، ماهر في ذلك حسن الأخلاق، لين العريكة منصف متواضع، له إشراف تام على السير، ومشاركة وافرة في فنون عديدة»[38].

يروي عن أبي السعود الفاسي وأحمد بن أبي بكر الدلائي والقاضي عبد المومن التغجدتي وأحمد بن عمران وعبد الله بن الإمام التنغراسي التلمساني وأبي سالم العياشي...

رحل إلى المشرق فأخذ بمصر عن الخفاجي وبالحجاز عن الكوراني والثعالبي وغيرهم[39].

قرأ عليه اليوسي مختصر خليل، وشيئا من الحباكية[40] وشيئا من القلصادي في الحساب وأثنى عليه في فهرسته فقال : «كانت له ممارسة لمختصر

37) مجموع مخطوط في الخزانة الخاصة للأستاذ محمد المنوني.

38)

39) فهرس الفهارس والأثبات ج 1 ص : 420.

40) ذكرها اليوسي ولا نعرف موضوعها.

خليل، واستحضار للنوازل الفقهية، ومخالطة تامة لعلم السير، ومشاركة في فنون من العلم، جميل العشرة، محمود السيرة في ولاية القضاء»[41].

واشتغل هذا الشيخ بالقضاء أكثر من أربعين سنة بفاس، ثم تولى خطته بمكناسة أيضا فحسنت سيرته ولم تشغله المسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتقه عن خدمة العلم وتأليف الكتب المفيدة ومنها اختصار المعيار للونشريسي في مجلد ضخم، وشرح على المختصر الخليلي سماه : (أم الحواشي) ومؤلف في الحسبة سماه : (التسيير في أحكام الحسبة).

وتوفي رحمه الله عام 1094 هـ ودفن خارج باب محروق بفاس.

أبو مهدي عيسى السكتاني

أبو مهدي عيسى بن عبد الرحمن بن عيسى الرجراجي السكتاني. كان رحمه الله محققا نظارا بارعا في علمي الأصول والعربية والفقه مشاركا في غيرها من الفنون مشاركة معتبرة.

قرأ بفاس ومراكش، وأخذ عن جماعة من كبار علماء المغرب في ذلك الوقت، منهم أبو عبد الله بن أبي القاسم الشريف الفلالي خطيب جامع الشرفاء بمراكش، وسيدي مبارك بن علي السكتاني، وأبو محمد عبد الواحد بن أحمد اليحمدي قاضي الجماعة بفاس، وأبو زكرياء يحي بن محمد السراج الأندلسي الرندي مفتي فاس، وأبو العباس أحمد بن علي الصنهاجي الزموري، وأبو علي الحسن بن عبد الله بن مسعود الدرعي، وأبو العباس المنجور، وأبو عبد الله الرجراجي، وعن مفتي مراكش أحمد بن محمد السالمي وغيرهم.

---

41) فهرسة اليوسي ص : 135.

تولى القضاء في بعض أعمال مراكش في أول الأمر، ثم ولي قضاء الجماعة بسوس، وحيث إنه من شيوخ العلم كما ذكرنا فإن الواجب كان يفرض عليه إباحة علمه للناس وجلوسه للطلاب ليستقوا من بحره ويقتبسوا من فضله، وهكذا تعاطى التدريس في قاعدة تارودانت، وكانت دار علم ومحجا للطلاب من كل جهات المغرب إلا أن الأحوال تغيرت هناك عند ظهور أبي زكرياء يحيي بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم بالسوس وخروجه لطلب الرئاسة بعد العشرين وألف، فانتقل أبو مهدي السكتاني إلى مراكش حيث عاد إلى ما كان عليه من تولي خطتي القضاء والتدريس.

وممن أخذ عنه وتتلمذ عليه أبو علي اليوسي : قرأ عليه جملة من مختصر الشيخ السنوسي في المنطق، وجملة من محصل المقاصد لابن زكري في الفقه. وقال عنه : «كان إمام وقته في فنون العلم مع سمت وهمة ونية صالحة في طريق القوم ومحبة أهلها»[42].

وأخذ عنه كذلك أبو زيد عبد الرحمن التامانارتي صاحب الفوائد، وقال عنه : «حضرت درسه في الأصول والفروع وغيرها فرأيته مليح التحقيق صحيح التدقيق، أنيق الفهم، صائب السهم قرأنا عليه إيضاح المسالك للونشريسي فأجاد وأفاد، وبين الفوائد وقرب الشوارد، ولم يظفر إذ ذاك بمؤلف يعتمده في حله إلا ما تقرر لديه من أصول مسائل المذهب وقواعده، وما ذاك إلا لقوة إدراكه واتساع تصرفه.

وممن أخذ عنه أيضا أبو محمد بن عبد الله بن يعقوب السملالي، وأبو الحسن علي بن أحمد الرسموكي وغيرهم له من المؤلفات حواشي على صغرى السنوسي، وشرح على صغرى الصغرى، وله فتاوى كثيرة.

---

42) فهرسة اليوسي ص : 135.

توفي سنة 1062 ودفن خارج باب الخميس بضريح الولي أبي القاسم الجراري بمراكش[43] ومن تاريخ مماته نستفيد أن اليوسي قرأ عليه في أيام شبابه لما كان عمره لا يتجاوز العشرين سنة. وقراءة اليوسي لمختصر السنوسي في المنطق وما في معناه منذ هذا العهد المبكر تنبيء عن نبوغ وجدارة وعلو همة.

أبو العباس أحمد بن محمد التجمعتي

الشيخ أحمد بن محمد بن مروان بن عبد العزيز بن محمد بن أبي محلي العباس المالكي المغربي التجمعتي[44] السجلماسي، الحافظ الإمام المحدث. من بيت الرياسة والعلم بسجلماسة. كان علامة نحويا فقيها مقرئا شائع الصيت ذائع الذكر[45].

قرأ عليه اليوسي جملة من مورد الظمآن للخراز في القراءات، وجملة من مختصر خليل، وقرأ على أخيه أبي عبد الله محمد بن محمد التجمعتي معظم ألفية ابن مالك، والقرآن الكريم. وقال عنه : «إنه ممن لهم التحقيق في مهمات النحو والقراءة»[46].

---

43) من مصادر ترجمته فهرسة اليوسي - وفهرس الفهارس والأثبات للكتاني. ومقال للأستاذ محمد بن عبد الله الروداني، عنوانه أبو مهدي عيسى السكتاني المثال الحي للعالم المسلم. دعوة الحق يونيو 1973.

44) التجمعتي بفتح التاء المثناة وسكون الجيم وضم الميم وسكون الواو وفتح العين المهملة وبعدها تاء مثناة ساكنة نسبة إلى بلدة بالسوس.

45) خلاصة الأثر للمولى محمد المجي طبعة مصر نسخة دار الحديث 3417 ص : 347.

46) فهرسة اليوسي.

فلليوسي إذا مشيخة في أسرة التجمعتي. وقد كانت هذه الأسرة من بيت علم ودين، واشتهر من أفرادها بالإضافة إلى الأخوين المذكورين الفقيه عبد العزيز التجمعتي المتوفى سنة 1058 هـ وأبو مروان عبد الملك التجمعتي وهو الذي جرت بينه وبين اليوسي الخصومة المشهورة حول قضية علم النبي[47]، وأحمد بن عبد العزيز التجمعتي وكان عالما كبيرا كوالده. وأبو هذه الأسرة (محمد) عالم معتقد معدود من أولياء زمانه.

أبو بكر بن الحسن التطافي

عالم مشارك في فنون العلم مع ديانة ظاهرة، وسمت حسن، وزهد في حطام الدنيا، درس بفاس وسجلماسة، وأخذ عن عدة شيوخ، أكبرهم الشريف العلامة سيدي عبد الله بن طاهر الحسني. وتخرج على يده عدد من العلماء من بينهم أبو علي اليوسي الذي قرأ عليه ختمة من القرآن، وحضر عنده جملة من رسالة أبي محمد بن عبد الله بن أبي زيد القيرواني في الفقه وجملة من مختصر خليل، وجملة من جمع الجوامع للسبكي والخلاصة في النحو لمحمد بن مالك الطائي الأندلسي[48].

محمد بن إبراهيم الهشتوكي

أبو عبد الله محمد بن ابراهيم من بني ابراهيم بن موسى الهشتوكي. كان رحمه الله صدرا من صدور العلم في وقته. له المشاركة التامة في الفنون.

---

47) انظر الفصل الخاص بشخصية اليوسي عالما ومؤلفا من هذه الرسالة.

48) انظر ترجمته في طبقات الحضيكي.

أخذ عن شيوخ مراكش وفاس ثم رحل إلى الجزائر، فتتلمذ لسيدي سعيد قدورة[49] ورحل أيضا إلى جبال زواوة لطلب العلم، ثم رجع إلى فاس فأخذ عن سيدي عبد القادر الفاسي الورقات لإمام الحرمين الجويني في الأصول، ورجز ابن زكري في مصطلح الحديث.

تولى القضاء بمراكش، ثم نقله السلطان المولى اسماعيل إلى فاس وتولى قضاء بعض أعمالها، ثم رجع إلى مراكش واشتغل بالتدريس فتخرج على يده جمع غفير من الطلبة، منهم أبو علي اليوسي الذي قرأ عليه : مورد الظمآن وجملة من ألفية ابن مالك، وتنقيح القرافي في الأصول، وجملة من مختصر خليل ومن القلصادي في الحساب.

وكان رحمه الله صلبا في الحق ناصحا لولاة الأمر، ومما يحكى عنه أنه «دخل يوما على بعض أمراء وقته وهو في فسطاطه فأهوت الشمعة فلطمت ثيابه فقال الأمير مداعبا له : قد بدأتك النار في الدنيا قبل الآخرة، فقال له الشيخ : صدق الله العظيم : ﴿**ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار**﴾ فكأنما ألقمه حجرا[50].

وتوفي رحمه الله بمراكش سنة ثمان وتسعين وألف 1098 هـ.

أحمد بن عمران الفاسي

أبو العباس أحمد بن علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن عمران السلاسي ثم الفاسي كان إماما للفتوى بفاس وعلما من أعلام جامعة القرويين الذين أفنوا أعمارهم في التدريس وخدمة العلم والدين. وكان محدثا حافظا متصلا

---

49) أبو عثمان بن ابراهيم المعروف بقدورة الجزائري الدار التونسي النجار كان عالما متفننا زاهدا ورعا موصوفا بالصلاح ولي الفتوى بالجزائر وله حواش على الصغرى وشرح الأخضري توفي عام 1066 (الصفوة 121).

50) الاعلام لعباس بن ابراهيم ج 4 ص : 260. وممن ترجم له الحضيكي في طبقاته.

بالأسانيد العالية عالما بالرجال وقواعد المصطلح إلى جانب ما كان يتحلى به من الأدب البليغ والذوق الرفيع.

وينتسب رحمه الله إلى أسرة عريقة في العلم فقد كان أبوه قاضي الجماعة، وجده فقيها نحويا وعالما مشاركا، ويبدو أن حياته بفاس لم تكن مرضية نظرا لعسره وقلة ذات يده مع كثرة العيال والأولاد، الشيء الذي اضطره إلى مغادرتها والرحيل إلى الزاوية الدلائية، حيث اتصل بالشيخ ابن بكر الدلائي وتولى تعليم أبنائه وغيرهم من طلبة الزاوية، وكانت في الشيخ أبي بكر الدلائي أريحية ومحبة زائدة لأهل العلم، فلما أدرك أن الشيخ أحمد ابن عمران ترك أولاده بفاس بسبب الفقر واضطر إلى الرحيل عنهم أرسل إلى أسرة الفقيه كل ما تحتاجه من قوت وملابس ونقود دون أن يعلمه بشيء من ذلك. ثم غمره بالعطايا حين أراد الرجوع فلما رجع الفقيه ابن عمران إلى فاس وعلم بصنيع الشيخ الدلائي قرر العودة إلى الزاوية والاستقرار بها.

ويذكر صاحب البدور الضاوية أن الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي حضر يوما مجلس الشيخ ابن عمران وكان غاصا بذوي قرابته ومودته فقال لهم : «من أحبني منكم فليعط لهذا الشيخ يعني أبا العباس ابن عمران فأتى كل واحد من الحاضرين بما قدر عليه، ثم بلغ ذلك النساء فأعطت كل واحدة منهن ما قدرت عليه من قرط وسوار أو غيرهما ثم بلغ ذلك الخبر أهل السوق وأهل البوادي فانتقلوا إليه فكان الرجل يأتي بالفرس وغيره مما تيسر له فيعطيه له وقامت لذلك سوق عظيمة.

وتخرج على يد الشيخ ابن عمران جماعة من العلماء منهم أبو علي اليوسي الذي قرأ عليه كبرى السنوسي مع شرحها وغيره من طلبة الزاوية الدلائية.

☆ ☆ ☆

هـذه لمحة عن شيوخ اليوسي، حـاولنـا أن نبرز من خلالهـا مستواهم في العلم ونوع اختصاصهم وطرق رواياتهم وموصول أسانيدهم ومبلغ عطـائهم ومـا قرأه اليوسي عليهم ومـا كان لهم في تكوينـه من تـأثير مع ذكر إجـازات من أجازه منهم وما تحمله تلك الإجازات من دلالات تسـاعـد على فهم شخصيـة اليوسي وتقييمها، ونحاول الآن أن نقوم بالتعريف بتلاميذه كما عرفنـا بشيوخـه لنلاحـظ كيف أن اليوسي نقل العلوم التي تلقـاهـا من شيوخـه إلى تـلاميـذه فأدى الأمانـة أحسن أداء وتلـك هي مهمـة العلمـاء وأمـانتهم الصعبـة في كل زمان ومكان.

تلاميذ اليوسي

1) الأخوان العكاريان

أبو عبـد اللـه محمـد وأبو الحسن علي ابنـا محمـد بن علي الشريف الحسني العكاري. كلاهما من تلاميـذ أبي علي اليوسي. قرءا عليـه بـالزاويـة الـدلائيـة النحو والبيان، والمنطق والفقه والأصول والتوحيد. ونالا منـه إجـازة علميـة. إلا أن الأول وهـو محمـد أسبـق إلى طلب العلم من أخيـه علي، كما أن اتصـالـه باليوسي كان متقدمـا على اتصـال أخيـه بـه. ومع أن سيـدي علي العكاري لم يطلب العلم إلا في سن متأخرة إلا أن قوة حافظته ساعدتـه على تـدارك مـا فاته في أقرب الآجال. يقول الولالي صاحب مباحث الأنوار : «كان يشاركنا في أخذ العلوم الآلية عن الشيخ ابن مسعود مثل البيان والمنطق وأصول الفقه وغيرها كالفقه وأصول الدين، وكان له إدراك حسن في ذلك مع عدم حفظـه للأمهـات وعـدم حفظـه للقرآن ومع عـدم اعتنـائـه بكثرة النظر في الحـواشي

والشروح، فكان لا يقرأ كتابا صعبا في فن صعب مثل المحلى إلا وترك العود إلى إعادته زاعما أنه لا يحتاج إلى الإعادة وهو كذلك[51].

وانتقل الأخوان العكاريان من الزاوية الدلائية إلى فاس لاستكمال طلب العلم واشتغلا هناك بالتدريس مدة، أما محمد فقد اتصل خبره بالمولى إسماعيل فأمره بالقدوم إلى مكناس وجعله إماما له في الصلاة وخطيبا في مسجد القصبة الإسماعيلية. وقام رحمه الله بتدريس العلم بمكناس خير قيام، وتخرج على يده جماعة ثم بعد ذلك أعفاه السلطان من منصبه إشفاقا عليه لمرض كان يعاني منه فاإلى مراكش وبها توفي[52].

وأما سيدي علي العكاري فكانت دروسه بمدينة فاس مجمعا للأكابر ومقصدا للطلاب من جميع أنحاء المغرب. ومما احتفظت لنا به المصادر في وصف مجالسه العلمية ما جاء في مناقبه حكاية عن أبي عثمان سعيد العميري المكاني إذ قال : «لما دخل الشيخ علي العكاري حضرة فاس قفل من الزاوية الدلائية، والعلماء إذ ذاك متوافرون بها غاية، وكنت حينئذ بالحضرة المذكورة بصدد تحصيل العلم، شرع يدرس كبرى الإمام السنوسي بجامع القرويين منها. فسمع بذلك فقهاء الحضرة وكان هذا الكتاب من أجل ما يتنافس فيه المتنافسون، فاجتمعت جماعة من الفقهاء وجئنا قاصدين مجلسه لننظر قراءته ونختبر حاله بقصد الانتقاد عليه والامتحان له، فحضرنا مجلسه بهذه النية فألفيناه جالسا وقد غص عليه المجلس بالطلبة، وضربوا عليه حلقة عظيمة حفيلة، وهو يدرس بصوت فصيح جهير، (وشاشيته) مائلة لأحد شقي رأسه إشارة إلى تمهره، وعدم اكتراثه بمنتقد عليه لمعرفته لأحكام الفن

51) مباحث الأنوار ص 90.

52) مناقب سيدي علي العكاري خ. ع. 88 د.

المذكور».[53] وبعد مدة من التدريس بفاس انتقل إلى مدينة سلا للتـدريس بمسجـدهـا الأعظم وتخرج على يـده كبير من العلمـاء، ثم انتقـل إلى الربـاط واشتغل بالتـدريس أيضـا، وكانت لـه حظوة عنـد المولى إسماعيل الـذي كان يعتبره من أولياء الله ويقدره ويحترمه، حتى إنـه لينحني يريـد تقبيل يـده، كما أنه كان يتحفه بالمبالغ المالية الكبيرة. وبطلب من أهل سلا أمر السلطـان برجوع الشيخ العكاري إلى مدينتهم لتدريس العلم فكان إقبال الطلبـة عليـه عظيمـا. ولكنـه رجـع في أواخر أيـامـه إلى الربـاط حيث وافتـه المنيـة سنـة 1118 هـ.

ونورد هنا نص الإجـازة التي كتبهـا اليوسي للأخوين العكاريين وهي مبتورة الأول :

«وقد كانا لازماني برهة من الزمان، في تعاطي هذا الشأن، يتسـابقـان بـارك اللـه فيهما في ميـدان المـدارك كفرسي رهـان، ويصطحبـان كـؤوس المعـارف، ويغتبقـان ويـأتزران حلل اللطـائف ويرتـديـان، ويروضـان من غرائب المعوصـات كل شمـوس وحرون، حتى امتـلأ ـ والحمـد للـه ـ لكل منهما الوطاب وعاد بلحه إلى الأرطاب، وأخذا عني معظم الفنون من فقـه وأصول، وبلاغـة وكلام ومعقـول وغير ذلـك مما يطـول، وسمعـا مني معظم الأمهـات المتداولـة في كل ذلـك سماع بحث وتنقير، وتحقيق وتحرير، مع طول المراجعـة في تحقيق القوانين، وتصفح الدواوين، كما أخذا ذلك عن جمـاعـة من المشـايخ الأعيان ممن حلم بهم الزمان كشيخ الجماعـة أبي مهـدي عيسى بن عبـد الرحمن السكتاني والشيخ أبي عبد الله محمـد المزوار المراكشي، والشيخ أبي فـارس عبـد العزيز بن أحمد الرسموكي رحمة الله عليهم، وشيخ الطريقة وإمام الحقيقة أبي عبد الله سيدي محمد بن ناصر الدَّرعي، والشيخ أبي عبد الله سيـدي محمـد بن

53) مناقب سيدي علي العكاري ص : 6.

إبراهيم المشتوكي، والشيخ أبي عبد الله سيدي محمد بن محمد أبي بكر المرابط، وغير هؤلاء ممن حصل الانتفاع، كثر عنهم أو لم يكثر السماع، فأجزتهما وفقهما الله عمن ذكر إجازة مطلقة عامة في كل ما تقدم من منقول أو معقول مقروء أو مسموع مفرد أو مجموع منثور أو منظوم، منطوق أو مفهوم، وأجزتهما أيضا في غير ذلك من كل ما سمعا مني أو بلغهما عني من كتب مقروآت أو مسائل مقررات أو نوادر مستطرفات، أو فوائد ملتقطات، وأيضا في كل ما وقع لي من تصنيف أو ترسيل أو شعر كثير أو قليل، وأذنت لهما أن يرويا من جميع ذلك عني ما صح عندهما أنه مني وأن يشيعا بما تحرر عندهما من جميع ذلك بين المسلمين ويمنحاه صدور المتعلمين على الشرط المعتاد عند المهرة النقاد، وأوصيهما بتحري الصدق وتتبع الحق واتهام النفس في مواطن اللبس، وتزيين القول بالعمل، وتوقع هجوم الأجل، وأسألهما أن لا يزالا مجتهدين في الدعاء الصالح لي غاية الاجتهاد، وملتزمين عقد المحبة والأخوة الربانية في الدنيا وفي يوم المعاد ـ قاله وكتبه بيده الفانية لسبع عشرة خلت من ذي الحجة الحرام عام (1080) ثمانين وألف عرفنا الله خيره، ووقانا ضيره الحسن بن مسعود المذكور سامحه الله وكان له وليا ونصيرا» اهـ[54].

محمد بن عبد الرحمن الصومعي

أبو عبد الله محمد بن الرحمن الزمراني التادلي الصومعي نسبة إلى قرية الصومعة بتادلا. من أنجب تلاميذ اليوسي، قرأ عليه بالزاوية الدلائية، ثم لما سمع بمناقب الصوفي الكبير الشيخ محمد بن عبد الله السوسي غادر دروس

54) مناقب سيدي علي العكاري. والإجازة منقولة من خط أبي علي اليوسي كما ذكر مؤلف المناقب. خ.ع 88. ص 2 ـ 5.

أستاذه اليوسي، والتحق بمراكش. ويذكر صاحب مباحث الأنوار أن اليوسي لم يعجبه من تلميذه هذا التصرف، لأنه كان يرى أن طلب العلم أنفع له من الجري وراء فقراء الصوفية. وأنه قال لبعض تلاميذه الذين خرجوا لتشييع زميلهم الصومعي : إن ذلك من الفتنة في العاجل. قال صاحب المباحث معلقا على كلام شيخه اليوسي : «يعني فكيف يكون الأمر في الآجل. وما قاله الشيخ ابن مسعود قاله عن اجتهاد منه ومحبة في فشو العلم ورغبة في حصول المراد من العلم للمسافر المذكور لما يرى فيه من القابلية»[55].

والظاهر أن الصومعي كان شديد الرغبة في طلب العلم إلا أن شدة محبته للصوفي سيدي محمد بن عبد الله السوسي غلبته على أمره، وكانت محبة قوية حتى إن خياله لا يفارق عيني الصومعي. قال عنه صاحب المباحث : «وأخبرني وهو ثقة أنه ربما يكون مشتغلا بورده في غيبة الشيخ فيمر به الشيخ في خلوته عيانا كالبرق»[56].

وفي عام 1071 زار الشيخ محمد بن عبد الله السوسي الزاوية الدلائية فرجع معه الصومعي وانقطع من جديد إلى دروس أستاذه اليوسي ودروس غيره من العلماء الدلائيين إلى أن تخرج عالما كبيرا.

وبعد تخريب الزاوية الدلائية سنة (1079) رجع الصومعي إلى مسقط رأسه تادلا ثم انتقل إلى فاس، وبقي في صحبة الشيخ أحمد بن عبد الله صاحب زاوية المخفية. وحج معه سنة 1100 هـ.

واشتغل الصومعي بالتدريس مدة طويلة خصوصا في تادلا. وكان «مقبلا على ما يعنيه من العلم والعمل، تخرج عليه في العلم ناس من أصحابه وتهذبت بمصاحبته أخلاقهم. وهو حسن العهد منقطع عن الولاة وعن

---

55) مباحث الأنوار 90 ـ 91.

56) مباحث الأنوار ص 138.

الاشتغال بأسباب الدنيا. ورزقه الله تعالى الكفاف بلا تكلف، ولم يزل محببا للخلق متبركا به في قومه، موقرا عندهم وعند من يعرفه من الناس جميعا وترد عليه أحوال جميلة ربما غلبت عليه فيصيح باسم الجلالة وهو مثابر على الأذكار لم يزل فيما رأيناه يقوم جزءا نفيسا من الليل»[57].

له شرح على سينية ابن باديس[58]، وشرح على همزية البوصيري.

وتوفي رحمه الله سنة 1123 هـ.

أبو العباس أحمد الهشتوكي

أحمد بن محمد بن داود بن يعزى بن يوسف الجزولي لقبا، المنصوري مولدا التملي (نسبة إلى بلد بدرعة يدعى انتملت)[59] الهشتوكي شهرة، الدرعي دارا[60] عالم مشارك. لازم اليوسي ما ينيف على عشرين سنة[61] وكان في أول أمره وطلبه للعلم قليل الفهم بليد الذهن، حكي عنه أنه قال «قرأت الأجرومية ثمان عشرة مرة وأنا لا أفهم معنى قام زيد ولا قعد زيد»، ثم بعد ذلك فتح الله عليه حتى بلغ خطة الفتوى، وتولى القضاء في إحدى نواحي السودان نال بها أموالا عظيمة، وأخذ عنه جملة وافرة من علماء تلك الناحية وأجازهم، وكان معظما محترما موقرا عندهم، وألف تآليف عديدة، منها :

57) مباحث الأنوار ص 137.

58) أبو الحسن بن أبي القاسم بن حسن بن باديس القسنطيني له قصيدة سينية ذكر فيها الشيخ عبد القادر الجلاني وتلاميذه.

59) وهو واد ذو نخل وأشجار متنوعة.

60) ولقبه أحزي بفتح الهمزة وضم الحاء المهملة وكسر الزاي / انظر معجم المؤلفين لرضا كحالة ج 1 ص 324 وفهرس الفهارس ج 2 ص 423.

61) الدرر المرصعة خ.ع 5265.

شرحه على السُلّم للأخضري في علم المنطق، وشرح على تـأليف شيخـه أبي علي اليوسي سماه (فتح العلام في شرح قواعد الإسلام) شرح فيه كتاب (قواعد الإسلام من مضمون حديث النبي عليه السلام)، ولـه كتـاب التحفـة في علم النحـو صغرى وكبرى، وشرح الجمل لابن المجراد، وشرح مسـاعـدة الاخـوان للشيخ أبي عبـد الله بن نـاصر، وأرجوزة سماها التقـاط اللؤلؤ والمرجـان في تحريم الدخان، وجواهر المعاني فيما يتعلق بأحكام الروح النوراني، ولـه فهرس سماه «قرى العجـلان على إجـازة الأحبـة والاخـوان» ذكر صـاحب فهرس الفهارس أنه في نحو كراسين وقال عنه : «صدره بخطبـة أنيقـة أكثر فيها من التوريـة بـأسماء الكتب ذكر في أولـه أسماء مشـاهير الآخـذين عنـه من أهـل سوس وسجلماسة والصحراء، ثم ترجم لمشايخه ومقروواتـه عليهم كأبي عبـد اللـه ابن نـاصر الـدرعي وأخيــه أبي علي الحسين، وأبي علي اليـوسي، وابن حمـدان التلمساني وغيرهم، وأسهب في ذكر أشياخ أشياخه المذكورين وتنقلات شيخـه اليوسي بما لا يوجـد في غيره[62]. ولم نعثر على هـذا الكتـاب مع طول بحثنـا عنه، وإذا صح ما قاله الشيخ عبد الحي الكتاني في فهرسه فإن هذا الكتـاب سيكون مفيدا جدا في ضبط تنقلات اليوسي ويلقي ضوءا جديـدا على بعض الجوانب من حياته. ومن مؤلفات الهشتوكي كذلك الرحلة الحجـازيـة وإنـارة البصائر في ذكر مناقب ابن ناصر وأتباعه الأكابر.

وممن أجازه من الشيوخ، الشيخ ابن ناصر الدرعي، وأبو سعيـد المرغثي، وعبـد القـادر بن علي الفـاسي، وأبـو زيـد عبـد الرحمن الفـاسي، وأبـو سـالم العياشي، والإمام الخرشي، والزرقاني والشهاب أحمد العجمي وأحمد بن حمـدان التلمساني والملا ابراهيم الكوراني. ونورد هنـا إجـازة أبي علي اليوسي لـه وهي إجازة عامة مطلقة :

62) فهرس الفهارس والأثبات للكتاني ج 2 ص 423.

«أما بعد فيقول العبد الضعيف الفقير إلى الله تعالى الحسن بن مسعود اليوسي غفر الله لذنبه وأصلح قلبه : إن صاحبنا الفقيه النبيه الوجيه النزيه المشارك المستفيد والمعلم المفيد، الصدر الرئيس في الإملاء والتدريس، أبا العباس سيدي أحمد بن محمد الهشتوكي أصلح الله عمله وبلغه أمله، قد سألني أن أجيزه وأبين تبريزه وإبريزه، علما منه بأن الإجازة مشروع[63] مورود، ومنزع مقصود ومأثرة قديمة، ومنقبة عظيمة وغاية يتجارى إليها المتسابقون.

(...) فلم يكن بد من إسعاده لمكان وداده، والا فلست أهلا لأن أجاز فضلا عن أن أجيز وأنى للمقعد الفقير تشييع أو تجهيز فقلت : أجزت الفقيه أبا العباس المذكور في كل ما يصح لي وعني روايته أو ثبتت لي درايته من منقول ومعقول وفروع وأصول ومقروء ومسموع ومفرد ومجموع ومنثور ومنظوم على الخصوص والعموم، وكل ما سمع مني وما لم يسمع مما ثبت له عني مما نقلته أو عقلته أو ما سمعته، أو قلته، وأذنت له أن يتحدث بذلك كله تدريسا وإملاء وتصنيفا، وعلى أي وجه يكون إفادة للطالبين ونشرا للعلم والحكمة بين المسلمين، إذنا تاما مطلقا عاما. على أن عليه في ذلك كله أن يتثبت غاية في النقل والفهم وأن يخلص لله في نشر العلم، وأن يشركني في دعواته الصالحة وتجارته الرابحة. وحدثته بذلك عن شيوخي الجلة الذين هم بذور ممن أخذت عنهم وممن أجازني، وشهرتهم ولا سيما عند المجازي تغني عن ذكرهم، مع أن ما انضم إلى ذلك من زوائد الفوائد التي سندها الفيض الرحماني والمدد الرباني. قال ذلك وكتبه بيده متلفظا بالإجازة صدر جمادى الثانية سنة 1084، عبد الله تعالى الحسن بن مسعود اليوسي كان الله له وليا ونصيرا.

---

63) لعل الصواب (مشرع).

استدراك : وكان تقدم منا إليه الاجازة باللفظ من غير تسجيل عام ثمانين وألف، وذلك عند ضريح ولي الله تعالى إدريس بن عبد الله في زرهون، ولم يتفق كتب ذلك إلى اليوم. قال ذلك عبد الله تعالى الحسن المذكور، كان الله له وليا ونصيرا»[64] ا هـ.

أبو علي الحسن بن رحال

كان رحمه الله ـ فيما وصفه ابن زيدان ـ نادرة الزمان وأعجوبة الأوان، حافظا لافظا، متضلعا ماهرا، له ملكة واقتدار في سائر الفنون، حتى كان يدعى بصاعقة العلوم والتدريس. وله عارضة كبيرة في الفقه، واتساع زائد في النوازل والأحكام، وملكة عجيبة في الفتوى، وصبر هائل في مجلس الإقراء... وبالجملة فقد كان حافظ مذهب مالك في زمانه[65] وقال عنه العميري في فهرسته : «تفرد رحمه الله في وقته بالرجوع إليه في مسائل الفقه، واستحضار نصوصه وحفظ فروعه، وكثرة مطالعته واعتنائه... تفقه على والدي وعلى الشيخ سيدي الحسن اليوسي وغيرهما من أهل طبقتها»[66].

وجاء في طبقات الحضيكي : «برع في الفقه وتولى قضاء الجماعة فعدل وحسنت سيرته ودرس فأجاد وتخرج به جماعة وانتفع به خلق كثير» وممن أخذ عنه المحدث الكبير سيدي الكبير السرغيني، والعلامة الصالح المتبحر سيدي أحمد بن مبارك السجلماسي، وأبو عبد الله محمد بن عبد الصادق الدكالي وغيرهم[67].

---

64) الدرر المرصعة خ ع 265 5.

65) الإتحاف لابن زيدان ج 3 ص 7.

66) فهرسة العميري نقلا عن كناشة العربي الدكالي خ ع 91 ج.

67) الاتحاف لابن زيدان ج 2 ص 7 ـ 9.

وترك أبو علي الحسن بن رحال مؤلفات عديدة منها. شرح حافل على مختصر خليل في ستة أسفار، وحاشية على شرح سيدي محمد ميارة على التحفة (مطبوعة) واختصار شرح الشيخ علي الأجهوري على مختصر خليل، ويتيمة العقدين في منافع اليدين، وتأليف في الأدعية، وحاشية على شرح الخرشي لمختصر خليل في أربع مجلدات، وتأليف سماه.

«الإرفاق في مسائل الاستحقاق» وله أجوبة مجموعة.

وتوفي رحمه الله بمكناس ثالث رجب عام أربعين ومائة وألف.

أبو عثمان سعيد العميري

من رجال دولة المولى اسماعيل، ومن جملة علماء حضرته، تولى خطة قضاء الجيش الاسماعلي وعين قاضيا بتادلا حين بنيت قصبتها، وكان له نفوذ في البلاط الاسماعلي حتى ليعبر عنه بعض معاصريه بالوزير.

قرأ على عدة شيوخ، منهم : «العلامة محمد بن سعيد المرغثي الذي سبق أن ترجمنا له ضمن شيوخ اليوسي، ومنهم أبو علي اليوسي، والشيخ محمد العطار. وكان العميري يقول في شيخه العطار هذا : «إنه أنحى من ابن مالك» قال : قرأت عليه بحمراء مراكش وبها استوفيت القراءة، وجمعت على ما حصل لي بها من وجوه الطلب أطراف ملاءتي. ثم رحلت إلى مدينة فاس وأنا أرى أن قد اكتفيت بما دريت ورويت، واستغنيت بحصول ما بتحصيله ممن ذكر وغيرهم عنيت فقدمتها، وممن وجدت فيها الشيخ العلامة سيدي بن مسعود اليوسي» ويقول عن شيخه اليوسي : «وجلست إليه بمجلس درسه مختبرا وباحثته في مسائل عدة، فلم يقنعني حاله ولا استقرت به رحاله. وعدت إليه ثانيا ولعنان السر ثانيا فإذا هو بحر زاخر ماله أول من آخر،

فاغتبطت به وقرأت عليه جميع كتبي وشددت عليه يدي، فانتفعت عليه انتفاعا ضممته إلى ما عندي من مدخر عددي :

«من فاته الحسن البصري يصحبه   فليصحب الحسن اليوسي يكفيه»[68] ا هـ

وما وقع لسيدي سعيد العميري مع اليوسي بفاس ليس غريبا، لأنه ليس من اللازم أن ينتفع كل طالب بعلم الشيخ في مختلف الظروف على مستوى واحد، فالانتفاع يتوقف على علل وأسباب وعوامل، منها ما يرجع إلى حال الطالب، ومنها ما يرجع إلى قدر مشترك بينه وبين الشيخ، ومنها كذلك ما يرجع إلى أمور لا دخل لأي واحد منهما فيها، لأنها غيبية كالقسمة الإلهية والتوفيق الرباني. وما نظن أن مرد المسألة إلى تطور وقع في شخصية اليوسي بين رحلة تلميذه عنه وعودته إليه، لأن هناك من انتفع باليوسي في نفس الفترة التي لم ينتفع به فيها سيدي سعيد العميري والله أعلم. ومن شيوخ أبي عثمان العميري كذلك الشيخ علي العكاري وقد سبقت ترجمته ضمن تلاميذ اليوسي. وتوفي العميري عام 1131 هـ ودفن بمكناس.

محمد المسناوي

الشيخ محمد بن أبي العباس أحمد بن محمد الملقب بالمسناوي بن محمد بن أبي بكر الدلائي. ولد بالزاوية البكرية سنة اثنتين وسبعين وألف، وما إن بلغ السابعة من عمره حتى رحل عنها بسبب استيلاء مولاي رشيد عليها، مما يدل على أنه لم يتلق بها شيئا من العلم، اللهم ما كان يأخذه صبيانها في الكتاب القرآني من مبادئ أولية. رحل مع والده إلى فاس سنة 1079

68) فهرسة ابنه أبي القاسم العميري نقلا عن كناشة العربي الدكالي ص 176 ـ 187 خ.ع 91 ج ـ مخطوط.

وعكف هناك على تعلم العلم، وأخـذ عن عـدد كبير من الشيوخ، منهم الشيخ عبد القادر بن علي الفاسي، وولده محمد الـذي أجـازه إجـازة عـامـة، والشيخ عبد السلام القـادري، وستـأتي ترجمتـه، وأخوه سيـدي العربي القسمطني، وأبو العبـاس بن الحـاج، وأبو علي اليوسي، وأبو مروان عبـد الملـك التجمعتي، وعم والـده أبـو عبـد اللـه المرابـط[69]. اشتغـل بـالتـدريس في أول عمره ثم تـولى الخطابة والإمامة بالمدرسة العنانية زمانا ثم تولى الإمامة والخطابة والتـدريس بمسجـد مولاي إدريس، ثم تخلى عن ذلـك وتـولى الفتـوى لكنـه تركهـا بعـد ذلك.

وتخرج على يد الشيخ المسنـاوي عـدد كبير من العلمـاء، منهم أبو عبـد الله ميارة الحفيد، وأبو عبد الله محمد بن حمـدون بنـاني، وولـد عمـه ابن عبـد السلام البناني، وأبو عباس بن مبارك، وأبو عبد الله الجندور، وأبو عبـد اللـه جسوس، وأبـو عبـد اللـه بن زكري، ومحمـد بن الطيب الشركي، ومحمـد الصغير الافراني المراكشي، وكان رحمه الله من كبـار الشيوخ الملحوظين بعين التقـدير والاحترام ومما جاء في أوصافه : «كان رحمه الله آية في تحصيل العلوم، وحجة في صحـة الادراكات والفهوم، أخـذ بـأوفر نصيب في غـالب الفنون، ولا ينقر المسـائل إلا في سواد العيـون : مقصـودا لحـل المشكـلات، معتمـدا في النـوازل والمعضلات، وكان جميل المعاشرة، جميل الثياب، معتنيا بنظافتها، عالي الهمة، كبير الوقار. وأحرى في مجلس العلم، فكان لا يستطيع الكلام معـه في مجلسـه الأكابر لهيبته. وإذا أخذ في تقرير مسئلة يأتي على تمـام وجوه احتمالاتهـا، ولا يدع شيئا مما يختلج نفوس الحاضرين مع التحرير بمقتضى العقل والنقل[70].

---

69) الإعلام لعباس بن ابراهيم ج 5 ص 30.

70) الإعلام لعباس بن ابراهيم ج 5 ص 30.

ومن تآليفه (جهد المقل القاصر في نصرة الشيخ عبد القادر) و(نتيجة التحقيق في بعض أهل النسب الوثيق) و(القول الكاشف في أحكام الاستنابة في الوظائف) ورسالة (نصرة القبض والرد على من أنكر مشروعيته في صلاة النفل والفرض). وكانت وفاته رحمه الله بعد زوال يوم السبت سادس عشر شوال ست وثلاثين ومائة وألف، وخرج أهل فاس بجنازته رجالا ونساء وصبيانا وأخذ الناس نعشه قطعا تبركا به[71].

عبد السلام القادري

من أعلام فاس وصدور أئمتها المشهود لهم بالتبحر في مختلف العلوم والآداب والفنون. أعرف الناس بالأنساب ولا سيما أنساب قريش[72]. وكانت له الحظوة التامة عند ولاة وقته ولا سيما الخليفة العلامة مولاي مَحمد ابن المولى اسماعيل لقراءته عليه[73].

ولد عام 1058 هـ. وقرأ على جملة من كبار مشايخ عصره، منهم أبو علي اليوسي، الذي قرأ عليه التلخيص للقزويني في البلاغة[74] وجمع الجواهر، ومختصر السنوسي إلا يسيرا من آخرها، وطرفا من مختصر ابن الحاجب وطرفا

71) الإعلام لعباس بن ابراهيم ج 5 ص 30 ومن مصادر ترجمته كتاب البدور الضاوية لسليمان الحوات. وتوجد له تقاييد في المجموع 234 ك.خ.ع وتوجد ترجمته ومراجعها في سلوة الأنفاس للكتاني ج 3 ص 44 ـ 47 كما توجد ترجمته مفردة مع ذكر شيوخه ونبذة من أجوبته في تأليف للحوات الشفشاوني العلمي خ.ع 2210 د مخطوط.

72) تعليقات الأستاذ عبد الوهاب بن منصور على كتاب روضة التعريف لليفرني ص 12.

73) الإعلام لعباس بن ابراهيم ج 5 ص 12.

74) تلخيص المفتاح لجمال الدين محمد بن عبد الرحمن الأناضولي المعروف بالخطيب القزويني والمفتاح هو مفتاح العلوم ليوسف بن أبي بكر السكاكي وأشهر شرح للتلخيص هو شرح السعد التفتزاني.

من صغرى السنوسي وطرفا من التسهيل لابن مالك وطرفا من التفسير، وكتاب الشفا مرتين وختمة من المختصر للشيخ خليل.

وللشيخ عبد السلام القادري مؤلفات كثيرة منها : نيل القربات، وشرح الصدر، ورجاء الإجابة، وإغاثة اللهفان، ومنهاج الرشاد، ونزهة النادي وطرفة البادي في أهل القرن الحادي والدر السني فيمن بفاس من النسب الحسني والحسيني[75].

وتوفي رحمه الله سنة 1110 هـ.

أحمد بن يعقوب الولالي

أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن يعقوب الولالي (بفتح الواو وتشديد اللام الأولى) نسبة إلى بني ولال إحدى بطون قبيلة آيت عطى[76] قال عنه ابن زيدان في الإتحاف : «فقيه نبيه وعلامة نزيه. قدوة مشارك دراكة فهامة، ناسك واحد الأعلام، علما وعملا ومتانة دين»[77].

وقال عنه القادري في نشر المثاني : يجيد التعبير عن كل ما يريد متبحرا في العلوم محققا لها[78]

---

75) المخطوط رقم 1234 ك الورقة 114 وهو كتاب في ترجمة سيدي عبد السلام القادري تأليف محمد بن أحمد بن محمد بن عبد القادر الفاسي وتذكر كتب التراجم كتابا آخر في ترجمته وهو كتاب المورد الهني بأخبار الإمام الولي عبد السلام الشريف القادري الحسني.

76) جاء في كتابه مباحث الأنوار : قبيلة بني ولال هم قومنا... وأصلهم من بني عطاء قبيلة كبيرة معروفة بأقصى جبال ملوية. وبنو عطاء مشددا بوزن فعال أصلهم من العرب بل أخبرني بعضهم أن بني عطاء أصلهم من أخص العرب وهم قريش.

77) الإتحاف لابن زيدان ج 1 ص 340.

78) نشر المثاني للقادري ج 2 ص 114.

تفقه رحمه الله بالزاوية البكرية[79] وبعد خرابها انتقل إلى مدينة مكناس متصدرا للتدريس. ووجد إقبالا عظيما. وتخرج على يده طائفة من العلماء كأبي القاسم ابن سعيد العميري، والطبيب عبد القادر بن شقرون وغيرهما. وهو رحمه الله من أنجب تلاميذ اليوسي. قرأ عليه بالزاوية الدلائية ولازمه مدة طويلة صحبة سيدي علي العكاري وأخيه محمد العكاري، ومحمد بن عبد الرحمن الصومعي. ويظهر أنه تزوج بنت شيخه اليوسي كما يدل على ذلك هذا النص الذي نقتطفه من كتابه مباحث الأنوار : (وقد كنت خطبت بنت الشيخ العلامة ابن مسعود اليوسي، وكانت بعض العوارض تعرض في زواجها، فكنت أتردد هل يكمل أمرها أم لا، ثم توفي بعض أقاربها فأرسلت ولد أخينا لينوب عني في تعزيتهم وأمرته أن يلقى بعد التعزية الشيخ أحمد رضي الله عنه، فلما عزاهم لقيه فقال له مبتسما : قل لعمك لم لا يأتي لتعزية أصهاره، فلما رجع ولد أخي قلت له : وما قال لك الشيخ رضي الله عنه : فأخبرني بأنه قال لم لم يأت لتعزية أصهاره ؟ فقلت : سيكونون أصهارا إذا قال الشيخ...)[80] والنص غير كامل ولكن دلالته ظاهرة.

وقد خلف لنا الولالي تآليف مفيدة، منها : شرح على مختصر السنوسي في المنطق، وشرح على منظومة الأخضري المعروفة بالسلم المرونق في المنطق أيضا، وشرح على جمل الخونجي، وشرح رسالة السيد الجرجاني، وشرح على تلخص المفتاح، وشرح على لامية الأفعال في التصريف لابن مالك، وشرح على روضة الأزهار في التوقيت للجادري، وحاشية على المحلى، واشتهر بكتابه مباحث الأنوار الذي وضعه للتعريف بالشيخ الصوفي الكبير أبي عبد الله السوسي. وتوفي رحمه الله عام 1128 بمدينة مكناس.

79) كناشة العربي الدكالي ص 203 ومباحث الأنوار ص 90 ـ 91.

80) مباحث الأنوار 198.

ابن زاكور

أبو عبد الله محمد بن قاسم بن محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن زاكور الفاسي ولد ونشأ بفاس وأخذ عن سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي، وسيدي أحمد بن الحاج، والقاضي بردلة، وأبي عبد الله القسمطيني وعبد السلام القادري، وأبي علي اليوسي، وغيرهم.

إلا أنه لم يلازم اليوسي طويلا وإنما اغتنم فرصة زيارته لفاس في شوال سنة 1095 هـ وإقامته بها أياما فسمع منه بعض الدروس وقرأ عليه ما يحفظه من آثار وخصوصا أشعار اليوسي، كما أنه أخذ بتطوان عن أحد تلاميذ اليوسي، وهو الشيخ علي بركة، ورحل إلى الجزائر فأخذ عن جملة من شيوخها. وثقافة ابن زاكور واسعة ـ فقد درس الفقه والحديث والأصول والتاريخ والأدب. وكان يحفظ عدة تآليف : منها تلخيص المفتاح وجمع الجوامع، ومختصر خليل وكافية ابن مالك وتسهيله وكافية ابن الحاجب[81].

أما الفن الذي برز فيه واشتهر به فهو الأدب نظما ونثرا، ويلاحظ الأستاذ عبد الله كنون أن الفضل فيما كان ابن زاكور يمتاز به كأديب وكعالم لغوي يرجع إلى اتصاله بأبي علي اليوسي، جاء في كتاب «المنتخب من شعر ابن زاكور» : ثم هناك عامل آخر أثر جدا في توجيهه الأدبي، وطبعه بهذا الطابع القوي الذي ظهر به كعالم لغوي، يشرح ديوان الحماسة ولامية العرب، ويفسر غريبهما وإشارتهما وأمثالهما، إلى غير ذلك من نظم عدة قصائد على مذاهب شعراء البادية ومن نحا نحوهم من علماء اللغة، مرتكبا فيها أنواع الغريب وملتزما للقوافي الصعبة، كالتاء المثلثة، والذال المعجمة، ونحوهما، هذا العامل هو اتصاله بأبي على اليوسي وأخذه عنه، وكرعه من حياض معارفه

81) المنتخب من شعر ابن زاكور للأستاذ عبد الله كنون ص 13.

الأدبية واللغوية، ونسجه على منواله في شعره. فإن أبا علي كان ريان من علوم اللغة والأدب، ناسلا إلى فنونها من كل حدب. وقد أتى في شعره من ذلك بكل غريب، وامتلأ ديوانه بما فيه متعة للغوي الأديب، وحسبك بداليته (عرج بمنعرج الهضاب)، فإنها قد احتوت على فنون كثيرة من علم الأدب، فضلا عن اللغة، وقد كان ابن زاكور معجبا بها، وقرأها على ناظمها، ومدحها غير ما مرة، فكيف لا يتأثر بأسلوبها، ويضرب على نغمة صاحبها، وهو يملأ من نفسه مكانا عظيما، وينزل من قلبه منزلا كريما[82].

وقد يبدو هذا التأثير العميق، مجافيا للمعروف من قصر صحبة ابن زاكور لليوسي في زيارة لفاس تتجاوز أياما معدودات. فلنذكر أن من العلماء من يتأثر بشخصية شيخ سبق زمانه، فكيف بابن زاكور وقد لقي اليوسي وتلامذه وعاش في عصره، وطالت صحبته له في آثاره. فعلى رغم قصر مقامه عنده بهرته شخصية الشيخ، وحمل معه ما حمل من عطاء علمه وأدبه فكان له زادا ومنهلا.

ولابن زاكور مؤلفات كثيرة منها : عنوان النفاسة في شرح الحماسة، ومقياس الفوائد في شرح ما خفي من القلائد، والصنيع البديع في شرح الحلية ذات البديع، والجود بالموجود في شرح المقصور والممدود لابن مالك، وتفريج الكرب في شرح لامية العرب، والنفحات الأرجية والنسمات البنفسجية بنشر ما راق من مقاسد الخزرجية، والمعرب المبين عما تضمنه الأنيس المطرب، والاستشفاء من الألم في التلذذ بذكر صاحب العلم، وأنفع الوسائل في أبلغ الخطب وأبدع الرسائل، والروض الأريض في بديع التوشيح ومنتقى القريض، والروضة الجنية في ضبط السنة الشمسية، ومعراج الأصول في سماوات الأصول وهو نظم للورقات. والحسام المسلول في قصر المفعول على

82) نفس المرجع ص 11.

الفاعل والفاعل على المفعول، ونشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان[83].

ومن أحسن ما نختم به ترجمته هذان البيتان اللذان قالهما فيه أستاذه أبو علي اليوسي :

لله در ابن زاكور وشيمته ... وما أعد لجمع العلم من عدد
تراه في كل ما وجه وان سفرا ... بجيبه أهبة الكتاب أو بيد[84]

الشيخ علي بركة

ومن مشاهر تلاميذ أبي علي اليوسي بالإضافة إلى من ذكرنا الشيخ علي بركة أستاذ تطوان وإمامها في عصره. ومما قال في قراءته عليه : (استمسكت بغرزه مدة مديدة، وانبطت من ينابيع علومه عيونا سليلة الجرية جديدة، وتمتعت به في الحضر والسفر، ورجعت من عنده بفضل الله تعالى بتمام الفلح والظفر، فأخذت عنه رضي الله عنه وكان له وبلغه من خير الدارين أمله في الفقه مختصر الشيخ خليل مرتين بقراءة متوسطة بين التطويل والتقصير، وفي الأصول جمع الجوامع مرتين على وجه محرر الفصول، وفي علم المنطق والميزان مختصر الشيخ السنوسي والجمل للخونجي بتحرير وتبيان، وفي علم الكلام والتوحيد صغرى الشيخ السنوسي وكبراه عمدة أهل التوفيق والتسديد، وفي علم العربية جملة صالحة من التسهيل، وشيئا من الفية ابن مالك ولكنه قليل، وفي علم البيان والمعاني الشرح المختصر على التلخيص لسعد الدين التفتزاني. وقرأت عليه بنفسي قراءة إتقان وإيضاح متن تلخيص المفتاح.

83) الأنيس المطرب لابن الطيب العلمي ص 27 ـ 28.

84) يتامى الدرر ص 108.

وسمعت عليه في فن الأصول المهذب الأصول نحو النصف من مختصر ابن الحاجب، وسمعت عليه في الحديث النبوي أماكن من صحيح البخاري وجميع شمائل الترمذي.... والشفا للقاضي عياض... وكتاب الإمام الكلاعي المسمى بالاكتفا...[85].

وفي بيان التأثير الذي كان لهذا الشيخ في ازدهار الحياة الفكرية بتطوان خلال القرن الحادي عشر الهجري يقول الأستاذ محمد داود :

«أما الربع الأخير من هذا القرن فقد تبدلت فيه الحال، وذلك حينما رجع الشيخ العالم العامل سيدي الحاج علي بركة من مدينة فاس مملوء الوطاب علما وأدبا، فتصدى لنشر العلوم وإرشاد الخصوص والعموم، بالتدريس والتأليف والوعظ والخطابة. وكان كالبدر المنير في سماء تطوان، فانتفعت به كل الطبقات بها رحمه الله ورضي عنه»[86].

ومنهم الشيخ محمد بن عبد السلام بناني ومما قيل فيه : (شيخ الإسلام وعلامة الأعلام، إمام المحققين ورئيس النظار المدفقين، حائز قصبات السبق في الفنون كلها، متضلعا في فروع العلوم وأصلها، مشتهرا بها شهرة نار على علم، مرجوعا إليه في حل المشكلات الحوالك الظلم، متصرفا تصرف أفصح البلغاء باللسان والقلم[87].

له عدة تآليف، منها : شرح الاكتفاء في ستة أسفار وتوفي بفاس عام 1163 هـ.

---

85) تاريخ تطوان لمحمد داود ـ القسم الثالث من المجلد الأول ص 353 ـ 355.

86) تاريخ تطوان لمحمد داود القسم الثالث من المجلد الأول ص 348.

87) الإتحاف لابن زيدان ج 4 ص 85.

ومنهم الشيخ محمد بن أبي مدين بن الحسين بن إبراهيم السوسي المنبهي الزيادي المكناسي : «محدث متفنن ناظم، ناثر، علامة جليل، إمام في المعقول والمنقول، وعلم الأبدان والأديان، مرجوع إليه في النوازل والفتيا والأحكام، موثق بارع مقتدر على الترسيل فصيح بليغ سيال القلم خطيب مصقع، بل أخطب أهل زمانه».[88]

وله من المؤلفات : شرح على منظومة الأخضري في المنطق، وله أبحاث وتحقيقات وفوائد متفرقات وخطب بليغة. توفي بمكناس عام عشرين ومائة وألف.

ومنهم أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد ـ الشدادي الشريف الحسني الإدريسي العمراني : (كان مفتي الأنام، وأعدل قضاة الزمان.. متبحرا في الفقه والنحو والحديث والتفسير... مرجوعا له في النوازل، له نظر في الفقه لا يجارى ولإدراكه من حقائق مشكلاته الشأو الذي لا يدرك).

توفي سنة 1146 هـ.

88) الإتحاف لابن زيدان ج 1 ص 342.

المبحث الثاني

عطاء المدرسة اليوسية

ثبت بآثار المدرسة اليوسية

أبو عبد الله محمد بن ناصر الدرعي

1)	الفهرسة	مخطوطة. الخزانة العامة 1443 ك
2)	الأجوبة الناصرية عن بعض مسائل البادية	مخطوطة. خزانة زاوية تنعملت تحت رقم 39 والخزانة العامة 1111 د
3)	الرحلة الناصرية	الخزانة العامة 86 ك / 1291 د
4)	سيف النصر على كل ذي بغي ومكر	منظومة في 58 بيتا مخطوطة الخزانة العامة 1374 د
5)	مناسك الحج	مخطوطة الخزانة العامة 381 ق

أبو عبد الله محمد المرابط الدلائي

6)	فتح اللطيف على البسط والتعريف في علم التصريف وهو شرح على البسط والتعريف	مطبوع على الحجر بفاس سنة 1316
7)	المعارج المرتقاة إلى معاني الورقات (شرح)	مخطوط. الخزانة العامة 276 ك

8)	نتائج التحصيل في شرح التسهيل (شرح على التسهيل لابن مالك) في أربع مجلدات	
9)	شرح ألفية ابن مالك في مجلدين	
10)	البركة البكرية في الخطب الوعظية	مكتبة ابن غازي بمكناس
11)	الدرة الدرية في محاسن الشعر وغرائب العربية	
12)	ديوان شعر	

أبو عبد الله محمد بن سعيد المرغثي

13)	المقنع في التوقيت، أرجوزة اختصر فيها أرجوزة أبي مقرع محمد بن علي البطيوي	مخطوطة الخزانة العامة 2046 د 2214 د
14)	شرحا المقنع الكبير والصغير	مخطوطان الخزانة العامة 1119 ق 1178 ك / 2233 د
15)	الاشارة الناصحة لمن طلب الولاية بالنية الصالحة	أوردها العربي الدكالي في كناشته الخزانة العامة 91 جـ ص 244 إلى 252
16)	تحفة المحتاج في أكل الناس للدجاج (قصيدة)	الخزانة العامة 1418 ك
17)	المستعان في أحكام الأذان	
18)	قصيدة في المخمس الخالي الوسط	مخطوطة. الخزانة العامة 2215 د ضمن مجموع من 181 إلى 194
19)	رسالة في الأمر بالمعروف	مخطوط. الخزانة العامة 2106 د ضمن مجموع
20)	اختصار سيرة اليعمري	
21)	فهرسة العوائد المزرية بالموائد	مخطوط. الخزانة العامة 285 د

22)	قصيدة في مناسك الحج	مخطوطة. الخزانة العامة 381 ق ضمن مجموع
23)	الفهرسة	
24)	نظم في الربع المجيب	مخطوطة. الخزانة العامة 358 د

أبو محمد عبد القادر الفاسي

25)	أجوبة	مطبوعة على الحجر. خزانة دار الحديث الحسنية 2388
26)	مسائل وأجوبة مختلفة	مخطوطة الخزانة العامة 1228 د ضمن مجموع من ورقة 1 إلى 41
27)	أرجوزة في الأشهر	مخطوطة. الخزانة العامة 1013 د
28)	رسائله إلى المولى اسماعيل	يوجد البعض منها منشورا في مجلة تطوان العدد الخاص بمولاي اسماعيل
29)	نتيجة المقدمات المحمودة في الرد على زاعم ملكية وادي مصمودة	مخطوطة. الخزانة العامة 153 د

أبو العباس أحمد بن سعيد المجيليدي

30)	اختصار المعيار للونشريسي في مجلد ضخم	مخطوط. الخزانة العامة 705 ق
31)	شرح على مختصر خليل سماه أم الحواشي	
32)	التيسير في أحكام الحسبة	

أبو مهدي عيسى السكتاني

33)	شرح عقيدة أهل التوحيد الصغرى للسنوسي	مخطوط. الخزانة العامة 324 د
34)	فتاوي كثيرة	مخطوط. الخزانة العامة 265 خ
35)	شرح على صغرى الصغرى	

عبد العزيز الرسموكي

36)	منظومة في الحساب	مخطوطة. الخزانة العامة 1531 د

أبو علي الحسن بن رحال

37)	تضمين الصناع	مخطوط الخزانة الحسنية 5632 / الخزانة العامة 1418 د
38)	شرح مختصر خليل في ستة أسفار	يوجد منها الأول والثالث والرابع والسادس بالخزانة العامة 886 ك 824 ك ويوجد بزاوية تنغملت 101
39)	اختصار شرح الشيخ الأجهوري على مختصر خليل	
40)	حاشيته على شرح ميارة على التحفة	مخطوطة الخزانة العامة 1274 جـ / 852 ك
41)	حاشية على شرح الخرشي لمختصر خليل في 4 ملجدات	
42)	فتح الفتاح على المختصر	الخزانة العامة 523 ق
43)	الإرفاق في مسائل الاستحقاق	مخطوط الخزانة العامة 1079 ضمن مجموع من الورقة 49 إلى 77
44)	يتيمة العقدين في منافع اليدين	
45)	منحة الرحمن لحملة القرآن	زاوية تنغملت 242
46)	رفع الالتباس في مسائل الخماس	مخطوط. الخزانة العامة 887 جـ
47)	أجوبة مجموعة	الخزانة العامة
48)	تأليف في منافع القرآن وغيره من الصلوات والأدعية	خزانة تنغملت

أبو العباس أحمد الهشتوكي

(49	كشف الرموز (شرح منظوم للقصد الخزرجية)	مخطوط الخزانة العامة. 1653 ضمن مجموع (46 ـ 56)
(50	شرح على السُّلَّم المُرَوْنَق للأخضري في المنطق	
(51	فتح العَلاَّم في شرح قواعد الإسلام	
(52	ذيل في التاريخ (منظومة في 75 بيتا ذيل بها منظومة أخرى له)	الخزانة العامة 1594 د ضمن مجموع (1 ـ 2)
(53	التحفة في علم النحو صغرى وكبرى	
(54	شرح الجمل لابن المُجْرَاد	
(55	هداية المَلِك العلاَّم إلى بيت الله الحرام	مخطوط الخزانة العامة 190 ق
(56	قرى العجلان على إجازة الأحبة والاخوان	ذكره عبد الحي الكتاني وبين مضمونه في فهرس الفهارس ج 2 ص 423
(57	إنارة البصائر في ذكر مناقب ابن ناصر وأتْبَاعه الأكابر	
(58	الرحلة الحجازية	
(59	شرح مساعدة الإخوان لأبي عبد الله ابن ناصر	
(60	أرجوزة التقاط اللؤلؤ والمرجان في تحريم الدخان	
(61	جواهر المعاني فيما يتعلق بأحكام الروح النوراني	

محمد بن أبي العباس أحمد المسناوي

الرقم	العنوان	المصدر
62)	جهد المقل القاصر في نصرة الشيخ عبد القادر	مخطوط الخزانة العامة 579 جـ
63)	القول الكاشف في أحكام الاستنابة في الوظائف	مخطوط الخزانة العامة 1995 ضمن مجموع (346 ـ 402)
64)	نصرة القبض والرد على من أنكر مشروعيته في صلاة النفْل والفرض	مطبوع
65)	صرف الهمة إلى تحقيق معنى الذمة	مخطوط الخزانة العامة 2438 ضمن مجموع (41 ـ 45)
66)	التعريف بالأشراف الأدارسة الجوطيين	مخطوط الخزانة العامة 537 د
67)	التعريف بالشيخ أبي العباس اليمني	مخطوط الخزانة العامة 471 د / 1914 د
68)	تقييد مشتمل على فروع بني عمران	مخطوط 1632 ك
69)	جواب عن سؤال من فاتته صلوات في عمره ولا يحصيها	مخطوط الخزانة العامة 2438 د ضمن مجموع ص 132
70)	نتيجة التحقيق في بعض أهل النسب الوثيق	مطبوع على الحجر بفاس
71)	تقريظ على مطالع الإشراق في نسب الشرفاء الواردين من العراق	الخزانة العامة 2436 د 2438 د ضمن مجموع (3 ـ 5)
72)	جواب على سؤال عن معنى قول القائل (الله في كل مكان)	مخطوط الخزانة العامة 2436 د ضمن مجموع (3 ـ 5)
73)	فوائد في التصوف	مخطوطة الخزانة العامة 984 د
74)	شرح نظم المراصد لأبي حامد العربي الفاسي	

75)	تقريظ على إجازات علمية وظهائر ملكية لعبد الواحد البوعناني	مخطوطة الخزانة العامة 2436 ضمن مجموع ص 9
76)	جواب عما يقع في زمان المسغبة من كثرة السؤال	الخزانة العامة 1081 د ضمن مجموع (139 ـ 141)

عبد السلام بناني

77)	رسالة في حُكْم الاِجْتِماعِ للذِّكْرِ وما يقع للقارئ من الاقتطاع	مخوطة الخزانة العامة 1854 د ضمن مجموع من (52 إلى 53)
78)	في ألفاظ الذكر	
79)	شرح الاكتفاء	

الحاج علي بركة التطواني

80)	أجوبة	مخطوطة الخزانة العامة 3288 ك
81)	شرح على الأجرومية	مخطوط الخزانة العامة 2223 د
82)	مناسك الحج	مخطوط الخزانة العامة 2150 د
83)	جواب له مع جماعة من علماء فاس بإبطال ما استظهر به يهودها من عهد منسوب إلى الرسول ﷺ	مخطوط الخزانة العامة 2120 د
84)	تذكرة المشتاق في علم التكسير والأوفاق	مخطوط الخزانة العامة ضمن مجموع (80 ـ 97)
85)	منظومة في التوسل	المكتبة العامة بتطوان ضمن مجموع رقم 463

86) حاشية على شرح المكودي لألفيه ابن مالك — مخطوط الخزانة العامة 489 د

محمد السوسي المنبهي

87) شرح على منظومة الأخضري في المنطق

عبد السلام القادري

88) نَظْم مختصر السنوسي في المنطق — الخزانة العامة 310 د

89) التماس البركة في أجوبة سيدي الحاج علي بركة — مخطوط الخزانة العامة 1082 د ضمن مجموع

90) نيل القربات بأهل العقبات (منظومة) — مخطوطة الخزانة العامة 1039 ق ضمن مجموع

91) الإشراف على نسب الأربعة الأشراف — مخطوط الخزانة العامة 487 د

92) الدرالسني فيمن بفاس من النسب الحسني والحسيني — ممخطوط الخزانة العامة 1456 د

93) أرجوزة في نسب القادريين وشجرتهم — مخطوط الخزانة العامة 1630

94) معتمد الراوي بمناقب سيدي أحمد الشاوي — مخطوط الخزانة العامة 777 د

95) المقصد الأحمد في مناقب سيدنا عبد الله معن بن أحمد — مخطوط الخزانة العامة 445 ق/576 ك ويوجد مطبوعا أيضا

96) التحفة القادرية في مناقب عبد الله الشريف الوزاني — الخزانة العامة 2321 ك

97) نزهة الفكر في مناقب الشيخين سيدي محمد ووالده سيدي أبي بكر

98)	أحكام المعروف من أحكام الظروف	الخزانة العامة 310 د
99)	أداء الحقوق في إبداء الفروق	الخزانة العامة 487 د
100)	نـزهـة البـادي وصرف البـادي في أهـل القرن الحادي عشر	
101)	تتيم الأفراح بتنعيم الأرواح	الخزانة العامة 487 د

أحمد بن يعقوب الولالي

102)	لـوامـع النظر في تحقيـق معــاني المختصر وهــو شرح على مختصر السنــوسي في المنطق	مخطوط الخزانة العامة 341 د
103)	شرح على جمل الخونجي	
104)	شرح على منظومة الأخضري	الخزانة العامة 326 د
105)	مباحث الأنوار في أخبار الأخيار	الخزانة العامة 342/2305 ق
106)	شرح رسالة السيد الجرجاني	
107)	شرح على تلخيص المفتاح	
108)	شرح على لاميـة الأفعــال في التصريف لابن مالك	
109)	أشرف المقاصد في شرح المقاصد	الخزانة الحسنية 2594
110)	شرح على روضـة الأزهــار في التـوقيت للجادري	
111)	حاشية على المَحَلّي	

ابن زاكور

112)	عنوان النِّفَاسَة في شرح ديوان الحماسة	الخزانة الحسنية 354/ الخزانـة العـامـة 158
113)	مقيـاس الفـوائـد في شرح مـا خفي من القلائد	الخزانة الحسنية 2886

114)	تفريج الكرب عن قلوب أهل الأدب في معرفة لامية العرب	مطبوع
115)	النفحات الآرجية والنسمات البنفسجية بنشر ما راق من قصائد الخزرجية	الخزانة الحسنية 2133/6010 ك الخزانة العامة
116)	الصنيع البديع في شرح الحلية ذات البديع	يعني بديعية صفي الحلي
117)	الجود بالموجود في شرح المقصور والممدود لابن مالك	
118)	المعرب المبين عما تضمنه الأنيس المطرب وروضة النِّسْرِين	مطبوع 1. الخزانة العامة 3412 د
119)	الاستشفاء من الألم في التلذذ بذكر صاحب العلم	الخزانة الحسنية 1585
120)	انفع الوسائل في أبلغ الخُطَب وأبدع الرسائل	
121)	الروض الأريض في بديع التوشيح ومنتقى القريض	الخزانة الحسنية 1503
122)	الروضة الجنية في ضبط السنة الشمسية	
123)	معراج الوصول في سماوات الأصول وهو نظم الورقات	
124)	الحسام المسلول في قصر المفعول على الفاعل والفاعل على المفعول	
125)	نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان	مطبوع
126)	الدرة المكنوزة في تبديل الأرجوزة يعني أرجوزة ابن سيناء في الطب	
127)	الحُلَّة السِّيَرَاء في حديث البراء	

128) شرح على سينية ابن باديس

129) شرح على همزية البوصيري

وبالنظر إلى هذه المجموعة من مؤلفات المدرسة اليوسية وعطاء شيوخ اليوسي وتلاميذه نلمس حيوية ونشاط الفكر المغربي، ونجد الدليل القاطع على أصالته وخصوبته، ذلك أن هذه الآثار وما يضاف إليها من تراث العلماء الذين عاصروا اليوسي لم يكن من المنتظر أن تظهر بتاتا في تلك الفترة، اعتبارا لما حل بالمغرب ما بين سقوط الدولة السعدية وقيام الدولة العلوية من حروب أهلية ومشاكل اقتصادية واجتماعية وفتن وقلاقل خلقتها أوضاع داخلية متدهورة وأطماع أجنبية متآمرة. فنشطت الأفهام والأقلام للتأليف وكان العطاء غزيرا وممتازا.

إن المستوى العلمي لهذا الجزء القليل من تراث هذه الفترة التاريخية التي ندرسها بلغ من العلو مبلغا يثير العَجَب، وإن مستوى علمائنا في نفس المرحلة ليدعو إلى الفخر إلا أن ظاهرة مثل هذه لا ينبغي أن نمر عليها دون محاولة تفسيرها والاجتهاد في بيان أسبابها. ولعل فيما قدمناه في الفصول السابقة وخصوصا الباب الأول من هذه الرسالة ما يعين على التفسير والبيان : عرضنا هنالك وجوها كثيرة من التشجيع والرعاية والمدد وغير ذلك من أنواع الدعم الذي كان يجده العلم والعلماء في ملوك الدولة العلوية، كما أشرنا إلى الدّور الفعال الذي قامت به الزوايا.ونريد أن نذكر هنا تعليلا خاصا لهذه الظاهرة وهو أن العصر كانت تهيمن عليه الأفكار الصوفية، وجُلُّ العلماء الذين ترجمنا لهم وذكرنا آثارهم كانوا كغيرهم من معاصريهم منصرفين عن واقعهم المادي إلى عالم الروح والعلم. وهذه الحال قللت من التأثير السيء الذي كان من المتوقع أن يحدثه فساد الأوضاع على نفوسهم وعقولهم وهممهم.

ولقد رأينا في الفصل الخاص بحياة اليوسي كيف كانت تمر عليه أيام وهو بسجلماسة وهو لا يذوق الطعام من الصبح إلى الغروب لتنقله بين المجالس العلمية. وهذا الانصراف الكلي لطلب العلم بالإضافة إلى النشاط في عبادة الله عز وجل من شأنهما أن يعطيا للفكر والنفس مناعة خاصة ضد القلق والبلبة وغير ذلك من آثار الفتن والأحداث. واليوسي نموذج من علماء تلك الحقبة، وهم يشبهونه من أمور كثيرة بحكم المعاصرة ومن جملة ما يشبهونه فيه هذا السمو في الشواغل والميول، والعلو فوق دنيا المطامع والأهواء.

وهناك ظاهرة أخرى تحتاج أيضا إلى وقفة وتفسير : وهي أن معظم آثار شيوخ اليوسي وتلاميذه وغيرهم من معاصريهم إنما هي عبارة عن شروح وحواشٍ ومنظومات، وخلافا لما ذهب إليه بعض الباحثين من أن مثل هذه الظاهرة إذا وجدت في مرحلة من مراحل التاريخ الفكري لأُمة من الأمم كانت قرينة على ضعف تلك المرحلة وتحجر فكر أهلها، فإننا نرى أن مرحلة الشروح والحواشي ليست مرحلة ضعف ولا تحجر للأسباب التالية :

الشروح والحواشي والمختصرات مراجعة عامة تتناول ما سبق من عطاء الأمة وتحاول جمع شتات تراث السابقين وتنظيمه وتسهيل هضمه والتنقيب فيه على المباحث البكر التي تحتاج إلى التأليف والدراسة. كما أنها قد تكون عملية مقارنة وتقريب بين الأقوال المتضاربة، بدراسة مفصلة، تعتمد على تحليل الأثر وبحث جزئياته. وهذا في حد ذاته عمل يحتاج إلى سعة في الاطلاع ونشاط في الفكر وقدرة على البحث.

ب - إنها عظيمة الفائدة إذا وجدت من يحسنها.

جـ - كما أنها قد تمهد لمرحلة من النهضة العلمية والفكرية.

ولعل كثرة الحواشي والشروح والمختصرات من شأنها أن تزيد في قيمة العطاء الفكري لعصر اليوسي لاسيما وأن علماء هذا العصر لم يقتصروا عليها بل ألفوا تآليف كثيرة دلت على أصالة واقتدار.

ولعل الذي يغري بعض العلماء بوضع شرح أو حاشية على كتاب معني هو قيامه في الغالب بتدريس ذلك الكتاب. ولذلك كثر هذا النوع من التأليف بازدهار التدريس.

☆ ☆ ☆

ويظهر من ثبت آثار اليوسي وتلاميذه أنهم كانوا مشاركين مشاركة قوية من كثير من الفنون. فليس هناك علم مخصوص يستأثر باهتمامهم. وإنما هناك فنون كثيرة وعلوم متنوعة. فمع كتب الفقه والحديث وجدت كتب المنطق واللغة والتصوف والطب... وهكذا.

إلا أننا إذا نظرنا إلى ثقافة هؤلاء الشيوخ والتلاميذ نجد أن علم الفقه على مذهب مالك هو اختصاصهم جميعا. فما منهم إلا من حصل أصوله واستوعب فروعه، وأتقن مسائله، ومهر فيه دراسة وتدريسا وقضاء وإفتاء، وبخصوص الحديث الشريف نسجل أنهم كانوا يروونه بأسانيد عالية وطرق كثيرة متنوعة، ويرحلون في طلبه، ويحرصون على الإجازة فيه.

خاتمة

عرضنا في الفصول السابقة جوانب من حياة المجتمع المغربي خلال عصر اليوسي، وحاولنا أن نربط بين اليوسي وبين عصره وأن نلقي ضوءا جديدا على عوامل التأثير والتأثر بينه وبين بيئته، ثم حاولنا أن ندرس شخصيته بما هدانا إليه التأمل في آثاره، والتحليلُ العلمي المنهجي لما تجمع لدينا من أخبار عنه وعن الوسط الاجتماعي والثقافي الذي عاش فيه.

وإذا كان من المعلوم في علم الفلسفة أن الكل يغاير أجزاءه ويخالف عناصره، فإن النتائج التي يمكن أن يتوصل إليها الباحث وإن كانت مبنية على معلومات معروفة فإنها تكتسب مع ذلك صفة الجِدَّة والطرافة لأن الرابط بين الأفكار والأخبار يكشف الحجب عن فُهُوم جديدة ومدركات ومعاني مفيدة.

وهكذا ففي حديثنا عن الحياة السياسية وجدنا أخبارا متفرقة عن الصراع بين أبناء المنصور الذهبي فيما بينهم من جهة وبين الزعماء السياسيين الخارجين عن الدولة السعدية من جهة أخرى، فربطنا بين هذه الأخبار ما تَحَصَّلَ لنا به فهم طبيعة ذلك الصراع وأسبابه ونتائجه، ثم أوضحنا الظروف التي نشأت فيها الدولة العلوية، ثم سرنا مع خطوات ملوكها على درب الجهاد في سبيل توحيد المغرب وتحريره، وإنقاذه من بؤرة الفساد التي أهوته فيها أيادي الطامعين العابثين من رؤوس الفتنة وأصحاب الأغراض.

وحديثنا عن السياسة لم يكن بمعزل عن دراستنا لحياة اليوسي وشخصيته بل كان قريبا منه كل القرب.

وفي حديثنا عن اليوسي في بيئته وعصره كنا نستشف من خلال شخصيته واقع الفكر المغربي في ذلك العصر بخصوصياته، وطبيعته وارتباطه بوسطه، وتفاعله بما كان في العالم الإسلامي في ذلك العصر.

وقمنا بقراءة فاحصة لآثار اليوسي وقدمنا نماذج منها واستطعنا أن نتعرف من تفاصيلها على اهتمامات الفكر المغربي في ذلك العصر ومستوى البحث العلمي والإبداع الأدبي. ورأينا في غير ما مناسبة خدمة هذا الفكر لقضايا المجتمع واهتمامه بمشاكله، ومناقشتها مناقشة علمية، وإبداء الرأي فيها في شكل فتوى أو تأليف أو منظومة أو غيرها. وترجمنا للعديد من الشيوخ والتلاميذ، وذكَرنا تآليفهم لنجمعهم مع اليوسي في صعيد واحد، نموذجا من الفكر المغربي في هذه الفترة من تاريخ المغرب.

ولقد مررنا بعلامات ومعالم في الطريق تستدعي كل واحدة منها بحثا خاصا ووقفة طويلة لتجلية ما تشير إليه من حياة الأشخاص أو المجتمع أو الفكر، ونحن وإن لم تتوسع فيها فإنها بقيت تدل على ما يمتاز به البحث في شخصية اليوسي من غِنىً، وما يفتحه من آفاق.

وبقي أن نشير في هذه الخاتمة إلى أن أصل هذا الكتاب رسالة كنا تقدمنا بها إلى دار الحديث الحسنية لنيل شهادة الدراسات العليا في العلوم الإسلامية. ومع مرور أكثر من عقد من الزمان على تقديمها فإننا عند الطبع لم نتدخل عليها تغييرا يذكر، اللهم إلا ما كان من تقديم بعض الفقرات في بعض الفصول وتأخير بعضها مراعاة للسياق. وإضافة بعض النماذج الجديدة من آثار اليوسي كنا تركناها خشية الطول. أما ما عدا ذلك فالكتاب مطابق للنسخة التي أودعناها في خزانة دار الحديث الحسنية منذ سنة 1974.

نحمد الله تعالى حمدا لا ينتهي أمده، ونشكره سبحانه شكرا لا ينقضي عَدَده، فإن هذا الكتاب بدأ بتوفيقه وانتهى بمنه وكرمه وفضله وعونه. ولولا هذا التوفيق والفضل من الله ما تم شيء منه لكثرة الشواغل ووفرة الصوارف، إضافة إلى ما فينا من ضعف وجهل، وما بِنَا من نقائص نستحي معها أن ننتسب إلى العلم بَلْهَ أن نؤلف فيه.

فالله نسأل أن ينشر علينا رداء ستره، ويعاملنا بفضله، فيجعل جزاءنا على النية لا على العمل، فإنما الأعمال بالنيات. وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه.

فهرس الموضوعات

فهرس المصادر

1 ـ الأنيس المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب لابن الطيب العلمي. مطبوع طبعة حجرية. بمدينة فاس سنة 1305 هـ خ. د 1 ج 3217. ونسخته المخطوطة بالخزانة الحسنية تحت رقم 3493.

2 ـ إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس. لمولاي عبد الرحمن بن زيدان. مطبوع بالمطبعة الوطنية بالرباط. سنة 1347 ـ 1929.

3 ـ الأعلام. لخير الدين الزركلي. الطبعة الثانية (1373 ـ 1954).

4 ـ إيليغ قديماً وحديثاً لمحمد المختار السوسي. مطبوع بالمطبعة الملكية بتحقيق محمد عبد الله الروداني.

5 ـ التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار أعيان المائة الحادية والثانية عشر. لأبي عبد الله محمد بن الطيب القادري. مخطوط. خ.ع. 676 د.

6 ـ أمراؤنا الشعراء لعبد الله كَنون الحسني. مطبوع بتطوان.

7 ـ ابتهاج القلوب بخبر الشيخ أبي المحاسن وشيخه المجذوب لأبي زيد عبد الرحمن الفاسي خ.ع 2386 ك.

8 ـ الاعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام في خمسة أجزاء. مطبوع بفاس (1356 و 1937).

9 ـ اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر لأبي سالم العياشي، مخطوط بالخزانة الحسنية 6726.

10 ـ الإشارة الناصحة لمن طلب الولاية بالنية الصالحة، لأبي عبد الله محمد بن سعيد المرغثي، مخطوطة خ.ع 91 ج.

11 ـ الأنوار السنية في نسب من بسجلماسة من الأشراف المحمدية لأحمد بن محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن يوسف بن علي الشريف العلوي. مطبوع.

12 ـ إحراز الخصل لتحرير مسائل القول الفصل في الفرق بين الخاصة والفصل، لعمر بن عبد الله الفاسي مخطوط. الخزانة الحسنية 9543.

13 ـ البستان الظريف في دولة مولاي الشريف لأبي القاسم الزياني، مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط رقم 242.

14 ـ البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية لأبي الربيع سليمان بن محمد مخطوط في 728-صفحة خ.ع. 1454 د.

15 ـ بغية الرائي في التعريف بالشيخ أبي عبد الله محمد الدلائي. مخطوط خ.ع 2996 ك.

16 ـ الجيش العرمرم الخماسي. لأبي عبد الله محمد بن أحمد كنسوس. مطبوع على الحجر بفاس سنة 1336 هـ خ.ح 3295. ونسخته المخطوطة بالخزانة الحسنية تحت رقم 26.

17 ـ جامع بيان العلم وفضله لأبي عمر بن عبد البر ـ مطبوع ـ.

18 ـ الدرر المكنونة الغالية في وصف أهل الدولة العلوية العالية لأبي حامد العربي بن عبد السلام. مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط 1439.

19 ـ الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة لمولاي عبد الرحمن بن زيدان. مطبوع بالمطبعة الاقتصادية بالرباط سنة 1937.

20 ـ دليل مؤرخ المغرب الأقصى عبد السلام بن عبد القادر بن سودة المري في جزئين، الطبعة الثانية 1960.

21 ـ الدرر المرصعة في أخبار درعة لمحمد بن موسى بن محمد بن محمد بن ناصر. مخطوط خ.ع 265 ك.

22 ـ دوحة البستان ونزهة الإخوان في مناقب الشيخ سيدي علي بن غبد الرحمن، مخطوط خ.ع 320 د.

23 ـ دفتر فقهاء الأشراف والطلبة أولاد مولاي علي الشريف لمؤلف مجهول. الخزانة الحسنية 107.

24 ـ واسطة العقدين وهي كناشة للمولى إسماعيل.

25 ـ الوسيط في تراجم أدباء شنقيط لأحمد بن الأمين الشنقيطي. مطبوع.

26 ـ الزاوية الدلائية لمحمد حجي مطبوع سنة 1964. وهي رسالة نال بها المؤلف شهادة الدراسات العليا من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.

27 ـ الزاوية الحمزية ـ تقرير للأستاذ محمد المنوني، مطبوع.

28 ـ حدائق الأزهار الندية في التعريف بأهل الزاوية الدلائية. منظومة لمحمد الفقيه بن اليازغي. مخطوطة بالخزانة العامة ضمن مجموع رقم 261 د من ص 1 إلى 11.

29 ـ الحلل البهية في مدح ملوك الدولة العلوية لمحمد بن مصطفى الحسني المشرفي، الخزانة الحسنية تحت رقم 1019.

30 ـ الحسام المشرفي لقطع لسان الساب العجرفي الناطق بخرافات الجعسوس سيء الظن أكنسوس للعربي المشرفي ـ الخزانة العامة 2276 ك. مخطوط.

31 ـ حكم بيع العبيد المجلوبين من السودان لأبي العباس أحمد باب الصنهاجي التمبكتي. مخطوط خ.ع 1079.
32 ـ الطبقات للحضيكي. مخطوط خ.ع.2328 ك.
33 ـ طبقات ابن سعد، مطبوع.
34 ـ طلعة المشتري لأحمد الناصري السلوي.
35 ـ الكتاب الذهبي لجامعة القرويين. من منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب.
36 ـ كناشة العربي الدكالي، مخطوطة بالخزانة العامة وتحت رقم 91 ج.
37 ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة. مطبوع.
38 ـ كناشة عبد الرحمن المدغري. مخطوطة خ.ع 3634 د.
39 ـ كناشة اليحمدي، مخطوطة، الخزانة الحسنية 2272.
40 ـ المفاخر العلية والدرر السنية في الدولة العلوية الحسنية للشيخ عبد السلام اللجائي مخطوطة بالخزانة الحسنية تحت رقم 460.
41 ـ المنزع اللطيف في التلميح بمفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف لمولاي عبد الرحمن ابن زيدان. مخطوط بالخزانة العامة رقم 595 ج.
42 ـ المعسول لمحمد المختار السوسي، في واحد وعشرين جزءاً، مطبوع بالدار البيضاء سنة 1381 هـ.
43 ـ المقالة المرضية في الدولة العلوية لعبد الرحمن بن المواز. مخطوط بالخزانة الحسنية تحت رقم 493.
44 ـ معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة في خمسة عشر جزءاً، مطبوع سنة 1376 ـ 1957.
45 ـ المنتخب من شعر ابن زاكور لعبد الله كَنون الحسني مطبوع بمصر سنة 1966.
46 ـ المجموع المخطوط رقم 270 ك بالخزانة العامة.
المجموع المخطوط رقم 2755 د بالخزانة العامة.
47 ـ المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن. مطبوع.
48 ـ مقدمة ابن خلدون. مطبوعة.
49 ـ المجموع المخطوط رقم 1418 ك.
50 ـ المجموع المخطوط رقم 612.
51 ـ مناقب سيدي علي العكاري مخطوط 88 د.
52 ـ مباحث الأنوار في أخبار الأخيار لأحمد بن يعقوب الولالي، مخطوط خ.ع 2305.

53 ـ مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث، مطبوع.

54 ـ المجموع المخطوط رقم 660.

55 ـ المنح البادية في الأسانيد العالية لأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي، مخطوط الخزانة الحسنية 1564.

56 ـ نوازل الشريف العلمي، مخطوطة خ.ع 832 ك.

57 ـ نسبة الأس في حجة سيدنا أبي العباس (أحمد بن محمد الشهير بابن عبد الله خ.ع 1418 ك.

58 ـ نشر أزاهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان لمحمد بن زاكور مطبوع بالمطبعة الملكية بالرباط سنة 1387 هـ خ.ع.24216.

59 ـ نفحات الشباب للروداني، نشره المختار السوسي في كتابه المعسول، الجزء 18 وهو مطبوع بالدار البيضاء سنة 1381 ـ 1962.

60 ـ نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني. لابن الطيب القادري مطبوع طبعة حجرية بفاس سنة 1310 خ.ع 1453 د، خزانة دار الحديث الحسنية 3218.

61 ـ نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي لأبي عبد الله محمد الصغير اليفراني، مطبوع طبعة حجرية بمدريد سنة 1889 اعتمدنا على النسخة المخطوطة خ.ع 1495.

62 ـ النبوغ المغربي في الأدب العربي لعبد الله كَنون الحسني، مطبوع.

63 ـ سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس لمحمد بن جعفر ابن ادريس الكتاني. مطبوع طبعة حجرية خ.ع 2817 ويقع في ثلاثة أجزاء.

64 ـ الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى لأبي العباس أحمد بن خالد الناصري، في تسعة أجزاء. مطبوع بالدار البيضاء سنة 1956 بتحقيق وتعليق الأستاذين جعفر الناصري ومحمد الناصري.

65 ـ سوس العالمة لمحمد المختار السوسي. مطبوع بالمحمدية (1380 ـ 1960).

66 ـ سيف النصر على كل ذي بغي ومكر لأبي عبد الله محمد بن ناصر الدرعي، منظومة في 58 بيتا مخطوط خ.ع 1374.

67 ـ سنا المهتدي في اليحمدي لأبي الحسن علي الزرويلي مخطوط خ.ع 2365 د.

68 ـ العز والصولة في نظام الدولة لمولاي عبد الرحمن بن زيدان في جزءين وهو مطبوع. خ.ع 2248 د.

69 ـ عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن العاشر والحادي عشر لمحمد بن أبي بكر الشبلي الباعلوي خ.ع 1834 د.
70 ـ عجائب الآثار في التراجم والأخبار للجبرتي، مطبوع.
71 ـ فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات تأليف الشيخ عبد الحي الكتاني ج 1 ـ 2 مطبوع.
72 ـ فهرسة التاودي بن سودة خ.ع 725 وهي مخطوطة تقع في خمسين ورقة من الحجم المتوسط.
73 ـ فهرسة أبي القاسم بن سعيد الجابري. مخطوطة بالخزانة العامة 1361 ك.
74 ـ فهرسة محمد بن الحسن البناني مخطوطة خ.ع 1388 ك.
75 ـ فواصل الجمان في أبناء وزراء وكتاب الزمان لمحمد غريط، مطبوع.
76 ـ صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر لأبي عبد الله محمد الصغير اليفراني. مخطوط خ.ع 671.
77 ـ الرحلة الحجية لمحمد الكبير اليوسي، مخطوطة بالخزانة العامة ضمن مجموع تحت رقم 1418 ك من الورقة 69 إلى 106.
78 ـ روضة التعريف بمفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف لأبي عبد الله محمد الصغير اليفرني من جزء واحد مطبوع بالمطبعة الملكية سنة 1962. بتحقيق الأستاذ عبد الوهاب بن منصور، الخزانة الحسنية تحت رقم 2472.
79 ـ رسالة مولاي إسماعيل إلى علماء المشرق. مخطوطة ضمن المجموع رقم 3984 بالخزانة الحسنية.
80 ـ رسالة محمد بن أبي بكر الدلائي إلى علي بن أحمد بن موسى في شأن سجلماسة. مخطوطة خ.ع 91 هـ.
81 ـ رحلة أبي سالم العياشي مطبوعة على الحجر. دار الحديث الحسنية 2901.
82 ـ رحلة الهشتوكي مخطوطة خ.ع 147 ق.
83 ـ رسالة عن المهاجرين مخطوطة خ.ع 270 ك.
84 ـ الروض العاطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس لأبي عبد الله بن عيشون مخطوط خ.ع 1246.
85 ـ رسالة نجم الدين الطوفي في المصلحة المرسلة منشورة ضمن كتاب مصادر التشريع الإسلامي فيما لا نص فيه.
86 ـ الرحلة الناصرية. جزآن. مطبوعة طبعة حجرية بفاس سنة 1320 هـ.

87 ـ شرح رائية اليوسي لمحمد البكري بن محمد الدلائي. مخطوط بالخزانة الحسنية 852 ـ 2027.

88 ـ ترجمة محمد بن أحمد المسناوي الدلائي. للحوات الشفشاوني العلمي خ.ع 2210 د.

89 ـ تذكرة المحسنين في وفيات الأعيان وحوادث السنين للفقيه أبي محمد عبد الكبير ابن المجذوب بن عبد الحفيظ بن أبي مدين بن محمد بن عبد القادر الفاسي. مخطوط بالخزانة العامة ضمن مجموع رقم 270 ك.

90 ـ الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب لأبي القاسم الزياني مطبوع بباريس سنة 1886/1303. خ.ع.456.

91 ـ تحفة الأكابر بمناقب الشيخ عبد القادر لأبي زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي. مخطوط بالخزانة الحسنية تحت رقم 643.

92 ـ تاريخ الضعيف الرباطي لأبي عبد الله الضعيف، مخطوط خ.ع.2220 ك.

93 ـ تاريخ تطوان لمحمد داود مطبوع سنة 1959.

94 ـ ترجمة سيدي عبد السلام القادري لمحمد بن أحمد بن محمد بن عبد القادر الفاسي مخطوط بالخزانة العامة رقم 1234 ك.

95 ـ تاريخ المغرب للأستاذ عبد العزيز بنعبد الله ـ مطبوع ـ.

96 ـ تنوير الحوالك لجلال الدين السيوطي ـ مطبوع ـ.

97 ـ تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب لأبي القاسم الزياني الخزانة الحسنية 2471.

98 ـ الثغر الباسم لأبي سالم العياشي خ.ع.304 ك.

99 ـ خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر لمحمد المجبي في جزءين مطبوع بمصر سنة 1284 هـ، خزانة دار الحديث الحسنية رقم 3417 وخزانة الجامع الكبير بمكناس رقم 2182.

100 ـ خل وبقل لعبد الله كنون الحسني ـ مطبوع ـ.

101 ـ الخبر عن ظهور الفقيه العياشي بهذه البلاد وذكر سبب قيامه بوظيفة الجهاد مخطوطة خ.ع.91 د.

102 ـ ذكريات مشاهير رجال المغرب (ابن زاكور) لعبد الله كنون الحسني، مطبوع بتطوان.

المجلات

مجلة دعوة الحق . . . .   العدد الرابع، السنة العاشرة، مارس 1967.
عدد مارس، 1969
عدد اكتوبر، 1973
عدد يونيو، 1973

مجلة البحث العلمي . . . . .   عدد غشت، 1965
عدد يناير، 1972

مجلة تطوان . . . .   العدد التاسع، 1964

مجلة الفكر . . . .   نونبر، 1966

مجلة المغرب . . . .   مارس 1965، ونونبر 1936

رقم الإيداع القانوني : 1989/278

مطبعة فضالة - المحمدية (المغرب)